الدكتور خالد

الحلقة الثانية من قصة أزهار

١٩٦٤

أحمد حسين

الدكتور خالد

الحلقة الثانية من قصة أزهار



الإهـــداء

◉ إلى أخي

قديس الوطنيـة وشهيدها الدكتور مصطفى الوكيل ،
الذي ألهمني قصة الدكتور خالد .

◉ إلى إخواني الأقربين

الذين كانوا نعم العوض بعد فقدان الشهيد .

◉ إلى الجيـل الصـاعد أقـدم

صفحات من المثل العليـا وحياة اليقين .

الجزء الأول

الجــذوة

الفصل الأول

١

لم يكن فجر الخامس والعشرين من أغسطس عام ١٩٣٩ قد تنفس بعد عندما راح فوزى السيد رئيس حركة البعث المصرية يتقلب على فراشه فى الطرف القصى من شمال البلاد ، عند ملتقى النيل بالبحر حيث أقيم مصيف رشيد .

ونظر إلى عروسه الراقدة إلى جواره فى حنان وحب وهو يسمع أنفاسها تتردد فى هدوء وانتظام ، وتَنَـهد فى حزن وأسى . لم يكن قد نام فى ليلته إلا غرارا فقد عكرت عليه صفوهنائه الأخبار المذهلة التى روعت الدنيا كلها وحملته على أن يقرر قطع شهر عسله ، وأن يعود إلى القاهرة ليكون مع إخوانه فى هذه الظروف العصيبة .

كان كل شىء يدل على أن الحرب العالمية الثانية ، التى كان العالم يرتعد فزعا من فكرة وقوعها ، قد أصبحت على وشك الوقوع ، بعد هذا الإعلان المفاجىء لعقد ميثاق صداقة وعدم اعتداء ، بين الاتحاد السوفييتى ، وألمانيا النازية ، أو بالأحرى بين هتلر وستالين ، فقد كان الخيط الوحيد الباقى لإنقاذ السلام ، هو أن ينجح الحلفاء فى عقد محالفة مع الاتحاد السوفييتى لكبح جماح هتلر ، أما وقد سبقهم هتلر ونجح فيما فشلوا فيه ، فقد ضاع كل أمل فى إنقاذ السلام .

ويتقلب فوزى على الفراش من جديد فى حذر مخافة أن يوقظ زوجته ، ويسأل نفسه السؤال الذى ما فتىء يؤرقه ، ماذا سيكون مصير العالم إذا سلطت عليه وسائل الدمار الحديثة ؟ ما الذى سيحل بمصر المسكينة المعذبة باحتلال الإنجليز لها ، ويستطرد من هذا السؤال إلى السؤال الأخص ، ماذا سيكون مصير حركتهم بعد أن بدأت فى العامين الأخيرين تقوى وتشتد ، ويتجاوب معها الكثيرون من أبناء الشعب ، هل سيزج به وبإخوانه فى المعتقلات ؟ أم سوف تتاح لهم فرصة المساهمة فى الدفاع عن بلادهم ضد العدو الداخلى والخارجى ؟ أيقدر له أن يعيش إذا قامت الحرب ليشهد خاتمتها ، أم ستخترم حياته رصاصة طائشة أو شظية قنبلة ، أو يموت فى غارة جوية ؟

ولا ينقذ فوزى من قلقه وهمومه إلا أن يلحظ فجأة تسرب أشعة واهنة من الضوء من خلال خصاص جدران العشة المصنوعة من البوص ، إنه نور الصباح ، ويثب فوزى فى لهفة ليصلى الفجر .

ولم يستطع أن يرتل القرآن فى صلاته بصوت جهير كما هى عادته ، فقد كانت الحجرة التى أفردت له ولزوجته من العشة مصنوعة من البوص ، ولم يكن يحب أن يزعج أحدا من النائمين سواء من أسرة والده أو والدة زوجته ، فأدى الصلاة فى صمت ولكنه لم يحس لذلك بوحشة فقد كان هدير البحر المتواصل يعوضه عن هذه التراتيل ، فلم يكن هدير البحر فى نظره إلا نوعا من تسبيح الطبيعة وشهادتها الدائمة لخالقها .

وكان لهدير البحر فى نفس فوزى فعل السحر ، فهو يهدئها

ويهدهدها ويلاشى انفعالاتها ، ولطالما ظل الساعات الطوال لا يفعل شيئا إلا أن يسمع هذا الهدير وهو يراقب حركات الأمواج فى مدها وجزرها ، وهى ترتطم بالشاطىء الرملى فتمتص هذه الحركة الدائمة كل أحاسيسه الظاهرة والخفية فيظل يتابعها بالشعور واللاشعور معا .

وسار فوزى على أطراف أصابعه حافى القدمين منجذبا نحو البحر الذى يشجيه هديره وراح فى سيره يحاذر أن يوقظ أحدا ، ولكن أرضية العشة الخشبية راحت تئن تحت وقع قدميه ، بل وتهتز وترتج فيزعجه ذلك دون أن يصرفه عن غايته وهى الوصول إلى شرفة العشة الخارجية . . .

واستقبلت نسائم الصباح وأنواره الأولى وجه فوزى بمجرد خروجه إلى الشرفة ، وأحس على الفور بفرح الوجود يغشاه ويتملكه .

والتقت عيناه بالمنظر الأبدى الذى يفتنه ، منظر الأمواج وهى ترتطم بالشاطىء فتتحول إلى زبد ورذاذ كنتف القطن وزغبه ولوزاته ، ولم تلبث أشعة الشمس الأولى أن نفذت إلى قطرات الماء وجاعلة منها لآلىء وماسات تشع بشتى ألوان الطيف .

ونسى فوزى ، كدأبه دائما أمام منظر البحر اللانهائى وهديره وأمواجه ورذاذه ... كل شيء مما كان يدور فى خاطره ويعتلج فى صدره ، نسى الوزارة التى سقطت والوزارة التى وليت ، نسى الجيش والخطط الرامية لدعمه وقوته ، نسى الخاطر الذى استولى عليه فى الآونة الأخيرة ومافتىء يلح عليه ، وهو أن يتنازل عن زعامة الحركة إلى صديقه وخدنه الدكتور خالد ، تلاشت الآمال والأمانى وذابت الرغبات ، بل

تلاشت الهواجس والمخاوف التي تثيرها فكرة قرب اندلاع الحرب ، ولم يبق سوى الإحساس الواعي بالماء والهواء والرمال والحركة ، ولم يلبث الوعي بالموجودات المتباينة أن زال بدوره ولم يبق إلا الاحساس بالوجود المطلق ، وانعدام الحد الفاصل بينه وبين كل ما يحيط به مما يرى وما لا يرى .

على أن هذا الإحساس بالتلاشي لم يدم إلا أقل من لحظة ، فقد أيقظه صوت جميل حبيب إلى نفسه ، من سرحته :

— صباح الخير !

واحتضن فوزى زوجته وفاء فى لهفة ، ونظر إلى عينيها العسليتين فى شغف وعتاب :

— لماذا لم ترتد ... « روبك » ... إن برد الصباح قد يؤذيك .

— وأنت . . . لماذا لم تخش على نفسك من برد الصباح ؟

— لقد مضى على أكثر من ساعة وأنا مستيقظ .

وأحاطت وفاء عنق زوجها بذراعيها وقالت له فى حنان :

— وكذلك أنا . . . لقد كنت أتظاهر بالنوم لكى لا أزيد فى قلقك ، وعندما استيقظت للصلاة ... صليت معك بكل قلبى وروحى ، وعندما خرجت إلى الشرفة أردت أن أشاركك الاستمتاع بهذه اللحظة الإلهية وأن أشهد معك شروق الشمس ، فقد لا تتاح لنا هذه الفرصة ثانية ، أو لسنا مسافرين الآن إلى مصر ؟

فقال فوزى فى لهفة :

— سأسافر أنا ، أما أنت فيجب أن تبقى لتستمتعى أكثر بماء البحر والهواء والشمس . . . ووضعت وفاء يدها فى رقة وحنان على فم فوزى لتحول بينه وبين الاسترسال وقالت له وهى تبتسم :

— يظهر أنك نسيت أننا قد تزوجنا ، وأن مكانى الطبيعى هو أن أكون حيث تكون . .

— ولكن سعادتك . . .

— سعادتى هى أن أكون إلى جوارك .

— أمصرة أنت على العودة معى هذا الصباح ؟

— وبغير هذا فلن أدعك تسافر . . إن شهر عسلنا الحقيقى سيبدأ فى بيتنا فى ، عشنا الجميل فى مصر .

وضم فوزى وفاء إلى صدره فى قوة وحنان معا ... والتقت شفاهها فى قبلة طويلة حارة وكأنها العهد والميثاق أمام هيكل الطبيعة على الوفاء والإخلاص إلى الأبد .

* * *

انطلقت السيارة مع شروق الشمس تحمل فوزى ووفاء وطاهية وصبيا صغيرا بعد أن تمت مراسيم الوداع وسط سيل جارف من الاحتجاجات من أفراد الأسرتين على اختزال شهر العسل إلى هذا الحد .

ولم تكن الحركة قد دبت بعد فى هذا القسم من شاطىء البحر ولذلك فقد انطلقت السيارة تمرق فى يسر ونعومة على الطريق المرصوف بين الرمال وسط هدير الأمواج ونور الصباح وزرقة السماء .

وانطلق فوزى يغنى استجابة لما كان يملأ نفسه من نشوة وسعادة

وفرح بالحياة ، ولم يكف عن الغناء الا عندما شعر بانه قد اقترب من الإسكندرية ، واستولى قصر المنتزه على اهتمامه ولم يلبث أن دخل فى زحمة الكورنيش ، ولم يسترد فوزى صفاء نفسه وراحة أعصابه إلا بعد أن استقبلوا الطريق الصحراوى المؤدى إلى القاهرة وهو يتلوى أمامهم صاعدا هابطا بين كثبان الرمال الصفراء كالثعبان الأسود وليس سوى سيارتهم التى تدرج فوقه .

ومال فوزى برأسه على أذن وفاء وقال لها :

— لا نريد أن نكرر هذه الفعلة الجنونية التى أقدمنا عليها عند حضورنا ، عندما كنت أبالغ فى السرعة وأنت تستحثيننى على المزيد منها . . . لقد جاوزت سرعتنا المائة كيلو فافتر ثغر وفاء عن ابتسامة رضا وسعادة لهذه الذكرى وألقت برأسها على كتفه وقالت له :

— لقد كانت رحلة ممتعة لن أنساها .

واحتج فوزى قائلا :

— أما أنا فكلما تذكرتها سرت القشعريرة فى بدنى . . كان من الممكن أن تنقلب السيارة بنا فى أى لحظة ..

— ولكنها لم تنقلب والحمد لله .

— إن هذا تهور لا أحب أن أكرره .

— يا عم العمر واحد والرب واحد ، أين شعارك الدائم « قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا » .

وأسقط فى يد فوزى وارتج عليه ، ولكن القلق ظل يناوشه :

— هذا صحيح ، ولكن ألم تشعرى بالخوف ؟

— ومن جديد أمالت وفاء رأسها على كتف فوزى وقالت له في دلال وحب :

— أنا لا أخاف من شيء مادمت بجوارك ...

— لا يا ستى يفتح الله . . . إن السرعة فى مثل هذه الظروف سخافة وتفاهة ، ولو لم أكن أسير ببطء منذ قليل لقتلت هذا الكلب المسكين ... لن أسير بأسرع من ٦٠ كيلو فى الساعة .

وقالت وفاء فى ابتسامتها الوادعة :

— افعل ما يحلو لك ، فأنا راضية دائما بما يرضيك .

وأحس فوزى بسعادة مترعة ووفاء توافقه على كل ما يقول أو يفعل وتحيطه بحنانها ودفئها .

وأشرفت السيارة على أحد المرتفعات حيث يهبط الطريق منها ملتويا إلى الأرض السوية فى سفحها ، وخيل لفوزى وهو فى قمة المرتفع أنه يوشك أن يطير فى السموات العلا وهمس فى أذن وفاء :

— ما أسعدنى بك يا وفاء . .

وغمغمت وفاء بكلمات لم يكن لدى فوزى متسع من الوقت أو الانتباه لتبينها فقد جنحت السيارة وهى منحدرة بسرعة من المرتفع واندفعت فى اتجاه اليمين نحو الرمال التى طالما سمع فوزى القول يتكرر أمامه أن عجلات السيارة لا تكاد تلمسها فى سرعتها حتى تنقلب رأسا على عقب ، فأسرع فى فزع يدير عجلة القيادة فى الاتجاه المضاد لانحراف السيارة ،

فإذا هى تنحرف فى جنون نحو يسار الطريق وقد زادها الانحدار سرعة على سرعة ، وعبثا حاول فوزى أن يعيد سيطرته على السيارة ويلزمها وسط الطريق وأحس بأنه يوشك أن يصاب ومن معه بكارثة ، وأسرع وسط الذهول والذعر الذى اعتراه يضغط على فرامل السيارة بقوة لإيقافها ، فلا يكاد يفعل حتى يحس بهزة عنيفة وصدمة مذهلة فقد كانت السيارة تنقلب بهم ، ودوت فى نفس فوزى كلمة رهيبة لم يكن يعرف أيقولها بلسانه وبصوت يسمعه من حوله أم أنها كانت تدوى فى أرجاء نفسه :

— حادثة ... حادثة ... حادثة !

وومض فى خاطره بآخر ما بقى لديه من إحساس وشعور :

— أتكون هذه هى النهاية ... هل انتهت روايتنا فصولا ؟

ومضت لحظات خيّل لفوزى فيها أن كل شىء قد توقف ... الزمان والمكان والحياة ... فلم يكن ثمة شىء سوى الظلام والعدم.



٢

لم يعرف فوزى كم من اللحظات مرت عليه قبل أن يعاوده الإحساس والشعور بأنه مقلوب ، ومحشور ، ومدكوك ، ومعووج ، وقد بدأت الخواطر المفزعة تتوارد على رأسه بسرعة البرق فتارة يتمثل نفسه والدم يسيل منه بغير أن يشعر ، أو بأحد أعضائه وقد كسر ، وإذا كان لا يحس ألما فى هذه اللحظات فليس ذلك إلا لما يقولونه من أنه « سارقاه السكينة » أو لم ير بعينى رأسه وهو صبى صغير وزة تعدو مسرعة بعد ذبحها ، لتسقط مترنحة بعد بضعة أمتار ... ووفاء ... وفاء الحبيبة ما الذى أصابها ودهاها ... إنه لا يسمع لها صوتا أو حسا ... أتكون قد ... وتقفز إلى رأسه صورة الطاهية ... ماهو مصيرها ؟.. وسعد الصبى الصغير ؟ ؟ وقطع عليه هذه الخواطر المفزعة ، إحساس يحفزه للحركة فراح يتحرك زاحفا على يديه من هذه النافذة المفتوحة إلى جواره ، ومرت ثوان وجد نفسه بعدها خارج السيارة وإن كان لا يزال منبطحا على وجهه ... لم يبدأ إحساسه بالألم بعد ، ولكن كان من المحقق أن عينيه لم يصابا بسوء فقد رأى كل ما يحيط به فى وضوح ، رأى الرمال الصفراء والسماء الزرقاء وهما يتلاقيان بعيدا عند الأفق والشمس الساطعة تبهر الأعين . . . ورأى الطريق الأسفلتى الأسود الملعون على بعد سنتيمترات من عينيه ، بل إن رائحة القار نفذت إلى خياشيمه ... إنه فى كامل وعيه . وتساند فوزى على يديه فإذا هو يثب

واقفا . . وهتفت روحه فى ذهول الله أكبر . . . الله أعظم . . فقد كان جسده سليما معافى . . لا دم . . . لا ألم . . . لا كسر .

واستدار فى لهفة نحو السيارة فأفزعه منظرها وقد أشبهت حيوانا قلب على ظهره وتحطم عموده الفقرى فارتفعت قوائمه الأربع فى الهواء .

واهتز كيان فوزى بكل الحياة الجديدة التى وهبت له مرة أخرى، خوفا ورعبا مما قد يكون ألم بوفاء التى لا تزال داخل هذه السيارة المقلوبة . . . وراح يبتهل فى حرارة :

— باسم الله الرحمن الرحيم . . . باسم الله الرحمن الرحيم .

واقترب من السيارة فى خطوات متثاقلة ورأسه تدور حتى ليكاد يقع مغشيا عليه وهتف فى صوت حائر خائر متقطع :

— وفاء . . .

وكأنما كان هذا الهتاف الخائر الحائر هو نفخة الصور ، فقد انبعثت من السيارة على أثره أصوات مختلفة متباينة سرعان ما ميز منها نشيج الصبى الصغير وهو يعول صائحا :

— ستى . . . ستى . . يا حبيبتى يا ستى .

ولو وقع نظر إنسان فى هذه اللحظات على فوزى وهو يسمع هذ العويل لملىء من منظره رعبا ، فقد علت وجهه صفرة الموت ، وجحظت عيناه وانفتح فمه وتدلى لسانه ، ومد يده داخل السيارة دون أن يجرؤ على مد بصره ، وهتف من جديد بآخر ما لديه من أنفاس توشك أن تقف :

— وفاء !

وأحس بيد تمسك بيده ، فأعاد ذلك إليه شيئاً من التماسك ، وراح يبتهل بطريقة آلية .

— بسم الله الرحمن الرحيم . . . بسم الله الرحمن الرحيم .

وجذب اليد الممسكة بيده بعد أن أدخل يده الثانية فأمسكت بها ثانية وراح يشد اليدين فانشدتا وبرزت رأس وفاء وصرخ فوزى :

— وفاء هل أنت بخير ؟

ولم تجب وفاء بل واصلت زحفها معتمدة على معاونته لها حتى إذا خلصت بجسمها من السيارة ، انتصبت واقفة وأسرع فوزى يتحسس جسدها بيديه وبنظره :

— أسليمة يا وفاء . . . ألا تحسين بألم . . . ألم تصابى بسوء ؟

وغمغمت وفاء بما لم يسمعه فوزى ، فقد اندفعت خواطره نحو اللذين لازالا داخل السيارة ، أتكون الكارثة من نصيب واحد منهما ؟ ووجد نفسه يبتهل من جديد مردداً تعويذته :

— بسم الله الرحمن الرحيم . . . بسم الله الرحمن الرحيم .

وبرزت رأس سعد الصبى الصغير وساعده فوزى على التخلص من السيارة والوقوف ، وتطلع كيان فوزى نحو السماء فى رجاء أخير أن تكون الطاهية قد سلمت بدورها وناداها بقلب واجف :

— سكينة . . . سكينة !

وتعلقت سكينة الطاهية باليد الممدودة . . . وخرجت كما خرج من سبقوها ، ووقفت بعد قليل على قدميها تنفض الرمال من ثوبها . . . لا دم . . . لا كسر . . . لا ألم .

ووقف فوزى فاغر الفم مذهول اللب يقلب البصر فيما يحيط به ... فى السماء والأرض . . فى السيارة المقلوبة . . . فى الجماعة الناجية ، وهو لا يكاد يصدق . . .

وتهاوى على الأرض من فرط الإعياء العصبى ، وأسرعت وفاء فى هلع إلى جانبه سائلة إياه عما يحس به فأجابها فوزى وهو يحيط خصرها بيده :

— أنا فى أحسن حال يا وفاء . . . لم أحس بالسعادة فى أى لحظة من لحظات حياتى كما أحسها الآن ، لقد أنجانا الله يا وفاء . . . لقد منحنا حياة جديدة . . . كيف أستطيع أن أشكره . . . كيف أستطيع أن أشكره ؟



٣

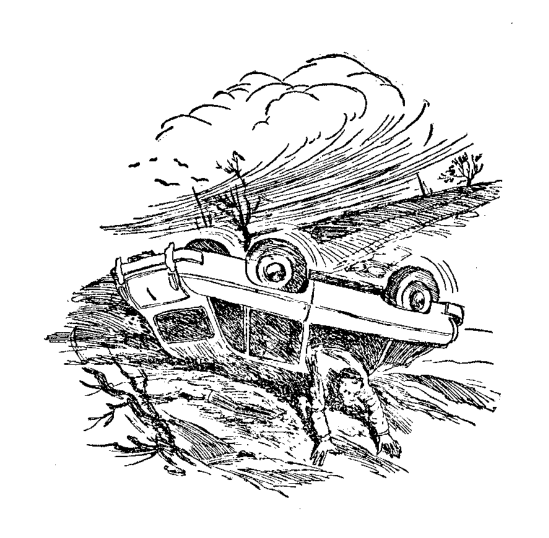
فتحت عطيات عينيها العسليتين و باعدت بين رموشها الطويلة ، بعد أن سرت فى بدنها قشعريرة البرد الذى يسود جو القاهرة عند الفجر ، وأعادت إسدال جلبابها الذى انزلق عن ساقيهـا وجذبت طرف الملاءة التى كان زوجها يلتحف بهـا فتغطت بهـا بعد أن ازدادت به قرباً والتصاقا . وكان غطيط زوجها يتصاعد فى اطراد وانتظام ، لم يعودا يثيران فى نفسها أى شعور خاص لكثرة ما ألفتهما واعتادت عليهما ، وهمت بطريقة آلية أن تعاود النوم بعد أن غطت نفسهـا وعدلت من وضعهـا ، لولا أن انبعث فى هذه اللحظة صوت أذان الفجر فمزق السكون وملأ الجو بنغمات حنون تخفق لهـا القلوب وتخشع ، وانتفضت عطيات وهى تسمع المؤذن داعياً لصلاة الفجر ، لا لأن فكرة الصلاة قد راودتها فى أى يوم من الأيام ، ولكن لأن ذلك الأذان بشائر طلوع النهار ومع طلوع النهار يتحقق الأمل المنشود والهدف الموعود . . . أمل السفر إلى الإسكندرية الذى طال ارتقابها له ، والذى ما فتئت تعد مذ تلقت الوعد به ، الأيام والساعات واللحظات التى يتحقق فيها .

كان سيدها الباشا « كما كانت تسميه » هو صاحب الوعد لها أن يبعث بسيارته لتأخذها وزوجها يومى إلى الإسكندرية حيث ينزلان ضيفين عنده لمدة أسبوع .

وخفق قلب عطيات وقد دبّ إليها دبيب من القلق والشك . . . أيصدق الباشا فى وعده ، أيرسل السيارة اليوم كما قال ، أم أن مشاغله العديدة فى الجيش ستنسيه هذا الموعد ؟ أكان هذا الموعد مجرد مجاملة وجبر خاطر ، كما لا يفتأ زوجها يقول ويكرر ، أم أنه عهد يخفى رغبة حقيقية فى أن يتحقق .

وتقلبت عطيات من جديد فى الجزء الباقى لها من الفراش ولم تعبأ هذه المرة بأن يتعرى جسدها فقد كان النشاط الذى دب فيها قد أشاع فيه الحرارة . . . وراحت تستعيد الظروف التى قطع فيها سيدها الباشا العهد على نفسه أن يبعث إليهما بالسيارة يوم الجمعة . . . ورن فى أذنها صوته وهو يجلجل وتمثلت وجه الباشا الضخم الكبير المكتنز باللحم ، والدم يكاد يتفجر منه لفرط الصحة والقوة ، وخفق قلبها وهى تستعيد منظر أصابعه وهى تفتل طرفى شاربه الكبير وترهفهما بينما كان يغمز لها من طرف خفى بإحدى عينيه ، إنها لا يمكن بغريزتها كامرأة أن تخطىء معنى هذه الحركة . واحمر وجه عطيات وهى تستعيد الذكرى ، كما احمر وجهها آنذاك ، فكأن سيدها الباشا قد خشى أن لا تفهم مغزى حركته فأمسك بذراعها وراح يضغط عليه بقوة جعلتها تصرخ ، وتعمد تحريك ذراعه بحيث يحتك بصدرها . إن غريزتها لا يمكن أن تخدعها . وتلاشت الوساوس وبذور الشك التى حاول زوجها أن يبذرها فى نفسها ، إن السيارة آتية حتما ، والباشا منجز وعده .

وتلفتت صوب بيومى زوجها وقد كانت طبقات شخيره قد انخفضت ، وعلى الرغم من الظلام الذى كان يسود الحجرة فقد تمثلته بنحوله



وسمرته وشاربه الخفيف المتهدل ، وألفت نفسها تتساءل رغم أنفها ، ماذا يمكن أن يكون موقفه من هذه الرحلة إلى الإسكندرية وما قد يعقبها من تطورات ، وسرعان ما هزت كتفيها فى سخرية واستهانة فمتى كان لبيومى أو لآرائه وزن أو خطر فى حياتها ، لقد كان دائما أطوع لها من بنانها ورهن إشارتها ، ولولا ذلك لما رضيت بزواجها منه رغم إلحاح أمها عليها ورغم كونه ابن خالتها الذى تربى معها بعد وفاة والديه . وهزت عطيات كتفيها من جديد استهانة بشأن بيومى ... إنها صاحبة الفضل عليه إذ رضيت به زوجاً وهى التى كان يجرى وراءها كل رجال حارة الجمالة وشارع العمرى بأكمله .

وتحركت عطيات تدفعها رغبة قوية للخروج من ظلام الحجرة إلى نور الصباح فى السطوح ، ولم تكد تفتح الباب حتى سرى النور فى أرجاء الحجرة ، بينما كانت عيناها تصافحان السماء بنجومها وكواكبها وقد اختفى أكثرها وظهر الشحوب على مالا يزال باقياً منها ، فقد بدأت أشعة النهار الزاحفة تحجب بريقها . ولم يحدث أن استوقفت نجوم السماء أو قمرها عطيات من قبل ، ولكن جمال السماء فى هذه اللحظات الإلهية أثر فيها على غير وعى منها ،وأحست بنفسها خفيفة تود لو كان بقدرتها أن تطير كهذه العصافير والحمام وشتى الطيور . وخطت خطوات فوق السطوح وملأت رئتيها من نسمات الصباح ، وكانت أشعة الضوء الواهنة قد بدأت تغمر القاهرة وتظهر قسماتها . ونظرت عطيات فى غير وعى للمدينة الراقدة تحت سفح الجبل ، جبل الكبش الذى تسكن فوق قمته ، وعاودها من جديد القلق الخفى ، ما أبعد المسافة

بين قلعة الكبش والإسكندرية ! ما أعظم الشقة بين عطيات الفقيرة ابنة قمر الحبشية التى ظلت تعمل غسالة فى البيوت حتى ماتت، وبين مكانة سيدها الباشا العالية ! ألا تكون واهمة فى ظنها أن الباشا قد . . . أولا تكون قد أخطأت فى تفسير نظراته وما أحاطها به من عطف، وأن ذلك كله لم يكن إلا من أجل ذكرى أمها التى كانت تغسل له ملابسه وهو ضابط صغير ؟

وامتدت يد عطيات بحركة آلية تتحسس صدرها، حيث تعمد الباشا فى آخر مرة أن يحتك به وهو يضغط على ذراعها ... لا، إنها لا يمكن أن تكون مخطئة .

وومضت أشعة الشمس الأولى حولها واكتسى السطح بالأشعة الفاترة الحانية الوضاءة التى جعلت الأجسام كلها تتلون من حولها بشتى الألوان وقد زال عنها سحر الفجر وغموضه وروحانيته. وبدأت موجة الحياة وصخبها يعلو ويشتد . لم تعد أذنا عطيات تميزان بين مختلف الأصوات الصاعدة من المدينة التى استيقظت، لقد امتزجت وتلاطمت فى عجيج وضجيج وصخب لا تكاد الأذن تحس به لكثرة ما اعتادته وألفته .

إنه صباح يوم جديد .

وسرت عدوى النشاط إلى جسد عطيات وإلى عقلها وذهنها فقررت أن تسرع بتهيئة نفسها لرحلة الإسكندرية التى كانت تحس فى قرارة

نفسها أنها ستحدث انقلابا فى حياتها ، انقلاباً حافلا بضروب من الإثارة والمخاطرة والمغامرة .

* * *

نظرت عطيات إلى صورتها فى المرآة من خلال رموشها الطويلة بعد أن فرغت من تسريح شعرها وارتداء فستانها الجديد ، وأمالت رأسها فى دلال وكسرت عينيها وساءلت نفسها ، ما الذى ينقصها إذا هى زينت وجهها بالأحمر والأبيض لتكون كأجمل سيدة ممن تراهن فى الشارع ؟ إن أى واحدة منهن لا تملك جسداً كجسدها ، وأسرعت تحرك المرآة أمام مفاتن جسدها التى كانت تحس بها إحساساً عميقاً لكثرة ما رأت تأثيرها على الرجال من سكان حارتها .

على أن ابتسامة العجب بنفسها سرعان ما غاضت من وجهها عندما نظرت صوب زوجها بيومى الذى كان لا يزال مستغرقاً فى النوم وإن كف عن الشخير . وخطت نحوه وهى تصيح :

— بيومى . . . بيومى . . . اصح .

ولكن بيومى الذى كان قد كف عن الشخير ، عاد من جديد لغطيطه كما لو كان هذا النداء قد نبّهه إلى ما كان عنه غافلا ، فراحت عطيات تهزه فى عصبية وقد أزعجتها هذه الحركة ، واستيقظ بيومى مشدوهاً مبهوتا ، بينما قالت له فى صوت لا يخلو من حدة :

اصح يا بيومى النهار طلع ، ويجب أن نتجهز للسفر إلى الإسكندرية .

ولم يحر بيومى جوابا بل أغلق عينيه من جديد مستأنفا النوم اللذيذ الذى كان غارقاً فيه .

وانتهرته عطيات محتجة :

ألم تسمع ما أقوله لك ، ستجىء السيارة حالا ويجب أن تستيقظ لتستعد .

وفتح بيومى عينيه فى استنكار وقال لها :

— ألن تكفى عن هذا الهذيان ، أى سيارة هذه التى ستجىء ، متى كان أمثالنا يسافرون إلى الإسكندرية ؟

— ألم يعدنا بذلك سيدى الباشا وسمعت أنت بأذنيك ؟

— لقد كان هذا مجرد كلام يا عبيطة أراد به أن يجبر بخاطرنا . ألا تعرفين أن الرجال الكبار الطيبين يحبون جبر الخواطر للفقراء المساكين من أمثالنا ببضع كلمات .

ولكن عطيات تحدته قائلة :

— وهل كانت الإجازة التى أخذتها بالأمس مجرد جبر خاطر . . . ألم يقل لك إنه سيطلب لك إجازة من رئيسك وقد حصلت بالفعل على الإجازة بالأمس ؟

ولم يستطع بيومى أن يقاوم هذه الحجة فهبّ جالساً على الفراش وطار من رأسه كل أثر للنوم ، وراح ينظر إلى عينى عطيات فى شرود دون أن يقول شيئاً ، ولم تعلم عطيات سبب شروده ، فقد كان يطيل

النظر إلى فستانها الجديد وهيئتها ورأت أن تقطع عليه هذا الشرود فقالت :

— لماذا سكت ؟

— لقد لبست فستانك الجديد . . .

— قلت لك أكثر من مرة لا تتدخل فى موضوع لبسى ، وعليك أن تجيبنى فى موضوع السفر إلى الإسكندرية ، أو لم يعدك الباشا بالحصول على إجازة لنستطيع السفر إلى الإسكندرية ، وقد حصلت بالفعل على الإجازة بالأمس ؟ وقد قال لنا الباشا إنه سيرسل السيارة صباح الجمعة .

وتثاءب بيومى وراح يتمطى متشاغلا بذلك عن مواجهة المشكلة التى لا يستطيع لها تفسيراً ، ولم يلبث أن قال فى تراخ وتثاقل :

— الحق يا عطيات لست أعرف ماذا أقول ؟ لقد غمرنا شاهين باشا بكرمه وإحسانه ، لقد ألحقنى فى هذه الوظيفة بمجرد أن طلبت منه ذلك ، وعندما ذهبنا لنشكره وعدنا بالفعل أنه سيحصل لى على إجازة وسوف يرسل لنا السيارة اليوم كما تقولين ، وبالأمس نادانى رئيس القلم وقال لى كما حدثتك بالأمس :

« ادع لشاهين بك الذى حصل لك من المدير العام على إجازة لمدة أسبوعين على خلاف اللوائح ، وقد نظر إلىّ جميع زملائى بغيرة وحسد ، حيث لم يمض لى فى العمل سنة بعد . ولذلك فأنت محقة وقد يرسل سيارته اليوم بالفعل فهلا يجب أن تفكرى يا عطيات

فى الموضوع . . . ألا ترين أنه يجب علينا أن نعتذر وعلى رأى من قال « إن كان صاحبك عسل ما تلحسوش كله ؟ » .

صرخت عطيات فى وجهه :

— نعتذر . . . ؟ هل جننت ؟ ؟

وتملكت بيومى موجة من الحماسة لإقناع عطيات :

— يا عطيات فكرى قليلا ، هل هذا معقول ، أأمثالنا يكونون ضيوفا على رجل كبير المقدار فى الجيش . . . إن رتبته قائمقام . . . إنه فى هيئة أركان حرب الجيش ، إنه ضابط عظيم قد الدنيا ونحن فقراء ، مساكين ، غير معقول يا ناس . . غير معقول .

وانبرت عطيات تقول :

— طيب اسكت والنبى ، لماذا لا يكون الأمر معقولا . . . أنسيت أن أمى خدمته فى شبابه عدة سنين كما قال لنا .

— هذا صحيح لقد قال لنا ذلك ، ولكن هل نسيت كيف كانت عمتى ترفض دائماً أن تذهب لتستعين به فى أى شىء ؟ . وأنها كانت دائماً تدعو عليه . . . ولم نستطع الذهاب إليه إلا بعد أن ماتت .

— أمى كانت مخطئة ، إنها لم تقل لنا أبداً ماذا فعل لها ، وبماذا أساء إليها حتى ظلت طول عمرها تدعو عليه،وقد رأيت كيف بان خطؤها عندما ذهبنا إليه فلم يكد يرانى حتى أحسن استقبالنا وأقبل علينا ، وأجاب رجاءنا فأوجد لك العمل فى الحكومة ، وأصبحنا نقبض أربعة جنيهات فى الشهر . وعندما ذهبنا إليه فى المرة الثانية لنشكره ، رفض

أن يسمع كلام الشكر وطلب منا أن نعتبر أنفسنا كأولاده .

وصاح بيومى محتجاً :

— يا عطيات أعقلى ، أيمكن لمثلنا من الفقراء أن يكونوا أبناء هؤلاء الباشوات الكبار ؟

— ألم تسمع ذلك بأذنيك ؟

— طبعاً سمعت ، ولكنى لم أفهم من ذلك إلا أنه رجل طيب يجبر بخاطرنا ، هل تعقلين يا عطيات أن تكونى أنت ابنة قمر النسالة فى مركز بنت القائمقام شاهين بك السلانكلى .

وغضت عطيات برأسها إزاء نظرة بيومى المتسائلة فقد كانت ضغطة الباشا على ذراعها بقوة ، وتعمده الاحتكاك بصدرها تقطع بأن نظرته إليها لا يمكن أن تكون نظرته إلى ابنة له بل إلى . . . . واحمر وجهها . . . وتلعثمت وقالت :

— على كل حال سوف تأتى السيارة . . . فهل تراهننى ؟

وصدق حدس عطيات ولم يخطئها إحساسها الذى وصل عندها إلى مرتبة اليقين ، فقد وصلت السيارة فى الساعة الثامنة ، سيارة لموزين صفراء من سيارات الجيش يقودها شاويش ثم لم تلبث أن انطلقت بهما عبر شوارع القاهرة التى بدأت تغص بالحركة السريعة والنشاط المتدفق فى طريقها نحو الهرم . . . نحو الطريق الصحراوى الموصل إلى الإسكندرية . وقد تعالت الشمس وارتفعت حرارة الجو .

الفصل الثانى

١

احتاج فوزى إلى أكثر من ساعة ليفيق نهائيا من أثر الصدمة العصبية التى ألمت به ، وتنحسر عنه موجة الذهول الذى تملكه كأثر مباشر لهذه النجاة المعجزة ، وبدأ واقع الحال يضغط عليه ، ومشكلة الحياة تواجهه ، فهاهم أولاء وقد تحطمت سيارتهم وبعد أن كانوا يعتمدون عليها لحملهم إلى القاهرة ، أصبحوا هم مسئولين عن حملها من هذا المكان ، ومع هدوء نفس فوزى عادت قواه العقلية تعمل فى انتظام . إنهم لايزالون قريبين من الإسكندرية ، فما عليه إلا أن يعود إلى الإسكندرية ويتصل بإحدى الورش لإرسال من يتولى إعادة السيارة وإصلاحها ، أما هم فباستطاعتهم أن يستقلوا القطار حتى القاهرة . وبمرور الوقت واشتداد أشعة الشمس دون أن تلوح سيارة فى الأفق بدأ القلق والهم يزحفان على نفسية فوزى المشرقة ، وعبثا راح ينكر على نفسه أن يساوره القلق بعد أن كان من الممكن أن يكونوا جميعاً الآن فى عداد الموتى ، ولكنه كلما ندد بنفسه لهذا الإحساس تضاعف القلق ، وراحت عيناه تنظران نحو الأفق يمينا وشمالا بحثا خلف نجدة تأتيهم . . ولم يلبث أن هون على نفسه أن لا تعارض بين أن يكون

شاكرا حامدا الله و بين أن يقلق ، فالقلق قرين الحياة وهو طابع الإنسانية ، وما دام الله قد وهبهم هذه الحياة الجديدة فلا لوم عليهم ولا تثريب إذا حرصوا على هذه الحياة وتلمسوا السبل لتنظيمها وتدبيرها.

وكانت سكينة الطاهية وسعد الصبي قد لاذا بظل السيارة لتقيهم حرارة الشمس التى بدأ فوزى ووفاء يحسان بوطأتها ، فاقتديا بالتابعين الذين أوسعا لهما مكانا فى الظل مرحبين بهما ... وأحس فوزى بجفاف حلقه فسأل عن مصير زمزمية الماء التى أحضروها معهم ، فإذا سعد يقدمها له ولسيدته وهو يقول محتجا :

— لقد عرضت على سيدتى وفاء أن تشرب فرفضت .

وشربت وفاء وشرب فوزى وارتوى ، وأحس بقواه تتجدد وروحه تنتعش بعد أن روى ظمأه وبينما كان يحمد الله على ذلك ، إذ لاحت فى الطريق سيارة صفراء قادمة من القاهرة فى طريقها إلى الإسكندرية ، ووثب فوزى وراح يلوح بيده لإيقاف السيارة ، ولكنه لم يكن فى حاجة إلى ذلك ، فقد كان السائق قد رأى منظرهم على البعد فأدرك نكبتهم وشرع يهدىء من سرعة السيارة .

وتوقفت السيارة أمام فوزى الذى أدرك على الفور أنها سيارة جيش وكان يقودها شاويش سائق ويركب فى مقعدها الخلفى أفندى شاب رقيق الحال أسمر الوجه نحيل الجسد لا يزيد عمره على العشرين إلا بعامين أو ثلاثة وقد جلست إلى جواره امرأة من لابسات الملايات اللف تقاربه فى السن . وتردد فوزى أمام هذا الخليط عن أن يقول شيئا . . . فى الوقت الذى كان الشاويش السائق يبادره القول :

— حمدا لله على السلامة . . . هل حضرتك صاحب هـذه السيارة المقلوبة ؟

— نعم .

— وهل أصيب أحد منكم بسوء ؟

— كلا والحمد لله .

وهبط الشاويش السائق مستطلعا فى دهشة وفضول ، وراح يعاين السيارة المقلوبة ، وينتقل منها إلى معاينة وفاء وسكينة وسعـد ، وهو لا يفتأ يهز رأسه فى عجب ودهشة وهو يغمغم :

— سبحان الله ! . . سبحان الله !

ومد يده نحو صدر فوزى وراح يجسه قائلا :

— أنت طبعا الذى كنت تسوق . . . ألا تحس بأى ألم هنا . . ؟

فقال فوزى وقد التهبت روحه من جديد بنشوة هذه النجاة المدهشة:

— لا أحس بشىء والحمد لله . . . لقد سلمنا كلنا .

ونزل فى هذه اللحظة الشاب الأسمر النحيل راكب العربة والذى لم يكن سوى بيومى رمضان ، وراح بدوره يعاين السيارة المقلوبة وسقفها الذى تهشم وجانبها الذى انبعج وهو يغمغم ويتمتم وينظر من طرف خفى إلى فوزى ووفاء .

وقال الشاويش السائق يشرح لبيومى أفندى بعض ماتوصل إليه من المعاينة :

— انظر يابيومى أفندى . . . إن زجاج العربة الأمامى سليم

أما زجاج النافذة التى كانت تجاور حضرة الأفندى فكانت مفتوحة ولذلك فقد تحطم زجاجها داخل باب العربة . . . ولو تحطم الزجاج الأمامى وتطايرت أى شظية من هذا الزجاج لحدث مالا تحمد عقباه والعياذ بالله .

وهتف بيومى :

— هذه كرامة ! لابد أن يكون حضرة الأفندى من أولياء الله الصالحين .

واحمر وجه فوزى فى خجل وتواضع ،وعلى الرغم من أن الكلمة وجدت وقعها الحسن فى نفسه فقد قال محتجا :

— أستغفر الله العظيم . . . أين نحن من الولاية ! ؟

فقال الشاويش السائق :

— الأمر الذى لاشك فيه أنه قد كتب لك عمر جديد .

وبرقت عيناه وأشرق وجهه وقال :

— الحمد لله .

وقال الشاويش السائق :

— وماذا انتويت أن تفعل الآن ؟

فأجاب فوزى :

— أظن أن أحسن مايعمل هو أن نذهب إلى الإسكندرية ونبعث من يأخذ السيارة ، فهل تتكرمون بأخذنا معكم إلى الإسكندرية ؟

فقال الشاويش السائق :

— ياسلام ، يا ألف أهلا وسهلا إن لم تحملكم السيارة حملنا كم على رؤوسنا ، وتلفت صوب بيومى وقال له :

— لا أظن أن عندك مانع يا بيومى أفندى ؟ .

فأجاب بيومى متلعثما :

— مانع أعوذ بالله ؟ ! ما نحن إلا خدم لصاحب العربة وحضرة الأفندى .

٢

وانطلقت السيارة المكتظة بحمولتها الجديدة بالإضافة إلى حمولتها القديمة . . . وجلس بيومى وزوجته عطيات فى المقعد الأمامى بجوار السائق ، بينما احتشدت أسرة فوزى فى المقعد الخلفى .

وكان الشاويش السائق هو أول من استأنف الحديث بعد انطلاق السيارة :

— نتشرف بمعرفة البيك ؟

— أنا اسمى فوزى السيد وهذه زوجتى ، وصناعتى محام وصاحب جريدة .

وهدأ الشاويش السائق من سير السيارة بصورة مفاجئة جعلت جميع من فى السيارة يهتز ويرتطم بالآخر ، وتساءل فوزى فى دهشة عما جرى ، بينما كان الشاويش يستأنف السير العادى للسيارة وهو يتمتم :

— فوزى السيد . . . إن هذا الاسم ليس غريباً علىّ . . . والتفت صوب فوزى وقد انقدح زناد ذكراته :

— أتكون حضرتك رئيس جماعة البعث ؟

ورد فوزى بالإيجاب ، وصاح بيومى على الأثر :

— جماعة البعث الذين يحاربون البغاء ويحطمون الحانات ؟

ورد عليه سعد الصبى فى تهلل وفرح :

— أيوه . . . سيدى ورجالته ربنا يحميهم هم الذين يكسرون الخمارات .

ولمعت عينا بيومى رمضان وهتف قائلا :

— الله أكبر . . . الله أكبر . . . أصحيح ياحضرة الأستاذ أنك كنت من سكان طولون ؟

فأجاب فوزى وقد انفجرت أساريره عن بسمة رضا :

— نعم لقد ولدت فى حارة الجماله ونشأت وترعرعت فى الحى . . أأنت من سكان طولون ؟

وقال بيومى وهو يكاد يطير من الفرح موجهاً الحديث إلى عطيات :

— أسمعت يا عطيات إنه من سكان حارتنا القديمة . . . ثم التفت صوب فوزى وقال :

— الله ينصرك ياشيخ ! كل الحى عندنا يدعولك بالنصر والتوفيق.

ومرة أخرى أحس الجميع بأن شيئاً ما ، طرأ على سير العربة وبدأ الارتباك على وجه الشاويش السائق .

وسأل فوزى السائق مرة أخرى عما هناك . . .

فإذا هو لا يلبث أن ينفجر فى نوبة من الضحك ، وأعقب ذلك اندفاعه بالسيارة فى سرعة غير عادية بينما راح يقول :

— والله العظيم يا سيدنا الأفندى لابد أن تكون من أولياء الله كما قال بيومى أفندى . .

أليست هذه كرامة جديدة لا تقل عن كرامة نجاتكم من الموت ، أتعرف حضرتك سيارة من هذه ؟

— طبعا لا .

— هذه سيارة القائمقام شاهين بك السلانكلى من هيئة أركان حرب.

وأسرع فوزى يقول :

— لم أتشرف بمعرفته .

— وهل لم تسمع عنه أبداً ؟

— ولم أسمع عنه أبداً .

وصاح الشاويش السائق :

— يا سبحان الله . . . آمنت بالله . هل تتصور يا حضرة الأستاذ أن شاهين بك لا همّ له كلما جاء ذكر اسم حضرتك إلا أن يسب ويلعن ويقسم بالله أن لو امكنه الله منكم . . . ولم يلبث الشاويش السائق أن توقف عن إكمال عبارته شعورا منه باندفاعه فى قول ما لا يليق . . . ولكن فوزى لم يلبث أن قال له وهو يضحك :

— أكمل . . . أكمل ولا يهمك . . . ماذا يفعل لو أمكنه

الله منا . . . يجلدنا أليس كذلك أو يشنقنا ، إنه ليس الوحيد الذى يرى هذا الرأى . . . إن جميع السكيرين والمعربدين من أصحاب النفوذ يقولون مثل قوله .

وعاد الشاويش السائق يقول متشجعا :

— إنك لا تتصور ما الذى يقوله عنك بالذات . . . لقد كنت أتصورك من كثرة ما سمعت كلامه عنك بصورة تختلف كل الاختلاف عما أراه الآن حيث يفيض وجهك بالبشاشة والصلاح والتقوى . . . على أن الشاويش السائق لم يلبث أن التفت صوب بيومى وعطيات ثم قال مستدركا ومحذرا :

— إعملوا معروف يا بيومى أفندى ، وأنت والنبى يا ست عطيات لا تذكروا شيئاً عن هذا الموضوع لشاهين بك .

فقال بيومى :

— أعوذ بالله من الفتنة والفتانين ، كيف تتصور أن نقول شيئاً بعد أن سمعنا عن رأيه فى حضرة الأستاذ ... والتفت نحو عطيات التماسا لموافقتها فإذا هى تهز كتفيها وتشيح بوجهها نحو نافذة السيارة دون أن ترد بشىء .

لمح فوزى هذه الحركة من عطيات فأحس بشىء من القلق والحرج فطلب من الشاويش السائق أن يتوقف لينزلوا من السيارة فما كان يرضى لنفسه أن يكون سببا فى إحراجه .

وصاح الشاويش السائق :

— تنزلوا من العربة ؟ والله لو كان على رقبتى . . . يا سلام ؟ ليه هو الإسلام ضاع ، هى الرحمة ضاعت ؟ !

وتدخل بيومى قائلا :

— إطمئن لن يعلم الباشا منا أى شىء .

وهز الشاويش السائق كتفيه إظهارا لقلة مبالاته وقال :

— أو فليعلم انا لم أرتكب جريمة . . . هل كان من المعقول أن أتركم فى الصحراء ! !

وقال فوزى :

— لو كنت أعلم أننى سأكون مصدر إزعاج لك لما ركبت .

فقال الشاويش السائق :

— يا أستاذ خليها على الله ... ولم يلبث أن عاد يضحك من جديد ، وعاد يسأل فوزى :

— وهل صحيح حضرتك أرسلت إلى هتلر خطابا تدعوه إلى الإسلام وتهاجم سياسته ؟ لقد كنت أنقل سعادة القائمقام من القيادة إلى البيت ، وكان معه حسنى بك وصبحى بك من هيئة القيادة ، فسمعته يقول لهما . . . الولد إتجنن خلاص ، فلما سألاه عمن يقصده فأجابهما ، ومن غير فوزى السيد ... تصوروا أن الجنون قد بلغ به إلى حد أن يكتب لهتلر خطابا يسبه فيه ويشتمه ويتحداه ويدعوه إلى اعتناق الإسلام ، فلما أبدى حسنى بك شكه فى ذلك ، أخرج لهما من جيبه مجلة حضرتك وفيها كتابة بالعربى وبالأفرنجى .

وتدخل بيومى متسائلا فى دهشة :

— وهل صحيح يا حضرة الاستاذ أنك أرسلت لهتلر تدعوه لاعتناق الإسلام ؟

فأجاب فوزى :

— نعم ، وأى غرابة فى ذلك ، إن الله قد أمر بنشر الإسلام فى كل زمان ومكان .

فهتف بيومى :

— والله فلتحيا . . . والله فلتحيا . ما هى الطريقة للانضمام لحركتكم ؟

وقبل أن يجيب فوزى عن هذا السؤال كانت عطيات تتدخل لأول مرة فى الحديث فصاحت فى زوجها :

— بيومى ... مالك أنت وهذه الأشياء ... دعنا فى حالنا ، نحن ناس فقراء لا لنا فى الطور ولا فى الطحين .

فقال بيومى :

— ولكن المسألة يا عطيات ...

وقاطعته عطيات فى حدة قائلة :

— قلت لك اسكت ، يعنى تسكت خلاص ... هذه الأمور ليست لنا .

ودهش فوزى لهذا الأسلوب الذى تخاطب به المرأة زوجها ولكن السيارة كانت قد دخلت بالفعل ضواحى الإسكندرية ، فوضع ذلك النهاية لكل حديث .

٣

كانت سيارة شاهين بك العسكرية لا تزال فى طريقها إليه ، عندما كان يجالس زائرا انجليزيا هو الميجر جريفز عضو البعثة العسكرية البريطانية فى الجيش المصرى ، ووقف شاهين بك حاسر الرأس بجسده الضخم ووجهه الأحمر وشاربه المفتول ورقبته الغليظة خلف البار المقام فى صالون « فيلته » « بزيزنيا » وراح يسكب لنفسه كأسا من الويسكى وهو يقهقه بضحكته الجلجلة ردا على ملاحظة أدلى بها ضيفه الإنجليزى

ورفع الكأس وأفرغه فى جوفه دفعة واحدة ، وفى هذه اللحظة دخل عليه فراش نوبى كبير السن يخبره أن الكولونيل سميث قد شرّف الدار .

فأسرع القائمقام شاهين لمقابلة الكولونيل وهو يخب فى سترته الحريرية المنزلية التى كان يرتديها فوق بنطلونه العسكرى ، وراح يسوى شعر رأسه الأسود الناعم اللامع المفروق من وسطه ويفتل شاربيه ، وكان الكولونيل سميث يقف فى مدخل «الفيلا» بقامته الفارعة بصورة غير عادية والتى كان من شأنها أن تحول القائمقام شاهين بك إلى قزم لولا أن حال دون ذلك نحافة الكولونيل الطويل وضخامة شاهين .

وصافح شاهين ضيفه فى حرارة بالغة لم يقابلها الآخر بحرارة مماثلة ، ولم يثر ذلك أى دهشة فى نفس شاهين ، فقد كان الكولونيل سميث مفرطا فى بروده حتى بين الإنجليز الباردين كما كان مفرطا فى طوله حتى بين طوال الأجسام .

وكان الكولونيل سميث قد أصبح من أكبر ضباط الجيش الإنجليزى فى مصر خطرا بعد أن عين رئيسا لمخابرات الجيش الإنجليزى . ودلف الكولونيل سميث إلى حجرة الصالون بخطى راسخة دلت على أن المكان ليس جديدا عليه ، ووقف الميجر جريفز محييا ، دون أن يتصافح الانجليزيان ، واكتفى سميث بأن قال وهو يرتمى على أحد المقاعد ويمد ساقيه الطويلتين أمامه فيزحمان المكان :

— هاللو جريفز !

— هاللو كولونيل ، ثم أضاف الميجر قائلا بانجليزيته :

— إن القصة صحيحة كما أبلغت لنا ، لقد حدثني شاهين بك بكل تفاصيلها .

ولم يزد سميث على أن رفع حاجبيه دون أن يقول شيئاً . وبينما كان الكولونيل يتهيأ لإخراج غليونه كان شاهين يقول له بالإنجليزية :

— أظن أنه لامانع عندك من كأس ويسكى بالصودا قبل أن ندخل فى حديثنا .

فرد عليه سميث :

— أنت تعرف ياشاهين بك أننى لا أشرب فى الصباح .

فضحك شاهين بك وفتل من جديد شاربيه وقال :

— ولكننا لم نعد فى الصباح ، لقد جاوزت الساعة الحادية عشرة .

فرد سميث وكان قد أخرج غليونه وراح يحشوه بالطباق :

— إننى أفضل غليونى .

وتدخل جريفز قائلا :

— هل تتصور أن شاهين بك قد شرب منذ جئت إليه ربع زجاجة ويسكى .

فظهرت مخايل بسمة على شفتى سميث ، ثم نفث الدخان من فمه قبل أن يقول معلقاً :

— شاهين بك مشهور بأنه بطل فى شرب الويسكى .

وانفجر شاهين بك فى ضحكة من ضحكاته المجلجلة الصاخبة ثم راح يفتل شاربيه وقد امتلأ بالزهو :

— هذه شهادة أعتز بها يا كولونيل سميث . وكأن هذه الشهادة هاجته لشرب الويسكى من جديد فأسرع نحو البار وصب لنفسه كأساً من جديد تجرعها كما هو دأبه فى دفعة واحدة .

ودخل حسنين الفراش وهو يحمل صينية عليها كوبة ماء وفنجان قهوة ، وسأل شاهين بك حسنين :

— قهوة سادة يا حسنين ؟

فرد حسنين وهو يدرك مغزى السؤال :

— طبعاً يا أفندم .

فانفجر شاهين فى ضحكته الصاخبة المجلجلة وقال للكولونيل سميث :

— ما رأيك فى هذا . . . حسنين أصبح يعرف مزاجك ، وأنك تفضل القهوة بدون سكر .

فرد سميث قائلا :

— لقد لاحظت أنك تحسن اختيار تابعيك .

فأجاب شاهين مزهواً :

— أنا الذى ربيته . وسأل حسنين متبسطاً ، كم سنة لك عندى يا حسنين ؟

— عشرون سنة .

وظهر الاهتمام على وجه سميث بمجرد أن انسحب حسنين من الصالون وقال :

— والآن قص علىّ ما حدث بالضبط .

واربد وجه شاهين فجأة وتغضن وظللته سحابة من الضيق والهم والحقد وجلس قبالة سميث وراح يقول فى صوت صاخب يفيض بالحنق ويقطر دما .

— لطالما قلت لكم إن هذا الرجل عزيز باشا... مجنون ، وكان يجب قطع كل صلة بينه وبين الجيش ، ولكنكم اكتفيتم بإعطائه إجازة مستمرة حتى لا يزاول نشاطه ... وها هو رئيس الحكومة الجديد يرقيه إلى رتبة الفريق ويجعله رئيس أركان حرب الجيش ليبدأ عمله الجديد بمحاولة إخراجى من الجيش .

وأخرج سميث الغليون من فمه وقال فى برود :

— أرجوك أن تهدأ وتصف لى ما حدث .

ولكن شاهين لم يزد إلا انفعالا ، وراح يقص على رجل المخابرات

الإنجليزى ، كيف هاجمه عزيز باشا على رؤوس الأشهاد عندما دخل مع زملائه ليهنئوه على منصبه الجديد وطلب منه أن يلزم بيته وأن لا يريه وجهه .

وقال سميث :

— أقال لك لا تريني وجهك ؟

— بل لقد قال ما هو أكثر من ذلك ، عندما تمالكت نفسى وسألته عن سبب هذا المطلب الغريب فإذا هو يقول لى .

وقاطعه سميث قائلا بعد أن أخرج من جيبه مفكرة صغيرة وأمسك قلماً :

— قل العبارة باللغة العربية حتى أسجلها كما هى .

وروى شاهين العبارة كما قيلت له حرفاً بحرف .

— « إمش من قدامى يا جاسوس ياقذر ، أحسن أكسر وشك » .

وأردف شاهين قائلا :

— وهنا غلى الدم فى رأسى وهممت بأن أنقض عليه وهو واقف أمامى كالقزم الحقير وأن أعطيه درساً لا ينساه ويعلمه الأدب وأن لا يتهجم على أسياده ، ولكننى تمالكت نفسى فقد أحسست أنه لن يحتمل ضربة واحدة من يدى ، واكتفيت بأن خرجت وكتبت تقريراً بما حدث لوزير الدفاع طالباً تقديم الترضية اللازمة وإلا فإنى سأستقيل من الجيش ، وسأعرف بعدها كيف أثأر لكرامتى من هذا المجنون .

وقال سميث بعد أن وضع المذكرة فى جيبه :

— لا أظن أن المسألة ستصل إلى هذا الحد .

ولكن شاهين زاد انفعالا ومضى يقول فى صوته الصاخب المجلجل :

— وأنا أقول لك إنها ستصل إلى أبعد من كل ذلك . . . إن هذا الرجل مجنون ، إنه يتآمر علنا ... إنه يسب جلالة الملك ويقول عنه إنه « عيّل » إنه لا يكف عن الاتصال بهذه الجماعة المخربة المهووسة جماعة فوزى السيد ، وقد اعتبروا تعيينه فى هذا المنصب الجديد نصراً لهم ، وسيجدون طريقهم الآن إلى داخل صفوف الجيش بين صغار الضباط بتشجيع وتحريض من هذا الرجل المجنون . وها أنا ذا أنذرك يا كولونيل سميث حتى لا تقولوا إن أصدقاءكم لم ينصحوكم ويبصروكم إذا لم تضربوا على يد هذا الرجل وتركتموه حتى يستقر من جديد فى الجيش ، فسيحاربكم هذا الجيش فى أحرج ساعات حياتكم .

وأغمض سميث عينيه وأمال رأسه إلى كتفه اليمنى فى تراخ ثم قال بعد أن جذب نفساً قوياً من غليونه :

— إننا نعرف كل هذا الذى تقول . . . ولكن الظروف الدقيقة التى تجتازها بلادنا فى هذه اللحظات تغل أيدينا عن أى عمل .

ووقف شاهين فى غضب وخطا فى اتجاه سميث الذى فرد ساقيه الطويلتين أكثر ، كأنما ليزيد فى المنطقة الحرام بين شاهين وبينه ... ووضع شاهين يديه فى وسطه وقال :

— هل أفهم من هذا أنكم لن تفعلوا شيئاً للدفاع عن كرامتى ، هل تظنون بعد ما حدث أنه سيبقى لكم صديق واحد فى الجيش ، بعد أن رأى الضباط كيف يعامل أكبر صديق ونصير لكم . . . إننى

أقول لك يا كولونيل سميث وأرجو أن تبلغ ذلك للسفير البريطانى وكل من يهمه الأمر .. إنكم إذا لم تحتجوا على وجود عزيز باشا على رأس الجيش وتطالبوا بإخراجه وتخرجوه بالفعل فسوف أستقيل وسأعرف بعدها ماذا أفعل .

وتدخل الميجر جريفز الذى ظل صامتاً طوال الوقت :

— أنا من رأى كولونيل شاهين ، لا يمكن الصبر على هذا الموقف ، لقد علمت أنه بعد تعليمات لضباطنا فى الجيش ألا يتصلوا بالوحدات إلاّ بإذنه وعن طريقه . وفى مثل الظروف الدولية الحرجة . . . . .

واعتدل سميث فى جلسته ، وقاطع زميله لأول مرة خارجاً عن طبيعته الباردة :

— إنه بسبب هذه الظروف الدولية الحرجة ، يجب أن نفكر فى كل خطوة مرتين قبل أن نخطوها ، إن الحرب لم تقع بعد ولا تزال الأمور فى أيدى الدبلوماسيين ، ومع أن جميع الدوائر فى السفارة قد امتعضت أشد الامتعاض من الطريقة التى شكلت بها الوزارة وبعض العناصر التى تألفت منها بالرغم من اشتهارها بعدائها لنا ... فضلا عن إعادة عزيز باشا إلى الخدمة العاملة وترقيته . . . ومع ذلك فهم يرون أن ذلك كله من شئون مصر الداخلية التى يحسن عدم التدخل فيها لعدم إثارة أزمات مع الحكومة المصرية فى الوقت الحاضر .

فصاح شاهين مهدداً :

— لم يبق أمامى من سبيل إلا الاستقالة .. إنك تعرف يا كولونيل

أننى رجل غنى والحمد لله ولست فى حاجة للوظيفة ...

وقاطعه سميث قائلا :

— إن موضوع استقالتك من الجيش يجب أن يكون خارجا عن كل بحث ... إننى أعدك أن عزيز باشا لن يبقى فى الجيش .. كل الذى أرجوه أن تدع لنا كيفية معالجة الموضوع ، وأن تفسح لنا بعض الوقت . . إن آخر الأنباء التى وصلتنا من لندن تؤكد أن الحرب مسألة أسابيع إن لم تكن أياماً . . إنك تعرف أننا قدمنا ضمانا لدولة بولندا إذا اعتدى عليها . . وهتلر يحشد جيوشه الآن على حدود بولندا لغزوها . . وعندها فلن نقف مكتوفى الأيدى .. وستقوم الحرب .. وسيكون لنا شأن آخر فى مصر .

وهز شاهين بك كتفيه فى شك وقال :

— من يدرينا ألا تسلم بولندا بمطالب هتلر لتتفادى الهجوم عليها كما فعلت تشيكوسلوفاكيا من قبل ، وكما فعلت النمسا ؟

وهنا صاح الميجر جريفز :

— اطمئن فلن تتكرر ميونخ ثانية . . . نحن عازمون هذه المرة على إيقاف هتلر عند حده .

فقطب شاهين حاجبيه فى شك وقال :

— الناس كلها تستبعد أن تزج انجلترا بنفسها فى حرب من أجل بولندا .

وكأنما تضايق الكولونيل سميث من هذه العبارة فأخرج غليونه من فمه وهمّ واقفاً تمهيداً للانصراف وقال :

— إنك تعتبر نفسك من أكبر أصدقائنا ومع ذلك فإراك لم تفهمنا بعد ... إننا إذا حاربنا فلسنا نحارب من أجل بولندا . . إننا لو سكتنا على هتلر هذه المرة فسيحول أوروبا كلها إلى عبيد ثم يأتي دورنا في نهاية الأمر .

واحتج شاهين بك على الكولونيل سميث لتفكيره في الانصراف ، ودعاه إلى قبول ضيافته وتناول الغداء عنده ، ولكن سميث اعتذر بكثرة مشاغله وأنه في انتظار بعض البرقيات من لندن . وعبثا حاول شاهين أن يغريه بأكلة الكباب التي يحبها .

وفي هذه الأثناء كانت سيارة شاهين بك الوافدة من القاهرة قد وصلت أخيراً حاملة عطيات وزوجها بيومي . . . وعندما أسر حسنين الفراش بهذا الخبر لشاهين بك . . ظهر الابتهاج على وجهه وعدل عن تشبثه باستبقاء الكولونيل سميث وصاحبه ، وطلب من حسنين أن يدخل عطيات وزوجها إلى حجرة نوم الضيوف ، ريثما يخرج الكولونيل سميث وجريفز ، ولكن حسنين همس في أذن شاهين يخبره أن بيومي رمضان يريد أن يتوجه لصلاة الجمعة ، ولمعت عينا شاهين وأوعز إلى حسنين أن يصطحب بيومي إلى أبعد مسجد يمكن أن يصلا إليه .

وانتظر الكولونيل سميث حتى خرج حسنين الفراش وأشار من طرف خفي لصاحبه جريفز الذي سبقه نحو الباب وأخرج سميث من جيبه مظروفا أبيض لم يكد بصر شاهين يقع عليه حتى ومضت في وجهه

ومضة ارتياح ورضا ، ومع ذلك فقد أبى إلا أن يقول لسميث عندما مد يده بالظرف إليه :

— إنك تحرجنى يا كولونيل سميث... أنت تعرف أنى رجل غنى .

فقال سميث :

— لقد حسمنا هذه المسألة من قبل على ما أظن ، إن الشغل شغل.

وتناول شاهين الظرف ووضعه فى جيبه وهو يقول :

— كما ترى . . . ولكن المهم عندى هو أن تحفظوا لى كرامتى ولا تبقوا على هذا الرجل فى الجيش .

فقال سميث وهو يودعه :

— اطمئن ... نحن لا ننسى شيئاً ... كل شىء فى وقته .

ولم يكد الباب يغلق خلف الكولونيل سميث وصاحبه ويجد شاهين نفسه وحيدا فى مدخل الدار حتى تساءل بصوت مرتفع :

— هو بيومى افندى خرج يصلى الجمعة أم لا يزال هنا ؟ ونظر شاهين صوب باب حجرة الضيوف الذى كان مفتوحاً وأحس بحركة عقب كلامه ولكنّ أحدا لم يظهر فأدرك أن بيومى قد خرج مع حسنين لصلاة الجمعة ، ففرك يديه فى سرور واغتباط ولمعت عيناه ببريق الشهوة وانفرجت شفتاه وراح يفتل شاربه فى اختيال بينما لم يستقر رأيه على حال ، أيذهب إليها فى الحجرة ، أم يناديها لتمثل بين يديه . . . . ؟

وأخيراً تغلب الرأى الأخير فصاح مناديا فى صوت رقيق ولكنه آمر مسيطر :

— عطيات ... تعال ياعطيات ....

٤

كانت عطيات فى هذه اللحظة تجلس بمفردها مأخوذة بكل ما يحيط بها من رياش وأثاث فى حجرة نوم الضيوف .

وعلى الرغم من أن عطيات مذ ركبت السيارة الخاصة لأول مرة فى حياتها ، وبدأت رحلتها من القاهرة وهى تعرف على وجه اليقين ماذا ينتظرها ، فاذا كان زوجها السليم الطوية إلى حد البله ، قد أقنع نفسه أن هذه الدعوة ليست إلا آية جديدة على طيبة الباشا وحبه للخير ورغبته فى جبر خاطرهم ، فقد كانت أنوثتها العارمة الحبيسة تواقة إلى الانطلاق لا بقصد الارواء الجنسى ، بقدر ما كان للرغبة فى التحرر من دنيا الفقر والمسغبة والتطلع للحياة التى ما فتئت تبهرها وتناديها : حياة العز والملابس والحلى .

على أنها لم تكد تصل إلى «فيلا» الباشا فى «زيزينيا» وتدخل ، وهى تحمل صرة ملابسها القليلة الحقيرة وراء الشاويش السائق وزوجها ، إلى الحديقة الزاهرة التى تحيط « بالفيلا » . لم تكد تصعد الدرجات الخمس الرخامية ويفتح لها حسنين الفراش الباب حتى داخلها شعور من يقع فى فخ لا مخرج منه ... وأفلتت من فمها آهة خافتة ... وتمنت

فى هذه اللحظة لو أنها كانت لا تزال فى حجرتها فوق السطوح فى قلعة الكبش ، تمنت لو كان هذا الذى مر بها لا يعدو أن يكون حلما لن تلبث أن تستيقظ منه لترى نفسها لا تزال راقدة على سريرها الصغير المتواضع و بيومى يغط إلى جوارها .

على أنها لم تكن حالمة وآسفاه بل كانت فى أشد حالات اليقظة ، وهاهو الباب يغلق خلفها لترى نفسها و بيومى شبه ضائعين فى هذا البهو . كانت الأرضية تحت قدميها مصنوعة من خشب لامع ناعم توشك أن تنزلق فوقه لفرط نعومته ولمعانه ، وكانت هناك نجفة بللورية تخطف بصرها مدلاة من السقف وكانت أشعة الشمس تنفذ إلى أحجارها وكرياتها البللورية فتتكسر إلى ألوان الطيف ، بينما كانت نسمات الهواء تتلاعب بالنجفة فيسمع لأجزائها صليل وحفيف . لقد رأت مثل هذه النجفة من قبل فى بيت الباشا فى مصر ، ورأت مثل هذه السجادة وهذه الأرضية الخشب اللامعة وهذا الخادم بقفطانه الأبيض وحرامه الأخضر وعمامته البيضاء ، ولكنها فى ذلك الوقت عندما توجهت وزوجها لمقابلة الباشا لأول مرة كانت لا تزال غافية مغلقة ، كانت كل أحلامها وأمانيها أن يسمح الباشا بمقابلتها وأن يستمع إلى رجائها فى أن يوجد عملا لزوجها ، ولذلك فقد كانت مأخوذة لا تكاد ترى أو تحس شيئاً مما يحيط بها فقد كان ذلك كله خارج دائرة الوعى والإحساس .

أما هذه المرة فالموقف قد تغير ، فهى تجىء إلى هذا البيت لتحل به ضيفة لمدة أسبوع وهى تعلم لماذا تجىء ، وضغطة الباشا على ذراعها واحتكاك يده بصدرها تكاد تحرقها الآن حرقا . . . فلا عجب إذا

هى ارتبكت وخافت مما هى مقدمة عليه . وعندما سمعت زوجها يبدى رغبته فى بلاهة لحسنين الخادم فى أن يلحق صلاة الجمعة ، أسرعت تتعلق بذراعه فى فزع وطلبت إليه فى توسل ألا يدعها بمفردها ، ولم تكره غباوة بيومى وبلاهته كما كرهتها فى هذه الساعة وهو يقول لها :

— كله إلا صلاة الجمعة يا عطيات .

وعاد حسنين يحمل تعليمات سيده فقادها إلى حجرة نوم الضيوف وطلب إليها أن تأخذ راحتها ، وأن تنتظر عودته وزوجها من الصلاة ، وأخبرها أن الباشا سيقابلها بعد أن يفرغ من ضيوفه الإنجليز ، وحاولت عطيات من جديد أن تطلب من زوجها البقاء معها ولكن حسنين كان قد تجهز ليقود بيومى ويصحبه لصلاة الجمعة فى مسجد بعيد كأ بعد ما يستطيع أن يقوده إليه . . .

ولا لوم ولا تثريب حتى لو ضاعت الصلاة فى أثناء الطريق فحسبهما أنهما يضربان فى الأرض نحو المسجد حيث يكتب لهما بكل خطوة ثواب ما بعده ثواب .

وسمعت عطيات أخيراً صوت الباشا وهو يناديها من البهو الخارجى ، ونفذ نداؤه إلى أعماقها فامتقع وجهها من جديد وارتجفت وغمرها هذا الشعور الخفى بالخطر الذى توشك أن تتردى فيه ، ومرة أخرى تمنت لو كانت فى هذه اللحظة فى حجرتها فوق السطوح ، أو فى حوش البيت تعجن العجين ، ليتها كانت تطهو فى هذه الساعة الفول المقلى لزوجها ، وومض فى خاطرها هذا المثل الذى طالما رددته أمها « الحس مسنى وبات

مهى » أين أنت الآن يا أمى . . . ليتك كنت بجوارى . . . ليتنى سمعت نصيحتك وبعدت عن طريق هذا الباشا . . .

وعاد الصوت القاهر الغلاب يناديها ويهز كيانها هزا :

— عطيات . . . ياعطيات إنت فين يا بنتى يا عطيات .

ولم تخدعها كلمة بنتى ولكنها تشبثت بها كما يتشبث الغريق فى قشة ووجدت فى نفسها القوة التى ترد بها :

— حاضر يا سعادة الباشا .

وعلى الرغم مما كانت فيه من خوف واضطراب وارتباك وحيرة فقد راحت تعيد لف الملاية السوداء بطريقة تجعلها محبوكة حول جسدها . وتظهر ما اعتادت أن تظهره من مفاتنها وتجمع طرفا منها تحت إبطها ، تاركة الطرف الآخر منسدلا إلى جانبها بقدر معلوم ، وكانت هناك مرآة كبيرة تعكس كيانها كله فراحت تسوى فى عجلة منديل رأسها وتنظم خصلة من الشعر على جبينها وكان يمكن أن تظل مشغولة أو متشاغلة امام المرآة إلى ما لا نهاية . . . لولا أن الصوت الآمر الغلاب قد دعاها من جديد .

وظهرت على عتبة الحجرة تنضح بكل أنوثتها الساخنة بوجهها الخمرى وعينيها النجلاوين وشفتيها المكتنزتين وصدرها المرتفع وجسمها الملفوف ، فأهاج مرآها الحيوان الكامن فى جسد شاهين والذى كان قد بدأ يعربد فهتف صارخا :

— الله أكبر . . .

على أنه تلفت من حوله فى بقية من حذر وأردف قائلا :

— أهلا وسهلا يا عطيات .

وأغمضت عطيات حياء وعينا شاهين تنتهبها انتهابا وشفتاه تتلمظان تلمظا ، واقتربت منه فى تهيب وتردد وانحنت على يده تلثمها بينما كان جسدها يضطرب اضطرابا ، ولكن شاهين تظاهر بأنه يتأبى لثم يده وجرها إلى صدره فاحتضنها فى حركة مفاجئة وهو يقول :

استغفر الله يا عطيات . . . ألم أقل لك اعتبرينى كوالدك . . . وأردف هذه العبارة بقبلة على جبهتها كآخر محاولة منه لتمهيد الطريق .

وردت عطيات وهى متلعثمة :

— ربنا يخليك ويجبرك يا سعادة الباشا .

وضحك شاهين وقال لها :

— ما هذه الملاية التى ما زلت ترتدينها . . . أنت الآن فى بيتك يا عطيات ، ثم تصنع الدهشة وقال متسائلا :

— وأين زوجك . . . أين بيومى أفندى ؟

ونظرت إليه عطيات وقد عاودها شىء من الأمل لهذا السؤال وقالت بعد أن خلعت ملايتها :

— ذهب ليصلى الجمعة .

فافتر ثغر شاهين عن بسمة ساخرة وراح يفتل طرفى شاربه ويقول فى تخابث لم يجز على عطيات :

— أما كان يجب عليه أن ينتظر حتى أسلم عليه . . . يظهر أن زوجك قليل الذوق . . . على كل حال المسامح كريم ، وربنا يجعلنا من بركاته ، واندفع فى إحدى ضحكاته المجلجلة المعربدة مما جعل عطيات ترتجف خوفا منه من جديد ، ولم يلبث أن قال لها :

— تعالى لأريك البيت الذى ستقيمين فيه .

وانكمشت عطيات بحركة طبيعية وتداخلت فى نفسها من شدة الخوف والوجل حتى لقد أشبهت أن تكون عصفورا ضئيلا بين يدى صقر جارح .

ومد شاهين ذراعه القوية محاولا أن يحيط بها خصر عطيات التى كانت ترتجف ، فقالت له بآخر ما بقى فى نفسها من رواسب المقاومة الغريزية فى الأنثى والتى أزكتها فيها أمها وزواجها من بيومى وبيئتها البلدية :

— إعمل معروف يا سعادة الباشا .

ولكن سعادة الباشا لف ذراعه حول خصرها وقال لها وهو يقهقه :

— والآن دعينا من حكاية الباشا هذه فأنا لا أحب سماعها عندما أكون مبسوطا . . . أنا شاهين . . . قولى لى يا شاهين .

ولم تحر عطيات جوابا فقد امتلأت نفسها بالانفعالات وهى تندفع نحو حياة وإن اشتهتها فى قرارة نفسها إلا أنها كانت تملؤها خوفا .

وقال شاهين لعطيات وهو يقف معها أمام البار :

— أظن يا عطيات لم يسبق لك أن شربت قبل اليوم ؟

وأجابت فى اضطراب وارتباك وقد فقدت كل إرادة وسيطرة على نفسها :

— أشرب إيه ياباشا :

وقال شاهين وهو يضحك مقهقها :

ويسكى يا بنت . . . ويسكى . . . ألم تسمعى على الويسكى سيد المشروبات كلها .

وقالت عطيات التى كانت قد تخلصت منه :

— خمرة يعنى يا باشا ... لا ... لا أعوذ بالله .

وعاد الباشا يقهقه من جديد فى صخب :

— بركاتك يا شيخة عطيات ، ولم يلبث أن كف عن الضحك وقال لعطيات وقد بدأ وجهه يطفح بالشهوة الجارفة :

— اسمعى يا بنت ياعطيات ، إنتِ دخلتى مزاجى من أول ما شفتك سأجعل منك إنسانة جديدة ، سأشترى لك فساتين على أحدث طراز وآخر « موضة »

ولمعت عينا عطيات وقد بدأت أحلامها تتحقق :

— ربنا يطوّل عمرك يا سعادة الباشا .

وزجرها شاهين مداعباً :

— ألم أقل لك دعى كلمة الباشا هذه ؟

فردت عليه فى ضعف واستسلام وحياء :

— لا أقدر ... متى كانت العين تعلو على الحاجب .

وضحك الباشا فى سرور ونشوة وفتل شاربيه وقال لها :

— تعلمى .. يجب أن تتعلمى ، سوف أعلمك حالا .. تعالى أريك بقية حجرات الفيلا ..

وأحست عطيات أن الأمور تندفع بأسرع ما كانت تتوقعه أو تتصوره ومن جديد تملكها الخوف والفزع فهتفت به بآخر ما بقى لديها من غريزة الممانعة :

— والنبي يا سعادة الباشا أنا بنت فقيرة وغلبانة ولست من مقامك.

ولكن شاهين جذبها إلى صدره :

— فغمغمت عطيات وهى تعلم أن مصيرها قد تقرر وأنها أصبحت ملك يمينه :

— يومى .. يومى يا سعادة الباشا يطب علينا أنا فى عرضك !

ولكنها كانت تعلم أن لا جدوى من ذلك كله . . . .

. . . .

. . . .



الفصل الثالث

١

كان جو القاهرة ساخنا ملتهباً مشحونا بالتوتر ، بينما راح باعة الصحف ينادون على ملاحق الصحف التى صدرت تحمل آخر أنباء الأزمة الدولية . وتهافتت الجماهير على شراء الصحف حتى من كان منهم لا يعرف القراءة أو الكتابة ، فقد كان يحملها لمن يقرأها له ، وكان الجميع بدون استثناء يلقون نظرة عجلى متلهفة على العناوين الضخمة الحمراء والسوداء .

— مجلس شيوخ دانزج يقرر بالإجماع عودة دانزج إلى الريخ الألمانى ، الوطن الأم .

— هتلر يوجه إنذارا نهائيا لبولندا .

— بولندا تعلن التعبئة العامة .

— الجيوش الألمانية على أهبة الزحف فى أى لحظة .

— إنجلترا تعلن حالة الطوارئ فى الجيش والأسطول .

وكان البيت الأخضر مقر حركة البعث يطن فى هذه الليلة كخلية النحل ، وكان المجتمعون فيه من الشباب يتكلمون جميعاً فى آن واحد .

— أتظنون أن الحرب ستقوم هذه المرة ؟

— طبعاً ستقوم ، لقد سمعت أنها بدأت بالفعل .

— وانا أقول لكم إنها لن تقوم .

— أنا من هذا الرأى ؛ سوف تستسلم بولندا فى الدقيقة الأخيرة ؛ هل نسيتم تشيكوسلوفاكيا ؟

— ولكن بولندا عبأت كل جيوشها .

— ولو ..!

— وانجلترا وفرنسا ؟

— بعد الضربة التى أصيبتا بها بهذا التحالف الجديد بين ألمانيا وروسيا لن تجرؤا على عمل أى شىء .إن فرنسا أصبحت منحلة ؛ والشعب الفرنسى لا يريد الحرب بأى ثمن .

— ونحن ماذا سيكون موقفنا ؟

— ضد الإنجليز طبعاً .

— ولكن كيف ؛ وايطاليا التى تهددنا ؟

— سيكون هذا موضوع خطاب الأستاذ فوزى ولاشك هذه الليلة .

— لقد كانت نجاته من هذا الحادث الأليم معجزة .

— أتظنون أن هناك علاقة بين نجاة الأستاذ فوزى ؛ وبين الحوادث الجارية ؟

ولم يضع حداً لهذه الأقوال المتدفقة ؛ وهذه الأسئلة المتشابكة ؛ والسيل من التكهنات والملاحظات ، إلا دوى التصفيق إيذاناً ببدء الاجتماع ؛ وانطلقت الحشود المتجمعة تنشد فى حماسة مشتعلة نشيد

« اسلمى يا مصر » واحمرت الوجوه ، وتوترت الأعصاب وامتلأت عروق الرقاب والجبهات بالدم ، وارتجت جدران المبنى تحت وطأة الصوت الذى تحول إلى رعد ، فقد كان كل شاب يحاول أن يذيب نفسه فى كلمات النشيد و نغماته. ودوى صوت الدكتور خالد أمين نائب الرئيس كما هى العادة فى ختام النشيد بهتاف الجماعة « الله أكبر والمجد لمصر » فرد عليه المحتشدون وهم يكادون يتفجرون من فرط الحماسة « الله أكبر ، والمجد لمصر » .

ودوى التصفيق فى زمجرة ورعد ، ولم يلبث أن تحول إلى طبقة جنونية عندما وقف فوزى على منصة الخطابة مستهلا خطابه بالتكبير والتهليل وحمد الله على نجاته .

وبعد أن فرغ فوزى من وصف الحادث الذى وقع له ولأسرته ، وعاهد الله واخوانه أن يكرس هذه الحياة الجديدة التى وهبه الله اياها من أجل الحق والخير والجهاد فى سبيل المثل الأعلى ، عرج على مشكلة الساعة التى كانت تشغل الأذهان ، الحرب التى توشك أن تقع وموقف مصر منها ، وراح فوزى يستعرض موقف الحركة من هتلر .

إن الشباب المصرى كأى شباب آخر فى العالم لم يكن يسعه إلا أن يعجب بهتلر وبطولته الخارقة ، وهو إنسان عادى من غمار الناس ، لو لم تتداركه الحرب العالمية الأولى لظل عاطلا يتسكع فى شوارع فيينا ، وكيف وجد نفسه فجأة بعد انتهاء الحرب بهزيمة ألمانيا ، وسط دنيا من اليأس والاستسلام والفوضى وفقدان الثقة بالنفس ، فقرر

أن يكون هو منقذ ألمانيا ، وأن يكون هو الذى يرد لها كرامتها ، وأن يعيدها إلى سابق قوتها ويمزق المعاهدات التى قطعت أوصالها وأذلتها . ولم يكن له من سلاح أو عدة لتحقيق هذا البرنامج الضخم إلا إيمانه بنفسه كمنقذ وإيمانه بالشعب الألمانى . واستطاع هتلر بفضل هذا الإيمان أن يجمع حوله عديدا من الأنصار الأقوياء . ثم بدأ ينتقل من نصر إلى نصر ، حتى استطاع فى خاتمة المطاف أن يكون رئيساً للريخ الألمانى وسط ذهول العالم ودهشته ، وإن هو إلا عام واحد حتى كان الصليب المعقوف شعار النازى حزب هتلر يرفرف على كل بيت فى المانيا التى تحولت إلى جبهة واحدة متحدة كأنها الصلب والفولاذ . وشرع يمزق المعاهدات التى تعهد بتمزيقها ووقف أعداء الأمس حائرين لا يعرفون ماذا يفعلون .

ولما كان شباب البعث فى مصر يريدون بدورهم تمزيق المعاهدة التى كبل الإنجليز مصر بها ، ويرنون بأبصارهم إلى تطهير بلادهم من الدخيل الأجنبى ، والانطلاق فى دنيا الحرية والكرامة والمجد الذى يليق ببلادهم ، فلاعجب إذا تتبعوا كفاح هتلر فى إعجاب فى مراحله الأولى . ولكن عندما تحول هتلر إلى ديكتاتور طاغية وبدأ يغرق بلاده فى حمامات من الدم ، تارة باسم محاربة الشيوعية ، وحينا باسم المحافظة على سلام الدولة ، ويضطهد اليهود ويعمل على إبادتهم بطريقة وحشية غير إنسانية عندما بدأ يبشر بالدم الآرى وتفوقه على بقية دماء العالمين،ويعمل على أن تكون المانيا سيدة العالم، عندما بدأ هتلر يعتدى على الدول الصغيرة المحيطة بألمانيا ويضم النمسا اليها وتشيكوسلوفاكيا

عنوة ، بدأت حركة البعث تهاجمه فى صحفها ، والآن وقد جاء دور بولندا ليصيبها ما أصاب غيرها من قبل فقد ارتفع صوت فوزى مجلجلا فى غضب بعد أن فرغ من استعراضه :

— لقد تحول هتلر إلى بلطجى دولى ، فاما أن يحصل على مطالبه بغير منازعة ، وإما يغرق العالم فى طوفان من الدم ، ونحن أيها الاخوان نحن الذين نؤمن بالعدل والحرية والكرامة لكل الشعوب ، نحن الذين نؤمن بالمساواة بين البشر ونتمسك بالسلام لا نستطيع إلا أن نعلن اشمئزازنا من هذه الأساليب ، واستعدادنا للوقوف فى وجهها بكل قوة ، ومع ذلك . . . . ومع ذلك وتوقف فوزى قليلا ونظر إلى عيون أصحابه المصوبة اليه :

ومع ذلك فان انجلترا تخطىء خطأ جسيما إذا تصورت اننا سنقف إلى جوارها إذا قامت الحرب بينها وبين ألمانيا . إن على انجلترا أن تجلو عن مصر والسودان أولا وقبل كل شئ ، وإلا فلا تنتظر منا إلا أننا سنحاربها بكل ما وسعنا من قوة .

وصفق الحاضرون فى حماس جنونى ، ولكن فوزى كان يعرف فى قرارة نفسه أن الأمر ليس بهذه السهولة ، فقد كان موسولينى حليف هتلر لا يخفى نيته فى احتلال مصر ، وما كان لأى مصرى أن يقف مكتوف اليدين عندما يضع موسولينى أحلامه محل التحقيق .

وضغطت هذه المشكلة على فوزى . وأحس بضيق فى نفسه وظلمة

تغشى عينيه ، ما العمل ما العمل ؟ ولم يجد فوزى مخرجا من الضيق إلا أن يتحلل من ضغط الواقع ، وأن يلوذ بالإيمان بالغيب ، فارتفع صوته من جديد مجلجلا وقد استرد كل قوته :

— لتجر الحوادث كما تحب أن تجرى ، لتأت خفافا أو سراعا ، لتأت عن يمين أو شمال لتأت فى أى صورة فى أى وقت تشاء كما تشاء ، فسوف تجدنا دائماً كالصخرة صامدين وبحبل الله مستمسكين ، وبالموت فى سبيله فرحين مستبشرين .

ودوى التصفيق والهتاف كما لم يدو من قبل ، وأقبل الجميع يعانق بعضهم بعضا ويهنئ بعضهم بعضا ، كما لو كانت هذه الكلمات قد حلت المشكلة . . المعقدة المحيرة .

٢

كان لا يزال فى يوم الخميس بقية ، وكأن فوزى قد أراد أن يجعل منه أحد الأيام المشهودة ... فلم يكد الاجتماع الحاشد ينفض حتى استبقى إخوانه الأقربين أعضاء مجلس الجهاد ، وعلى رأسهم خالد وصبرى ، ولم يكن ينقصهم إلا محيي سكرتير الحركة العام . . ولقد رضى فوزى عن هذا الغياب فى قرارة نفسه ، فقد كان يعلم أن القرار الذى سيعلنه الليلة من تنحيه عن رئاسة الحركة لخالد أمين ، لن يحظى بموافقةصاحبه القديم الذى يرى فى نفسه ويرى البعض معه أنه أحق بهذه الرئاسة ، وكان تفكير فوزى حقيقا أن يتجه فى هذه الناحية ، لولا أن محيي

كان قد قلل من نشاطه فى الآونة الأخيرة ، وزاد من إقباله على التفرغ للعمل فى مكتبه كمحام .

والتأم مجلس الجهاد يستمع فى صمت إلى ماشاء فوزى أن يفضى به إليه ، وراح يمهد لفكرته وسط الدمدمة والغمغمة والقلق ، ولم يلبث أن ارتفع صوته وهو يزجى بحجة قاطعة لدعم فكرة التنحى :

« إن خصومنا لا يجدون ما يتهمونا به إلا أن يقولوا عنا إننا فاشست أو نازى ، ويقولون عنا : إننا دعاة ديكتاتورية ، ويقولون عنى إننى أعمل لتحقيق مآرب شخصية ، وليس هناك ما يهدم ذلك كله من أساسه ويظهر حركتنا على حقيقتها تؤمن بتعاليم الاسلام فى الشورى والديموقراطية ، إلا أن تعفونى من رئاسة الجماعة وتهيئوا لى فرصة العمل فيها تحت رئاسة واحد منكم .

وساد الارتباك والاضطراب صفوف الجماعة ، وارتفعت أصوات تنكر ما يقال وتعلن أنها لاتعرف سببا له.. ولكن صبرى عبدالوهاب طلب منهم أن يدعوا فوزى يتم اقتراحه ، فاقتراحه لا يفهم إلا على ضوء الرئيس المقترح .

وأعلن فوزى اسم خالد أمين الذى يعرفون جميعا مدى شجاعته وتجرده وثباته فى الجهاد من أجل نجاح حركتهم .

وانطلقت يدان تصفقان بحرارة تأييدا للاقتراح ، جعلت بعض الأيدى تتابعها على التصفيق . ولكن هذه الأيدى التى انساقت سرعان ما توقفت ، ونظر أصحابها حولهم فى دهشة ، ولكن اليدين اللتين بدأتا

التصفيق ولم يكونا سوى يدى الدكتورة فاطمة واصلتا التصفيق فى حرارة متزايدة ، وأبت الدكتورة فاطمة إلا أن تقف فى ثوبها الرشيق الوقور ، ووجهها الصبوح الجميل ، لتهتف فى قوة وحماسة تعبيراً عن رضائها عن مسلك فوزى :

— يحيا المجاهد فوزى السيد .

وردد بعض الحاضرين هتافها بحركة تلقائية ، ولكن الدكتور خالد أمين وثب واقفاً وطلب من الدكتورة فاطمة فى حزم وصرامة أن تتفضل بالجلوس ، فتضرج وجهها خجلا وحياء ، وجلست مطرقة الرأس حزينة للطريقة التى زجرها بها خالد أمين ، على أنها لم تلبث أن لمعت عيناها وهزت كتفيها فى عناد ، إعلانا عن تمسكها بموقفها .

وبدا على خالد أمين أنه يعانى صعوبة فى العثور على الكلمات المناسبة ، فبدأ حديثه متلعثما ، ولكنه لم يلبث أن تغلب بقوة إرادته على صعوبته واندفع يقول فى عصبية ووجه محتقن ، وعيناه تسطعان بمزيج من الغضب والحب والفدائية :

— لقد اعتاد أخونا فوزى أن يقنعنا بكل ما يريد أن يقنعنا به ، وقد أصبح من عادتنا أو من عادتى أنا على الأقل أن أنفذ كل ما يطلب منى تنفيذه فى غير تردد أو تحرج ، ولكنى سأسمح لنفسى أن أقاطعه الليلة وأن أعارضه وأن أحول بينكم وبين الاقتناع بما يريد أن يقنعكم به .

انكم تعلمون أننى تخليت عن كل شىء من عرض الحياة الدنيا ،



تخليت عن التدريس فى الجامعة ، عن الوظائف الحكومية أو خارج الحكومة ، وكل ذلك لأكرس كل لحظة من وقتى . . كل نفس من أنفاسى ، وكل قطرة من دمى من أجل تحقيق هذا الهدف العظيم الذى نسعى لتحقيقه وهو حرية مصر وتوحيد العرب وبعث الإسلام ، وإنى أقوم بذلك وليس لى من هدف إلا أن أستشهد فى سبيل الله والوطن ، فلو أنى قبلت هذا الذى يعرضه عليكم فوزى ، لكان معنى ذلك أننى أسعى وراء شهرة أو جاه ، صحيح أن رئاسة حركتنا لا تعنى شيئاً سوى المزيد من التضحية والعناء ، ومع ذلك ...

وقاطعه فوزى . . . ولكن صوت خالد أمين علا فوق صوته مجلجلا بالغضب :

— إذا أبيت إلا أن تمضى فى الدفاع عن اقتراحك فلن يبقى أمامى إلا أن أنسحب من هذا المكان ولن تعودوا ترون وجهى ثانية .

وسكت خالد وقد راح صدره يعلو ويهبط فى شدة وعنف . . . وران الصمت على الجماعة وحبس الجميع الأنفاس ... ولم يعرف فوزى كيف يتصرف فإذا الانفعالات تخنقه ... والدموع تنحدر من عينيه... ولا يرى إلا أن يهرع نحو خالد يعانقه ، ودوى التصفيق والهتاف واغرورقت الأعين من فرط التأثر ...

وحانت من صبرى عبد الوهاب الذى كان أشد الجميع تأثراً ، التفاتة صوب الدكتورة فاطمةفوجدها مطرقة برأسها منطوية على نفسها

وأحس كما لو كانت مشاعرها وأحاسيسها قد تقوقعت ولم يلبث ان هز رأسه وقال لنفسه فى تخابث :

— لقد كشفت نفسها ، مسكينة !! كم تحبه !

٣

استيقظ خالد فى بيتهم المتواضع فى الحلمية الجديدة غداة الخميس الحافل ، لصلاة الفجر كما هى عادته ، ولم يعاود النوم بعد فراغه من الصلاة وراح يتلو القرآن بصوته العذب الرخيم ، وراح يكرر الآية التى جعلها شعار حياته ونبراسه :

« ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون . فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون . يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين »

واستيقظت أمه الست عديله على تلاوته ورفعت يديها النحيلتين إلى أعلا وتطلعت بعينيها الزرقاوين وراحت تدعو الله كما هو دأبها بالليل والنهار :

— إلهى وأنت جاهى احفظ لى ابنى خالد وافتح عليه وارزقه بابنة الحلال وحقق آماله ووفقه وانصره هو وإخوانه يارب العالمين .

وتوقف خالد عن التلاوة وقد أحس بيقظة أمه . . . وسار نحوها فى خشوع ثم انحنى على يديها وقبلهما .

— صباح الخير يا أمى .

— يسعد صباحك يا خالد .

وأمسكت برأسه وأهوت عليه تقبيلا بينما راح يبادلها قبلاتها ، ولم تلبث أن قالت له وهى تبتسم :

— يا ابنى ياخالد ألا يوجد فى القرآن سوى هذه الآية التى تتحدث عن الموت والقتل ؟ يا ابنى يا حبيبى الله يهديك .

وأمسك خالد يد أمه فى حنان وراح يقبلها من جديد وقال لها وهو يبتسم :

— يا أمى القرآن كله بركة . . وعلى كل حال لا تخافى علىّ فعمر الشقى بقى .

وردت أمه عليه فى لهفة واحتجاج :

— يا ريتك يا ابنى كنت شقى إذن لما خفت عليك أبداً . . طول عمرك تصوم وتصلى منذ كنت صبياً صغيراً .

* * *

ودبت الحركة بعد ذلك فى البيت واستيقظ أخواه الأكبر والأصغر وجلس ثلاثتهم على مائدة الإفطار التى قلما تجمعهم إلا فى يوم الجمعة . وكان الشبه يبدو قوياً جداً بين أحمد الأخ الأصغر الذى لا يزال طالباً فى كلية الحقوق وبين خالد ، لا يفرق بينهما إلا السن ، وكون خالد عريض المنكبين قوى البنية . أما حسنى الأخ الأكبر والذى يعمل موظفاً فى وزارة الصحة ، فقد كانت تلوح عليه سمات الهدوء والبساطة .

ووضعت السيدة عديلة طبقا من البيض المقلى أمام خالد الذى لم يلبث أن صرخ بمجرد النظر إليه :

— لمن هذا .. لى أنا وحدى ؟ست بيضات . . ؟ ! وأزاح الطبق من أمامه ليتوسط المائدة ، ولـكن أمه أعادت الطبق حيث وضعته أمامه وقالت له وهى تحبك الطرحة السوداء فوق رأسها وتحسن استدارتها حول وجهها ، وقد اعتاد أولادها مذ فتحوا أعينهم على الحياة ألا يروا والدتهم إلا منتقبة بالطرحة التى لم تـكن تتخلى عنها إلا ساعة النوم :

— اسمع يا خالد إذا أردت أن تجعل قلبى راضياً عنك فيجب أن تأكل كل ما فى الطبق بمفردك .

وضحك خالد وقال محتجاً :

— ولـكن يا أمى هذا كثير جداً .. وأنتم ماذا تأكلون ؟

فقالت أمه :

— لا تحمل همّا ، أخوك حسنى أحضر إيجار أرضـكم . . الخير كثير والحمد لله وهم يأكلون فى كل يوم ، أما أنت فصائم أكثر الأيام وعلى كل حال فسوف أقلى لهم بيضا . لـكى يرتاح بالك وتأكل طبقك .

وانضم حسنى وأحمد فى رجاء أمهما إلى خالد ، فابتسم وشمّر عن ساعده فى حركة مبالغة مرحة وقال :

— توكلنا على الله ...

ولم يـكد يمضى فى التهام بعض ما فى الطبق . . حتى عادت أمه تحمل طبقاً مماثلا ، ووضعت أمامه طبقاً من الفول الغارق فى السمن .

ومرة أخرى صاح خالد محتجاً ولكن فى مرح :

— وعلىّ أن آكل هذا أيضاً .. كله بمفردى ..؟

ونظر صوب أخويه مستمداً العون ولكنه وجدهما يتظاهران بالانصراف عنه . وكأن والدته استمرأت منه هذا الاستسلام لتناول الطعام ، فأسرعت تعدو نحو المطبخ لتعود حاملة طبقاً جديداً يحتوى على نصف فرخة وبعض البطاطس المحمر . وانفجر خالد فى عاصفة من الضحك وهو يرى والدته حاملة الطبق ، ولكن والدته لم تكن ترى فيما تفعل شيئاً يبعث على الضحك ولذلك فقد قطبت حاجبيها ولوت شفتيها الرقيقتين وقالت له فى صرامة :

— ما الذى يضحكك يا خالد .. لقد كان هذا نصيبك من غداء أمس وحضرتك كنت صائماً ولم نرك طول النهار والله أعلم إذا كنت قد أفطرت كما تقول أم لا تزال على لحم بطنك .

ولكن خالد قاطعها قائلا :

— والله يا أمى فطرت أجمل فطار فى منزل الأستاذ فوزى . . لحمة « بفتيك » وفاصوليا وأرز وسلطة خضراء وحلّينا بعنب . لاتوجد لديك فكرة عن مهارة وفاء هانم فى الطهى .

وتضايقت الست عديلة وقالت لخالد فى احتجاج :

— وخلاص كرهت أكلى يا خالد ؟

فاكفهر وجه خالد وقال :

— أعوذ بالله كيف تقولين هذا القول ، وأنت تعرفين أنك عندى

أعظم مخلوق فى العالم . . . ولا أستطيع الحياة بغير رضائك . قال ذلك ثم أهوى على قطعة الفرخة ينهش فيها بشوق ونهم ليدخل السرور على أمه ولم يلبث أن صاح قائلا :

— الله . . تسلم ايديكى . . ربنا يقدرنى على رد جمايلك .

وانتهزت الست عديلة ثناءه عليها ، لكى تفرغ بعض ما فى نفسها من هم وضيق وقلق فقالت له :

— وهل قصرت يا خالد فى رد الجمايل لأمك ، أو لست تجرعها كل يوم الهم والقلق والخوف عليك .

وتوقف خالد عن الطعام وقد امتقع وجهه ، وأصابه التوتر العصبى الذى يعيبه عن الكلام ، ولكنه كعادته لم يلبث أن تغلب على صعوبته وقال لأمه فى أسى وحزن :

— أسأل الله أن يأخذنى من هذه الدنيا ، قبل أن أكون مصدراً لهمك وقلقك وحزنك .

وشهقت الست عديلة وخبطت بيدها على صدرها لسماعها هذا الدعاء وصاحت فى جزع :

— بعد الشر عنك ، ألف بعد الشر ، ان شاء الله ما يذهب عن هذه الدنيا ويأخذه الله إلا كل من يكرهك ويعاديك انت وجميع إخوانك ، واقتربت من خالد فى جزع ولهفة وقد تحولت إلى كتلة من الحنان والحب وراحت تربت على ظهره وتقول له :

— أهكذا يا خالد تقول هذه الكلمة التى تحرق قلبى . . . ألا تعلم أنك ضنا قلبى ونور عينى ، وأغلى شىء فى الدنيا ، مالك لا تقدر قلب الأم ، ألا تعذرنى وأنا أراك ترمى بنفسك كل يوم فى النار ، ولا تكاد تتنفس الصعداء وينجيك الله حتى تعود للسجن من جديد ؟

وهم خالد أن يقاطعها فأسرعت تقول :

— على كل حال لقد رضيت بما يرضيك ، ربنا يحميك يا خالد ... فقط بودى لو ... لو ... ثم أمسكت عن الكلام وهى تنظر له فى حذر وخوف اغضابه .

واغرورقت عينا خالد من التأثر لحنان أمه وامتلأ بالرغبة فى إرضائها فقال :

— بودك ماذا يا أمى ؟

— بودى لو تزوجت ياخالد وأصبح لك بيت وزوجة تسهر عليك .

ولاح التردد على وجه خالد ولمت ابتسامة رقيقة على شفتيه فتشجعت الست عديلة ومضت تقول له :

— لماذا لا تتزوج ... أو لم يتزوج صاحبك فوزى وأصبح له بيت وزوجة ، أو لم يتزوج صاحباك الآخران محي وصبرى ، فإذا كان الزواج يحول دون الجهاد فلماذا تزوج أصحابك ... هل الزواج حرام فى شريعتك ؟

وضحك خالد وراح يتبسط مع والدته :

— ان الزواج ليس حراما يا أمى ، وليست العزوبة من شريعة

جماعتنا ، فمن تريديننى أن أتزوج ؟ زهيرة ابنة العمدة لكى آخذ الستين فدانا من أجود أطيان الميمون ؟

فقالت أمه وقد انبسطت أسارير وجهها وانشرحت لحديث ابنها :

— وما عيب زهيرة ابنة عمك ، بيضاء وحلوة مثل القمر « ومتختخة » والستون فدانا يا خالد ليست عيباً ولا هى منقصة . .

على أن الست عديلة أحست بغريزتها أن ابنها لا يستطيب الحديث بهذا الأسلوب فأسرعت تغير لهجتها وتقول :

— على كل حال تزوج من تحب وتختار ، ولك علىّ ألا أتدخل فى هذا الأمر . . أو لا تقول إنك معجب بست وفاء ؟

وأسرع خالد يقول وقد لمعت عيناه :

— إن كلمة إعجاب لا تكفى لوصف شعورى نحوها ، ليكاد يخيل إلىّ أحياناً أن ليس فى الدنيا كلها من يشبهها أو يدانيها فى كمالها وعفتها واخلاصها لزوجها ، إنها هدية من الله لفوزى .

فأسرعت الست عديلة تقول :

— إذن فاطلب منها أن تزوجك بمعرفتها . . أو لا تقول لى إن لها أختا ؟

فرد خالد فى حماسة استوقفت والدته وأبهجتها :

— لها أخت شقيقة كأنها توأم لها ، لا تقل عنها عفة وكمالا وجمالا .

فقالت الست عديلة :

— على بركة الله . . دعنى أذهب لأخطبها لك .

قهقهه خالد مرة أخرى وقال لها :

— حرام عليكى يا أمى تظلمين أسرة وفاء . . أما تكفى نكبتهم بفوزى فتريدين أن تنكبيهم بى ؟

ومرة أخرى خبطت الست عديلة على صدرها وقالت فى احتجاج :

— اسم النبى حارسك يا خالد ، ما هذا الكلام الفارغ الذى تتلفظ به . . هل أنت نكبة ؟ وهل صاحبك الأستاذ فوزى نكبة ؟

وكف خالد عن الابتسام وبدا الجد على وجهه :

— أو لم تقولى أنت نفسك لى منذ لحظات إننى أسبب لك الهم والقلق والخوف بالليل والنهار ، فهذا هو ماتعانيه وفاء وأسرتها بسبب فوزى ، فهلا يكفيهم مايسببه لهم فوزى من القلق فتريدين أن تزيدى همومهم ؟

فقالت الأم :

— إذن تزوج هذه الدكتورة فاطمة التى تحبك .

وامتقع وجه خالد ونظر نحو أخيه أحمد فى صرامة ، ولكن أحمد حول رأسه عنه وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة ماكرة واندفع يدافع عن نفسه :

— والله العظيم ما قلت لها أكثر مما حدث بالأمس فى مجلس الجهاد ، لاتحملنى مسئولية استنتاجاتها .

وهدأت نفس خالد بعض الشيء وسأل أمه :

— من أين جاءك أن الدكتورة فاطمة تحبنى وأنها على استعداد ان تتزوجنى ؟

فقالت أمه :

— إنها مسألة ظاهرة كالشمس ، ألم تكن هى الوحيدة التى صفقت عندما اقترح فوزى أن تكون أنت الرئيس وظلت تصفق من دون الحاضرين ؟

فقال خالد وقد قطب حاجبيه :

— إن ذلك لا يعنى سوى شىء واحد . وهى أنها أكثر أفراد الجماعة تأثراً بفوزى وتجاوباً مع كل ما يدعو إليه ، ولو أن فوزى ذكر اسماً غير اسمى لكنت أنا أول المصفقين بدلا عنها ، لأننى أومن بكل ما يقول به أو يدعو إليه .

وكان حسنى شقيق خالد الأكبر والذى ظل صامتاً طوال هذه المناقشة قد فرغ من إفطاره ونهض عن المائدة ثم عاد وهو يجفف يديه بالمنشفة ووجه الحديث لوالدته فى بطء وتراخ وفى غير حماسة :

— ما أعجب أن تحدثيه « يا نينه » عن الزواج قبل أن تحدثيه عن الوظيفة ، كيف يتزوج قبل أن يتوظف .. أليس الزواج فى حاجة إلى الشبكة والمهر والنفقة بعد ذلك ، فمن أين له ذلك كله إذا لم يتوظف ؟ ويوم أن يتوظف ، فإن أعظم بنات مصر يتمنين زواجه .

ونهض خالد فى غضب وقال فى حدة وعصبية :

— ألم أقل لكم ألف مرة ألا تفتحوا موضوع التوظف أمامى ؟

ووجمت الأم وهى ترى ريح الغضب تعصف بابنها ، ولكن أحمد الشقيق الأصغر تعلق بذراع خالد وقال له :

— أرجوك يا أخى خالد أن تترفق بنا وأن تحادثنا فى هدوء وتحاول أن تقنعنا أو نقنعك. إذا كنت تكره حديث الوظيفة كل هذا الكره ففيم إذن كان حرصك الدائم على التفوق فى التعليم... لم لم تكتف بحصولك على بكالوريوس العلوم واخترت أن تدخل معهد التربية ، لماذا سعيت للسفر إلى انجلترا لتحصل على الدكتوراه ، لماذا كافحت عندما اضطهدتك حكومة الأغلبية وفصلتك من البعثة ، وأصررت على المضى فى الحصول على الدكتوراه بالرغم من المتاعب والمصاعب والآلام التى تعرضت لها ... لماذا ... لماذا كان ذلك كله مادمت تكره الوظيفة هذا الكره ...؟!

وكان خالد وهو يستمع لهذا الاستعراض الطويل لكفاحه العلمى تتنازعه شتى الانفعالات فتارة يهم بمقاطعة أخيه والانفجار فى وجهه ، وأخرى يحاول السيطرة على أعصابه ويرى أن من حقهم عليه أن يشرح لهم موقفه وقد تغلب عليه هذا الخاطر الأخير ، وجلس من جديد وراح يحدث أسرته فى هدوء :

— أما لماذا كافحت حتى أصل إلى نهاية التعليم فذلك لكى أدفع عن نفسى مظنة العجز أو التقصير . منذ قررت أن أهب نفسى للكفاح من أجل بلادى ... فقد أصبحت أخشى أن أوصف بأننى لم أفلح

فى التعليم فاتجهت هـذا الاتجـاه ، فـكان لابد أن أنتصر أولا فى هذه المعركة .

أما لمـاذا أرفض الوظيفة ، فذلك لـكى أجنبـكم مرارة الألم الذى ستعانونه يوم أن أفصل منها ، ذلك أن أى حكومة لا يمكن إلا أن تفصلنى كما فصلتني حكومة الأغلبية من البعثة ، فخير لى ولـكم أن أجنبكم وإياى مرارة الفصل من الوظيفة ، ولـكى أجرد الحـكومة من هذا السلاح الذى تهددنى به إذا ما كنت تحت رحمتها .

فقال حسنى فى ضيق واحتجاج :

— ولـكنك ياخالد تعرف أحوالنا المالية المضطربة وأطياننا المرهونة المهددة بنزع ملـكيتها ، إننى لم أعد أحصل على إيجار الأرض إلا بكل مشقة وبطلوع الروح ونشفان الريق . وما أخوفنى عليك وعلينا جميعا إذا ظللت على تعلقك بهذا الفوزى السيد الذى نـكبنا الله به .

وانفجر خالد فى ثورة عارمة ، وتطاير الشرر من عينيه وتقلصت عضلاته كلها وتوترت أعصابه واندفع يصرخ فى زئير مخيف:

— ما الذى ينقصك ياسيد حسنى ؟ أو لم تفرضوا على الآن أن أفطر بست بيضات .. أو لم تقدموا لى نصف فرخة ... من فى مصر كلها يفطر مثل هذا الإفطار ... حتى ولا الملك نفسه ، وكم فى مصر ممن لا يجدون الخبز القفار ... كم من ملايين فى مصر لا يحلمون بأن يفطروا بيضا فما الذى تشكونه .. ما الذى ينقصكم . . . ما الذى ينقصنى

أنا ..؟ ألست أعيش معكم فى هذا البيت مستوراً متمتعاً بالصحة والعافية وراحة الضمير ... أو لا تحمدون الله ... ألا تشكرون الله ... ؟

وأسرعت الست عديلة فى فزع وهى ترى وجه خالد المحتقن وصوته الذى يعلو ويهبط فى شدة ... فضمته إلى صدرها وراحت تقول :

— سلامتك يا خالد ... سلامتك . . . نحن شاكرون حامدون الله ، صدقت فى كل ما قلت وربنا يطول عمرك ... إن حسنى لا يقصد أن يغضبك ، إنه أخوك الكبير وهو يحبك ياخالد . . . نريد أن نراك سيد الناس كلها .

فقال خالد وقد بدأت ثورته تهدأ بعض الشىء . . وراح يوجه الحديث إلى أخويه :

— وأنا سيد الناس كلها لأننى مستغن عنهم ... وكل إنسان يستغنى عن الناس ويزهد فى الدنيا لا يصبح هناك من يفوقه .

وانسحب حسنى من الحجرة بينما كانت أمه تقول له :

— إننى امرأة جاهلة ياخالد ، ولم أتعلم كما تعلمت وعقلى لا يمكن أن يكون كعقلك فلا تؤاخذنى يابنى.. ولا تؤاخذ أخاك... إنه يكلمك على قدر عقله وفهمه .

وانحنى خالد على يد أمه يقبلها ويقول لها :

— أنت خير من رأيت من النساء المتعلمات فلا تصفى نفسك بالجهل، إنك معذورة ... فالدنيا كلها لا تفهم الحياة إلا بالصورة التى تحدثوننى بها ، ولكننى أردت أن أحسم هذا الموضوع حتى لا يفتح مرة أخرى..

وإلا فأقسم بالله أننى لن أبقى فى البيت . ثم رفع صوته ليسمع اخاه الأكبر الذى كان قد بارح الحجرة :

— وأرجو أن تسمع ياسيد حسني ، وأنت ياسيد أحمد ، ان فوزى السيد رمز لما أجاهد فى سبيله ولذلك فهو عندى كل شىء ، هو أسرتى

وهو أبى وأمى وإخوتى ، هو الوظيفة والمستقبل ، فمن يحبنى يجب أن يحبه ومن أراد أن يكرمنى فلا يذكر اسمه إلا مكرما ..

وأسرعت الأم تقول :

— فوزى يابنى على عينا وراسنا ، ربنا يحميه وينصره .

وقطع هذا الحديث هتاف باعة الصحف الذى ارتفع فجأة يملأ الجو ، وأرهفت الأسماع للنداء الذى بدأ يتضح .

— الحرب .. الحرب !

وتعالت الصيحات من كل مكان تستوقف باعة الصحف ، ودخل حسنى فى هذه اللحظة يحمل أحد هذه الملاحق تعلن بالخط الأحمر المخيف نبأ وقوع الحرب واشتباك الجيوش ..

ولمعت صورة فوزى فى خاطر خالد .. إنه يجب أن يسرع إليه ليكون معه ... ليكون بجانبه فى هذه اللحظة الحاسمة فى تاريخهم وتاريخ البشر ، فهو أعرف الناس بحالة الفزع التى سيكون عليها فوزى.

٤

عندما دق الجرس فى شقة فوزى أدركت وفاء التى كانت تقف فى المطبخ بمفردها أن القادم لابد أن يكون زوجها وقد عاد من صلاة الجمعة مصطحبا خالد أمين وصبرى كما تم الاتفاق ، وأسرعت تلبى نداء الجرس ناسية أن تخلع مريلة المطبخ التى كانت ترتديها ، بل وناسية أن تتخلى عن المغرفة التى كانت تقلب بها الطعام الذى كان لايزال فوق موقد الغاز المشتعل .

وأشرق وجهها بالابتسام لمرأى الدكتور خالد وزوجها وأسرعت يدها بحركة آلية نحو رأسها لتحسن تصفيف شعرها ، وهنا فقط اكتشفت « المغرفة » التى كانت تمسك بها فضحكت واحمر وجهها خجلا وأسرعت تداريها خلف ظهرها ، وضحك فوزى من هذه الحركة وقال لها :

— لا داعى لإخفائها ، إنها صولجان ملكك ، ولقد رآها خالد على كل حال .

وغمغمت وفاء وزاد خجلها وارتباكها :

— إن الدكتور خالد أخى . . .

واحمر وجه خالد وغمغم بكلمات لا تبين ، وهز إحدى كتفيه بحركته العصبية وارتمى على بعض المقاعد الوثيرة الموضوعة فى داخل الشقة

الصغيرة ، وبدت عليه الحيرة والارتباك ورغبته فى أن يقول شيئاً لا يعرف كيف يعبر عنه . . .

وضحك فوزى الذى كان يطالع صاحبه ككتاب مفتوح وقال له وأصابعه تعبث بمفاتيح الراديو لسماع آخر أنباء الحرب ...

— قل يا خالد . . . تكلم . . . أفصح عن كل ما يدور فى نفسك دون أن تخشى شيئا . .

أنت تعلم شعارنا «الشكك ممنوع والزعل مرفوع والرزق على الله»

ولم يستطع خالد الا أن يشاطر صاحبه روح المرح ، على أنه قال فى غير تردد :

— الحق يا فوزى لقد أصبحت أخجل من نفسى . . . بعد أن تحولت إلى شبه زبون دائم عندكم منذ عدتم من الإسكندرية .

وتوقف فوزى عن إدارة مؤشر الراديو متضايقا وقال لخالد محتجاً ومعاتبا :

— اننى أدع لقلبك الرد على هذا الهذر الذى تهذى به ، فهو لاشك يدلك على مقدار السعادة التى تمنحها لوفاء ولى بهذه المشاركة ، وإذا أردتنى ألا أكره حياتى العائلية الجديدة وما وفرته لى من هناء واستقرار فلا أقل من أن تشاطرنى فيها هذه الحصة من الطعام .

وهمّ خالد أن يقول شيئا . . . ولكن الراديو الذى كان قد سخن وأصبح مستعدا للإذاعة ، حمل فوزى على أن يستدير من جديد إليه فى لهفة محركا المؤشر لالتقاط محطة لندن . وانبعث صوت المذيع يهدر

باللغة الإنجليزية واصفا تقدم الجيوش الألمانية فى سرعة خاطفة وتوغل سلاح الدبابات المخيف إلى أحشاء الأراضى البولندية مخترقا جبهة الجيش البولندى وممزقا إياه إلى شراذم وجماعات .

ومضى المذيع وقد انتابته الحمى يصف أفاعيل السلاح الجوى الألمانى الذى راح ينقض محطما كل شىء خلف الجبهة ليحول دون وصول الإمدادات إليها: الطرق والجسور والكبارى وقضبان السكك الحديدية والقطارات والسيارات وملتقى المواصلات . . .

وقال خالد وقد امتقع وجهه :

— يا لها من قوة وحشية رهيبة !

ولم يستطع فوزى أن يعلق بشىء فقد بدأ المذيع يتحدث عن قاذفات القنابل الألمانية ومئات الأطنان من المتفجرات التى أسقطتها فوق أحياء مدينة وارسو السكنية ، فقتلت الألوف من النساء والأطفال تحت الأنقاض ، ونقل المذيع عن شاهد عيان وصف طائرات الاستوكا الألمانية وهى تنقض فتقترب من سطح الأرض فى سرعة خاطفة وتصلى السائرين على الأرض أو راكبى السيارات من المدنيين نارا حامية من مدافعها الرشاشة فتحصدهم حصدا ثم تعـــود للتحليق بأسرع من انقضاضها . . .

وخفق قلب فوزى وتسارعت أنفاسه وارتجف بدنه . . . وقال لخالد :

— لقد بدأت الحرب أخيرا بكل أهوالها ووحشيتها ، وليس يعلم

الآن سوى الله وحده ، متى وكيف تنتهى ، وأى عالم جديد ... ولم يتم فوزى جملته فقد كان المذيع قد فرغ من أنباء القتال وانتقل يتحدث عن محاولات لموسولينى زعيم إيطاليا للتوسط لإيقاف الحرب ، وجاء رد الإنجليز صلباً متشدداً . . إن الجيوش الألمانية يجب أن تنسحب أولا قبل كل شيء من بولندا . ولكى تظهر انجلترا عزمها على القتال إن لم ينفذهتلر ذلك ، فقد أصدرت أمرها بالتعبئة العامة .

وهز خالد كتفيه فى استهزاء ..

— أمعقول أن يوقف هتلر عجلة حربه الساحقة بعد أن تحركت ؟

وقطعت وفاء عليهما حبل المناقشة ، وقالت لهما وهى تبتسم وقد خلعت « مريلة المطبخ » وأصلحت من تصفيف شعرها ، وبدت بكل وجهها الجميل الصبوح الذى لا تشوهه بالمساحيق :

— دعونا الآن من أخبار الحرب .. وهلموا إلى المائدة المتواضعة ، ثم استدركت قائلة ولكن أين الأستاذ صبرى . . لماذا لم يحضر كما قلت لى ؟

فقال فوزى .. لقد استدعاه عزيز باشا ليتغدى معه وسيحضر بعد تناول الغداء مباشرة .

وتدخل خالد قائلا فى مداعبة :

— على كل حال يا وفاء هانم ، صبرى الآن رجل متزوج ورب أسرة ، فدعينى أتمتع بهذا الامتياز الوحيد الباقى لى وهو أن لايزاحمنى على هذه المائدة .

وصاح خالد محتجاً فى دعابة بمجرد أن وقع نظره على المائدة :

— لا.. لا.. ماهذا البذخ ياوفاء هانم .. حمام ولحم وأين التقشف الذى تنادى به ؟

فقالت وفاء فى رضا وابتهاج :

— من فضلك يا دكتور لا تسخر من مأدبتى المتواضعة . . إن فوزى يحدثنى عن أجواز الفراخ التى تقدمونها فى مآدبكم بغير عدد .

وقال خالد :

— ألا تعرفين مبالغات فوزى عنـد ما يحاول أن يفرحنا جاعلا من الحبة قبة ؟

وقال فوزى :

— ما قلت إلاّ الحقيقة .

ورد خالد :

— على أى حال هذه مأدبة حافلة .

وقالت وفاء وهى تضع طبقا من الحساء أمام خالد وآخر أمام زوجها

— فلنتحاسب يا دكتور . . . إن هذين الزوجين من الحمام بثلاثة قروش وهذا الرطل من اللحم بثلاثة قروش ، والملوخية والطماطم والسلطة بخمسة مليمات والخبز بقرش ونصف وأقة الموز بقرشين . . . أكثير على مأدبة تقام لزعماء الجيل الجديد (وضخمت وفاء فى هذه العبارة الأخيرة وقالتها بتفخيم كبير على سبيل المداعبة) أن ينفق عليها عشرة قروش ؟

وصاح خالد فى فرح برىء :

— هذا غير معقول . . . أكل هذه المأدبة الحافلة بعشرة قروش ؟

وتدخل فوزى ممازحا بدوره :

— ما هذا التهريج يا خالد ، أهذه أول مرة تتلو عليك وفاء تسعيرة المأكولات ؟ إننا لا ننفق فى اليوم العادى سوى خمسة قروش ، وفى الأيام غير العادية مثل اليوم عشرة قروش . إننى أعرف ما الذى يربكك ويجعلك تتصور من الحبة قبة ، إنها كثرة الصحون والأطباق والشوك والملاعق والسكاكين والفوط ... لقد نجحت وفاء فى تهويشك .

ووزعت وفاء الحمام واللحم . . . ثم ملأت طبقا عميقا من الملوخية وقالت لخالد وهى تضعه أمامه :

— أنا أعرف أنك تحب الملوخية . . .

وقال خالد :

— لم أعد أحبها . . .

وتوقفت يد وفاء التى كانت تفرغ له أرزا .

فأسرع خالد يقول :

— لقد أصبحت أعبدها عبادة بعد أن تذوقتها من يدك .

ومضى الغداء وسط هذا الجو من السعادة والانشراح والصفاء وقد نسى فوزى وخالد كل شىء عن الحرب للحظات .

ولكن حديث الحرب لم يلبث أن استؤنف مع مجىء صبرى عبد الوهاب ، الذى جاء بجسده النحيل وجبهته العريضة وعينيه الواسعتين

وبسمته الساخرة التى تكشف عن فرط اعتداده بنفسه وعن سنته الذهبية ، ووجه حديثه لوفاء :

— أتعرفين ماذا حل بصاحبكم القائمقام شاهين السلانكلى ؟

وقطبت وفاء حاجبيها لتتذكر الاسم ، وما لبث وجهها أن أشرق وقالت :

— أتقصد هذا الرجل الذى ركبنا سيارته والذى يكره فوزى ؟

وهتف فوزى وخالد فى نفس واحد :

— ماذا جرى له ؟

وتحولت بسمة صبرى إلى ضحكة عريضة وراح يروى لهم ما قصه عليه عزيز باشا ، وكيف قال عنه إنه جاسوس قذر وأنه طرده كالكلب من مكتبه وطالب بطرده من الجيش .

وقال خالد :

— وهل نجح عزيز باشا ؟

فأجاب صبرى :

— كلا مع الأسف فقد تدخل الإنجليز فيما يظهر ، ولذلك فقد اكتفى بنقله إلى منقباد ليكون بعيدا عن مركز الجيش .

وسأل فوزى فى لهفة :

— وهل نفذ الرجل النقل ؟

ورد صبرى :

— طبعا هذا الطراز من الناس جبان جداً .

وقال فوزى :

— وما رأى عزيز باشا فى الحرب ؟

— إنه يرى أن انجلترا وفرنسا ستدخلان الحرب ، ولكن معركة بولندا لن تستغرق سوى أسبوع أو أسبوعين على الأكثر ، ثم يتحول هتلر إلى سحق انجلترا وفرنسا ولن تستغرق هزيمتهما أكثر من شهر أو شهرين . . . إن عزيز باشا يقول إن الامبراطورية البريطانية قد شاخت وهى تلفظ أنفاسها .

فقال فوزى فى قلق :

— وإيطاليا . . . إيطاليا ماذا سيفعل موسولينى ، إن هذا ما يهمنا نحن .

فرد صبرى :

— قال لى إن المعلومات التى أبلغها الإنجليز لهم . . . أن موسولينى لن يشترك فى الحرب .

وتنفس فوزى الصعداء قائلا :

— إن هذه تكون مفاجأة سارة لم تكن فى الحسبان تخفف عنا ضغط هذا الكابوس المخيف .

وسأل خالد :

— وجيشنا . . . جيشنا ما هو مدى استعداده فى هذه الظروف ؟

فقال صبرى :

— ليس فيه سوى نفر من الضباط الشبان المتحمسين .

أتعرفون من قابلت عند عزيز باشا ؟ ولم ينتظر صبرى ليتساءل صاحباه فقد كانت نظرتهما تغنى عن كل كلام :

— بهاء عبد القادر ؟

وقال خالد :

— من بهاء عبد القادر ؟

فقال فوزى وقد تهلل وجهه بالفرح وهو يتمثل هذا الشاب الأسمر الفارع القوام :

إنه الشاب الذى حدثتك عنه وكيف حال بين البوليس وبين الاعتداء على فى الإسكندرية .

فقال خالد مستدركا :

— آه بهاء عبد القادر ، صاحب حادث المنشية بالإسكندرية ، والتفت صوب صبرى وسأله :

— أقابلته عند عزيز باشا . . لماذا لم يعد يتردد على البيت الأخضر؟ إننى لم أره وإن كنت أسمع اسمه كلما جاء ذكر هذا الحادث . . .

فأجاب صبرى :

— لقد دخل الكلية الحربية ، فأصبح محظوراً عليه أن يشتغل بالسياسة ، ولكن مبادئنا وروح كفاحنا قد تاصلت فى أعماق نفسه ، وقد تخرج وأصبح الآن ملازما ثانياً، وهو من أشد المتحمسين لعزيز باشا ، وسمعته يقول له إن جميع ضباط الجيش يعلقون عليه أكبر الآمال ...

ودخلت وفاء تحمل صينية القهوة وهى تضحك وتقول :

— ألا تأخذون أجازة من حديث السياسة والحرب والوطنية ... اشربوا القهوة . . . ودعونى أدير لكم إحدى اسطوانات أم كلثوم .

وصاح فوزى :

— إن كنت أسامح .

— لا بل أفديه إن حفظ الهوى .

— وحقك أنت المنى والطلب .

وكان الدكتور خالد هو صاحب الطلب الأخير . . . فنظرت له وفاء فى ابتسام وقالت :

— سأبدأ بطلب الدكتور خالد — وحقك أنت المنى والطلب ...

وراحت وفاء تبحث عن الاسطوانة المنشودة . . . ثم ظهر على وجهها الرغبة فى التخابث والمعاكسة ... فقالت :

— يا ترى من هى منى الدكتور وطلبته . . . أتكون الدكتورة فاطمة ؟

واحمر وجه الدكتور خالد وارتج عليه فأطرق برأسه وظهر عليه شيء من الارتباك .

وعاتب فوزى وفاء على إحراجها للدكتور خالد ، فبدأ الأسف على وجه وفاء وقالت فى صوت حزين :

— أنا آسفة جدا يا دكتور خالد ... لم أقصد إلا أن أداعبك ... إنني أعتذر .

وتدخل صبرى قائلا :

— لا يوجد أى داع للاعتذار أو الأسف يا وفاء هانم . . . لقد عبرت عن إرادة جماعية .. نريد أن نعرف حكاية الدكتورة فاطمة ومتى ستنتهى . . . نريد أن نفرح بالدكتور خالد وفاطمة .

وتشجعت وفاء فقالت :

— هذا هو قصدى من السؤال ، أنت تعرف يا دكتور خالد كم نعزك ونحب أن نراك سعيدا وموفقا فى الزواج . . . وقد حدثنى فوزى بالأمس عن موقف الدكتورة فاطمة ، فأردت أن أعرف رأيك فيها . . . إن فوزى لا يفتأ يثنى عليها وعلى أخلاقها ونبلها وتفوقها فى عملها وفى وطنيتها .

فقال خالد وكان قد تمالك نفسه وسيطر على عواطفه وبدأ يتحدث فى هدوء وقد ارتسمت على جانب فمه بسمة خفيفة غامضة لم يلبث حديثه أن كشف عن سرها :

— إننى بدورى لست أقل إعجابا بالدكتورة فاطمة أو تقديرا لكفاحها

النبيل فى حركتنا فى صدق وإخلاص منذ أيام مشروع القرش ، ولكن الذى يهمنى هو أن أصحح خطأً شائعاً عن تفسير ماحدث بالأمس ، لست أعرف من أين جاءت فكرة تعلقها بى ، وقد راحت تصفق بحماسة للأستاذ فوزى وتهتف باسمه . .. إذا كانت فاطمة تتعلق بأحد فى رأيى فبفوزى وليس بى .

ونظرت وفاء فى شك نحو فوزى ، وقد بدأت الابتسامة تخفت من شفتيها وقالت فى برود وتثاقل :

— إنك لم تقل إنها كانت تهتف باسمك .

وصرخ فوزى من الفزع :

— فى عرضك يا خالد ، ما هذا الذى تفعله . . . منذ متى كنت رجل مقالب . . . أتريد أن توقع بينى وبين وفاء ، ماذا دهاكما أنتما الاثنان . . . أسرت لكما عدوى الحرب التى أصبحت تسمم الهواء ؟

وأدار خالد رأسه وهو يكظم الضحك ، بينما كانت وفاء تقول لزوجها فى إصرار :

— لماذا لم تقل لى إن الدكتورة فاطمة كانت تهتف باسمك ؟

وقال فوزى فى توسل :

— يا وفاء يا حبيبتى . . أرجوك أن تفهمى الموقف . . لقد هتفت باسمى لأننى اقترحت أن يكون خالد هو الرئيس .. لقد صفقت للاقتراح وأيدته . . وظل وجه وفاء مقطباً . واستنجد فوزى بصبرى قائلا :

— ما تتكلم يا صبرى ...

وأجاب صبرى فى هدوء وبرود :

— رأيى معروف ومشهور ، وسأظل أدعوك أتنا يجب أن نزوج فاطمة لخالد بقرار رسمى من مجلس الجهاد ، ولو بالعافية . وخاصة بعد موقفها بالأمس الذى كشفت فيه عن عواطفها على رؤوس الأشهاد .

وقال فوزى لوفاء :

— أسمعت يا ستى ؟

ودق جرس التليفون وأسرعت وفاء لترد عليه .

بينما أوقف الجميع الجراموفون حتى تتم مكالمتها . . . ولم تلبث وفاء أن ظهرت من حجرة المكتب ووجهها يطفح بالبشر وهى تنظر صوب خالد وقالت :

— جبنا سيرة القط جاء ينط .

وهتف خالد :

— الدكتورة فاطمة ؟ ؟ !

وقالت وفاء وهى تبتسم فى تخابث وقد ذهب ما فى نفسها :

— هى بعينها .

وقال صبرى مداعباً :

— لا بد أنها عرفت أن الدكتور خالد هنا .

فقالت وفاء وهى تضحك :

— لقد سألتنى عنه أول ما سألت . وكفت وفاء عن الضحك وأخذت سمة الجد وقالت :

— إنها تعزمنا جميعاً على فيلم الحب الكبير الذى تمثله اختها أزهار ، وقالت لى إنها اتصلت بالأستاذ محيي ، وأنه سيلبي الدعوة هو وزوجته .

وقال فوزى :

— كم كنت أتوق لرؤية هذا الفيلم الذى يروى قصة أزهار ولكنه يجيء مع الأسف فى ظرف غير مناسب . . .

وقال صبرى :

— ما هو هذا الظرف غير المناسب ، أليس اليوم هو الجمعة وقد تعهدنا لزوجاتنا أن يكون بعد ظهر يوم الجمعة ، هو يوم فسحتهن ؟

فقال فوزى :

— الحرب يا صبرى . . . الحرب ، ألا تعرف أنه إذا تدخلت فيها إنجلترا وفرنسا يتحول كل شيء بالنسبة لحركتنا إلى ظلام . . . تتعذر علينا فيه الرؤية . . . إنك لا تتصور الكآبة التى تغمرنى وقد بدأت أخبار دك المدن فوق رؤوس أصحابها وإشعال النيران فيها ، تنهال علينا.

فقال صبرى :

— اسمع يا حبيبى ، رحم الله امرأ القيس ، اليوم خمر وغدا أمر . دعنا نذهب إلى السينما اليوم ونحن لا نزال قادرين على الذهاب اليها .. إن زوجتى تلح علىّ منذ عدة أسابيع أن آخذها إلى السينما وها هى الفرصة قد حانت .

ونظر فوزى صوب خالد وقال :

— ما رأيك يا خالد ؟

فقال خالد وقد احمر وجهه :

— أنا لا رأى لى ، إذا كانت وفاء هانم تحب الذهاب إلى السينما فسوف أذهب معكم .

وقالت وفاء فى ابتهاج :

— إنني شديدة اللهفة على رؤية فيلم أزهار بالذات . . . فإن شخصيتها تعيد إلىّ ذكرى ليلة زفافنا . . . لماذا لم أعد أسمع عنها الآن. هل هجرت الرقص ؟

فأسرع خالد قائلا :

— إنها فى أمريكا منذ بضعة شهور ، لقد ذهبت مع زوجها السورى لتتعالج .

وصاح صبرى :

— اضبط . . . إمسك . . . الدكتور خالد عنده أخبار الأسرة . يا خالد يا اخويا تزوجها وخلصنا .

ونظر خالد نحو صبرى وقال فى صرامة :

— صبرى أرجوك . . .

وتدخل فوزى قائلا :

— صلوا على النبى . . . صلوا على النبى . . . سوف نذهب إلى السينما أخذا بشعار صبرى « اليوم خمر وغداً أمر » .

* * *

ونجح فيلم « الحب الكبير » نجاحا منقطع النظير ، ودوت فى ختام حفلة العرض الأولى الأكف بالتصفيق الحاد والهتافات القوية بحياة أزهار بطلة الفيلم ، وامتلأ المسرح بباقات الورد والزهور .

ولم يكن إعجاب فوزى وصحبه بأقل من إعجاب الجماهير ، بل لقد كانوا يزيدون عن بقية الحاضرين معرفتهم بحقيقة القصة .

وكانت الدكتورة فاطمة هى أسعد مخلوق فى الدنيا هذه الليلة ، لا لأنها كانت تعتبر نجمة الحفلة فى غياب أختها ، ولكن لأنها جلست لأول مرة فى أحد المقاصير إلى جوار الدكتور خالد ، وكانت تحس طوال الليل بالحرارة التى يشعها جسده القوى ، وتتابع أنفاسه التى كثيراً ما ترددت فى سرعة غير عادية كنتيجة لتأثره وانفعاله ، كما ضبطته أكثر من مرة وهو يمسح دموعه خفية .

ولم يكد الفيلم ينتهى حتى استدار نحوها قبل أن تضاء الأنوار وأمسك بيدها وراح يهنئها بحرارة ، ثم أضاف قائلا وعلى شفتيه ابتسامة عريضة :

— إن إخلاص أزهار لفؤاد شىء أسطورى ، ولو لم نشهد الحقيقة بأنفسنا لما تصور الإنسان أن باستطاعة امراة أن تفى هذا الوفاء .

وتضرج وجه فاطمة حياء وأطرقت برأسها وغمغمت فى صوت خافت :

— إنها ليست الوحيدة فى إخلاصها .

واضطرب الدكتور خالد ، وأضيئت الأنوار فى هذه اللحظة ،

فإذا هو يرى أعين أصحابه مسلطة عليهما فسرت فى بدنه موجة عاصفة من الخجل ونهض واقفا فى احتجاج وصاح قائلا :

— ما هذا ؟! لماذا تنظرون إلينا هكذا ؟!

وأسرع خارجا من المقصورة ومبتعداً عن المكان بأسرع ما يستطيع ، بينما كان فوزى يقهقه فى سعادة وحبور .

وأقبل الجميع على فاطمة يغمرونها بعبارات الثناء والتمجيد ، ليس فقط على نجاح أختها الفائق فى التمثيل والذى أثبت أنها نجمة عالمية ، بل على أخلاقها الرفيعة ، وصفاتها الممتازة التى صورها الفيلم أصدق تصوير .

وضغطت وفاء على يد فاطمة وهى تصافحها مودعة ، وهمست فى أذنها متمنية لها أن تحظى بمن تحب زوجا لها فى القريب العاجل .



الفصل الرابع

١

كان مكتب السفير البريطانى فى رمل الإسكندرية فى هذه الأمسية يمثل قطعة حيّة من حياة الإنجليز فى هذه المرحلة من تاريخهم عشية دخولهم الحرب . لقد أعلن رئيس حكومتهم نيفل تشمبرلن العجوز الحرب بصوت يرتجف ، وتحدث عن تصميم انجلترا وعزمها على ألا تضع نهاية للحرب إلا بعدأن تقتلع هتلر . وبالرغم من أنه مامن إنجليزى كان يتمنى أن تقع هذه الحرب التى لا يمكن أن تكسب انجلترا من ورائها شيئاً ، وإن كان من المرجح أن تخسر كل شىء ، فقد أجمع الكل على وجوب إعلانها ، الشعب قبل الحكومة إيمانا منهم أنهم لو نكصوا عن إعلانها لما استطاعوا أن يظلوا بعد ذلك دولة من الدرجة الأولى فضلا عن أن يكونوا امبراطورية عظمى . . وهكذا وجد الإنجليز أنفسهم فى الحرب .

واكفهر جو أوربا واقشعر بدن كل ساكن فيها ، بعد أن بدأ يسمع عن انهيار مقاومة بولندا فى أيام قليلة ، وأفاعيل السلاح الألمانى الذى قرر أن يمسح وارسو عاصمة بولندا من الوجود، لا من سكانها فحسب بل من كيانها المادى كله كأنها لم تغن بالأمس . ووقف الإنجليز وحلفاؤهم الفرنسيون مكتوفى الأيدى لايستطيعون أن يمدوا يد المساعدة لبولندا

التى تتهاوى سريعاً تحت مطارق الجيش الألمانى ودباباته وطائراته ، فلا عجب إذا بلغت أعصاب الإنجليز وخاصة المسئولين منهم ذروة التوتر والعصبية فى هذه الأيام على خلاف مألوفهم . وكان سفيرهم فى مصر يمثل ذروة الذروة من هذا التوتر وهذه العصبية التى طالما أنفوا من الاتصاف بها .

ونظر الرجل حوله بعينين زائغتين ، وراحت عيناه تتنقلان فى أرجاء الحجرة التى ظلت وزميلتها فى القاهرة مصدر السلطة الحقيقية فى حكم مصر قرابة ستين عاما . لقد كان كل شىء على حاله .. الجدران المكسوة بخشب الماهوجنا ، الأثاثات الرصينة المتينة المصنوعة من خشب البللوط الإنجليزى بلونها الداكن ، المقاعد الجلدية الوثيرة من ذات اللون ، التابلوهات الثمينة وعلى رأسها هذه القطعة الفنية النادرة التى تصور الملكة فيكتوريا .

ومن الأثاثات والأمتعة انتقلت العينان الزائغتان تتصفح وجوه المحيطين به .. ها هو المستر سمارت العجوز الداهية الذى مكث فى مصر سنوات وسنوات وتزوج فيها ، والذى كانت تكفى إشارة منه لإقامة الدنيا وإقعادها . وإلى جواره الجنرال ولسون قائد عام القوات البريطانية فى مصر بكل صرامة القائد الإنجليزى الذى أصبحت بلاده تخوض حرب حياة أو موت . وهذا هو الكولونيل سميث رئيس المخابرات بكل طوله الفارع الذى يكاد يدانيه فى طوله .. لولا أنه .. وسرت فى نفس السفير ومضة من الرضا وهو يقارن بين نفسه وسميث ، فإذا كان سميث الفارع الطول يدانيه طولا فهو لا يمكن أن يقاس به عرضاً ، سيبقى هو فذاً بين الأفذاذ من ضخام الأجسام

وعمالقتهم . على أن هذه الومضة العارضة من الرضا لم تلبث أن تبددت تحت وطأة هموم الساعة وثقلها ، وازداد وجه السفير الأحمر احتقاناً ، وعيناه الضيقتان ضيقاً ، ولم يلبث أن ضرب على المكتب بقبضته وهو واقفاً وهو يكرر هذه العبارة منفساً بها عن نفسه :

— (Crasy - fools) مجانين بلهاء، كيف يتصورون أنهم قادرون على اعتراض مشيئتنا والتلكؤ فى إعلان الحرب حتى الآن .

وامتدت يده إلى الجهاز الموضوع على مكتبه ليخاطب من خلاله سكرتيره الخاص ، فضغط على زر فيه وصاح قائلا :

— هل جاءت أنباء مجلس الوزراء ؟

— لا شيء جديد يا صاحب السعادة .

ومضى السفير فى صياحه :

إذن اعطنى باهر باشا على التليفون فوراً .

وخيم السكون على كل من فى الحجرة لبضع ثوان حبست فيها الأنفاس ، بينما عاد السفير يضغط على الجهاز الموصل إلى سكرتيره ويصيح من جديد :

— وبعد ...! أين رئيس الحكومة ؟

— الخط مشغول يا صاحب السعادة ونحن نحاول الاتصال .

وغمغم السفير فى حنق :

— اللعنة !

والتفت صوب المستر سمارت ، وسأله نفس السؤال الذى طرحه عليه فى هذه الجلسة أكثر من مرة :

— تقول إن رئيس الحكومة قال لك إنهم سيدرسون الموقف ؟!
أتتفضل بإعادة نص عبارته ؟

ورد مستشار السفارة فى برود وهدوء دون أن يظهر فى صوته ما يعتلج فى نفسه من عدم رضاه عن مسلك السفير وعصبيته التى لا تليق بممثل إنجلترا العظمى فى مصر :

— طلب منى أن أبلغ تحياتى اليك وأن أحيطك علماً أن مجلس الوزراء سيجتمع الليلة فى الساعة السابعة لدراسة الموقف واتخاذ القرارات النهائية على ضوء هذه الدراسة ، وطلب منى أن ألفت نظرك إلى أن عدم دخول إيطاليا الحرب وإعلانها الوقوف على الحياد ، قد خلق موقفاً جديداً بالنسبة لمصر .

ولم يتمالك السفير نفسه فاستشاط من جديد غضباً وراح يضرب قرص المكتب بقبضته :

— أى موقف جديد ، المعاهدة صريحة وواضحة تحتم على مصر إعلان الحرب بمجرد إعلان إنجلترا لها باعتبار مصر حليفتها .

وعاد المستشار النحيل يقول وقد ازداد بروداً وهدوءاً ودهاء :

— إن باهر باشا يحب دائماً أن يظهر بمظهر المستقل الذى يتصرف بوحى إرادته ، ومع ذلك فقد أكد لى أصدقاؤنا من الوزراء أنهم سيصدرون قرار إعلان الحرب الليلة .

وكأنما ذكر ذلك السفير البريطانى بما نسيه فعاد يصرخ فى الجهاز الموصل إلى سكرتيره :

— وبعد فى هذا التليفون الملعون ؟ !

— لا يزال مشغولا يا صاحب السعادة ، وقد أرسلنا أحد موظفى السفارة إلى بولكلى ليجرى الاتصال .

ودخل فى هذه اللحظة سكرتير السفارة الأول يحمل فى يده ورقة بيضاء . ولم تكد عينا السفير تقعان عليه حتى هتف فى اهتمام :

— أحللتم شفرة البرقية ؟

— نعم .

وناوله السكرتير الورقة فألقى السفير عليها نظرة مجلى امتقع وجهه على أثرها ، ثم أعادها إلى السكرتير طالباً منه أن يقرأها بصوت مرتفع ليسمعها الجنرال ولسون .

« يجب أن تبلغوا الحكومة المصرية وجوب إعلان الحرب على ألمانيا رسمياً قبل الساعة العاشرة من مساء اليوم بتوقيت جرينيتش وحكومة جلالة ملك بريطانيا ترجوا ألا تتأجل هذه المسألة الحيوية أكثر من ذلك... ذكروا الحكومة بالتزاماتها بموجب معاهدة الصداقة والتحالف المبرمة بيننا والتى تصر حكومة جلالة الملك على تنفيذها نصا وروحاً . »

وخرج السفير البريطانى من وراء مكتبه وقد بدا عليه العزم والتصميم وراح يقول :

— لن أستطيع الصبر أكثر من ذلك . . هيا بنا يا جنرال ويلسون يجب أن أذهب بنفسى إلى باهر باشا .

وقال المستشار فى هدوئه وبروده :

— أرجو أن يسبقك سكرتير السفارة ليخطر رئيس الحكومة بزيارتك .

ولكن السفير الذى كان قد أدرك الباب ، قال له فى استهجان :

— لم يعد باستطاعتى أن أضيع دقيقة واحدة .

وبينما كان يتراجع خطوة إلى الوراء ليفسح الطريق للجنرال ويلسون لكى يمر أمامه خطر له خاطر جعله ينظر إلى المستشار فى ذهول وبلاهة :

— ماذا تقصد . . . أتظن أنه يمكن أن يجرؤ على عدم مقابلتى فور وصولى ؟

ولمعت على شفتى المستشار بسمة خفيفة وقال :

— لا تصل المسألة إلى هذا الحد ، ولكن باهر باشا مولع بمسائل البروتوكول .

وصاح السفير فى وجه صاحبه :

— انجلترا فى حرب وأنت تحدثنى عن باهر باشا وما الذى يولع به ... إلى الجحيم هو وبروتوكوله ، إلى الجحيم مصر كلها .

ولحق بالجنرال ولسون قائد عام القوات البريطانية فى مصر فى طريقهما إلى مجلس الوزراء .

٢

كانت دار الحكومة فى بولكلى شعلة من ضوء متوهج عندما وصل إليها ركب السفير . كان كل ما حول الدار يعج بالنشاط ، الحديقة والشوارع المؤدية إليها ، فقد احتشد عشرات من الصحفيين والمصورين

ووكلاء شركات الأنباء وكبار الموظفين وحرس الوزارات ، وخليط من ضباط الجيش والبوليس ، وعديد من أفراد الشعب الواعى الذين قدروا خطورة اللحظة فجاءوا إلى مجلس الوزراء يتنسمون الأخبار المزعجة والتى كانت تقول إن الحكومة المصرية ستعلن الحرب على ألمانيا. إن الشعب المصرى يكره الحرب بطبيعته ، وكان يزيد فى كراهيته لها أن إعلانها يعنى مد يد العون للإنجليز على أعدائهم .

وعندما هبط السفير من السيارة ثم تلاه الجنرال ويلسون ، أحس الجميع ما يعنيه وصول السفير مصحوبا بقائد عام الجيش البريطانى .

وانفرجت الصفوف فى حركة تلقائية تفسح الطريق للسفير ورفيقه بينما أسرع ضباط البوليس وحرس الوزراء يحيطونهما للحماية والرعاية .

ومضى السفير فى خطواته السريعة إلى جوار الجنرال ميمما صوب المصعد الكهربائى المؤدى إلى الدور العلوى . واقترب منه صحفى إنجليزي يسأله عن هدفه من هذه المقابلة وعما إذا كانت مصر قد أعلنت الحرب ، فابتسم له السفير رغم توتره وقال له فى رجاء :

— فيما بعد ... فيما بعد ، أرجوك ...

وكانت أخبار مقدم السفير قد وصلت منذ لحظات إلى باهر باشا الذى كان لا يزال مجتمعا بالوزراء الذين أدى اختلافهم إلى عدم الوصول إلى قرار نهائى بعد .

وقطب رئيس الوزراء حاجبيه ، وازداد وجهه الأسمر دكنة وقال :

— نحن لم ننته بعد ، ماذا أقول له ؟

وأسرع وزير الأوقاف النحيل والذى كان ممن اشتهروا بمكافحة الاستعمار يقول :

— اعتذر عن مقابلته ... ما دام قد جاء بغير ميعاد سابق .

وصرخ وزير من الجناح المضاد من أصدقاء الإنجليز :

— ياجماعة ... ياجماعة مستحيل تمضى الأمور على هذه الصورة ، أنسيتم أن الإنجليز فى حالة حرب وهم فى يأسهم لا يترددون عن عمل أى شىء . .

وارتفع صوت من الوسط الذى كان يؤلف أغلبية المجلس :

لا مانع من أن يقابله رفعة الرئيس ولكنه مادام قد جاء على غير موعد سابق فيجب أن ننتظر حتى نصدر قرارنا .

وأسرع مدير التشريفات يقابل السفير البريطانى الذى كان قد وصل إلى الدور العلوى بالحفاوة اللائقة بمكانته الخطيرة .

وقال السفير فى اقتضاب وتجهم :

— أبلغ باهر باشا أننى أريد مقابلته حالا .

وارتبك مدير التشريفات وظهر الاضطراب عليه ، فقد كانت هذه أول مرة لا يسرع فيها إلى فتح الأبواب أمام السفير البريطانى ، وتنحنح مسلكا حنجرته ثم قال فى وجه ممتقع :

— إن رفعة الرئيس مجتمع بأصحاب السعادة الوزراء ... والأبواب

مغلقة عليهم والأوامر تحول دون مجرد الاقتراب من حجرة الاجتماع ، والاتصال التليفونى مقطوع .

وقال السفير فى احتقار وصلف :

— إن لدى تبليغا عاجلا من حكومتى يجب أن أبلغه إياه فوراً.

فقال مدير التشريفات :

— إذن أرجو أن تتفضلوا ياصاحب السعادة بالانتظار فى مكتبى ريثما أبلغ رئيس الحكومة .

وقال السفير فى نفاد صبر :

إنك تضيع وقتا ثمينا ، قلت لك أسرع لا أستطيع أى انتظار .

ولم يسع مدير التشريفات إلا أن يسرع بالفعل بعد أن أحس بخطر ما يسمع .

وتلفت السفير حوله فى ضيق بعد أن أحس أن جميع الأنظار قد أصبحت مركزة عليه . كان البهو الكبير قد خلا إلا منه ورفيقه الجنرال بينما التصق الحراس والسعاة والموظفون بالجدران مفسحين له أكبر مجال ومبتعدين عنه بآخر ما تسمح لهم به ظروف المكان .

— ضغط السفير البريطانى على ناجزيه وراح يغمغم فى حنق :

— الأبله ... الأبله سأجعله يدفع ثمن ذلك كله ... وقال لصاحبه الجنرال ... إننى أوشك أن أقتنع بتقرير شاهين السلانكلى الذى رفعه لنا بالأمس ، من أنهم متآمرون مع دولتى المحور .

فقال الجنرال ولسن :

— لا أظن أن الأمور تصل إلى هذا الحد ، ولكن الذى

لا جدال فيه أن هذه الحكومة بتشكيلها الحالى لا يمكن اعتبارها حكومة صديقة نستطيع أن نرتاح لها .

وظهر مدير التشريفات مهرولا ومعتذرا عن تأخره وطلب من السفير ورفيقه أن يتفضلا باتباعه . وقادهما التشريفاتى إلى حجرة رئيس الوزراء ... ولكن السفير صعق بمجرد دخولهما فقد كانت خالية ، وتلفت صوب التشريفاتى فى حنق ، فقال له التشريفاتى :

— أرجوك أن تتفضل بالجلوس ، رفعة الرئيس سيكون معك حالا .

ودخل باهر باشا بعد لحظات ووجهه موزع بين التقطيب ومحاولة الابتسام ، ولكنه عندما وجد الجنرال ويلسون فى صحبة السفير زالت الابتسامة نهائيا ولم يبق سوى التقطيب وراح يعتذر للسفير عن عدم استطاعته استقباله بمجرد وصوله ، ولو أنه تلقى إخطاراً سابقاً ولو لبضع دقائق ..

ولكن السفير البريطانى عاجله قائلا ، بعد أن قدم له رفيقه الجنرال ويلسون :

— هل أعلنتم الحرب ؟

فأجاب الرئيس :

— نفذنا التزاماتنا فى المعاهدة .

وارتج على السفير قليلا ، ولكنه لم يلبث أن تمالك نفسه ثم قال :

— والمعاهدة صريحة فى إلزامكم بالحرب . على أى حال دعنى أبلغك ما تسلمته من وزارة الخارجية .

وأخرج السفير البريطانى نص البرقية التى تسلمها من حكومته

وراح يتلوها على مسامع باهر باشا، الذى تجهم وجهه بمجرد أن شرع السفير فى التلاوة ، حتى إذا انتهى من تلاوتها . . . مرت بعض لحظات من الصمت .. وكان باهر باشا هو أول من تكلم بعد أن ارتسمت على شفتيه ابتسامة صفراء :

— والآن وقد ابلغت رسالتك ، فأظن أنه من المستحسن أن نهدىء من أعصابنا ، وأن نشرب معا فنجانا من القهوة فأنا فى أمس الحاجة إلى هذا الفنجان بعد الجلسة الطويلة التى فرغت منها ، وأحسب الجنرال ويلسون الذى أتشرف به لأول مرة لن يعترض على تناول قهوتنا ؟

وأسرع الجنرال الإنجليزى يقول فى ود وابتسام :

— بكل سرور .

ولم يسع السفير البريطانى إلا أن يكظم غيظه وانفعاله إزاء هذا البرود الذى يعامله به رئيس الوزراء . وكأن رئيس الوزراء قد أحس بما يعتمل فى نفس السفير فلم يكد يفرغ من إصدار أوامره الخاصة بالقهوة حتى التفت نحو السفير وقال له وهو ممسك بنسخة مطبوعة من المعاهدة المصرية الإنجليزية :

— إننا لا نقل عنكم استمساكا بهذه المعاهدة واحتراما لها ، وقد قرر مجلس الوزراء تنفيذ كل ما تلزمنا به المعاهدة فوراً . ولذلك فقد أصدرنا كما تعرف قراراً بإعلان الأحكام العرفية ، وعينى المجلس حاكما عسكريا ، وقد عينت بدورى الرقباء على الصحف والأنباء ، وقطعنا العلاقات الدبلوماسية مع ألمانيا ، ومطاراتنا وموانينا وطرق

مواصلاتنا موضوعة تحت تصرف جيوشكم ، وسأكون أنا شخصيا على استعداد لبذل كل ما فى قدرة حكومتى لمعاونتكم على النصر .

وصاح السفير :

— وإعلان الحرب . . أين قرار إعلان الحرب . ؟

فأجاب الرئيس :

— هذا هو وجه الخلاف . . إن المعاهدة لا تحتوى أى كلمة أو إشارة تلزم مصر بإعلان الحرب آلياً بمجرد إعلان انجلترا لها ، ولكن المعاهدة تفرض على مصر التزامات محددة بمجرد دخول انجلترا فى الحرب ، وهذا هو ما سوف تنفذه بدقة .

وظهر الارتباك على وجه السفير وقال فى حدة :

— لقد فاجأتنى بهذا الموقف الجديد . . لا بد أن أرجع إلى حكومتى وأخبرها بهذه التطورات وأتلقى تعليماتها . أرجو أن تسمح لى بصورة رسمية من القرارات التى أصدرتموها .

* * *

وعندما كان السفير البريطانى يأخذ مقعده فى السيارة إلى جانب الجنرال ويلسون بعد أن انتهت مهمته فى مجلس الوزراء . . كان يصر على أسنانه ويغمغم قائلا :

— سوف أجعله يدفع ثمن ذلك غالياً . . سوف أجعلهم يندمون على معاملتنا بهذا الأسلوب .



٣

كان بيومى رمضان غارقا فى عمله بحجرة « الأرشيف » فى مصلحة الأملاك لا يلقى باله إلى مايدور حوله من مناقشات لا تنقطع حول الحرب ، التى كان قد مضى عليها أكثر من خمسة شهور ، لا تعرف مصر من ويلاتها إلا تجارب من حين لآخر على إطفاء الأنوار عقب سماع صفارات الإنذار . وكان بيومى قد اطمأن باله ، إلى ما اطمأن إليه السواد الأعظم من الشعب ، من أن مصر محروسة بأولياء الله الصالحين وأنها لا يمكن أن تضار بسوء من هذه الحرب . وقد أيدت الحوادث صحة هذه الفكرة حتى ذلك الوقت ، فقد ابتعدت أحداث الحرب عن مصر كما لو كانت تجرى فى المريخ .

ولم يكن بيومى يسمح لنفسه فى أى يوم من الأيام أن يخوض فيما يجرى حوله من مناقشات فضلا عن أن يشترى جريدة بنصف قرش أو يجلس فى مقهى لسماع الأنباء من الراديو . كان لا يفتأ يردد عبارة واحدة إذا ما اضطر اضطراراً لإبداء رأى فى الحرب :

— ربنا ينصر الحق .

وصاح به زميله الأكبر فى العمل ، سويلم أفندى ، وهو ممسك بجريدة الأهرام بعد أن نحاها وأمسك « بشطيرة » الفول وراح يقضم بنهم :

— أرأيت الإنجليز يا عم ؟ دايماً أقول لهم ، قوة إنجلترا فى البحر ، والذى لا يهزمها فى البحر لا يمكن أن يقهرها أبداً .

ونظر إليه بيومى فى بلادة ، ثم مضى فى عمله ، ولكن سويلم أفندى كان لا يستطيع أن يحبس إعجابه بالإنجليز ، وكان يجد فرصته فى بيومى رمضان فهو الوحيد الذى لا يقاطعه أو يزجره ، فمضى يقول وفمه ممتلىء بالطعام :

— الإنجليز غرقوا المركب «التمارك» التى كان الألمان قد حولوها إلى سجن عائم لأسرى المراكب الإنجليزية الغارقة ، بعد أن حرروا ما فيها من الأسرى ، يعنى بقوا ضربتين فى الرأس ، بالأمس البارجة جراف شبى واليوم « التمارك »

وتدخل شحاته الساعى الذى جاء يدعو بيومى لمقابلة رئيس المكتب :

— وإيه يعنى مركب أو بارجة . . أتظن أن هتلر سيسكت على هذه الحالة . . لا بد أنه سينسف الأسطول الإنجليزى كله . . وقد يحتل النرويج كلها .

واسترعت هذه الكلمة الغريبة انتباه بيومى فوجد نفسه يكررها فى دهشة :

— النرويج ؟!

وازدرد سويلم أفندى ما كان يمضغه من الخبز والفول وقد تنازعه عاملان ، أحدهما أن يرد على شحاته الساعى ويفحمه ،والثانى أن يظهر

مدى علمه وحذقه فى تتبع الشئون العسكرية لبيومى كما يطالعها بدقة فى الصحف ، وقد آثر فى النهاية العامل الأخير فقال لبيومى :

— أصل يا بيومى أفندى الأسطول الانجليزى هاجم المركب الألمانى فى مياه النرويج الإقليمية ، وهذا يعتبر اعتـداء على سيادتها باعتبارها دولة محايدة .

ورأى بيومى أفندى أن يعلن تبرمه بتوجيه الحديث إليه ، فقاطع سويلم أفندى قائلا :

— ياعم سويلم ، والنبى تدعني فى حالى ، أنا لا لى فى الطور ولا فى الطحين ، ربنا ينصر الحق ، ويرفع مقته وغضبه عنا ، إن جماعتى فى البيت يقولون إن المرتب يوشـك ألا يدفع عنا إيجـار البيت ، ويسد رمقنا فى الوقت نفسه .

وأراح شحاته الساعى بيومى من مواصلة الحديث ، بأن دعاه لمقابلة رئيس القلم . وارتجف بيومى ، بينما حملق سويلم أفندى فى وجه شحاته الساعى فى دهشة وكأنه يتساءل إذا كان قد أخطأ ، ولـكن شحاته الساعى ، أكد بهزة من رأسه أن رئيس القلم يطلب بيومى ، وأنه طلب منه أن يستدعى « بيومى أفندى » وضغط الساعى على كلمة أفندى ممـا دهش له بيومى ، فقد كان شيئاً جديدا عليه أن يلقبه رئيس القلم بالأفندى .

على أن دهشة بيومى قد تضاعفت عند ما دخل وهو يرتعش من

الخوف على رئيس القلم فإذا هو يبتسم فى وجهه ، ويشير له على سماعة التليفون طالباً منه أن يتكلم فى التليفون .

وأمسك بيومى السماعة فى ارتباك واضطراب وحيرة . .

بينما كان رئيس القلم يقول له وقد زاد فى ابتسامته المطمئنة والمشجعة :

— اتكلم يا بيومى أفندى . . رد على سعادة البك .

وسمع بيومى صوتاً فى نهاية الخط يصيح :

— ألو . . . ألو . . .

— أنا بيومى . . . بيومى رمضان .

— كيف حالك يا بيومى ، أنا شاهين ، القائمقام شاهين يابيومى .

وتهلل وجه بيومى فجأة بالفرح وزال عنه الاضطراب الذى يحسه وتبادل نظرة سريعة مع رئيس القلم وهو يقول فى تلعثم من المفاجأة وشدة الفرح :

— أهلا وسهلا سعادة الباشا ، ربنا يخليك ويجبر بخاطرك يا سعادة الباشا .

— إسمع يا بيومى أنا بأكلك من أسيوط ، وأنا فى غاية التعب ، ما رأيك لو نقلتك إلى أسيوط أنت وعطيات لتكونوا بالقرب منى ؟

وارتج على بيومى ولم يعرف ماذا يقول ، مما جعل شاهين يهتف فى التليفون :

— ألو . . . ألو . . . بيومى ، إنت سمعتنى يا بيومى ، أريد أن أنقلك لتعمل فى أسيوط ؟

— أيوه يا سعادة الباشا .

— ما رأيك ؟ إن الوظيفة التى سأنقلك إليها سيكون راتبها ستة جنيهات .

ولمعت عينا بيومى وهو يسمع كلمة ستة جنيهات ، ولكنه كان لايزال مأخوذاً من المباغتة لايعرف ماذا يقول ، وحسم شاهين الموقف بقوله :

— وهو كذلك ، سوف أعمل الترتيبات اللازمة ، مع السلامة يا بيومى ، سلم لى على بنتى عطيات .

وأغلق شاهين التليفون ، بينما كان بيومى يتمتم :

— الله يسلمك يا باشا . ثم وضع سماعة التليفون بدوره ، ونظر لرئيس القلم فى خجل وارتباك .

وقال له رئيس القلم وعلى وجهه هذه الابتسامة المشجعة الأبوية :

— اجلس يا بيومى أفندى . . إجلس .

واحمر وجه بيومى خجلا وقال فى تلعثم :

— العفو يا سعادة البك . . . العفو .

ولكن رئيس القلم أصر . وجلس بيومى أفندى ، وعرض عليه الرئيس سيجارة ، ولكن بيومى الذى كاد يموت من فرط الخجل ، اعتذر عن تقبلها بأنه لا يشرب . ومضى رئيس القلم يبدى رأيه فى أن القائمقام شاهين بك السلانكلى لابد أن يكون له صلات قوية مع مدير المصلحة ، ثم قال بعد تردد :

— تعرف يا بيومى أفنـدى لو استطعت أن تجمعنى بشاهين بك هذا لأخاطبه فى موضوع درجتى المتأخرة ، فلست أعرف مقـدار مكافأتك عندى . . .

وقال بيومى فى بلادة :

— أنا . . .

واندفع رئيس القلم وقد نسى كل شيء عن شخصية بيومى :

— خمس عشرة سنة وأنا فى الدرجة السادسة يا بيومى أفندى ، خمس عشرة سنة . . . دى حاجة تجنن الله يرحم أيام الأنجليز فى مصلحة الأملاك ، كانت علاواتى وترقياتى تجيء مثل الساعة ، ربنا ينصرهم يا شيخ . . . ربنا ينصرهم .

وحار بيومى ولم يلبث أن قال :

— كله على الله . . . ربنا ينصر الحق يا سعادة البك .

٤

لم يفت عطيات أن تلاحظ ارتباك بيومى وانشغال باله على غـير العادة وهو يدخل عليها بعد عودته من الديوان وسألته فى لهفة :

— ما بك يا بيومى ؟

— الباشا يا عطيات ، شاهين باشا !

واصفر وجه عطيات لهذه الاشارة الغامضة ، وارتج عليها بينما كان بيومى يقول لها :

— تصورى أنه يريد أن ينقلنا إلى أسيوط لنكون بالقرب منه .

وسرى عن عطيات ، واستردت أنفاسها ، ولم تلبث عيناها أن لمعتا وهى تدرك مغزى هذه النقلة ، وقالت :

— وماله يا بيومى ؟ لماذا لانسافر إلى أسيوط ألن يزداد راتبك ؟

— سيصبح ستة جنيهات . ولكن أتدركين أين توجد أسيوط ؟ إنها فى الصعيد ، فى آخر الدنيا ... الواحد ينام طول الليل فى القطار ، سويلم أفندى حذرنى واعتبرنى مجنونا إذا قبلت هذه النقلة.

ولوت عطيات بوزها وقالت :

— ومادخل سويلم هذا فى شئوننا ، أى شىء يربطنا بمصر ونحن مقطوعون من شجرة لا أم ، لاأب ، لا أخ وليس سوى خالتى نفيسة ، ولو استطعنا أن نرسل لها بعد زيادة راتبك خمسين قرشا كل شهر لدعت لنا بالليل والنهار .

ونظر بيومى لزوجته فى دهشة وقال لها :

— أجادة أنت فيم تقولين ؟ ماذا لنا فى أسيوط يا عطيات حتى نسافر إليها ، أنترك جوار أم هاشم والحسين والامام الشافعى ، ونذهب إلى أسيوط ؟ ما الذى يجعلنا نتغرب عن بلادنا ، وهى مستورة والحمد لله .

فاحتدت عطيات قائلة :

— وما أدراك أنت بالعيشة ، وكيف أصبح كل شىء كالنار ، أتظن الجنيهات الأربعة التى تأتينى بها كل شهر ناقصة خمسة عشر قرشا كافية لأن تسترنا ؟ هل تتصور أننى ذهبت اشترى بيضا أول أمس ، فإذا الرجل لا يعطينى سوى ثمانى بيضات بالقرش ، ولما ثرت فى وجهه طلب منى أن أحمد الله على ذلك ، فلن يعطينى بعد ذلك إلا سبع بيضات بالقرش ، فالإنجليز يأخذون البيض .

ولم يلق بيومى باله لشىء من هذا الذى تقوله زوجته ، وراح يخلع ملابسه و يقول لها :

— لا يا عطيات . . . لا ، لن نسافر إلى أسيوط ، من لنا فى أسيوط ؟

وصاحت عطيات فى وجهه :

— من لنا فى أسيوط . . . من لنا فى أسيوط ؟ لنا الباشا يا سى بيومى ... الباشا ولى نعمتك الذى وظفك ، وها هو يعمل على زيادة راتبك إلى ستة جنيهات .

وكأن بيومى كان غافلا عن هذه الحقيقة ، فلم تكد تذكره بها ، حتى هدأت نفسه وقال لها :

— الحقيقة الباشا هذا ربنا أرسله لنا من السماء ، تصورى ياعطيات أن رئيس القلم نادانى يابيومى أفندى وعرض على سيجارة !

فقالت عطيات :

— وأى شىء فى هذا ، ألست أفنديا ؟

ولكن بيومى لم يلق بالا لاعتراضها ، وراح يستعيد صورة ابتسامة رئيس القلم له ، وما طلبه منه فراح يقول لعطيات :

— تصورى أنه طلب منى أن أجمعه بالباشا ليتوسط له فى الحصول على الدرجة .

— طبعا يا عبيط ، إن جاه الباشا عظيم وهذه فرصتنا فلا تضيعها ، يجب أن نسافر إلى أسيوط ما دام الباشا قد طلب منك ذلك .

وقال بيومى وهو يجلس على طبلية الطعام وقد انشرح صدره .

— إنه يسلم عليك يا عطيات . . . قال لى سلم على ابنتى عطيات .

ولمعت عينا عطيات ببريق غامض ، ثم أطرقت برأسها فى حركة لا شعورية ، ولم تتمالك نفسها بعد ذلك من أن تنظر لزوجها من طرف خفى ، بينما كان خيالها يسرح مستعيدا ذكرى علاقاتها بالباشا ، وجسدها يهتز من فرط النشوة ، لقرب عودة هذه العلاقات .

٥

وجد بيومى نفسه لأول مرة فى حياته جالسا فى أحد دواوين الدرجة الثانية بقطار السكة الحديد المسافر إلى أسيوط ، بينما كانت زوجته عطيات تجلس فى ديوان الحريم .

وإذا كان القطار قد غادر محطة القاهرة فى المساء ، فقد اجتمعت على بيومى هوايته المفضلة فى النوم المبكر واهتزاز القطار فاستغرق فى نوم عميق . ولكن وقوف القطار فى المحطات كان يوقظه ، فيسأل جيرانه عن اسم المحطة وعما إذا كانت أسيوط ، فيردون عليه بالنفى فى مزيج من السخرية والاشفاق والاستنكار ، فقد كان غطيطه يرتفع أحيانا بصورة مزعجة ، حتى لقد فكروا أكثر من مرة أن يوقظوه لولا أنه كان يكف عن التشخير بحركة آلية ، كما ينبعث منه بحركة آلية كذلك .

ولم يكن باستطاعته أن ينام عند وقوف القطار . ولم يكن يسعه إلا أن يصغى لهذه الأحاديث التى تجرى من حوله كما كانت تجرى فى كل مكان حول الحرب والتكهن بتطوراتها المقبلة . وكان الجديد على بيومى فى هذه الأحاديث ، أنها تدور حول القطن وكيف أن

الفلاحين ستخرب بيوتها إذا لم تشتر انجلترا كل القطن المصرى .

وصاح أحد المسافرين :

— ولكن هذا نهب ... إن الانجليز يريدون شراء القنطار بأربعة عشر ريالا ، مع أن القطن اليوم يساوى ثقله ذهبا . . . إنهم يصنعون منه الذخيرة .

وينقذ بيومى من هذه الأحاديث استئناف القطار سيره ، فيعود من جديد إلى نومه .

على أن وحشة بيومى كانت تتزايد كلما طالت الرحلة وطال سير القطار ، وكان يتصور أنه يوشك أن يتيه ويضيع فى الدنيا ، فيروح يندب حظه وينعى على نفسه موافقته على هذه المخاطرة . ويتذكر جولاته فى مصر فى ضريح أم هاشم والحسين ... فيتنهد متحسرا ويحاول أن يفزع إلى النوم ، ولكن النوم بدأ يفر من جفنيه بعد أن غرق فى الهم والقلق .

وأعلنه جيرانه أن أسيوط تقترب ... وجاء «الكومسارى» بنفسه يدعوه للذهاب إلى «جماعته» وينبهه إلى أن أسيوط هى المحطة القادمة .

* * *

وقفت العربة الحنطور التى أقلت بيومى وزوجته وحسنين خادم الباشا الأمين على باب عمارة حديثة البنيان مؤلفة من أربعة أدوار .

وسأل بيومى حسنين وقد خفق قلبه :

— أهذا بيت الباشا ؟

وضحك حسنين وقال :

— هذا بيتكم أنتم الذى استاجره الباشا لكم .

وفتح باب الشقة بمفتاح أخرجه من جيبه ثم أضاء النور الكهربائى وراح ينقل أمتعة بيومى وعطيات القليلة ، بينما وقف الزوجان مذهولين ، بيومى من فرط بلاهته ، أما عطيات فمن فرط فرحها لتحقق أحلامها . لم تكن أمتعة الشقة كثيرة ولا هى من النوع الثمين ولكنها كانت بالنسبة لهم ولبيتهم فى قلعة الكبش شيئا لا يحلمون به .

وقال حسنين :

— لقد أحضرنا هذا الأثاث على وجه السرعة فالإقامة هنا لن تطول إن شاء الله .

وقالت عطيات لزوجها :

— لقد دخلت الجنة يا بيومى ، أرأيت ؟ ! كنت تريد أن تبقى فوق السطوح فى قلعة الكبش تأكل على الطبلية .

وسأل بيومى حسنين :

— وكم إيجار هذه الشقة شهريا ياعم حسنين ، وبكم ثمن هذا الأثاث ؟

ورد حسنين قائلا :

— والله هذه مسألة لا أعرف عنها شيئا . . . لقد كلفنى سعادة القائمقام بنظافتها .

وأكمل بيومى وزوجته معاينة الشقة فشاهد الحمام والمطبخ ، ولكن أحد الأبواب ظل مغلقا لم يفتحه حسنين . وسألت عطيات حسنين فى استطلاع :

— وماذا فى هذه الحجرة ، لم هى مغلقة ؟

فرد حسنين وقد شاعت فى وجهه ابتسامة خبيثة :

— إن مفتاح هذه الحجرة عند سعادة القائمقام نفسه ، ولست أعرف ما بها وأظن والعلم عند الله . . . أنها حجرة نوم سعادة القائمقام ، كان ينام فيها فى بعض المناسبات .

ولم يفهم بيومى من هذه العبارة شيئا ، ولكن قلب عطيات قد خفق عند سماعها وارتجف بدنها ، وسمعوا فى هذه اللحظة صوت سيارة فقال حسنين :

— هذه سيارة سعادة القائمقام .

ولم يكد يتم هذه الجملة ، حتى كان صوت شاهين السلانكلى يجلجل فى الخارج . . وارتجت الأرض وهو يقرعها بقدميه فى شدة ، وأسرع حسنين يفتح باب الشقة حيث كان شاهين يسده بطوله وعرضه ، بينما كانت إحدى ضحكاته المقعقعة تملأ الجو صخبا .

وفتح ذراعيه على آخرهما وهو يقول بعد أن غادر حسنين الشقة :

— أسيوط نورت ، أهلا وسهلا ، تعال . . . تعال بالحضن .

وانجذب بيومى نحوه فى حركة لا إرادية ، وبينما كان يحاول تقبيل يد الباشا . . . كان هذا يضمه إلى صدره ويقبله على خديه ، ثم ينتقل منه فى لهفة إلى عطيات ويقول لها :

— وانت أيضا بالحضن يا عطيات يا بنتى .

وقبلها فى جبينها وعلى خدها فى حركة أبوية وهى ترتجف وتكاد تذوب خوفا واضطرابا ، بينما كان بيومى ينظر لهذا المنظر الأبوى فى ابتسامة بلهاء ودموع التأثر تنحدر من عينيه .

٦

كان فوزى يستعرض فى البيت الأخضر مع خالد فى رضاء مذكرة حزب الأغلبية المعارض ، التى قدمها إلى انجلترا مطالبا إياها بالتعهد بالجلاء عن مصر عقب الحرب ، والاعتراف بحقوق مصر فى السودان وإلغاء الأحكام العرفية فورا ، عندما دخل عليهما أحد موظفى الجريدة بقامته الضخمة وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة ظافرة وهو يحمل فى يديه أربعا من الأقنعة الواقية من الغازات السامة .

— وضحك فوزى فى ابتهاج وقال له :

— اتسلمت الكمية أخيرا ؟

وأجاب الموظف :

— كلها . . . خمسون قناعا ، وهى حصة جريدتنا كأى جريدة أخرى ، وسأشرع منذ اليوم فى إعطاء دروس الوقاية لتخريج متطوعين مدربين على الوقاية من الغارات الجوية .

وأخذ خالد أحد الأقنعة وحاول أن يلبسها ، ولكنه لم يلبث أن كف عن المحاولة وهو يقول :

— لا يا عم يفتح الله . . . خير أن أموت متسمما بالغاز من أن أموت مختنقا بلبس هذا القناع .

وقال الموظف :

— إنها تضايق فى البداية ولكنك لن تلبث أن تعتادها ، انظر إلىّ ... وارتدى الموظف أحد الأقنعة فبدا منظره مخيفا ومضحكا فى نفس الوقت كأحد الكائنات الخرافية التى تجمع بين الإنسانية وصورة من صور الحيوانية .

وأخذ فوزى قناعا وحاول أن يجرب لبسه بدوره . . ولكنه قبل أن يفعل ، انصفق الباب فى عنف وظهر صبرى على بابه وهو ممتقع الوجه .

وتطلع فوزى فى قلق إلى وجه صبرى الممتقع وما كان يحمله فى يده من ورقة بيضاء وسأله فى لهفة :

— خيرا ! ؟

— يظهر أن أزهار لقيت مصرعها فى حادث طائرة !

ووثب فوزى واقفا وهو يهتف فى جزع :

— أزهار الفنانة . . . أخت الدكتورة فاطمة ؟

فقال صبرى :

— وهل ثمة إلا أزهار واحدة . وراح يطالع ما نقلته وكالة أنباء روتر فى يوم ١٥ مارس عام ١٩٤٠ :

« سقطت إحدى طائرات شركة الخطوط الجوية العالمية بعد قيامها مباشرة من مطار بومباى ، فاحترقت ومات ركابها الأربعون وجميع

ملاحى الطائرة . وقد علمت الوكالة أن من بين ضحايا الطائرة المنكودة الفنانة المصرية أزهار وزوجها السورى » .

وخيم السكون على الأصحاب الثلاثة ، بينما كان الوظف يجمع أقنعة الوقاية من الغازات وينسحب فى هدوء . وكان خالد أول من قال :

— إنا لله وإنا إليه راجعون .

وتساءل فوزى وهو مكفهر الوجه :

— ولكن ما الذى كانت أزهار تفعله فى بومباى ؟

وقال صبرى موضحا :

— كانت فى طريق عودتها من الولايات المتحدة إلى مصر ، وقد اتخذت طريق المحيط الهادى باعتباره أقل خطرا من الاطلنطى .

وقال خالد فى أسى موجها الحديث لصبرى :

— أتظن أن هذا الخبر المحزن قد وصل إلى الدكتورة فاطمة ؟

— لا أظن فالبرقية قد وردت الآن فورا ، ولن تعلم بها إلا من صحف الصباح ، ألا ترون أنه من الخير أن نهيئها لسماع هذه الكارثة ؟

وقال فوزى :

— هذه فكرة طيبة ، والتفت نحو صبرى قائلا له :

— اتصل بها يا صبرى .

وتدخل خالد قائلا :

— اتصل بها فى البيت فاليوم هو يوم راحتها . ولكن أتظنون أن التليفون يصلح لأداء هذه المهمة ؟

فأجاب فوزى :

— طبعا لا ، إنما أقصد بالاتصال بها أن يخبرها صبرى أننا ذاهبون إليها ولكى يعرف منها عنوان البيت .

وكانت فاطمة هى التى ردت على صبرى فى التليفون وفاجأته فى مرح ودعابة بقولها :

— نعم يا أستاذ صبرى ، ماذا وراءك . . اجتماع خطير عاجل ، أو مريض تريد أن توصى عليه ؟ .

فقال صبرى :

— لا هذا ولا ذاك .

فهتفت فاطمة :

— إذن لا بد أنك تريد إعانة للجريدة . اسمع لقد جردتني من آخر ما بقى لدى من راتب الشهر .

وهتف صبرى فى أسى وقال لها :

— ألا تكفين أبدا عن شقاوتك ، إنما طلبتك لأعرف إذا كنت فى البيت أم لا ؟

— لماذا تسأل ؟

— لأننا نريد أن نزورك ، الأستاذ فوزى والدكتور خالد وأنا .

وفوجئت الدكتورة فاطمة بهذا النبأ الذى لم تكن تتوقعه ، وأحست بشعور غامض يغمرها ويعقد لسانها عن الكلام . وهتف صبرى :

— ألو . . . ألو . . . المجد لمصر . . . دكتوره فاطمة ؟ !

واستردت فاطمة وعيها فقالت :

— نعم يا أستاذ صبرى ، إننى أسمعك جيدا ، ولكن لا تؤاخذنى إذا كان الفرح قد عقد لسانى ، انك تعلم كم رجوتكم لتقوموا بهذه الزيارة فكنتم تؤجلون وتسوفون .

وسأل صبرى :

— وهل والدتك موجودة ؟ والأستاذ حسن أخوك ؟

ومرة أخرى عجبت فاطمة لهذه الأسئلة وقالت :

— ماما موجودة طبعا ، ولكن حسن فى دكرنس كما تعلم .

— اذن انتظرينا فنحن حاضرون . ماهو عنوان البيت بالضبط ؟

ووصفت فاطمة العنوان لصبرى وهى فى حالة دهشة وذهول للمفاجأة .

على أنها لم تكد تضع السماعة حتى طغى عليها شعور جارف بالفرح

والسعادة ، وراحت تزف الخبر إلى والدتها ، التى لم تكن مفاجآتها به أقل من مفاجأة ابنتها ، وقالت الأم :

— ألم يقولوا لك عن سبب الزيارة ؟

فقالت فاطمة وقد بدأت خواطرها تسرح نحو ما كان يجيش فى أعماقها من آمانٍ وآمال . . .

— أى سبب يجىء بهم ثلاثتهم بهذا الأسلوب . . . إلا . . . إلا واحمر وجه فاطمة فأطرقت برأسها وقالت متلعثمة :

— لا أعرف . . . يا ماما . . . لا أعرف .

وانتقل الخاطر السعيد الذى كان يزحم عقل فاطمة وقلبها إلى أمها فقالت لها وقد أضاء وجهها بابتسامة مشرقة :

— يا ريت يا فاطمة يا ريت . . !

وقوى الخاطر فى ذهن البنت والأم معا ، فأسرعت أم فاطمة تقول:

— يجب أن أغير ملابسى .

— ارتد الفستان الكحلى .

ولم تكد أم فاطمة تشرع فى مبارحة الحجرة حتى استوقفتها قائلة:

— ألا يمكن أن ندعوهم لتناول الغداء ؟

فأجابت الأم :

طبعا يا فاطمة . . . طبعا ، سأرسل الخادم يشترى لنا رطلين كباب من باب الاحتياط .

وبدأ الاضطراب والقلق يسيطران على فاطمة كلما برق الخاطر الذى بدأت تتعلق به وتتشبث كتفسير وحيد لهذه الزيارة . فكم من مرة منيت بالخيبة كلما تصورت الدكتور خالد سيفاتحها فى أمر خطوبتها . إنها لا تشك بإحساسها وفطانتها أن الدكتور خالد يحمل لها من الحب مثل الذى تحمله له ، ومع ذلك فهو لم يقل لها كلمة واحدة صريحة . ما أكثر ما كشفت عن عاطفتها نحوه بصورة سافرة ، ومع ذلك فقد كان يأبى فى كل هذه المناسبات الا أن يغمرها بكلمات الإعجاب والتقدير لجهادها وكفاحها . وهكذا يزوغ عن مقابلة التصريح بعاطفتها بالمثل . . . فهل يخيّب أملها هذه المرة أيضا كما خاب من قبل ؟

وراحت تستعيد وهى تبدل ثوبها كل عبارات صبرى وكلماته . . . لقد سأل عما إذا كانت والدتها موجودة فى البيت ... وسأل عن حسن ، فلماذا هذه الأسئلة . . . أى شىء يريدونه من والدتها ومن أخيها ، الا أن يكونوا قد جاءوا مع خالد أخيرا لكى . . . لكى . . .

ولا تسمح فاطمة لنفسها أن تردد الكلمة التى كانت تدوى فى نفسها من فرط انفعالها وشدة فرحها .

ويتوقف المشط فى يدها عن متابعة تسريح شعرها لتتمثل صورة صبرى وهو يخاطبها . . . لقد كان يرتعش ما فى ذلك شك . . . كان يخفى انفعالا . . . وصبرى متزوج ، وفوزى متزوج فليس سوى . . . ليس سوى . . .

وتعود فاطمة إلى الاستسلام لانفعالها ، فتدور فى الحجرة حول

نفسها وقد فردت ذراعيها كما لو كانت تحلق بهما متصورة نفسها فراشة. وتنظر لنفسها فى المرآة . إن وجهها يفيض بشرا وسعادة واحمرار خديها يغنيانها عن كل تزيين ، ورضيت عن وجهها فقد أطراه خالد أكثر من مرة فى مناسبات مختلفة ، مما دل على أن ملامحه منقوشة فى ذهنه . لقد حدثها مرة عن أن عينيها عسليتان ، وأشار مرة إلى أنفها السوى وفمها الصغير فى معرض مقارنتها بأختها أزهار ، وتحسست بيديها بشرتها البيضاء الناعمة ورقبتها الرشيقة ... ورأت نفسها جميلة كما لم ترها كذلك فى يوم من الأيام ، ولكنها اكتشفت أنها كانت بغير جورب ، وما كانت لتقابل الدكتور خالد حتى فى بيتها بساق عارية وان كانت « المودة » هى السيقان العارية فى الطرقات ... وأسرعت ترتدى أحد جوارب النيلون الشفافة وتحكمه حول ساقها الجميلة بينما راحت تغنى من فرط السعادة :

— افرح يا قلبي ، لك نصيب تبلغ مناك ويا الحبيب ... افرح يا قلبي

ورن جرس الشقة فاصفر وجه فاطمة وقالت لنفسها :

— بهذه السرعة !

٧

قابلت الدكتورة فاطمة الأصحاب الثلاثة مهللة مكبرة والبشر يشيع فى وجهها ، وعيناها تسطعان بنور الحب والسعادة ، وصاحت وهى شديدة الانفعال :

— لست أعرف ماذا أقول حيال هذه الزيارة لأعبر عن فرحى . أأقول زارنا النبى ، أم أقول وجهكم أو القمر ؟

واصطنع أصحابنا ابتسامة ليردوا بها على هذا الاستقبال الحار ، ولكن الابتسامة لم تلبث أن ماتت على شفاههم .

ولم تلحظ فاطمة من فرط انفعالها شيئا من ذلك ، بل لم تلحظ أنهم لم ينطقوا بكلمة واحدة منذ فتحت لهم الباب ، ومضت تقول لهم وهى تقودهم نحو الصالون والدنيا لا تكاد تسعها من الفرح :

— أولا يجب أن تعلموا قبل كل شيء أن ما كان أوله شرط فآخره نور . إنكم طبعا لم تتفضلوا بزيارتى هكذا إلا لأمر هام جدا ، ولذلك فاسمحوا لى أن أقول لكم إن والدتى وأنا ، لن نسمع كلمة واحدة مما جئتم من أجله قبل أن نتناول طعام الغداء فالساعة الآن الواحدة ، وأظن أنكم توافقوننى على أنه من غير المعقول أن أدع هذه الفرصة الذهبية التى طالما تمنيتها تفلت من يدى .

وقال فوزى فى ارتباك :

— لاداعى لشيء من ذلك يا دكتورة فاطمة . . . أرجوك أولا أن تهدئى وتسمعى ما جئنا لنبلغك إياه ..

ولكن فاطمة لم تكن تصغى لشيء مما يقول فقد كانت تنادى والدتها :

— يا ماما . . . يا ماما ، ياست أم فاطمة اتفضلى . ألم تكونى تقولين لى دائما إن أعز أمانيك أن ترى الدكتور خالد والأستاذ فوزى والأستاذ صبرى ... تعالى إذن ... لقد تواضعوا أخيرا وتنازلوا وشرفوا بيتنا المتواضع .

وهتف فوزى معاتبا .

- فاطمة إنك تحرجيننا جدا :

ولكن السيدة أم فاطمة ظهرت على عتبة باب الصالون وهى تقول :

— أهلا وسهلا ... ما هذا النور كله الذى ملأ بيتنا ؟

ووقف الجميع ليسلموا عليها وقد أخذوا بوجهها الذى تحيط به طرحة بيضاء وهو يفيض بالاستبشار والوداعة والصفاء .

ولم تقو فاطمة رغم كل محاولتها أن تسيطر على انفعالاتها ، فوثبت عن الأرض وصفقت بيديها وهى ترى والدتها تلف يدها فى طرف الطرحة ثم تصافح خالد وفوزى وصبرى ، وصاحت :

— لا أكاد أصدق نفسى ... كأننى أحلم ... مسكين حسن ، كم سيفجع عندما يعلم أنكم شرفتم بيتنا وهو ليس موجودا .

واستغل فوزى ذكر اسم حسن لكى يضع حدا لانفعال فاطمة وعاطفتها المتدفقة ، فسأل :

— وأين حسن ، ألن يحضر الآن ؟

وتوقفت فاطمة وظهر الارتباك فى عينيها لهذا السؤال ، فهى متأكدة أن فوزى يعلم أن أخاها يعمل معاونا للنيابة فى دكرنس ، بل لقد قالت ذلك لصبرى منذ لحظات عند ما سألها فى التليفون .. فما هدف فوزى من هذا السؤال .. واهتز كيانها من جديد وارتعش بدنها والخاطر السعيد يومض فى نفسها . وتولت أم فاطمة عن ابنتها الجواب قائلة :

— حسن اسم النبى حارسه يعمل وكيل نيابة فى دكرنس . وإذ

كان الخاطر السعيد الذى تعلم أن ابنتها تتمناه قد لمع فى ذهنها ، فقد أطرقت برأسها حياء وقالت مغمغمة :

— والبركة فيك يا أستاذ فوزى .. فانت أبوهم كلهم وأخوهم كلهم .. والله إنك لا تعرف كم أدعو لك كل يوم فى صلاة الفجر أن ينصرك الله ويحقق آمالك .

وقطعت فاطمة الحديث على أمها وقالت بلهجة مسرحية تفيض خفة ودعابة :

— والآن يا ست أم فاطمة نريد أن نظهر لقادة البعث أن فى السويداء نساء ، وأنهم سيشربون عندنا ويأكلون من صنع يد أم الدكتورة فاطمة ما لا ينسونه أبداً ..

فقالت أم فاطمة فى خجل موجهة الحديث إلى الأستاذ فوزى :

— أرجو ألا تؤاخذها يا أستاذ فوزى لابد أنكم تعرفونها ، إنها هكذا دائما .. وهل يوجد لدينا شىء من مقام الأستاذ فوزى والدكتور خالد .. ؟

ووقفت الأم وقالت :

— سأحضر لهم شراب التوت أولا عسى أن يعجبهم .

وأرتج على فوزى وصاحبيه وانعقدت ألسنتهم تحت تأثير هذا الجو الذى لم يكونوا يتصورون بحال من الأحوال أن يجدوا أنفسهم فيه ، وساد الوجوم وران الصمت وبدأت فاطمة تتنبه إلى ان فى الجو شيئا.

واختفى مرحها فجأة واصفر وجهها وهى تنظر للدكتور خالد أمين فتجده ممتقع الوجه مطرق الرأس ، وانتقلت عيناها بسرعة خاطفة نحو فوزى ، فإذا هو الآخر مطرق الرأس مكفهر الوجه . وجف حلقها وسرت فى جسدها موجة من الرعب الطاغى ، فقالت فى صوت متحشرج خلا من كل روح :

— شرفتونا . . أهلا وسهلا .

ولم يرد عليها أحد . وساد صمت كئيب جعل فاطمة تجلس لأول مرة ، وهى توشك أن تنهار من رد الفعل . . فلم يعد لديها شك فى أن هذه الزيارة أبعد ما تكون عن الموضوع الذى تخيلته .

وأحس فوزى بالانقلاب الذى طرأ على فاطمة وأدرك أن هذه فرصة للكلام فيما جاء من أجله . .

— أأستطيع أن أتوجه إليك برجاء يا دكتورة فاطمة ؟

وخفق قلب فاطمة وهى تسمع الرنة الحزينة فى صوت فوزى وامتلأت بشعور غامض إنها توشك أن يغمى عليها ، ولكنها قالت بآخر مالديها من تجلد :

— أنت تأمر يا أستاذ فوزى .

— إذن أستحلفك بالله أن تطلبى من والدتك ألا تجهز شرابا لقد جئنا نحمل نبأ مؤلما .

وخرج صوت فاطمة كما لو كانت فى حلم مزعج :

— نبأ مؤلم . . أحدث شىء لأحد من إخواننا ؟

وإذ كانت خواطر فاطمة الغامضة قد بدأت تطرق فروضا جديدة فقد أعاد ذلك لها قوتها وعزمها فإذا هى تقف من جديد متنمرة وتسأل فى حزم وحرارة :

— أثمة خطر يهدد حركتنا ؟

ونظر فوزى صوب خالد وقال له :

— قل لها يا خالد أنت ما الذى جاء بنا ؟

وتدخل صبرى قائلا :

— اسمعى يا فاطمة ، لن تظفرى بإجابة من أى منهما ، لقد كنت أنا صاحب فكرة الحضور إليك لإبلاغك النبأ المحزن وسوف تتبتين إذا كنت قد أخطأت أو أصبت بهذا التفكير .

— وهتفت فاطمة :

— نبأ محزن ؟ ! هل أصيب حسن بسوء ؟

وتشجع صبرى فقال :

— لا : حسن طيب بخير ... إن النبأ المحزن لا يتصل بحسن وإنما يتصل . . .

وقالت له فاطمة فى صوت يشبه الهمس وقد جحظت عيناها من شدة الرعب :

— أزهار ؟ ؟ أأصابها مكروه ؟

وسكت الثلاثة ولم يستطع صبرى نفسه أن يحير جوابا ، واغرورقت أعينهم جميعاً بالدموع .

واندفعت فاطمة صوب خالد . وسألته بهذا الصوت الذى أحاله الرعب فحيحاً :

— أماتت أزهار يا خالد ؟

وأمسك خالد بيدى فاطمة فى يديه وقال لها مقويا ومعزياً :

— كلنا سنموت يا فاطمة . . . لقد ماتت أزهار شهيدة .

وسقطت صينية الشراب من يد الأم ، التى كانت قد دخلت منذ لحظات تحمل أكواباً من شراب التوت ، وطارت الأكواب . . وانسكب الشراب الأحمر ، ودوى صوت الأكواب المحطمة والصينية الساقطة كما لو كانت إحدى قنابل الحرب التى تنسف كل شىء فى غير رحمة .

٨

نشرت الصحف والمجلات المقالات الطوال عن أزهار ، وامتلأت بصورها من شتى الأحجام ومختلف الأوضاع ، وانبعث تاريخ حياتها ، وموقفها من فؤاد عبد السميع ، كما صوره آخر أفلامها « حب كبير » وأجمع كل من كتب عنها أن الفن قد خسر بوفاتها خسارة لا تعوض ، بعد أن كشفت الأفلام الثلاثة التى مثلتها عن نفسية أصيلة ومعرفة عميقة بالفن لا تتوفر إلا لإنسانة ذات قلب كبير .

وانتهزت دور السينما هذه المناسبة فأعادت عرض هذه الأفلام ووقف الرواد على أبواب دور السينما فى صفوف طويلة ليحصلوا على أما كن لهم ، وكان ذلك ذروة ما يمكن أن يصل إليه فنان من نجاح فى حياته و بعد مماته .

على أن ذلك كله... ومئات البرقيات التى انهالت على أسرة أزهار... من مصر ومن العالم العربى كله لم يكن له أثر فى تخفيف الصدمة العصبية التى أصابت فاطمة نتيجة الظروف والملابسات التى صاحبت تلقيها الخبر.

لم يحدث أن صرخت أو بكت ، بل ظلت جاحظة العينين شاردة الذهن لا تشارك فى قليل أو كثير مما يجرى حولها من مظاهر الحزن والأسى من بكاء وعويل وصراخ . . .

لزمت حجرتها لا تريم . . . لا تتغذى إلا ببعض السوائل تحت إلحاح أمها وبكائها . . .

لم تحفل بما كتبته الصحف عن أزهار ، ولا استروحت بنشر صورها فى كبريات الصحف مجللة بالسواد ، وليس إلا عندما حمل أخوها حسن مجلة البعث وراح يتلو عليها ما كتبه الدكتور خالد آمين فى رثاء أزهار ، أن بدأ التوتر الشديد الذى تعانيه يخف رويدا . . رويدا تحت كلمات خالد أمين الحانية ، التى كانت تعرف أنه يكتبها لها هى . . . « ومالى لا أسكب دمعة على جدث أزهار .. ومالى لا أضع زهرة على ذكراها » وأغلقت فاطمة عينيها فى تراخ ولم تفتحهما من جديد إلا وصوت أخيها حسن يرتعش مرددا كلمات خالد :

« كانت أزهار تعيش فى هليوود مع زوجها فى هناء ورخاء بعيدين عن صخب الحرب وزوابعها وظلامها وصفارات إنذارها ، وقد أزمعت كبريات شركات السينما على التعاقد معها لإنتاج أفلام تجعلها إحدى النجوم العالمية ، ولكنها ضاقت بذلك كله وحنت إلى وطنها الحبيب ... إلى أمها وأخيها وأختها ، فلما أن حذروها أن مصر توشك أن تصبح ميدانا للحرب ، أجابتهم بأن ذلك هو ما يحفزها للعودة إلى وطنها . »

وزفرت فاطمة زفرة قوية . . . فتوقف أخوها عن متابعة القراءة ونظر إليها فى إشفاق ، ولكن فاطمة قالت له فى نبرة هادئة :

— بل امض فى قراءتك ... إنك لا تعلم كم تشفينى هذه الكلمات الصادقة الأمينة .

ومضى حسن فى تلاوته :

« فإذا كانت أزهار قد لقيت حتفها ، فقد ماتت شهيدة وعلينا أن نأخذ من موتها درسا ينفعنا ، وهو أن ليس فى الدنيا ما يسمو أو يعلو على الوفاء والتعاطف والحب » وأجهشت فاطمة فى البكاء لأول مرة ، بينما مضى حسن يتلو الخطاب وهو فرح لبكاء أخته ... ولم تتوقف فاطمة عن بكائها إلا وهى تسمع خالدا يخاطبها فى المقال بقوله :

« دكتورة فاطمة ، إن قلوبنا تتجه نحوك فى أساك وحزنك ، ولكننا نذكرك أن طريقنا الذى اخترناه لأنفسنا طويل ، ومحفوف بالأسى والأحزان ، وعلينا أن نحولها كلها إلى فيض من الفرح والمسرات بأن نلوذ بإيماننا بالله والحق والخير » .

وكانت الأم قد سمعت بكاء ابنتها ، فجاءت تعدو فرحة لزوال الغمة عنها . . . ولم يكد حسن يتم تلاوة المقال حتى انخرطت فى البكاء ، وضمت فاطمة إلى صدرها وقد اختلطت فى نفسها مشاعر الألم على وفاة ابنتها الحبيبة بفرحها باجتياز ابنتها الوحيدة الأزمة التى كانت تهددها . وطلبت فاطمة من أخيها حسن أن يصلها بالدكتور خالد على التليفون لتشكره .

وناداها حسن من حجرة التليفون منبئا إياها بأن الدكتور خالد على التليفون ، وحاولت فاطمة أن تنهض لتحقق طلبتها فى مكالمته ، ولكن قواها لم تسعفها ، وانتابها الانفعال فأجهشت من جديد بالبكاء.

وأسرعت الأم فخاطبت الدكتور خالد وسألته إذا كان يمكن أن يتفضل بالحضور لزيارة فاطمة المريضة ، ولم يكن خالد ينتظر إلا هذه الدعوة لكى يعلن الوالدة الوالهة أنه فى الطريق لزيارتهم .

ولم تكد فاطمة تسمع هذا النبأ حتى سرت رجفة فى بدنها ، وأحست بدبيب العافية يسرى فى أوصالها ، فقامت متحاملة على نفسها ، وقصدت إلى حجرتها وأغلقت الباب خلفها . ثم راحت أمام المرآة تمشط شعرها وتصلح من هيئتها ، وقد عاد البريق إلى عينيها بعد طول ذبول .

وتنهدت . . . كم كانت تتمنى لو استطاعت أن تدفن أحزانها بين ذراعى خالد ، آه لو أنه ضمها إلى صدره وصارحها بحبه لها ، إذن لتحولت كارثة وفاة أختها إلى ينبوع سعادة . . .

ومضت فاطمة تضع اللمسات الأخيرة فى زينتها ، وقد بدأ الأمل يداعبها .

٩

عند ما وصل الدكتور خالد أمين مسكن الدكتورة فاطمة ، كان شقيقها حسن قد بارح البيت تحت ضرورات عمله فى النيابة ، ولذلك فلم يكن فى استقباله سوى أم الدكتورة فاطمة التى انطلقت فى نوبة من النحيب بمجرد وقوع عينيها عليه . وأرتج على الدكتور خالد ولم يعرف ماذا يفعل أو كيف يتصرف ، وعند ما حاول أن يسوق لها عبارات العزاء التقليدية من أن ذلك حال الدنيا ، ازداد نشيج السيدة . . .

وظهرت فاطمة على عتبة باب حجرتها ، وقالت لأمها معاتبة :

— ما هذا البكاء يا ماما ، أهكذا تكافئين الدكتور خالد على زيارته لنا ؟

وتوقفت الأم عن البكاء فجأة ، وفتحت عينيها من فرط الدهشة ، فقد كان التغيير الذى طرأ على فاطمة ، فى شكلها وهيئتها وصوتها مذهلا ، كانت قد جمعت شعرها وعقصته وراء رأسها ، ودبت الحمرة فى وجهها ، وتلألأت الابتسامة على شفتيها .

ولم يكن الدكتور خالد أقل دهشة من والدة فاطمة ، لفرط ماطرأ عليها من نحول وذبول وضعف ، وخفق قلبه من فرط الأسى على فاطمة ، وأسرع نحوها مادا يده مصافحا ومواسياً ، بينما أسرعت الأم تفتح باب حجرة الصالون .

وانتهز خالد هذه الفرصة فأبقى يد فاطمة فى يده أكثر مما ينبغى ونظر إليها بعينيه الصافيتين وهما يشعان وهجاً وحنانا .

— كيف حالك يا فاطمة ، ما هـذا الذى أراه ؟ كيف تفعلين ذلك بنفسك ؟

وانفعلت فاطمة فطفرت الدموع من عينيها ، بينما كانت أمها تقول لخالد بعد أن أخذ مقعده فى حجرة الاستقبال :

— ربنا يطول فى عمرك يا دكتور خالد، قل لها يا ابنى ، فقد نشف ريقى من كثرة الكلام . إن مصيبتنا بوفاة أزهار عظيمة ، ولكن هل معنى ذلك أن تقتل فاطمة نفسها ؟

ومسحت فاطمة دموعها بطرف يدها ، وقالت لأمها وهى تبتسم فى حياء ، ومداعبة :

— كيف تقولين ذلك وأنا أقف أمامك الآن مثل العفريت !؟

وهتفت الأم فى احتجاج :

— بعد الشر عنك ، عفريت ! ! ما أنت إلا ملاك .

وتحولت الأم توجه حديثها نحو الدكتور خالد أمين :

— والله يا دكتور هذه أول مرة منذ هذا الخبر المشئوم تغسل فيها وجهها ، وتقف على قدميها ، وتسرح شعرها .

وأطرق خالد فى حياء وارتباك ، ثم رفع رأسه فى عزم وقال :

— ما هذا يا فاطمة ، أين إيمانك الشديد بالله ، الذى طالما ملأنى إعجابا بك واعتزازاً بزمالتك .

ومن جديد لم تمالك فاطمة نفسها من شدة الانفعال، فاحمر وجهها ولم تعرف ماذا تقول ، بينما تدخلت الأم وقالت وفي صوتها رنة ماكرة:

— ليتك يا دكتور زرتنا قبل اليوم ، إذن لوفرت علينا كثيرا من الآلام .

وهتفت فاطمة محتجة :

— الدكتور خالد مشغول يا ماما ، كل أعمال الجريدة والحركة في عنقه ، إنه يعمل بالليل والنهار ، وكل يوم في بلد إنه يطوف مصر كلها للدعاية والتفتيش على اللجان والفروع .

وقالت الأم معترضة :

على كل حال يابنتي لابد أن يكون له وقت يفكر فيه من أجل نفسه ، من أجل أمه وإخوته ، ومن أجل بنت الحلال التي سيرزقه الله بها .

وضحكت فاطمة في حياء وخجل وقالت في تلعثم وقد خفق قلبها :

— لا أظن الدكتور خالد يفكر في شيء من ذلك ، إن الجهاد في سبيل الله والوطن . هو أمه وأبوه وكل حياته .

أليس كذلك يا دكتور ؟

ورنت فاطمة إلى خالد في وله واستجداء وتوسل ، وراحت ترقب رد فعل ملاحظتها على وجهه وقلبها يدق بشدة وعنف ، ولكن خالد لم يقل شيئا ، ونظر إليها في صمت وحنان وقد امتقع وجهه .

وقالت الأم :

— سأذهب لأعد للدكتور فنجانا من القهوة .

وأسرعت فاطمة تقول :

— ضعى فيها سكرا يا ماما .. أعفيه من قهوتك السادة . فقالت الأم :

— طبعا بسكر يا فاطمة ، لقد أنهت زيارة الدكتور خالد لك الأحزان وردت لى روحى .

وران الصمت على فاطمة وخالد بعد خروج الأم ، وراح كل منهما يتشاغل بالعبث بأصابعه .

كان من المحقق أن وفاة أزهار ، بكل ماحملته من أحزان وآلام لفاطمة وأسرتها ، فقد كانت مناسبة قوية للتقريب بين فاطمة وخالد ، وها هى ذى الفرصة تتاح لها لأول مرة منذ أمد بعيد لترى نفسها وحيدة مع خالد فى بيتها ، بعيدا عن جو البيت الأخضر وما يغص به من حركة ونشاط ، ودعوة دائبة لنسيان الذات وإنكارها . ها هو ذا خالد يجلس أمامها تحس بحرارة أنفاسه على البعد ، وتكاد تسمع خفقات قلبه إنه لا يمكن إلا أن يحمل لها من الحب مثل الذى تحمله له ، إنها لم تعد تشك فى ذلك . إنها تحس بنظراته الملتهبة تكاد تنفذ إلى قرارة روحها لقد ذاب كل حزنها وألمها فى لحظة . وأصبح موضوع وفاة أزهار يبدو كما لو كان قد مضى عليه أعوام ، وخيمت عليه ذيول النسيان ، منذ اللحظة التى أحست بيدها بين يديه ، وأدركت بكل كيانها أنه يحتجزها متعمدا. ماأعظم القوة والحيوية التى شعرت بها تتسرب إلى جسدها وكيانها من خلال هذه الملامسة ليده القوية الدافئة .

ما أكثر ما صافحت الدكتور خالد فى أكثر من مناسبة ، وما أكثر ما استشعرت الدفء والحنان فى مصافحته ، أما هذه المرة فقد كان فى إمساكه ليدها شىء جديد ، تيار عنيف هز بدنها هزا . وخفق قلب فاطمة وتلاحقت أنفاسها عندما سيطر عليها خاطر واحد قوى . . إنها لا يمكن أن تدع هذه الفرصة تفلت من يدها،إن قلبه مفتوح لها فى هذه اللحظات ، إنه يبدو مستعدا لعمل أى شىء لمقابلة عاطفتها نحوه بالمثل ، يجب أن تصارحه ، يجب أن تقول شيئاً ... أن تفعل شيئاً لتحمله على الكلام ، على الخروج من صمته .

واحمر وجه فاطمة فجأة وقد وصلت فى تفكيرها إلى هذا الحد ، أيليق بها أن تستغل شفقته عليها فى هذا الظرف لتحمله على البوح بحبه لها ؟ أهذا أنسب الأوقات لهذه المكاشفة ؟

ماذا يتصور ؟! أين حزنها أين ألمها على وفاة أختها ؟

وهزت فاطمة كتفيها فى غير مبالاة ، إنها لا يمكن أن تكون منافقة أو متصنعة . إن شيئا واحدا هو الذى يزحم قلبها فى هذه اللحظة وهو حبها الخالد . . هذا المعبود الذى أصبح محور حياتها ، لقد انمحى من نفسها كل إحساس بشخصيتها ، إنها هو ، وهو هى فلا ينبغى أن تتردد أو تخجل . إنه يجلس أمامها لا تفرقه عنها سوى خطوة واحدة ، ما عليها إلا أن تتحرك لتكون ملاصقة له ، ما عليها إلا أن تهتف باسمه فيرد عليها ،وراحت تتأمله ، تتأمل رأسه الكبير وجسده المتين البنيان وكتفيه العريضين . ورفع خالد فى هذه اللحظة رأسه فالتقت عيونهما . . .

وأوشكت فاطمة أن تصرخ ، إنه يحبها مثل ما تحبه ، لقد قال لها ذلك بعينيه وهتفت به فى حنان :

— خالد .

ولم يبد على خالد أنه فوجىء بندائها له باسمه المجرد لأول مرة ، وأشرق وجهه بنور من السعادة وقال فى هدوء :

— نعم يا فاطمة !

وقبل أن تتمكن فاطمة من أن تقول شيئا ، كانت أمها قد دخلت تحمل صينية القهوة وهى تقول فى مرح :

— قهوة بسكر لأول مرة فى بيتنا منذ جاءنا الخبر المشئوم . إن شاء الله بالهناء والعافية .

ولم يحدث أن كرهت فاطمة أمها كما كرهتها فى هذه اللحظة ، فقد كان رد فعل دخولها فى هذه اللحظة عنيفا وقويا ، وأحست فاطمة أن فرصتها قد ضاعت بعد أن وجدت عزمها ينحل فى ومضة ، ويحل محله شعور بالخجل والخزى مما كانت ستقوله وتفعله . كيف كانت سترتكب هذه الحماقة التى يمكن أن تضيع منها الدكتور خالد إلى الأبد ؟ أليست تعرف تفانيه من أجل مبادئه ، إن مصارحته بحبها الشديد له وأنها لم تعد تعيش إلا من أجله قد يجعله يهرب منها فلا تعود ترى وجهه .

ونظرت إلى أمها فى شكر وامتنان . . . لا . . . إنها لا تكرهها ، بل تحبها . . تحبها فقد أنقذتها من حماقتها .

وقالت الأم :

— إن مصيبتنا يا دكتور خالد فى وفاة أزهار كبيرة جداً ، وسأظل أندبها وأبكيها ما بقيت على ظهر الحياة ، ولكن حالة فاطمة روعتنى ، وعلى رأى المثل الحى أبقى من الميت ، لقد شغلنى خوفى عليها عن كل شىء .

وابتسم الدكتور خالد وقال :

— نحن أيضا خفنا عليها ، وهذا ما حفزنى للحضور ، وقد كنت أتوق إليه منذ أمد طويل . إنك لا تعرفين « ياتيزه » مقدار غلاوة الدكتورة فاطمة عندنا جميعا ، إن الأستاذ فوزى ، يقول عنها دائما إنها مفخرة جيلها من الفتيات وأنه سيكون لها شأن كبير ، وسوف تلعب دورا حاسما فى حركتنا .

ولمعت عينا أم فاطمة وقالت :

— رأى الأستاذ فوزى على العين والرأس ، ولكن الذى يهم فاطمة أن تعرفه . . .

وصرخت فاطمة فى جزع وتحذير :

— ماما . . .

غاضت الابتسامة من وجه الأم ، ونظرت صوب فاطمة فى ارتباك وتلعثم وعتاب :

— ما بك يا فاطمة ، لقد أفزعتنى . . .

ولم تعرف فاطمة ماذا تقول ، فهزت كتفيها واطرقت برأسها وراحت تعبث بأصابعها وتضرج وجهها من الحياء والانفعال .

واستطردت الأم تقول :

— جهاد ! جهاد ! لا تؤاخذنى ياابنى أنا امرأةمسنة وغير متعلمة ، ولا أفهم شيئاً عن هذا الجهاد الذى تكثرون من التحدث عنه ، اسال الله أن يحميكم لشبابكم وينجيكم من كل هم وضيق ، ولكن الذى أصبحت أتمناه على الله وأرجو أن أراه قبلأن أموت وخاصة الآن بعد وفاة أزهار ، هو أن .. .

ومرة أخرى تدخلت فاطمة مقاطعة وهى تقول فى انفعال :

— أرجوك يا ماما ألا تقولى شيئاً .

ولكن الأم لم تلق بالها لأول مرة لمقاطعة ابنتها ومضت تقول :

— كل الذى أطمع فيه أن يرزق الله فاطمة بابن الحلال الذى يسعدها ويهدىء سرها .

وابتسمت فاطمة فى مرارة وارتباك وقالت فى عصبية وانفعال :

— أهذا وقت الحديث عن هذه الأمور ؟

وكان الانفعال قد سرى إلى الدكتور خالد فإذا يده ترتجف ، وبعض قطرات من القهوة تنسكب علىسترته ، وندت منه آهة خافتة بينما كانت فاطمة تقول لأمها فى حدة :

— أرأيت ؟ ! لقد انسكبت القهوة على بدلته ، أنا آسفة جداً يادكتور خالد .

وقالت الأم ضاحكة :

— خير . . . خير . . . انسكباب القهوة خير وعلامة على الفرح . لا بأس عليك يا دكتور سوف أنظفها لك حالا .

وخرجت الأم مسرعة ، بينما كانت فاطمة تقول فى اضطراب :

— معذرة يا دكتور خالد ... أرجوك ألا تؤاخذ والدتى ... إنك تعرف الأمهات .

وزوى خالد ما بين حاجبيه وظهر على وجهه العزم والتصميم وانطلق يقول وهو ينظر إلى فاطمة فى هدوء :

— ما الذى أؤاخذ والدتك عليه ؟ أنا الذى سكبت القهوة ، والخطأ خطئى . أما بالنسبة لكلام والدتك ، فليس هناك ما أتمناه أنا نفسى على الله أكثر من أن يرزقك بزوج جدير بك ، قادر على أن يحقق لك السعادة التى أنت أهل لها .

وصعقت فاطمه لهذه العبارة التى خيبت آمالها ، وعندما عادت الأم بقطعة مبللة من القماش لتنظف القهوة ، لم تلحظ التطور العنيف الذى كان قد ألم بابنتها ، التى كانت لا تزال مصعوقة فظلت عيناها متسعتين ، وفمهامفتوحا ونفسها متعطلا .

وارتفع ضجيج خالد وهو يتأبى على أم فاطمة أن تنظف له ثوبه ،

طالبا أن يتولى العملية بنفسه ، وهى تقسم عليه بأغلظ الأيمان لتقومن بالعمل بنفسها ، وزجرته فى ود وتحبب قائلة له :

— ما هذا يا دكتور خالد ، أتعتبر نفسك غريبا عنى ، ألا تعرف معزتك فى قلبي وأنك فى غلاوة ابنى حسن وبنتى فاطمة .

وأسرع خالد يقول :

— إن هذا شرف لى .

فضحكت الأم وقالت :

— الله يشرف مقدارك يا ابني ، إذن دعنى أنظف البدلة .

وأتاح هذا الحوار بين خالد وأم فاطمة ، الفرصة لكى تتمالك فاطمة نفسها ، وتجمع شتات عواطفها المتنازعة المتناثرة ، وان تستسلم لموجة الكآبة التى غمرتها وراحت تقول فى نفسها :

— ما أشد غباوتى ... لقد كنت أخدع نفسى ، إنه لا يحبنى الحب الذى تصورته ، إنه يحبني كما لو كنت مجاهدا يبذل نشاطه من أجل الله والوطن . آه شد ما أنا تعسة . . . شد ما أنا شقية .

* * *

ولم تعترض فاطمة على خالد عندما وقف استعدادا للانصراف ، ولم تتابع بانتباه ما راح يقوله من ضرورة انصرافه وعودته إلى الجريدة . وعندما راح يشد يده على يدها وهو يودعها ويستحثها بأن تعود غداً إلى عملها بالمستشفى وأن تجىء إلى البيت الأخضر حيث سيكون

جميع الزملاء فى انتظارها ، لم تزد على أن قالت له فى فتور وبرود وعبارات متقطعة :

— إن شاء الله . . . إن شاء الله ، أنا متشكرة جداً . . . الله يحفظك . ولكن خالد فاجأ فاطمة بأن زاد فى ضغطه على يدها ، وتصورت فاطمة كما لو كان قد قرب يدها إلى صدره وقلبه ، وقال لها وقد احمر وجهه من فرط الانفعال :

— لا تتصورى مقدار سعادتى يا فاطمة بهذه الزيارة ، بكل كلمة قيلت فيها وبكل حركة . . . وأنا أراك الآن وقد استرددت عافيتك .

وقبل أن تجيب عليه بشىء خلى عن يدها وأسرع يعدو درجات السلم .

وعندما جاءت الأم التى كانت قد تعمدت أن تخلى لابنتها الطريق ، سألت فى تخابث :

— هل انصرف الدكتور بالسلامة ؟

— فانحدرت الدموع من عينى فاطمة ، ولم تلبث أن شهقت بالبكاء وراحت تقول :

— لا فائدة . . . لا جدوى . . . إنه هو . . . كما هو لن يتغير أبداً ، لن يتكلم أبداً .

الفصل الخامس

١

كان لا يزال على موعد إذاعة لندن بضع دقائق ، وكف فوزى عن إدارة مؤشر الراديو ، وأقبل نحو كوب الشاى الذى قدمته له وفاء منذ وقت بعيد وما فتئت تهتف به من كافة أرجاء البيت وهى تقوم على تنظيفه سائلة إياه إذا كان قد شربه ، وكان لا يفتأ يعدها بأنه سيشربه ، وهى لا تنى تذكره بعدم جدوى شربه إذا لم يكن ساخنا ملتهبا .

وأمسك فوزى بالكوب أخيرا فى يده ورشف منه رشفة واتجه نحو الشرفة الشرقية التى كانت السبب فى اختياره السكنى فى هذا البيت . كانت شقة فوزى تقع فى الدور الثامن أى فى نهاية العمارة ، وكانت هذه الشرفة تكشف القاهرة كلها حتى جبل المقطم .

وصفعت نسمات الربيع وجهه وأنعشته السماء بزرقتها الصافية ، وأحس بسكينة عميقة تتغلغل فى كل كيانه وروحه . ولم يلبث أن هز كتفيه عجبا ودهشة لهذا الهدوء وهذه السكينة التى تغمر نفسه ، أكان يتصور أن الحرب لا تكاد تندلع حتى يعيش فى هذا الخمول والهدوء الذى لم يعرفه فى أى يوم من أيام حياته ؟! ما أبعد الصورة التى كان يتخيلها عن مصيره بمجرد قيام الحرب ، وبين الواقع الذى أصبح يعيش فيه ...

لاسجون ولااعتقالات أومحاكات ... لاسبيل لكتابة المقالات التى اعتاد كتابتها والتى تهز القراء ، بل لااجتماعات ولا خطب... ما الذى كان يمكن أن يصيبه من فرط السأم والملل لولا هذه الرحلة إلى الحجج التى هيأت له سبيل التنفيس عن نفسه بالخطابة أكثر من مرة فى وفود الحجاج ، داعياً إياهم إلى بعث الإسلام ووحدة العرب ؟! ليته ظل فى الحجاز لينعم بهذه الحرية فى مهاجمة الإنجليز وتحريض العالم الإسلامى على الثورة عليهم ، ولكن ها هو ذا يعود إلى مصر كما يقتضيه واجبه . . . وها هو ذا يعود إلى هذا الجو الذى يوشك أن يخنقه من السأم .

وقطعت وفاء على فوزى تأملاته وهى تساله للمرة العشرين إذا كان قد شرب شايه ساخنا ، ولتذكره بأن موعد أخبار لندن قد حل.

وأدار فوزى مفاتيح الراديو ، وإن هى الا لحظات حتى بدأت ساعة « بج بن » دقاتها ، وخفق قلب فوزى كما اعتاد أن يخفق كلما سمع دقات هذه الساعة ، فقد كان يسمع من هذه الاذاعة ما لا يطالعه فى الصحف المصرية الخاضعة للرقابة ، هذه الرقابة السخيفة الغبية التى أصبحت ملكية أكثر من الملك فلا تسمح بنشر ما يذيعه الإنجليز أنفسهم عن خسائرهم فى البر والبحر والجو . وارتفع صوت المذيع الإنجليزى :

— هذه لندن تنادى . ألمانيا تغزو الدانمرك والنرويج فجر هذا اليوم . . . الأنباء الأولى تدل على نجاح الغزو الألمانى للدانمرك فقد أعلن ملكها استسلام بلاده . . .

صاح فوزى فى اهتياج :

— وفاء . . . وفاء . . . لقد اشتعلت الحرب من جديد . . . هتلر يغزو الدانمرك والنرويج .

وجاءت وفاء من المطبخ متسائلة فى دهشة :

— الدانمرك . . . ؟ النرويج وما دخلهما فى الحرب . . . أليستا على الحياد ؟

أو لم يقل هتلر ويؤكد أنه يحترم حيادها واستقلالهما ؟

فأجاب فوزى :

— ومتى كان لهتلر وأمثاله من الديكتاتوريين عهد أو ميثاق . . . إن دستورهم الوحيد هو القوة . . . القوة المادية السافرة المتبجحة .

وقطع المذيع على فوزى استرساله فى الحديث وهو يعود لتلاوة الأنباء بالتفصيل ، وقد راح يصف معجزة هتلر الحربية الجديدة وهو يحتل دولتين من السماء عن طريق الطائرات وجنود المظلات لأول مرة فى تاريخ بنى الانسان .

* * *

وغرق الشعب المصرى كغيره من الشعوب التى لم تكن قد اشتركت فى الحرب بعد ، فى سيل الانباء المثيرة طوال الأيام التالية ، والتهبت المشاعر من جديد ، وغلت الدماء وتوترت الأعصاب إلى أن أتم الألمان احتلال الدانمرك والنرويج بنجاح فائق ، وضم هذا الانتصار الجديد إلى سلسلة انتصارات هتلر المدوية .

على أن شهر أبريل لم يكد ينتهى ويعقبه شهر مايو ، حتى بدأ الألمان معجزتهم الحربية الكبرى التى جعلت من احتلال الدانمرك والنرويج مجرد نزهة وتسلية ، فقد هاجمت الجيوش الألمانية الساحقة حصون هولندا وبلجيكا وفرنسا معا فى يوم واحد وفى ساعة واحدة .

وما هى إلا أيام حتى تم احتلال هولندا ، وأيام أخرى اعقبت استسلام ملك البلجيك ، وسقط خط ماجينو كما لو كان وهما وسرابا ، وفرت انجلترا بجيوشها فى شمال فرنسا من ميناء دنكرك بأعجوبة ، تاركة وراءها كل أسلحتها ومهماتها ناجية بجلدها ثم ترنحت فرنسا بعد أن تمزق جيشها دون أن يخوض معركة واحدة . ولاحت هزيمة انجلترا على الأفق القريب بعد أن أعلن تشرشل أنهم سيحاربون من بيت لبيت وسيحاربون بالفؤوس وسكاكين المطبخ إذا لزم الأمر .

وترنح الشباب المصرى من فرط النشوة ، وقرر انتهاز هذة الفرصة المواتية للتخلص من الاستعمار البريطانى .

وتحركت حركة البعث الإسلامية وقررت أن تضرب ضربتها ، وتشرع فى مغامرتها ، ولكن رئى التمهل ريثما يشرع هتلر فى هجومه على الجزر البريطانية بالفعل ، ورئى من ناحية أخرى وجوب الاتصال بجماعة الدعوة المحمدية لتوحيد الجهود ضمانا لنجاح الحركة .

وسعى فوزى وأصحابه للاتصال بالشيخ المهدى رائد الدعوة وزعيمها .

وتم اللقاء المرتقب فى دار الدعوة ، بين فوزى وخالد من ناحية ، والشيخ المهدى ووكيله الحلوانى أفندى من ناحية أخرى .

وقال فوزى معلقاً على الأنباء التى كانت تترى بانتصارات الألمان المذهلة :

— ما أكثر ما صدعوا رؤوسنا فى الأشهر الماضية عن مناعة خط ماجينو واستحالة اختراقه ، وإذا المانيا تخترقه فى بضع ساعات لتكتسح الدبابات الجبارة الجيوش الفرنسية أمامها وتهددها بالتمزق ، فى الوقت الذى كانت جيوشها تجتاح هولندا وبلجيكا . أكان خط ماجينو وهماً وخرافة ؟

وابتسم الشيخ المهدى ولمعت عيناه الواسعتان وأسرعت أصابعه تعبث بشعر لحيته التى تحيط بوجهه المستدير وجبهته العريضة :

— يا أستاذ فوزى . . أو لم يأتك قول القرآن الكريم « وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف فى قلوبهم الرعب » صدق الله العظيم .

أشهد أن الرسول حق وأن القرآن حق وأنه كتاب أنزل من لدن سميع حكيم .

وقال الحلوانى أفندى وكيل الشيخ :

— لا أظن يا جماعة أن الحرب ستطول بعد الآن . . إنها لا تعدو أن تكون مسألة أيام تخر بعدها فرنسا هذه الدولة الداعرة المنحلة اللعينة .

فقال الشيخ المهدى معقبا :

« ويومئذ يفرح المؤمنون — بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم »

وتساءل فوزى تمهيداً للدخول فيما اجتمعوا من أجله :

— وانجلترا ما ذا تظنون أن سيكون مصير انجلترا ؟

وبادر الشيخ المهدى :

— إلى جهنم وبئس المصير ، جزاء وفاقا لعدائها للإسلام والمسلمين.

وانطلق فوزى يشرح ما يجيش فى نفسه ويتمناه من تعاون بين حركة الدعوة والبعث .

— إنكم تتابعون من غير شك يا سيدى الشيخ كيف أن حزب الأغلبية قد عاد يحاول قيادة الرأى العام فى جهاده ضد الإنجليز فراح ينادى بإلغاء الأحكام العرفية ووجوب اعتراف الإنجليز بأمانى مصر القومية فى الجلاء ووحدة وادى النيل ؟

فقال الشيخ المهدى :

— طبعا ... طبعا .

ومضى فوزى يقول :

— ولا بد أنكم تتفقون معنا فى أن ذلك كله ليس إلا مجرد مناورات يراد بها الضغط على الإنجليز ، ليضغطوا بدورهم على الملك ليعيدهم إلى الحكم .

وهزّ الشيخ رأسه ولمعت عيناه وافتر ثغره وتمتم قائلا :

— حق .

— وأن الإنجليز لا يمكن أن يجلوا عن مصر ولا أن يعترفوا بحقوقنا فى السودان إلا إذا أكرهناهم على ذلك إكراها .

— صح .

— ولن نجد فرصة ذهبية للقيام بثورة مسلحة ضد الإنجليز أكثر من هذه الفرصة التى انشغلوا فيها للدفاع عن كيانهم فى عقر جزيرتهم .

ونظر الشيخ المهدى فى وداعة وصفاء وسكينة وقال لفوزى :

— فتح الله عليك ياأستاذ فوزى ، طول عمرك مجاهد صادق تنظر بنور الله . . . لقد لخصت القضية كما نفهمها ونفكر فيها بالليل والنهار ، فهل لديك خطة للعمل ؟

فغمرت فوزى موجة من الحماسة ، وانفتح قلبه للشيخ المهدى كما لم ينفتح له فى أى يوم من الأيام ، وراح يقول فى حرارة والشيخ المهدى يتابعه بنظرة تفيض عطفاً وتشجيعاً :

— إن خطتى بسيطة جداً وهى تعتمد فى الدرجة الأولى على الحالة النفسية للجماهير المصرية فى اللحظة التى يشرع فيها هتلر باقتحام الجزر البريطانية ، إن كل مصرى فى هذه الساعة سيكون مستعداً للاشتراك فى أى عمل يؤدى إلى ضرب الإنجليز فى بلادنا وحملهم على الجلاء عن وادينا ... وباستطاعتى أن ألخص فكرتى فى أن مهمتنا لن تزيد عن أن تكون إشعال الثقاب الذى سيحيل البلاد كلها إلى لهب ضد الإنجليز.

فقال الشيخ :

— عظيم . . . عظيم . . . الله يفتح عليك يا أستاذ فوزى ، ونظر إلى صاحبه الحلوانى أفندى وقال له :

— ألم أقل لك إن الأستاذ فوزى شعلة نشاط .

ثم عاد موجها الحديث إلى فوزى :

— المهم يا أستاذ فوزى . . . هو طريق التنفيذ . . . كيف نبدأ ، ومن أين نبدأ وبأى قوة نبدأ؟

فأخرج فوزى خريطة القطر المصرى من جيبه وبسطها تحت أنظار الشيخ المهدى وصاحبه ، ولاحظ الحلوانى أفندى بمجرد وقوع نظره على الخريطة دوائر حمراء كبيرة وأخرى صغيرة موزعة فى الوجهين البحرى والقبلى ، فسأل عما تعنيه هذه الدوائر ، فقال له فوزى :

— أما الدوائر الحمراء الصغيرة فتشير إلى القرى التى سنحشد فيها مجاهدينا ، وكل مجموعة من هذه الدوائر الصغيرة تحيط بدائرة كبيرة وهى المركز الذى وقع عليه الاختيار ليحتل .

ودقق الحلوانى أفندى النظر فى هذه الدوائر ثم رفع رأسه متطلعاً نحو فوزى ومتتبعاً الشرح الذى كان قد بدأ :

— سوف تبدأ العملية بأن نجهز فى كل قرية من هذه القرى المحيطة بالمركز مجاهدين أو ثلاثة على الأكثر مجهزين بالمسدسات ، وفى الساعة المحددة من اليوم المحدد ، ينقض المجاهدون فى كل قرية على « سلاحليك » القرية الموجود فى دوار العمدة ، ويستولون على

مافيه من بنادق وذخيرة ، ثم يحشدون أهل القرية ويخطرونهم بقيام الثورة ويعينون منهم متطوعين بقدر السلاح المتوفر ثم يقودونهم للهجوم على المركز ، وتلتقى هذه القوات المسلحة من القرى المختلفة فى المراكز فى الوقت الذى يكون فيه جماعة من المجاهدين فى داخل المركز نفسه قد قاموا بهجوم مماثل ، ويشرع المجاهدون فى مباشرة السلطة باسم قيادة الشعب الثورية .

وقال الشيخ المهدى فى هدوء وتؤدة :

— وكم عدد المراكز التى ستقوم فيها هذه الحركة ؟

فأجاب فوزى وقد بدأ يمتلىء ثقة فى قرب نجاح المشروع بعد أن دلت البوادر على تقبل الشيخ للفكرة :

— هذا يتوقف على عدد المجاهدين المسلحين الذين نستطيع أن نحشدهم للبدء بالعملية . وهذا ماجعل مجلس الجهاد عندنا يقرر وجوب التعاون معكم لتنفيذ هذه الخطة نظراً لإمكانياتكم الكبيرة والعدد الكبير من الشباب الملتف حول لوائكم .

وسأل الحلوانى أفندى بينما كان الشيخ المهدى يفكر :

— وأى اسم سيطلق على هذه الحركة ؟

فقال فوزى :

— قيادة الشعب الثورية .

وفتح الشيخ المهدى عينيه استطلاعا وقال :

— أهناك غرض خاص من هذه التسمية ؟

وضحك فوزى وقال :

— لا شيء . . . إنه مجرد اسم ولكم أن تختاروا ماتشاءون من أسماء ، المهم أن الاسم يجب أن يوحى بالقوة والاقتدار وإرهاب الضعفاء والمترددين .

فقال الحلوانى أفندى :

— إن الاسم يجب أن ينطوى على إشارة للإسلام .

فقال فوزى :

— إنكم تعلمون شدة تعلقنا بالإسلام ، حتى لقد غيرنا اسم حركتنا وأضفنا كلمة الإسلامى إلى كلمة البعث . . . ولكن الثورة التى سنقوم بها يجب أن تكون باسم مصر كلها مسلمين وأقباطا وإلا فإنها لا يمكن أن تنجح أبداً .

وقال الشيخ المهدى لصاحبه :

— الأستاذ فوزى على حق فى هذه النقطة ياحلوانى ، على كل حال موضوع الاسم هذا لن يكون مشكلة .

وهتف فوزى من شدة الفرح :

— بارك الله فيك ياشيخ مهدى لقد حققت آمالى فيك ، إنك لا تتصور مقدار القوة التى تنشأ من تعاوننا معاً بدلا من أن نختلف ونرتطم ، إن حركتنا وحركتكم تمثل حيوية هذا الشعب وإرادته

فى أن يحيا حياة أفضل وأكمل . . . ولو أننا تعاونا معا لأصبحنا قوة لا تقهر ، ولا نهارت الأحزاب القديمة المتعفنة وتلاشت أمام إيماننا الجديد . ومن ناحيتنا فليس لنا شروط او مطالب إلا أن نعمل . . . وأن نعمل سريعاً .

فقال الشيخ المهدى :

— والله يا أستاذ فوزى، لقد أبلغت وأعذرت وأديت واجبك . غير أنى أريد أن نبنى تعاوننا معاً على صخرة قوية من الإعداد والتأهب ، لا على مجرد الحماسة والعواطف ، وحاول فوزى أن يقول شيئا ، ولكن الشيخ المهدى ضحك فى سرعة ورفع يده ليحول دون فوزى والكلام وقال له :

— أرجوك أن تدعنى أتم كلامى . . . وإذا كانت كلمة الحماسة والعواطف لم تعجبك فأنا أسحبها ياسيدى ... إن ما أريد أن أقوله إننا بحكم دستورنا وهو القرآن ، مأمورون بالتأهب والاستعداد « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » ونحن مأمورون بالحذر « وخذوا حذركم » ونحن كما تعلم مأمورون ألا نلقى بأيدينا إلى التهلكة .

وبادر فوزى قائلا .

— طبعا ... طبعا هذه مبادىء مسلم بها .

فقال الشيخ المهدى :

— اتفقنا . إذن ينبغى علينا أن ندرس خطتنا فى إحكام ودقة بعيدا عن كل اندفاع أو تسرع . ألست توافقنى ، أن ثورة مسلحة ضد الانجليز يجب أن تعتمد فى الدرجة الأولى على السلاح ؟

فدهش فوزى لهذا القول وأسرع يقول فى شىء من الحدة :

— ولكن خطتى التى شرحتها لك الآن تبدأ بالحصول على الأسلحة الموجودة فى القرى .

وابتسم الشيخ المهدى فى وداعة وقال :

— أظنك توافقنى يا أستاذ فوزى أن بنادق الخفر التى تطلق الخرطوش لا يمكن أن تعتبر سلاحا نشهره فى وجه الإنجليز ؟

وقال فوزى محتجا :

— إنها أسلحة من غير شك صالحة للغرض المطلوب وهو الهجوم على مراكز البوليس فى المدن الريفية ، وبنادق البوليس فى الأرياف ليست بأحسن حال من بنادق الخفر ... وعلى كل حال فلن نكون فى حاجة لاستعمال الأسلحة فى هذه المرحلة لأن الشعور العام سيكون معنا ، بل سوف ينضم البوليس نفسه إلى صفوفنا .

وقا الشيخ المهدى :

— إن التفاؤل مطلوب من غير شك . . . ولكن الإسراف فيه خطر ... ألم تسمع يا أستاذ فوزى عن البنادق السريعة الطلقات الجديدة كالتومى جن ، والأستن جن ، وعن قنابل الميلز الإنجليزية ؟

فرد فوزى وقد بدأت موجة من الكآبة تتسلل إليه :

— أعرفها طبعا ... ونحن نملك بعض قطع منها ، أربعة أو خمسة ، ولدينا عشرون قنبلة يدوية .

وتبادل الشيخ المهدى وصاحبه نظرات ، ثم قال لفوزى والابتسامة لا تفارق شفتيه :

— أما نحن فلدينا بضع مئات منها موزعة فى أنحاء البلاد ولسنا نعتبرها شيئا يذكر . لا تنس أن عدونا هو الإنجليز الذين هم فى حالة حرب ، وقد تضاعف عددهم بهذه التعزيزات التى تنهال بالليل والنهار من الهند واستراليا ونيوزيلندا ، فإذا كنا سنقوم بثورة ضد الإنجليز فيجب أن ندخل فى حسابنا أن نكون مسلحين بأحدث الأسلحة وبكميات محترمة ... أرجوك أن توافقنى على ذلك .

وقال فوزى وهو غير مقتنع :

— أوافقك على سبيل الجدل وإن كنت لست مقتنعا . إن مصر فى عام ١٩١٩ ثارت وهى عزلاء من كل سلاح ضد الإنجليز الذين كانوا قد انتصروا فى الحرب العالمية وكان لهم فى مصر مائة ألف جندى ... أما اليوم فانجلترا مهددة بالانهيار .

فقال الشيخ المهدى :

— إنك لا تعرف الإنجليز ... إن بلادهم قد تسقط ولكنهم يقاتلوننا بضراوة فى مصر مادام لهم جيش قادر على ذلك .

فقال فوزى :

— فليكن ، أرجو أن تستمر فى حديثك .

فتنحنح الشيخ المهدى مسلكا حنجرته ثم قال :

— والآن فلننتقل إلى العنصر الهام الثانى ، بل لعله العنصر الأول الذى يمكن أن يوفر بقية العناصر وأعني به المال . . . لا أظنك تمارى فى أن ثورة مسلحة ضد الانجليز لا يمكن أن تستغنى عن المال ؟

فقال فوزى :

— طبعا لا ... ولذلك فإن جانبا من خطتنا يقوم على الاستيلاء على الأموال المودعة فى فروع البنوك والبريد ومتحصلات الأموال الأميرية .

فقال الشيخ المهدى :

— هذا مفهوم ومقدر بعد أن نستولى على السلطة فى المراكز بالفعل ، ولكن الإعداد اللازم لتولى السلطة يستلزم مالا .

وأسرع فوزى يقول :

— إننا من هذه الناحية فقراء ، ومع ذلك فيمكننا أن نقدم بضع مئات من الجنيهات . وانطلق الشيخ المهدى والحلوانى أفندى فى ضحكة رنانة ساخرة جعلت وجهى فوزى وخالد يحمران من الخجل، فأسرع الشيخ المهدى يصلح الموقف بلباقة وقال :

— عفوا يا أستاذ فوزى ، إن ضحكى هو من شدة فرحى بإيمانك

الذى يجعلك تهون كل صعب ، إننى أقدر خطتك كل التقدير ... ولقد أحسنت التعبير عن وصف خطتك بأنها لا تعدو أن تكون إشعال عود ثقاب ، أما نحن فخطتنا تقوم على إشعال الثقاب وتجهيز الوقود الذى تشتعل فيه النار فى نفس الوقت . إن باستطاعتنا أن نجمع فى يوم واحد من إخواننا بضعة ألوف من الجنيهات ، ولكننا عندما نخطط لثورة مسلحة ضد الإنجليز يجب أن نفكر بمئات الألوف ، ولن أقول لك إن الحد الأدنى يجب ألا يقل عن نصف مليون حتى لا تضحك أنت بدورك ... واكتفى بأن أضع رقم ٢٠٠ ألف جنيه كحد أدنى لازم قبل الشروع فى أى عمل مما تتصوره .

ونظر فوزى صوب خالد فى يأس ، بينما مضى الشيخ المهدى يقول:

— وما رأيك فى الجيش المصرى ؟

وسأل فوزى فى برود :

— ماله الجيش المصرى ، إن صاحبنا عزيز باشا مبعد عنه من الناحية العملية فى الوقت الحاضر . وقد أجرينا بعض الإتصالات مع أفراد من الضباط الشبان ، فوجدنا روحهم عالية ، وهم على استعداد لعمل أى شىء ، وما علينا إلا أن نبدأ ليبادروا بالوقوف إلى جوارنا .

وتجهم وجه الشيخ المهدى وقال :

— إن بعض أفراد يعدون على الأصابع من أمثال صاحبنا وصاحبكم بهاء عبد القادر لا يكفون لتحقيق الغرض المطلوب ، إننا يجب أن نضمن مؤازرة بعض قطاعات قوية من الجيش .

وتدخل الحلوانى افندى الذى لاحظ مشاعر فوزى قائلا :

— يا أستاذ فوزى لا يجب أن تستهين بالموضوع . كل هذه عناصر لازمة لنجاح الثورة . . إننا يجب أن فوق ذلك كله ندخل البوليس أيضا فى حسابنا ... فيكون لنا فيه أنصار أقوياء ...

ومضى الشيخ المهدى يقول :

— ومع تسليمى بما تقوله دائما فى خطبك وصحيفتك من انحلال الجيل القديم من الباشوات ورجال الأحزاب .. ففى مثل ثورتنا يجب أن نكون على صلة بعدد كبير من رجال مصر من ذوى النفوذ ، بل من الوزراء أنفسهم .

وهنا ضاق صدر الدكتور خالد أمين وقال فى انفعال :

— ما هذا ياشيخ مهدى ، أخشى أن تشترط قبل القيام بأى حركة أن تضمن موالاة بعض عناصر الجيش الإنجليزى نفسه كالهنود مثلا ؟

وامتقع وجه الشيخ مهدى . . . ولكنه لم يلبث أن سيطر على عواطفه فابتسم من جديد وقال :

— كده . . . كده يا دكتور خالد ! ما عهدتك ساخرا ؟ !

ولم يقل خالد شيئا . . . وغرق فوزى فى همه وغمه بعد أن أدرك ضياع كل أمل فى إمكان التقارب فضلا عن التعاون بينما مضى الشيخ المهدى يقول فى حدة وحزم :

— إننا لا نبحث عن مغامرة قد تخيب وتفشل ، وإنما نعد أنفسنا لعمل قوى ناجح ، لأن الفشل يكون كارثة لا على حركتنا أو مصر فحسب ، بل على العالم الإسلامى كله .

واحتد فوزى وقد شجعه احتداد الشيخ المهدى :

— ولكن قيام أى ثورة لا يمكن إلا أن ينطوى على مغامرة ، وإذا لم يكن الثوار على استعداد للمغامرة بأراوحهم بل وقضيتهم فلن تقوم ثورة أبدا . ونجاح أى ثورة لايعتمد على أسلحتها أو أموالها بقدر ما يعتمد على مدى تمثيلها لروح الشعب ، ومتى كانت معبرة عن إرادة الشعب فهمتها هى أن ترفع اللواء فى شجاعة لكى يتبعها الشعب بكل قوته وإمكانياته ، ولا أظن أنك تمارى فى أن إعلاننا الثورة على الإنجليز فى حالة هزيمتهم ، سيكون صدى لإرادة الملايين من هذا الشعب .

وضحك الشيخ وقال :

— إن ما يعجبنى فيك يا أستاذ فوزى هو شدة حماستك .. كم عمرك يا أستاذ فوزى ؟

وأجاب فوزى فى برود وتثاقل :

— ٣٠ سنة .

فقال الشيخ المهدى :

— إذن من حقى أن أعتبر نفسى أخاك الأكبر ، إن الأمر ليس بالسهولة التى تتصورها ، إن شعبنا ليس إيجابيا ، ويجب أن نركز اعتمادنا على الصفوة المختارة من أبنائنا الذين باستطاعتنا أن نحشدهم وندربهم ونجهزهم بالسلاح ، وهو ما نعمل له ونحشد من أجله الأموال . فأدعوك للصبر . وعلى أى حال فإنى أعتقد أن اجتماعنا الليلة كان مفيدا

ومشمرا ، ويجب ألا تنقطع اجتماعاتنا ليكون كل منا على علم بما لدى الآخر من قوة واستعداد حتى يحين الوقت المناسب الذى أرجو أن يكون قريبا .

وخرج فوزى وخالد من دار الدعوة وهما يتعثران ويتخبطان فى الظلام فقد كانت المصابيح فى الميدان قد طليت باللون الأزرق الداكن فلم تعد تسمح بغير بصيص ضئيل من النور الذى يحول كل شىء إلى أشباح .

وزفر فوزى زفرة حارة طاردا الهواء الحبيس فى قلبه وملأ رئتيه من الهواء النقى . . . بينما كان خالد يقول له . .

— إن الفائدة الوحيدة التى استفدناها هذه الليلة ، هو ألا تؤرقنا ضمائرنا إذا نحن قمنا بحركتنا بمفردنا . لقد سعينا جهدنا ، ومددنا أيدينا فرفضت . . . أرأيت براعة الرجل ولباقته ، وهو يبقى الباب مواربا فى نهاية الجلسة ؟

فقال فوزى :

— ليس ذلك ما يدهشنى فهو ليس جديداً علينا ، ولكن الأمر الذى يحيرنى ، كيف تنتشر هذه الدعوة وتضم الألوف من الشبان المجاهدين الفدائيين ، وهذا هو مدى تفكير قائدها وسريرة نفسه ، وشدة حرصه على ألا يغامر بشىء .

٣

فى اليوم الذى أعلنت فيه إيطاليا الحرب بعد أن سقطت باريس وأوشكت فرنسا على الاستسلام ، وبالرغم مما ينطوى عليه دخول إيطاليا من امتداد الحرب إلى حدود مصر الغربية وإلى أسيوط بالذات ، باعتبارها أحد مداخل وادى النيل من الصحراء الغربية ، كانت حركة الذكر فيما يسمونه « زاوية الطريقة الشاذلية » فى أسيوط فى ذروتها من الحركة والحرارة والصخب والوجد . ولم تكن الزاوية فى حقيقتها إلا بيت أحد المريدين السالكين وقد اعتاد أن يقيم هذه الحضرة مرة فى أول كل شهر عربى ، فيستحضر البخور والعطور وتفرش أرض الفناء بالسجاجيد ، ويجهز الشاى والسكر بكميات كبيرة يتطوع نفر من المريدين الآخرين يتطوعون بإحضارها . غير أن العنصر الهام فى الحضرة ومحورها ، والروح التى تشيع فى أوصالها ، هو حضور سيدنا الشيخ الفقيه سالم الحصرى صاحب الصوت الرخيم والذى يقوم بإنشاد المدائح النبوية والتسبيحات فى الذات العلية ، وهى التى تؤلف وقود الذكر وتشعل ناره .

وكان المريدون يستجلبون معهم إلى هذه الحلقة بعض الأعزاء من الإخوان الذين يصطفونهم اصطفاء ليشتركوا معهم فى ليلتهم الربانية . وكان بيومى أفندى رمضان الموظف بأرشيف مصلحة الأملاك بأسيوط واحداً من هؤلاء الأصفياء الذين توسم فيهم أحد المريدين خيرا فجاء به إلى حلقة الذكر . .

واندمج بيومى فى الذكر كأتم ما يكون الاندماج ، فقد وجد فيه ما يلائم طبعه ويرضى سجيته فراح يتطوح ويتطوح فى عنف مع اشتداد الذكر وهو يصرخ مع الصارخين هو . . . هو . . . هو . . . هو . . .

وارتفع صوت الشيخ الحصرى مشيدا بالجنة ونعيمها ، واصفا حور عينها ، مستعرضا مفاتنها وملذاتها ، ولم يكن الذاكرون ينتظرون إلا ذلك ليصلوا إلى قمة الوجد فأصبح ذكرهم عواء وفحيحا . وانبهرت الأنفاس وتطوحت الأجساد فى عنف كما لو كان قد أصابها مس ، وارتفعت حرارة الجو حتى ليخيل للمراقب أنه يوشك أن يشتعل أو ينفجر . وانعقدت فى سماء المكان سحابة وغيوم من الأنفاس والدخان ، وامتزجت روائح العرق بالعطور بالبخور لتضفى على المكان جوا غامضا . والذاكرون لا ينفكون يتطوحون ، ويتطوحون ، ويتطوحون لا يحسون تعبا أو كللا ، فقد انسلخوا من وجودهم العادى وأصبحوا فى حالة من الغيبوبة وإن كانوا يتطوحون .

وانتقل الشيخ الحصرى من وصف الجنة وملذاتها ، إلى الجحيم والزبانية ونيرانها . واشتد الصخب وتعالت الصيحات ولكن الجرعة كانت أقوى من احتمال بيومى رمضان فسقط على الأرض ، وقد أصيب بنوبة عصبية جعلته يتلوى ويتشنج ويزفر ويشهق ويغرغر ويملأ الزبد فمه وشدقيه . وأسرع صاحبه الذى أحضره ليساعده على استرداد وعيه فلم يفلح . فهب مريد آخر من السالكين الواصلين للنهوض بالمهمة فراح

يكبّر فى أذنه ويؤذن ، ثم لا يلبث أن يتحول إلى زجره والتغليظ عليه داعياً إياه إلى التوحيد والصلاة على النبى ، ولكن ذلك كله كان بغير جدوى،ولم يفق بيومى من نوبته إلا بعد أن قذف أحد الحاضرين وجهه بجردل من الماء البارد . ولم يكد يتنبه حتى التف حوله جمع من الحاضرين الذين لم يسهموا فى الذكر وهنأوه على ما ظهر عليه من علامات وإشارات تدل على أنه لا يكاد ينخرط فى الطريقة حتى يكون من السالكين الواصلين .

وأبى المريد صاحب بيومى إلا أن يصحبه حتى بيته خوفا عليه من أن يعاوده الوجد فى الطريق فيغرق فى غيبوبته اللدنية .

وانزعجت عطيات من منظر زوجها وملابسه المبلله ورفيقه الذى يصاحبه ، ولكن بيومى أسرع يطمئنها ويقول لها :

— لا بأس عليك فهذا زميلى فى الديوان ، وأنا بخير والحمد لله .

وسألت عطيات زميل الديوان :

— خير يا سيدنا الأفندى ... ماذا جرى ؟

فأجاب الأفندى :

— أعظم الخير يا سيدتى ، استبشرى . . . استبشرى فقد تجلت الفيوضات الربانية على بيومى افندى هذه الليلة . يا بخته هنيئاً له .

ورفض الأفندى الدعوة التى وجهت إليه بالدخول إلى بيت بيومى فقد كانت الساعة بعد منتصف الليل .

* * *

لم يكد بيومى يدخل إلى صالة بيته ويرتمى من فرط الإعياء على أحد الكراسى ، حتى وجد أمامه شاهين السلانكلى يقف كالعملاق برأسه الضخم ووجهه الأحمر وشاربه المبروم ، وهو يرتدى البيجاما الحريرية الزرقاء ، التى اعتاد ارتداءها كلما جاء إلى البيت ... وكان شاهين هو البادىء بالحديث فقال فى صوته المجلجل أبدا والسخرية تشيع فى وجهه وصوته :

— أين كنت يا رجل ؟ أيصح أن تدع زوجتك بمفردها حتى منتصف الليل ... هل تعرف أنك لو تأخرت أكثر من ذلك لخرجت أبحث عنك ؟

وحاول بيومى أن ينهض ليقبل يد شاهين ، ولكنه لم يلبث أن وقع من جديد على المقعد من فرط إعيائه ، فاقترب منه شاهين ليسهل له العملية وإن تظاهر بأنه يحاول أن يربت على كتفه . وبعد أن أدى بيومى واجب الاحترام لضيفه الكبير مفرغا مافى نفسه من وجد وحب للوجود فى تقبيل يد شاهين السلانكلى فى حرارة وقوة قال له :

— لاتؤاخذنى ياسعادة الباشا ، لم أكن أعرف أننى سأتأخر هكذا ، لقد اصطحبنى زميلى فى المكتب إلى حلقة ذكر يقيمونها فى زاوية الشاذلية بعد صلاة العشاء ، وكنت أظن أننى سأكتفى بالمشاهدة بعض الوقت ثم أعود سريعاً ، فإذا الذكر يجتذبنى ، وإذا بى انخرط فيه وأنسى كل شىء حتى أخذتنى الجلالة وغبت عن وعيى .

فقالت عطيات فى ازدراء لا يخلو من إشفاق :

— أأصبت بسوء يا بيومى ...؟ إن ملابسك كلها مبللة .

ونظر لها بيومي في دهشة وعجب ، وقال :

أصاب بسوء ؟ قلت لك أخذتني الجلالة .. لقد أقبل الجميع يهنئونني . . إن هذا خير عظيم . الحق أنني أحس بسعادة وراحة لم أحس بها في أي يوم من أيام حياتي .

وجلجلت إحدى ضحكات شاهين السلانكلي ممزقة سكون الليل :

— يعني أصبحت درويش ؟ عال ... عال ربنا يجعلنا من بركاتك ، ادع لنا ياسيد بيومي .

فقال بيومي في خجل :

— استغفر الله يا باشا . ربنا يطول في عمرك وتحج بيت الله الحرام وتزور النبي ، على شرط أن تأخذني معك .

وقهقه شاهين مرة أخرى وقال :

— لا يا عم ... أنا لست طماعاً ، ادع الله أن يعيدني إلى القاهرة أولا .

وصاحت عطيات محتجة :

— وتدعنا هنا في أسيوط يا باشا ؟

ونظر لها شاهين مبتسما وغامزا من طرف خفي :

وهل أصبحت أستغني عنكم يا أولادي وقد أصبحتم أعز عليّ من روحي ، يوم أن أنقل إلى القاهرة فستنقلون معي حتما .

فقالت عطيات :

— أيوه كده ... لقد ردت لى روحى

ثم تحولت إلى زوجها بيومى وقالت له :

— هيا قم لأساعدك على خلع ملابسك ثم تتناول العشاء الذى أحضره سعادة الباشا ، لقد رحنا ننتظرك و ننتظرك فلما تأخرت أكلنا وتركنا لك نصيبك .

وضحك شاهين وقال :

— أنا كنت مصراً على أن ننتظر حتى تعود .

فقال بيومى وهو ينهض خلف زوجته :

— العفو يا باشا ... هذا بيتك ونحن أولادك وعطيات بنتك .

وهتف الباشا :

طبعاً ... طبعاً ثم راح يفتل شاربيه فى خيلاء . على أن موجة من الشك لم تلبث أن ساورته ، أيكون بيومى هذا أغبى مخلوقات الله التى صادفها فى حياته ، أم أنه خبيث شيطان يتغابى ليستغل الموقف ألى أبعد حدود الاستغلال ؟

٤

قالت عطيات لزوجها فى استنكار وتنديد وهى تساعده فى خلع الحذاء :

— ألم تلاحظ يا بيومى نوبى الجديد الذى أحضره لى الباشا ؟

ونظر بيومى لزوجته لأول مرة فى شىء من الوعى فاكتشف انها ترتدى «روبا» أحمر كلون الطربوش مطرزاً وموشىً بالزخارف .

ووقفت عطيات ودارت حول نفسها لتتيح له رؤية الثوب فأطارت هذه الحركة أحد أطراف الروب فانكشف ماتحته من ملابس هفهافة شفافة كشفت عن ساقيها وفخذيها ، ولا عهد لعطيات بمثلها من قبل ، ولكن بيومى الذى كان رأسه لايزال مدووشاً من أثر البخور والذكر والانفعال ، لم يلحظ شيئاً من ذلك ، وسألها وقد عاد من جديد إلى سرحاته :

— متى شرفنا الباشا ؟

وكأن عطيات بوغتت بهذا السؤال ، فتوقفت قليلا وتغير وجهها ثم أسرعت تقول :

— ربما منذ ساعتين أو ثلاث . . . لست أعرف فى الساعة .

وغيب بيومى رأسه فى فتحة الجلباب وهو يلبسه بينما راح يسألها :

— هل كان طوال هذه المدة يشتغل فى كتابة التقارير فى حجرته ؟

واختلجت عينا عطيات وشفتاها كبقية بدنها الذى عمته رجفة ، ولكنها لم تلبث أن سيطرت على أعصابها بسرعة فقالت له وهى تضحك ومتجاهلة سؤاله :

— من الذى قال لك أن ترتدى هذا الجلباب . . . إن الباشا قد اشترى لك أنت أيضاً « بيجامة » كالتى يلبسها .

ووقع نظر بيومى الذى كان قد فرغ من لبس الجلباب . . . على بيجامة جديدة تحملها زوجته ، وجذبت بصره الخطوط الحمراء العريضة التى كانت تحلى قماش البجامة ولكنه لم يلبث أن قال وهو يسوى وضع الطاقية فوق رأسه :

— لا يا ستى يفتح الله ... أنا رجل بلدى ولن أغير جلبابى .

وخرج ليتناول طعام العشاء . بينما كانت عطيات تزجره قائلة :

— ألن تكف عن هذه اللهجة . . . بلدى . . . بلدى ، الدنيا اتنورت . . . إصح بقى

وكان شاهين السلانكلى لا يزال جالسا على مائدة الطعام يشرب الويسكى ، ويمز بشرائح اللحم المشوى الذى أحضره . وعرض على بيومى كأسا ، فأسرع يقول فى اعتذار :

— إعمل معروف يا باشا كله الا الخمر ، أنا طوع يديك فى كل شىء إلاّ شرب الخمر .

وقهقه شاهين وقال له :

ولكن لماذا يا عبيط . . . ألا تعلم أن الخمر شراب أهل الجنة . . . ألا تحب أن تكون من أهل الجنة فى هذه الدنيا . ؟

فقال بيومى :

— خمر الجنة شىء آخر يا باشا .

وعاد الباشا يضحك قائلا :

— أهو كله خمر ... والخلاف فى الماركة .

وغرق بيومى فى تناول الطعام بعد الجهد الذى بذله فى حلقة الذكر . . . ومع سريان الغذاء فى جسده بدأت قواه الذهنية تنشط فإذا هو يقول لشاهين :

— على فكرة يا باشا . . . لقد سأل عنك بالأمس أحد ضباط سعادتك .

وقطب شاهين حاجبيه فى دهشة وتوقف عن إفراغ الكاس فى جوفه وقال :

— ضابط . . . ؟ أى ضابط . . . إن أحدا من الضباط لا يعرف شيئا عن هذا البيت .

فقال بيومى :

— ضابط من الجيش ملازم ثان يدعى ضياء .

ولم يكد شاهين السلانكلى يسمع هذا الاسم حتى وثب واقفا فى غضب وسأل بيومى فى انفعال .

— متى جاء هذا الضابط ، وماذا قال . . . هل دخل إلى هنا ، وهل رأى عطيات أو سأل عنها ؟

وامتقع وجه عطيات وقالت :

— يسأل عنى أنا . . . لماذا ؟

وارتبك بيومى تحت وطأة هذا الانقلاب الفجائى ، فراح يقول فى كلمات متقطعة متلعثمة :

— لا . . . لا . . . لم يدخل هنا . . . أى علاقة له بعطيات ولماذا يسأل عنها . . . ما هذا الكلام يا باشا ؟

وأحس شاهين أنه اندفع فى كلماته فحاول أن يسيطر على أعصابه ومع ذلك ، فقد كان فى منتهى الضيق وهو يقول :

— تكلم بسرعة يا غبى . . . ماذا حدث ، أين قابلته ، ماذا قال بالضبط ؟

— وأسرع يومى يقول وقد تملكه الاضطراب والخوف والدهشة معا فقد كانت هذه أول مرة ينتهره شاهين بهذا الأسلوب ويصفه بالغباء :

— كنت عائدا بالأمس من الديوان ، فوجدت هذا الضابط يسأل بعض الجيران عما إذا كانوا يعرفون أين تسكن سعادتك ، فلما سمعت الاسم سألته عن سبب سؤاله عن سعادتك ، فقال لى إنه يريد أن يبلغك أمرا عاجلا ، فأفهمته أن سعادتك لا تسكن فى هذا البيت على سبيل الدوام ، وإنك تأتى إليه من حين لآخر بغير مواعيد .

وصرخ شاهين فى وجه يومى :

— قلت له ذلك ؟ ثم غمغم قائلا . . . أبله !

ورأت عطيات أن تتدخل لإنقاذ الموقف الذى بدأ يتدهور ، فقالت وهى تنظر للباشا فى عتاب :

— ماذا جرى ؟ ما هذا الغضب يا باشا . . . أى شىء أخطأ فيه يومى ؟

واسترد شاهين السلانكلى شيئا من هدوئه وقال :

— صحيح . . . صحيح . . . يومى لم يخطىء . . . ولكنى حانق على هذا الضابط . . . لماذا يأتى ويسأل عن بيتى . . . ما دخله هو بذلك . . . إنه يتجسس علىّ .

وردد يومى عبارة الباشا فى دهشة وبلاهة : يتجسس عليك ؟

ورد الباشا قائلا :

— ما علينا ... ماعلينا ... وماذا قلت له أيضا ... تذكر جيدا .

وعاد الاضطراب إلى بيومى . . . وراح يتردد ويتلعثم ثم قال :

— لم أقل له شيئا ، سألنى إذا كنت قريبا لسعادتك ، فقلت له نحن من محاسيب الباشا .

ثم سألنى إذا كنت متزوجا ، وإذا كانت زوجتى تقيم معى ، فرددت عليه بالإيجاب فهز رأسه وسلم علىّ .

وصاح شاهين من جديد :

— المجرم . . . السافل . . . ما دخله هو بكل هذه الأسئلة ؛ سأعرف كيف أربيه .

وتوقف بيومى قليلا ، ثم ظهر عليه الاهتمام وقال :

— على أن هذا الضابط قال لى وهو يدير ظهره ويبتعد عني عبارة ، لم أفهم معناها ولذلك فلم أعرها أى اهتمام فى حينها . . .

— أى عبارة ؟ تكلم .

— قال لى « فتح عينيك جيدا » اوع لنفسك .

ونظر بيومى لشاهين فى تساؤل أبله وقال :

— ما الذى يعنيه بهذه العبارة يا باشا . . . أثمة خطر علينا ، أثمة خطر على سعادتك ؟

وتدخلت عطيات من جديد لصرف ذهن زوجها :

— أى خطر يا رجل . . . ألا تعرف أن الباشا قد الدنيا ؟

أما شاهين فقد راح يغمغم :

— الكلب السافل . . . سأعرف كيف أسحقه بحذائى ثم نظر صوب بيومى وسأله :

— ولكن كيف عرفت أن اسمه ضياء ؟

فأجاب بيومى :

— هو الذى قال لى إن اسمه ضياء . . . وطلب منى أن أقول لك فى أول مرة أراك فيها « ضياء البكرى عرف البيت وسوف يعود ثانية للسؤال عنك » .

واستشاط شاهين السلانكلى من جديد غضبا وأسرع فأفرغ لنفسه كأسا من الويسكى ، ثم قال لبيومى :

— لن أسكت على ذلك أبدا ، أعد نفسك للسفر إلى مصر بعد ساعات . . . سأعطيك خطابا للكولونيل سميث .

فارتعش بدن بيومى وقال له :

— لقد رجوتك يا باشا آخر مرة أن تعفينى من هذا المشوار ، إننى أرتجف فزعا من هؤلاء الإنجليز .

فقال شاهين :

— بلاش كلام فارغ .

بينما تدخلت عطيات قائلة :

— ما هذا يا بيومى . . . إن لحم أكتافنا كله من خير سعادة الباشا ، ثم لا تؤدى له خدمة يطلبها منك .

فنظر بيومى إلى شاهين فى ذلة وانكسار وقال :
— تحت أمرك ، أنا خدامك يا سعادة الباشا .

٥

وقف بيومى على باب ثكنات الجيش البريطانى بالعباسية خائفاً مذعوراً يتلفت حوله وجسمه كله ينتفض . كان العسكرى الواقف على الباب شاكى السلاح قد اتصل بالتليفون منذ قليل وقال لبيومى إن سيارة جيب ستأتى لأخذه . وجاءت السيارة الجيب ، وساعده عسكرى هندى يرتدى عمامة كبيرة على امتطائها ، وانطلقت به فى شوارع هذه المدينة العسكرية التى خيل لبيومى أن لا أول لها ولا آخر . لم تكن هذه هى المرة الأولى التى يقوم بهذه المهمة فقد بعث به شاهين السلانكلى قبل ذلك مرتين ، ومع ذلك فقد كان الفزع يركبه فى كل مرة ويحس مذ يدخل من الباب أنه مفقود ، ولا يكاد يبرح المكان بعد تمام المهمة وتوصيل الرسالة حتى يحس أنه ولد من جديد .

كان النشاط متزايداً هذه المرة بأكثر من كل مرة سابقة . . . وكان يخيل له أن العساكر الإنجليز لا يحصها عد ، ولم يكن يميز بين أشكالها إلا بالنسبة للهنود . . . أما ما عدا ذلك من استراليين ونيوزيلنديين وكنديين . . . فقد كانوا جميعاً حمر الوجوه . . . كانوا إنجليزا . وكان يغمض عينيه حتى لا يراهم وإن كان مضطراً بدافع الخوف أيضاً أن يعود فيفتح عينيه من حين لآخر كلما تباطأت السيارة أو أسرعت أو دارت .

وأخيراً وقفت السيارة أمام أحد هذه المبانى العسكرية التى تغص

بها الثكنات . . ووجد نفسه فى خاتمة المطاف أمام الكولونيل سميث الذى كان يعرف فى كل مرة كيف يزيل الروع عن بيومى ويرد له أنفاسه .

واستقبله الكولونيل سميث باسما ومتحدثا بالعربية :

— أهلا وسهلا ، كيف حالك يا بيومى أفندى .

وزاد الكولونيل سميث على ذلك فدعا بيومى للجلوس ، ثم طلب له كوبا من شراب الليمون . وعندما أمسك بيومى بكوب الليمون البارد وراح يفرغه فى حلقه ، بدأ يخف ما به من روع ، ويتمتم ويحوقل شاكرا الله على نعمته .

وبينما كان بيومى غارقا فى تأملاته وفيوضاته كان الكولونيل سميث يطالع خطاب شاهين المكتوب بالإنجليزية .

« هذه آخر مرة أكتب لك من أسيوط ، فقد صممت نهائيا إذا لم أنقل فى خلال أسبوع واحد أو أسبوعين على الأكثر أن أقدم استقالتى نهائياً من الجيش ، بعد أن وصل الأمر إلى حد التجسس علىّ وتعقب حركاتى بواسطة هؤلاء الضباط الصغار المهاويس الذين سبق لى أن نبهتك أكثر من مرة إلى خطرهم .

إنك تعلم أننى لم أستمر فى أسيوط إلا نزولا على إرادتكم وحرصاً منى على أن أكون نافعا لكم ، وقد كنت أظن أنكم وقد نجحتم فى إبعاد عزيز باشا من الجيش من الناحية العملية فقد كان من الواجب أن أعود إلى مركز القيادة فوراً خاصة وأن نائب رئيس أركان الحرب

يعرفنى وهو من أصدقائى . ولذلك فإذا لم أنقل فوراً فسوف أستقيل فأنت تعرف أننى رجل غنى وفى غير حاجة للخدمة فى الجيش بعد أن أصبحت كرامتى فيه لا تحترم .

وإنى أحذرك للمرة الأخيرة ، إنكم إذا تركتم هذا النفر من الضباط المتهوسين الذين يدعون الوطنية ، وبصفة خاصة هذا الضابط الذى يدعى ضياء البكرى ، وزميله الآخر الأشد خطرا منه بهاء عبد القادر ، فلا تلوموا إلا أنفسكم وخصوصاً الآن بعد أن دخلت إيطاليا الحرب وأصبح وجودهم فى أسيوط بالذات يشكل خطراً كبيراً ، وإذا لم يكن باستطاعتكم طردهم من الخدمة فلا أقل من إبعادهم إلى السودان » .

ونظر الكولونيل سميث من طرف خفى لبيومى الذى كان مستغرقاً فى شرب كوب الليمون دون أن يرفع رأسه عنه :

— انت اسمك بيومى أفندى رمضان أليس كذلك ؟

وابتسم بيومى لأول مرة وقال :

— نعم .

— موظف فى الحكومة ؟

— نعم .

— كم تتقاضى يابيومى أفندى ؟

— ستة جنيهات يخصم منها المعاش .

— ومبسوط يا بيومى أفندى من الأحوال ؟

— مبسوط والحمد لله .

— تظن من يا بيومى أفندى سيكسب الحرب ؟

— ربنا ينصر الإسلام . . . العالم ربنا .

وابتسم الكولونيل سميث وقال مقلداً المشايخ :

— ونعم بالله يا بيومى أفندى . متى تسافر ؟

— هذا المساء .

— إذن قل لشاهين بك إننى سأتصل به غداً بالتليفون .

وانتهت محنة بيومى ، ولكنه ظل حتى وصل إلى أسيوط كما هو شأنه فى كل مرة ، يعجب لهذا الإنجليزى الذى يكلمه بالعربية ويجلسه فى حضرته ، ويحضر له كوباً من الليمون ... ويقول له « ونعم بالله » .

الفصل السادس

١

اشتد الجدل وارتفعت الأصوات ، على الرغم من وجود الملك الشاب ، بين رؤساء الأحزاب والوزارات السابقة ، وباهر باشا رئيس الحكومة . وقد دعاهم الملك للتشاور في التبليغ البريطاني الذي تسلمه والذي يشبه أن يكون إنذارا بوجوب إقالة الوزارة التي لم يعودوا قادرين على التعاون معها ، ناسبين إليها في احاديث غير رسمية ميولا محورية ازدادت ظهوراً بدخول إيطاليا الحرب ورفض الحكومة إعلان الحرب واعتقال الإيطاليين .

وأجمع الحاضرون على إنكار التدخل البريطاني ما بقي الملك حاضراً ، ولكنه لم يكد يؤذنهم بانسحابه ليهيء لهم سبيل دراسة الموقف ومايجب عمله ، حتى التقت آراؤهم بالإجماع على وجوب استقالة الوزارة .

واكفهر وجه باهر باشا وراح يذكرهم أنه ليس حريصاً على الحكم ولكن استقالته في هذه الظروف تعني الخضوع للإنذار البريطاني ، وانهالت الحجج من كل جانب لتأكيد وجوب استقالة الوزارة فزعيم حزب الأغلبية لا يمكن أن يعترف بحكومة لا يكون

هو رئيسها ووزراؤها من أعضاء حزبه باعتباره ممثل الأغلبية والمسألة فى نظره لا تعدو أن تكون « دستوراً أو لا دستوراً ، شعباً أو لا شعبا » .

ولكن باقى المؤتمرين وإن وافقوا على وجوب استقالة الوزارة باعتبارها السبيل الوحيد ليأخذوا بنصيب من الحكم الذى حرموا منه طوال سنة كاملة ، فقد حملوا لواء الوزارة القومية ، فليس سوى وزارة قومية كثيرة الكراسى والوزارات مايمكن أن تتسع لهم جميعا .

واستمر الخلاف والنزاع ، وتبودل بين رئيس الأغلبية وبقية المجتمعين من رؤساء الوزارات السابقين قوارص الكلم ، ولم يضع حدا للأزمة التى استحكمت إلا دوى صفارات الإنذار ، فقد كان الجميع يدركون أن هذه الصفارات لا تدوى هذه المرة على سبيل التجربة أو المناورة وإنما هى تحذر من غارة حقيقية فإيطاليا الآن فى الحرب . .

واصفرت وجوه الزعماء والقادة والأقطاب . . . وعاد إليهم الوئام وهم يتدافعون نحو المخبأ وقد حمد الكثيرون منهم أن كانوا فى قصر عابدين حيث يوجد أعظم مخابىء الدولة . وليس سوى زعيم الأغلبية الذى لم يكن يخفى تبرمه ، ويندد بنفسه لخروجه من بيته فى الليل معرضاً نفسه لهذه الأخطار .

* * *

وكما فاجأت الغارة اجتماع الأقطاب والزعماء ، فقد فاجأت شباب

البعث المجتمعين فى دارهم يستمعون إلى فوزى السيد ، الذى كان يندد بالتدخل الإنجليزى ويعلن تأييد الحركة لباهر باشا فى موقفه ويدعو الملك للتمسك بالحكومة وسياستها ورفض التبليغ البريطانى .

ولم يكن الشبان أقل هلعاً من الأقطاب والزعماء عندما فاجأتهم صفارات الإنذار ، بل لعلهم كانوا يزيدون عنهم لقوة خيالهم ، فقد ومضت فى رؤوسهم مئات الصور والأحاديث التى ما انفكوا يسمعونها منذ قيام الحرب حول مافعلته الغارات الجوية وتفعله فى دك البيوت فوق سكانها ودفعهم تحت الأنقاض والتراب ، ولذلك فقد ساد الهرج والمرج وانفرط عقد الاجتماع ، وعلت أصوات تنم عن الخوف والجزع .

وارتفع صوت خالد أمين الذى كان أول من سيطر على أعصابه :

— اطفئوا الأنوار . . . واغلقوا النوافذ .

وكأن هذه الصيحة الداعية للقيام بعمل إيجابى كانت حبل النجاة ، فقد أسرعوا يطفئون الأنوار ويغلقون النوافذ وساد الظلام فى حجرات البيت الأخضر وأبهائه . وارتفعت أصوات متطوعى الدفاع المدنى فى الخارج وعلى رأسهم أحد أعضاء الحزب وهى تصرخ فى عصبية داعية السكان إلى إطفاء النور وإغلاق النوافذ . وكلف خالد بعض الأعضاء ليحضروا شمعا وطلب من الأعضاء الذين كان لا يزال ضجيجهم مرتفعا أن يلزموا مقاعدهم . ومرة أخرى وجد الجميع فى هذا الأمر تصرفا إيجابيا أسرعوا إلى تنفيذه .

وساد سكون رهيب ، لم يعد يسمع فيه إلا وجيب القلوب الخائفة ،

وتردد الأنفاس المتلاحقة . وتمزق السكون فجأة فقد دوت انفجارات عن بعد ، واهتز الحاضرون جميعا كرد فعل طبيعى لهذه الانفجارات ، ولكنهم ظلوا متشبثين بمقاعدهم لا ئذين بالصمت الذى فرض عليهم ، بينما كان خالد أمين يقول فى هدوء :

— هذه أصوات المدافع المضادة للطائرات .

وسمع أزيز طائرة فاصطكت الأسنان من جديد لسماع هذا النذير بالموت المحلق على الرؤوس ، ودوت انفجارات أشد عنفا وأقرب مكانا ، فوثب البعض من فوق كرسيه بحركة لا إرادية . . . بينما صاح البعض :

— هذه مدافع القلعة .

ولمعت فى الخارج أنوار كشافة ... وتحرك البعض قاصدا الخروج لمشاهدة ما يجرى يدفعه إلى ذلك حب الاستطلاع الغريزى ، ولكن صوت خالد أمين ارتفع من جديد يأمر فى حزم ألا يبارح إنسان مقعده .

وجىء أخيرا بالشموع وأشعل خالد أمين شمعة ، فثانية ، فإذا موجة من الارتياح تسرى فى نفوس الحاضرين ، فقد عادوا يتصفحون وجوه بعضهم البعض تحت ضوء الشمعة الذابل ، وقد كان هذا كافيا لسريان الطمأنينة إلى نفوسهم . وكانت المفاجأة التى لم يتوقعوها ، أن وجدوا فوزى لا يزال حيث كان يجلس قبل وقوع الغارة فوق المنصة . وكان فوزى كأى واحد فيهم قد وجد فى قيادة خالد أمين لهم فى هذا الموقف

الجديد عليهم ما يقوى عزمه ويثبت أقدامه ، وعندما أضاء خالد أول شمعة ووضعها فوق المنصة لتضىء وجه فوزى ، لم يتمالك ان ابتسم بآخر ما فى نفسه من جلد فرحا بهذا الشعاع من النور ، وأسرع يقول بطريقة آلية لم يسبقها أى تفكير :

— أظن أن خير ما نفعله هو أن نواصل ما كنا فيه من حديث ، غير ملقين بالا لما يجرى حولنا .

وفوجىء فوزى بالحاضرين يصفقون فى حرارة ، فقد وجدوا فى هذا الاقتراح ما يشبع جوعهم الروحى للوقوف موقفا بطوليا من هذه المواقف التى تنهمر عليهم أحاديثها ، سواء فى الإذاعة أو الصحف وكأنها المطر .

وأى بطولة أكثر من أن تتساقط القنابل حولهم وهم ماضون فى الاستماع إلى حديث الساعة . ولم يكن فوزى عندما استأنف حديثه إلا مجرد متكلم يحسب كلاما مفككا غير مترابط ، فقد كانت الانفجارات القريبة والبعيدة على السواء قد تتالت وتضاعفت فى عنف شديد جعل المكان يهتز . وكان من العبث أن يركز أى سامع إرادته على سماع ما يقال ، كما كان من العبث أن يجمع فوزى أفكاره فى هدوء واتساق ، ولذلك كانت كلمات الفدائية والتضحية وأن الأعمار بيد الله ، ولن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا ، تصطخب وتتزاحم وهى تخرج من فمه فى صرخات عصبية . وتنفس فوزى الصعداء عندما كفت المدافع المضادة عن إطلاق قنابلها ، وبدا السكون يسود فى جو العاصمة ، وبدأ صوته يعود إلى شىء من اتزانه ، وأفكاره تعود إلى شىء

من الترابط والانسجام ، فى نفس الوقت الذى أصبح فيه الحاضرون أكثر قدرة على الاستماع إليه وتتبع أفكاره ، وصاح فوزى فى نشوة من الفرح بذهاب الغمة :

— إننا لن نكون أقل أداء لواجبنا من الشعوب الأخرى ، إننا نقول لهتلر وموسولينى ، إن مصر لن تحارب إلا إذا اعتدى عليها اعتداء مباشراً ، أما إذا اعتدى علينا فسوف نقف صفاً واحداً فى وجه العدوان ... إننا لن نستبدل مستعمراً بمستعمر جديد ، ولا يتصورن هتلر أو موسولينى أننا سنرحب بجيوشهم وهى تمر فى بلادنا ، أو نعقد لها أقواس النصر لمجرد أننا نرغب فى إجلاء الإنجليز .

ودوت صفارات الإنذار منبئة بزوال الخطر ، وأضيئت الأنوار ودوت فى نفس اللحظة أكف الأعضاء بالتصفيق المحموم ، وارتفعت الهتافات كالزئير والرعود ... الله أكبر ... الله أكبر ، وأشرقت الوجوه بالابتهاج والمسرة والشعور بالانتصار .

٢

استقبلت شريفة هانم والدة وفاء فوزى عند عودته إلى بيته هذه الليلة ، فكانت هى التى فتحت له الباب وطالعته بوجهها المشرق المضىء وابتسامتها الرقيقة .

وهتف بها فوزى :

— لا تستطيعين أن تتصورى مقدار جزعى على وفاء عند وقوع

الغارة ، ولكن الدكتور خالد أخبرني عند مااتصل بالبيت أنك معها ..
أنت ملاك النجدة دائماً .

وافتر ثغر شريفة هانم وقالت :

— أنت دائماً تبالغ .

وتوجه فوزى لزوجته بالحديث قائلا :

— قلبي عندك يا وفاء ... ماذا فعلت ؟

فأجابت وفاء :

— كانت ماما عندى كما تقول ... فأغلقنا النوافذ وأطفأنا النور ، ولكنى لا أكتمك أنى كنت مشغولة الخاطر جداً عليك .

وقال فوزى فى عتاب :

— أو لم نتفق أنه فى حالة الغارات تنزلين إلى الدور الأرضى ، وقد اتفقنا مع ساكنيه على ذلك ؟

فقالت وفاء :

— كانت ماما معى ولم نشأ أن نزعج أنفسنا ... فالعمر واحد والرب واحد ... لماذا لم تذهبوا أنتم إلى المخبأ ، وواصلت كما قال لى الدكتور خالد إلقاء حديثك .

— لست أعرف ... لقد سارت الأمور هكذا ... لم تلق قنابل من حسن الحظ ، لابد أن الطائرات المغيرة كانت طائرات استكشاف . كل هذه الانفجارات كانت مدافع مضادة .

فقالت شريفة هانم :

— كانت تدوى من فوق جبل المقطم وكأنها فى داخل بيتنا ... لقد كانت شيئاً مخيفاً .. وقد استقر رأيى على وجوب انتقال وفاء وأنت إلى بيتى ، إن وفاء أصبحت فى الشهر الثامن وأنت دائم السهر خارج البيت .

وأسرع فوزى يقبل يدى شريفة هانم :

— ألم أقل لك إنك ملاك من السماء ، ها أنت تحلين الأشكال الذى بدأ يؤرقنى . ومما يجعل بيتك نموذجياً أنك تقيمين فى الدور الأول ، فلن تكون وفاء فى حاجة للصعود أو الهبوط عند قيام الغارت ، ووجودها معكم سيملأنى طمأنينة .

وتساءلت شريفة هانم :

— ومتى يكون التنفيذ ... ؟

وقبل أن يرد فوزى على هذا السؤال دق جرس التليفون فأسرع للرد عليه وكان المتكلم صبرى ينقل لفوزى آخر الأخبار :

— قدم باهر باشا استقالته لجلالة الملك بناء على إجماع العصابة .

ورد فوزى منزعجاً :

— ولكن الملك...ما هو موقف الملك لابد أنه سيرفض الاستقالة ويتمسك بباهر باشا .

— أبداً ... لقد قبلها بالفعل وأصبحت نهائية .

— ومن الذى سيؤلف الوزارة الجديدة ؟ ليت الملك ينصاع لحكم الدستور ويكلف رئيس الأغلبية بتأليف الوزارة .

— لقد عرض عليه بالفعل أن يشكل وزارة قومية من جميع الأحزاب برئاسته ، ولكنه رفض .

— يا له من أحمق ... أفى مثل هذه الظروف ؟

وعاد فوزى يحمل النبأ إلى زوجته ووالدتها مؤكداً أن الأمور تنتقل من خطر إلى أخطر ، ثم أضاف قائلا :

— لقد كنت أوشك أن أدع تنفيذ نقلتنا إلى الغد وكنت سأتمسك بمبيتك عندنا الليلة . . . ولكنى أصبحت أرى ألا نبيت كلنا إلا فى بيتك ... فى شارع القصر العينى .

وافتر ثغر شريفة هانم وقالت :

— يا أهلا وسهلا ، هذا هو عز المنى والطلب .

٣

كان يوماً كبقية أيام الخريف فى مصر صحوا مشرقاً ومع ذلك فقد كان يحوى فى طياته لفوزى ووفاء حدثا من أخطر الأحداث فى تاريخ حياتهما . . . فقد كان من المقرر أن تضع وفاء فى هذا اليوم حملها . وكانت الدكتورة التى تشرف على عملية الوضع قد أنبأتها فى اليوم السابق أن ولادتها ستكون قبل ظهر ذلك اليوم ، وكانت

بعض الآلام الأولى الخفيفة التى أحست بها هذا الصباح تؤكد هذه الحقيقة .

وأبت وفاء إلا أن تمضى فى أداء واجباتها الصباحية نحو فوزى فتساعده فى ارتداء ملابسه وتعد له طعام الإفطار وتدفعه للذهاب إلى المحكمة . وحاول فوزى أن يعترض ويؤكد لها استطاعته تأجيل القضية ليبقى إلى جوارها بعد أن أصبح كل مايشغله فى الدنيا أن تجتاز محنتها فى سلام ، ولكن وفاء ردت عليه فى هدوء وحزم :

— ماذا باستطاعتك أن تفعل لى ؟ إن هذه مهمة لايستطيع الرجال أن يقوموا فيها بعمل . لقد اتصلت ماما بالطبيبة وخالاتى سيجئن الآن واخوتى من حولى ، وليس لك مكان بيننا ، فاذهب لتترافع عن الشيخ توفيق وليكن الله فى عونك ، إنه فى انتظارك وسيفجع إذا أنت تخلفت عن المحاكمة .

ومرة أخرى حاول فوزى أن يعترض ، ولكنها وضعت يدها على فمه كما هى عادتها لتحول بينه وبين الكلام ، وقالت له بآخر ما فى نفسها من تجلد على الألم الذى بدأ يشتد فجعل وجهها يشحب :

— أرجوك . . . إن وجودك فى البيت سيزيد فى مصاعبى . . . سأكون أكثر حرية وقدرة على معاناة الألم وأنت بعيد عنى . . . إننى أعرف مقدار خطورة قضية اليوم بالنسبة للحركة فلا ينبغى أن تقصر فى أداء واجبك .

وانصاع فوزى إذ لم يجد أمامه غير ذلك . ووصل المحكمة وهو

مشغول الخاطر ، ولكنه لم يكد ير إخوانه المحتشدين فى قاعة الجلسة ، ويصافح الشيخ توفيق وقد وقف فى قفص الاتهام بوجهه المشرق وقامته الفارعة ، غير هياب ولا وجل من التهمة المنسوبة إليه ، وهى إحراز الديناميت والتى كانت عقوبتها تبلغ حد الأشغال الشاقة ، حتى نسى فوزى كل شىء عن وفاء . . . عن المولود المنتظر ولم يبق إلا واجبه المقدس فى أن يبذل كل جهده لإنقاذ هذا المؤمن الصادق . وكان قد عثر أثناء دراسته للقضية على بعض ثغرات هنا وهناك يستطيع استغلالها .

وأرهفت الأسماع وتوترت الأعصاب وفوزى يناقش اليوزباشى علام الذى قبض على الشيخ توفيق . ونجح فوزى فى تشكيك المحكمة فى أقواله والطريقة التى عثر بها على الديناميت فى حقيبة الشيخ توفيق.. واجتهد أن يدخل فى روع المحكمة العسكرية أن الديناميت قد دس إلى حقيبة الشيخ توفيق بمعرفة هذا المرشد الخائن الذى أوشى به والذى لا يمكن أن يكون إلا واحدا من أقرب المقربين إلى الشيخ توفيق ، وإلا لما استطاع أن يعرف موعد سفره .

وانطلق فوزى بعد أن ترافع طويلا مفندا الاتهام ، يقول فى صوت مجلجل ... « إن هذه قضية قد أريد بها الكيد لحركة البعث وإظهارها بمظهر المتآمر الذى يتهيأ للقيام بثورة ضد الإنجليز . فلمصلحة من هذا الاتهام ؟ . . إننى أربأ ببوليسنا ونيابتنا وقضائنا أن يكونوا فى خدمة الغاصب المحتل ».

ولم تكد الجلسة ترفع للمداولة ، ويغلق الباب وراء القضاة ويحس فوزى أنه أدى واجبه كاملا نحو صاحبه وزميله ، حتى اشتعلت نفسه من جديد بالقلق على وفاء ، فعدا نحو التليفون ليقف على الأخبار .

واصفر وجهه وهو يسمع الأنباء ، فالوضع لم يتم رغم انقضاء أربع ساعات على اشتداد المخاض ، والآلام قد تزايدت على وفاء بصورة قاسية . وعلى الرغم من أن الطبيبة المولدة لا تزال تطمئنهم إلى أن كل شىء سيتم بطريقة طبيعية ، فقد بدأ القلق يفترس شريفة هانم .

وقال فوزى لخالد الذى لم يكن يقل عنه اضطرابا وانشغال بال :

— يجب أن نسرع ياخالد إلى البيت فالأمور ليست على ما يرام .

وبينما كان فوزى وخالد يستقلان السيارة . . . سمعا صوت دوى التكبير والهتافات يرج المحكمة فتوقفا قليلا ليتبينا ما حدث . . . وإذا الأعضاء يأتون سراعا وهم يصيحون :

— مبروك يا أستاذ فوزى . . . مبروك يا أستاذ فوزى ، حكمت المحكمة بسنة مع إيقاف التنفيذ .

وهتف فوزى :

— الله أكبر . .

وانطلق بالسيارة نحو البيت وقد ملأه هذا الحكم أملا ورجاء .

* * *

٤

ولكن فوزى لم يكد يقترب من البيت وفى إثره خالد، حتى أوشك قلبه أن ينخلع ، فقد استقبلته صرخات وفاء الموجعة . وذهل فوزى أن يكون هذا العواء الذى يسمعه هو صوت وفاء . . . وفاء الوديعة الرقيقة الخجولة .

وحاولت شريفة هانم التى غاضت الابتسامة من وجهها لأول مرة ، أن تشرح لفوزى الموقف بكلمات وعبارات جديدة على سمعه . وكيف أن رأس الجنين لا تزال محشورة منذ ثلاث ساعات .

ولم يفهم فوزى من ذلك كله ، إلا أن وفاء فى خطر يدل عليه حالة القلق والجزع المتجلية على وجه شريفة هانم فصاح بها :

— وماذا فعلتم ؟

— وماذاعسانا أن نفعل، نحن فى انتظار رحمة الله .. إن الدكتورة التى تولدها تحمل أرقى الشهادات من أوربا ، وهى التى ولدت كل خالات وفاء ... ماذا نستطيع أن نفعل ... أنستعين بدايه ؟

فقال خالد الذى كان فى أشد حالات القلق والعصبية :

— كان يجب أن تسمعوا قولى عندما اقترحت إشراف الدكتورة فاطمة على العملية .

ورد عليه فوزى ونياط قلبه تتقطع مع تعالى صرخات وفاء المفزعة:

— لقد رفضت وفاء بإصرار . . إنك لا تتصور مقدار عنادها .

ولكن خالد لم يكن فى حاجة لإذن أحد فى هذه الساعة من الضيق والارتباك ... ونجح أخيرا فى الاتصال بفاطمة التى وعدته أنها ستحضر بمجرد أن تعثر على الدكتور والى شرف الدين الجراح وأستاذ أمراض النسا .

وتحشرج صراخ وفاء وتوتر بصورة أحس معها فوزى أنها فى أنفاسها الأخيرة ... فأسرع يعدو إلى حجرة النوم حيث كانت عملية الوضع تتم ، وكاد فوزى يصعق وهو يرى سحنة وفاء المقلوبة . كانت فاغرة العينين ، زرقاء الوجه ، وقد تشوهت كل ملامحها ومسخت ، وأوردة الدم فى جبهتها وعنقها نافرة توشك أن تنفجر وكأنها الحبال الغليظة ، وكانت غارقة فى العرق الذى يتصبب من وجهها وأطرافها وشعرها المشعث المتناثر المختلط ، وراحت تتلوى على السرير فى عنف مطلقة الصرخات المفزعة .

وصاح فوزى :

— وفاء . .

فلم تكد عيناها تقعان عليه حتى صرخت قائلة :

— الحقنى يا فوزى .. سأموت يا فوزى .. وفاء ستموت يا فوزى .

وأحس فوزى كما لو كانت روحه توشك أن تنتزع من جنبيه ، وأسرع نحو زوجته وقد أصبح وجهه فى صفرة الموت ، وأمسك بيدها فإذا هى تتشبث بها بطريقة تشنجية أشعرته بمقدار ما تعانيه من ألم .

وراح يقول لها ، وهو مشتت الفكر ذاهب اللب :

— أنت بخير يا وفاء .. أنت بخير ، لن يتخلى الله عنا . . سيحضر الآن الدكتور والى شرف الدين .

ولم يكد يتلفظ بهذه العبارة حتى احتجت الدكتورة المولدة بأن ذلك لا يليق وخروج عن الأصول والقواعد المرعية ، فهى وحدها صاحبة الحق فى استدعاء زميل لها إذا رأت ذلك ضرورياً . ولكن فوزى لم يلق بالا لشيء مما قالت ، فقد كانت صرخات وفاء تكاد تدفعه إلى الجنون وهو عاجز عن أن يفعل لها شيئاً للتخفيف عنها . ولم تلبث شريفه هانم أن أخرجت فوزى من الحجرة شفقة عليه .

ووصلت الدكتورة فاطمة يصحبها دكتور مكتمل الرجولة فى الخامسة والثلاثين من عمره وسيما أنيقاً ، ولم يستمع فوزى لعبارات التعريف ، فقد كان يجذب الدكتور فى حركة عصبية من يده ليقوده إلى حجرة وفاء ، التى كان صراخها قد خفت وأوشكت أنفاسها أن تنقطع ، وقلبها يهدد بالوقوف .

وتمت الولادة العسرة ، وقيل لفوزى إن المولود قد نجا من الموت بأعجوبة ، فقد مرت لحظات فكر فيها الطبيب أن يضحى بحياته لإنقاذ الأم ... ولو أنه تأخر عن جذب الرأس « بالجفت » دقيقة أخرى لمات المولود اختناقا ، وقد احتاجوا لربع ساعة يضربون فيها الجسد النحيل الضئيل ويدلكونه فى عنف لتنشط فيه الحياة وتستقيم الدورة الدموية من جديد .

وذرف فوزى لأول مرة مذ بدأت الأزمة ، دموعا ثخينة عندما

ابتسمت له وفاء ابتسامة كسيرة ، وقالت له قبل أن تفقد وعيها من فرط الإعياء :

مبروك يا فوزى .

وانحنى فوزى يقبل جبهتها ويديها ويقول :

— لقد أحببتك حتى الآن يا وفاء كزوجة وعشيرة وأنيسة . . . أما بعد اليوم فستظل صورتك وأنت فى ذروة الألم منقوشة على صفحات روحى لا تزول أو تتحول أو تضعف . . . لقد أصبحت أحس نحوك بل نحو كل أم بالاحترام والإجلال . .

ودخلت شريفة هانم وقد عاد البشر والتهلل إلى وجهها وهى تقول محتجة :

— لقد تولت عنا الدكتورة فاطمة تسمية المولود .

واحمر وجه فوزى بعد الشحوب ولمعت عيناه وقال لأم زوجته :

— أو لم تسمه خالدا ؟

فضحكت شريفة هانم وقالت :

— أكنتما متفقين ؟

فقال فوزى :

— لا ... ولكنها تعرف .

* * *

٥

كانت وفاء تلازم حجرتها كما هو شأنها منذ وضعت حملها ، وعلى الرغم من مرور أشهر ثلاثة على ذلك اليوم ، فقد كانت حالة التوتر الشديد الذى عانته يوم الميلاد لا تزال تربطها بطفلها بصورة غير عادية ، كانت مشغولة الخاطر به دائماً تكرس له كل لحظة من لحظات حياتها وكل خلجة من خلجات تفكيرها ، وشغلت عن كل شىء حتى لم تعد تجد الوقت الكافى لغسل وجهها فى بعض الأيام ، وكانت تظل مشعثة الشعر فى قميص نومها .

وتحولت حياتها إلى الاهتمام بخالد وإرضاع خالد من ثديها حيناً ، وباللبن الصناعى حيناً آخر ، ثم تغيير ملابس خالد ، وغسل ملابس خالد فما كانت تسمح لغيرها بغسلها ، فإذا وجدت فراغا من الوقت بضع دقائق أمضتها فى تأمل جوارح خالد ... عينيه ، أنفه ، فمه ، أذنيه ، شعر رأسه ... وكان يمكن أن تعزف عن الطعام نفسه لأنه يشغلها عن خالد ، لولا أنه قيل لها إنها إذا لم تأكل فلن تستطيع إرضاع خالد ، وبالتالى تذبل حياة خالد .

وكانت شقيقتها « تاتا » وهى الوحيدة التى تسمح لها أن تضع يدها على خالد ، تناقشها عدم معقولية استمرار حياتها على هذه الوتيرة ، عندما دوى جرس الباب الخارجى ... وأسرعت تاتا لفتح الباب .

وعلى الرغم من استغراق وفاء كعادتها فى شئون خالد فقد استرعى انتباهها تأهيل أختها بالزائرة ، وسمعت صوتاً نسائياً لم يكن غريباً على أذنها ، ولكنها لفرط انهماكها لم تتبينه .

وأعلنتها تاتا أن الزائرة هى الدكتورة فاطمة ...

فأسرعت وفاء تقول فى استنكار ودهشة :

— ولماذا لم تأت . . لماذا أدخلتها الصالون ؟

فقالت تاتا :

هى التى طلبت منى ذلك ، وقالت لى: « إننى لا أجىء اليوم كطبيبة وإنما جئت كزائرة » وهى ترجوك أن تقابلها فى الصالون .

وعجبت وفاء لهذا التصرف من فاطمة التى كانت قد أصبحت بعد موقفها منها فى يوم الولادة ، ورعايتها اليومية لها بعد ذلك كفرد من أفراد الأسرة ، وأسرعت تنظم بحركة عجلى شعر رأسها ، وتحجب قميص نومها «روب» وحملت طفلها خالد الصغير ، بعد أن استوثقت من أختها أن كل النوافذ والفتحات مغلقة ومسدودة ابتداء من حجرة النوم حتى الصالون ، وأن لا تيارات هوائية تهدد الطفل المسكين .

وراحت وفاء تنظر من طرف خفى لفاطمة ، بعد أن ران صمت عميق وهدأت عاطفة التحيات والسلامات والأشواق وآهات الإعجاب بنمو خالد الصغير وحسنه وجماله .

لم تكن فاطمة كالعهد بها الجميلة الأنيقة المرحة ، الواثقة بنفسها،لقد كان وجهها شاحباً والإهمال باد على شعرها وثوبها،وعيناها الرجراجتان الزائغتان ينمان عن فقدانها كل ثقة بنفسها وأنها فى حيرة وورطة .

وتساءلت وفاء وهى تهدهد خالدا الصغير :

— ما بك يا فاطمة .. ؟ إنك لست على ما يرام !

ونظرت فاطمة لوفاء فى أسى وقالت :

— لم أذق طعم النوم منذ ثلاث ليال كاملة ، ولو لم أقرر أن آتى لزيارتك وأتحدث معك لأحسم الموضوع الذى يشغلنى لظل هذا الأرق يلازمنى . .

ودهشت وفاء لهذه الأنباء ، فلم تعرف ماذا تقول ، ولذلك فقد حمدت لأختها دخولها فى هذه اللحظة حاملة كوبين من شراب الفراولا .

واقترحت تاتا على وفاء أن تخفف عنها بأخذ خالد الصغير لبعض الوقت . وظهر القلق على وجه وفاء والانزعاج . . ولكنها لم تكد تنظر صوب فاطمة التى كانت يدها ترتعش وهى تمسك بكوب الشراب حتى رأت أن تقدم لها هذه التضحية ، فرضيت أن يغيب خالد الصغير عن نظرها لفترة من الزمن ، ولكنها لم تفعل ذلك إلا بعد أن أمطرت أختها بوابل من التعليمات والتحذيرات والوصايا والإرشادات .

ولم تكد تاتا تبرح الحجرة حتى قامت فاطمة وأغلقت الباب بعد أن استأذنت من وفاء ثم أسرعت تقول لها فى لهفة واعتذار :

— أرجوك يا وفاء هانم ألا تدهشى من تصرفاتى اليوم ، وأن تعذرينى فأنا مرتبكة ومضطربة . وإذا كان الله قد حرمنى من أختى أزهار ، فأنا أحس أن الله قد عوضنى عنها أختاً لا تقل حباً لى عن شقيقتى الذاهبة ، ولو أن أزهار كانت على قيد الحياة اليوم لالتمست منها العون والمدد ، ومن أجل هذا جئت إليك .

وغمغمت وفاء وقد تفتح قلبها لفاطمة :

— أشكرك يا فاطمة أن قدرت عواطفى نحوك .



ومضت فاطمة تقول وقد تشجعت :

— لا أظنه غاب عنك مقدار تعلقى بالدكتور خالد أمين ، فمن ناحيتى لم أحاول فى أى يوم من الأيام أن أخفى هذا التعلق . على أن الذى أريد أن أؤكده لك اليوم ، أن هذا التعلق ليس فى الحقيقة إلاعاطفة جارفة وحباً عميقا يربطنى بالدكتور خالد ويجعل كل تفكيرى وحواسى وقفا عليه وحده . . لا تتصورى ياوفاء هانم كيف أن بسمة منه فى وجهى تجعلني سعيدة ، وكل شىء حولى يوحى بالسعادة ، أما إذا رأيت وجهه مكفهراً فى أى يوم من الأيام ولأى سبب من الأسباب ، فإن الدنيا تضيق فى وجهى وتوشك أنفاسى أن تزهق ، . ويظل حالى كذلك حتى أراه باسما من جديد .

وابتسمت وفاء وقد ازداد قلبها تفتحا لفاطمة وأسرعت تقول :

— وهذه العاطفة أيضا لم تكن غائبة عنا ، وأستطيع أن أؤكد لك ، أن خالد يحمل لك من العاطفة قدر ما تحملين له ، وإن كانت طبيعته الصامتة الكتوم تحول بينه و بين إظهار عاطفته بالصورة التى تحبين.

فقالت فاطمة ، وقد غلبها الحياء فأطرقت برأسها :

— هذا هو مالست متأكدة منه وما جئت من أجله . . فقد كان يمكن أن أواصل حياتى كما عشت حتى الآن أترقب فى صبر ، لولا أن طرأ على الموقف عنصر جديد منذ ثلاثة أيام ، وضعنى فى هذا المأزق الحرج الذى حرمنى النوم طوال هذه الأيام كما قلت لك .

وأسرعت وفاء تقول :

— خيراً ؟

— ما رأيك فى الدكتور والى شرف الدين ؟

— إنك تعرفين رأيي فيه ، سأظل طول عمرى أعتبر نفسى وابنى مدينين له بالحياة .

فقالت فاطمة :

— إننى أعرف شعورك من هذه الناحية ، وأنت تبالغين فيه ، فالحياة والموت بيد الله وليس يعرف ذلك أكثر منا نحن الأطباء ، ولكن أسالك عنه كإنسان ورجل .

وبدا الارتباك على وفاء وقالت فى تردد :

— إنه فيما يبدو لى إنسان رقيق مهذب عطوف .

فقالت فاطمة فى حماسة :

— وأستطيع أنا أن أزيدك عنه تفصيلا . فأنا أعرفه معرفة عميقة وقديمة ، مذ كنت طالبة فى الكلية ، وكان يلقى علينا بعض المحاضرات ، وعند ما اشتغلت معه كطبيبة امتياز أو وأنا أعمل معه الآن كنائبة ، أؤكد لك أنه رجل بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى ، وهو زوج مثالى تتمناه كل فتاة من أى طبقة .

وأحست وفاء بطبيعة المشكلة التى تعانيها فاطمة فبادرتها بقولها :

— هل عرض عليك الزواج يا فاطمة ؟

— منذ ثلاثة أيام ، وعرضه بطريقة لا يمكن إلا أن تدير رأس

أى شابة فى سنى ومركزى لقد قال لى : « اسمعى يا فاطمة ، إنك تعرفين رأيى فى الزواج وعزوفى عنه اعتزازا بحريتى ، ولعدم ثقتى بالمرأة التى أشركها فى حياتى ولتكون أما لأولادى ، ولكن بعد أن عاشرتك وخبرت أخلاقك ، انتهيت إلى أنك الزوجة التى تصلح لى والتى يمكنها أن تسعدنى وتسعد أولادى وتشرفنا جميعا » .

واختفت البسمة من شفتى وفاء ، وغام وجهها وخفق قلبها وظهر عليها الأسى والاضطراب والارتباك وغمغمت قائلة :

— لست أعرف ما ذا أقول . . ولا بماذا أنصحك .

— وقد كان هذا هو نفس شعورى والدكتور شرف الدين يوجه إلى هذا الحديث ، لقد اضطربت وارتبكت وتلعثمت وقلت له إن طلبه يشرفنى وسأظل أعتز به ماحييت ، وطلبت منه أن يمهلنى بعض الوقت لأرد عليه .

وخيم الصمت على الصاحبتين . . وعند ما استأنفت فاطمة الكلام كانت عيناها مغرورقتين بالدموع :

— وفاء هانم ، إننى أحس بكيانى كله مرتبط أشد الارتباط بالدكتور خالد أمين ، لا أستطيع أن أتخيل نفسى زوجة إنسان غيره ، أريد أن أكرس كل حياتى وأنفاسى من أجله هو ، كما يكرس هو كل حياته من أجل بلاده .

وغمغمت وفاء وقد انحدرت دموعها بدورها :

— أجل ، يجب أن يتزوجك الدكتور خالد ، لن يجد إنسانة تفهمه

وتسعده غـيرك ، يجب أن يفاتحه فوزى فى الموضوع ، ويضطره إلى ذلك اضطراراً مادام لايريد هو أن يكون إيجابيا فى هذه الناحية .

وصاحت فاطمة فى هلع :

— لا يا وفاء هانم . . أرجوك . . كله إلا حكاية الضغط هذه . . إنك تعرفين مدى استعداد الدكتور خالد لتنفيذ كل ما يطلبه منه فوزى وما كنت لأرضى أن أتزوج خالدا بهذا الأسلوب . . إنمـا كل الذى أريده منك ، هو أن تسألى الدكتور خالد سؤالا مباشراً إذا كان يحبنى فعلا . فلو أنه صرح لك بهذا الحب ، فإن ذلك سيبقى شعلة الأمل حية فى نفسى، أن أكون زوجته فى يوم من الأيام . وعندها سأجد الشجاعة التى أعتذر فيها عن قبول عرض الدكتور شرف الدين ، والذى تتوسل إلى أمى وتلح فى وجوب قبوله .

فقالت وفاء :

— إننى أقدر كل التقدير موقف والدتك ولو كنت مكانها لـما أشرت بغير ما تشير به عليك .

فقالت فاطمة :

— وأنا أيضا أفهم مثل هذا الموقف .. ولو تأكدت بصفة قاطعة أن الدكتور خالد لا يحبنى ولا يفكر فى الزواج منى ، فليس هنـاك ما يقوينى على تحمل هذه الصدمة إلا الزواج من الدكتور شرف الدين .

وسمع فى هذه اللحظة صوت مفتاح فى قفل الباب فهتفت وفاء :

— فوزى . .

وعبثا حاول فوزى أن يستبقى فاطمة لتناول الغداء معهم ويغريها بأن الدكتور خالد لابد قادم لتناول الغداء فقد اعتذرت عن البقاء ، وأشارت لفوزى أن وفاء هانم ستحدثه عن سبب ذلك بعد انصرافها .

٦

استيقظ الدكتور خالد أمين فى شقته التى استأجرها فى حلوان لتكون أحد مخابىء الحركة ، حيث يخزنون فيها بعض الأسلحة والذخائر التى يجمعونها استعدادا لضربتهم المقبلة . وغادر البيت وهو يرتدى بنطلوناً وقميصاً وصدارا من الصوف « بلوفرا » ويضع على عينيه نظارة سوداء ، ويتصنع العرج فى سيره ويحمل فى يده كيساً ورقياً من أكياس البقالة فيه سترته وربطة عنقه . وحيّا البقال الواقف فى دكانه :

— صباح الخير يامعلم حسنين .

— صباح الخير والفل والسعد ياأسطى شفيق .

وشرع الأسطى شفيق فى رحلته نحو محطة حلوان ، يخيّل لمن يراه أنه عديم الاكتراث قليل المبالاه بما يجرى حوله أو يصادفه فى الطريق ، وحقيقة الحال أن عينيه كانتا تدوران وراء النظارة السوداء فى كل اتجاه ، وكانت حواسه كلها مرهفة مشرعة ، تسمع وتشم وتحس وترى ، فقد كان يعرف أن اكتشاف أحد هذه المخابىء وتردده عليه لايعنى السجن المؤبد بالنسبة له فحسب ، وإنما قد يعرض الحركة كلها لكارثة ، فقد راح الوقت الذى كانوا يتمتعون فيه بحرية

وأمن نسبيين فى عهد وزارة باهر باشا . حقاً إن حمدى باشا رئيس الحكومة الذى حل محله قد واصل سياسة تجنيب مصر ويلات الحرب ، وأصر على عدم إعلان الحرب رسميا على إيطاليا ، ولكن الإنجليز فى عهده أصبحوا أثبت مكاناً وأكثر تغلغلا فى شئون الأمن ، وسيطرة على البلاد .

ويطوف بذهن خالد أمين نجاح الإنجليز فى عزل عزيز باشا نهائيا من الجيش وتعيين رئيس أركان حرب جديد يرضون عنه ، ويرى فى عودة هذا الرجل الممقوت ، شاهين السلانكلى ، إلى هيئة أركان الحرب وترقيته إلى رتبة الأميرالاى ، نذير خطر .

وكان هذا مايجعل خالد يضاعف فى حذره فلا يخرج من البيت إلا بعد أن يراقب الشوارع المحيطة بالبيت من النافذة مدة نصف ساعة كاملة . وكان لا يصل إلى المخبأ أو يخرج منه إلا بعد أن يدور دورة كاملة فى حلوان كلها . وفى ركن من أركان الحديقة اليابانية تحت خميلة مشتبكة الأغصان كان خالد يعمد إلى تغيير هيئته . وفى هذا الصباح ارتدى رباط عنقه وسترته وخلع النظارة عن عينيه وعاد إلى طبيعته المألوفة ، الدكتور خالد أمين يسير فى خطى ثابتة وئيدة رافع الرأس وضاء الجبين ، ولكن دون أن تخالج نفسه ذرة من كبرياء أو عجرفة فضلا عن غرور .

وأحس خالد وهو راكب القطار فى طريقه إلى باب اللوق بشعور غريب يستولى عليه ، ويدفعه على غير العادة لزيارة المخبأ الرئيسى فى منطقة الخليفة حيث يستأجر شقة فى أحد البيوت باسم يوسف أفندى

الأزمرلى تاجر القطن . واستبعد خالد الخاطر عن رأسه على الفور ، فالذهاب إلى هذا المخبأ عقب خروجه من مخبأ حلوان يخالف كل قواعد الأمن والاحتياط التى وضعها والتزم بها ، وإلا فماذا يكون الحال لو أنه بالرغم من كل محاولاته فى التخفى والتضليل كان مراقباً ومتبوعا ... أو لا يسقط المخبآن معاً ، وتكون الكارثة مضاعفة ؟ ؟

ولأمر ما انصاع خالد لهذا الخاطر العجيب وتوجه نحو بيت الخليفة .

ودار كما هو شأنه فى كل مرة يقترب من البيت ، دورة فى الشوارع المحيطة به قبل أن يدخل إلى البيت ليتأكد أن أحداً لا يتعقبه .

ونفذ إلى الدار فوجد باب شقة صاحبة البيت فى الدور الأرضى مغلقة ، وقد كان من عادته أن يطرق بابها ويسلم عليها قبل أن يصعد إلى شقته ، ولكنه فى هذه المرة راح يصعد الدرجات محاذراً أن يحدث صوتاً كى لا ينبهها إليه ، ولم يكد يصل إلى أول بسطة من السلم حتى أوشك قلبه أن يقفز من مكانه ، فقد وجد باب شقته مغلقاً بقفل خارجى ضخم لم يكن هو الذى وضعه .

وارتجف بدن خالد كرد فعل لهذا المنظر ، وحدثته نفسه أن يفر بسرعة من المكان قبل أن يتنبه إليه أحد ، فقد كان وجود هذا القفل لا يعنى إلا أن إنسانا قد دخل الشقة ثم أعاد غلقها ، وليس من يفعل ذلك سوى البوليس الذى دهم الشقة فى غيابه واستولى على ما بها من أسلحة وذخائر ومنشورات إعلان الثورة . ونزل خالد بضع درجات من السلم

فى طريقه نحو الهرب ، ولكنه لم يلبث أن توقف وقرر من جديد أن يصعد لمعاينة الباب ، فلو أن البوليس هو الذى فتح الباب ، لأعاد غلقه بالشمع الأحمر وليس بوضع هذا القفل ، ولوجب أن يضع حارساً على الباب ليقبض عليه بمجرد حضوره ! . وقرر أن يستعلم من صاحبة البيت عما حدث . وكان يعلم أنه يخاطر بذلك مخاطرة كبيرة ، ولكن حب الاستطلاع بدأ يعصف به .

وصاحت فى وجهه صاحبة البيت بمجرد أن وقع بصرها عليه :

— أين أنت يا يوسف أفندى ، لقد حاول أحد اللصوص أن يسرق ملابسك لولا أن تنبهت لذلك فى الوقت المناسب ، وقد جاء البوليس وأعدنا الملابس المسروقة إلى الشقة والحمد لله .

وقال خالد فى ذهول :

— بوليس ؟ حرامى ؟ !

وقالت الست صاحبة البيت :

— اطمئن يا أخويا ، لقد أعاد البوليس كل شىء للشقة ...

— أعاد البوليس كل شىء للشقة ؟

وراحت صاحبة البيت تقص عليه فى عصبية ، والكلمات تنحدر من فمها كالسيل الجارف والقذائف المتفجرة ، كيف سمعت بالأمس أصوات أقدام فوق رأسها ، ولما كانت تعرف أنه لا يصعد إلى شقته قبل أن يسلم عليها فقد استرابت فى الأمر ولم تكد تخرج إلى السلم ، حتى وجدت الحرامى يخرج من باب الشقة وهو حافى القدمين يحمل صرة

الملابس ، فصرخت فى وجهه ، فما كان منه إلا أن ألقى بالصرة على الأرض ودفعها فى صدرها دفعة قوية ومرق من أمامها ناجيا بنفسه . . فراحت تصرخ وتهلل حتى جاء الجيران وجاء البوليس . وقد اكتفى البوليس بإعادة الأشياء المسروقة إلى الشقة وأغلقها بعد ذلك بهذا القفل الذى أخذه منها ، تاركا معاينة الشقة ومعرفة ما سرق منها إلى حين حضوره هو بنفسه .

وسأل خالد وهو مبهور الأنفاس :

— وأين المفتاح ... مفتاح القفل؟

فناولته صاحبة البيت مفتاحاً صغيراً أخرجته من كيس فى صدرها وهى تقول له :

— اطلع ياخويا تمم على حاجاتك وإن شاء الله ترى كل شىء سليما على حاله .

وأخذ خالد منها المفتاح وأسرع يعدو على السلم وهو لا يكاد يحس إلا بأنه فى حلم وكابوس مخيف .. حرامى . ! ؟ بوليس ؟ ! أعادوا كل شىء إلى مكانه ؟ والمسدسات والقنابل والمنشورات ، إعلان الثورة ! ؟ مستحيل ... مستحيل . وفوزى ، والحركة ماذا يحل بها ؟ !

ووجد نفسه أمام الباب ، وامتدت يده إلى القفل ليفتحه ، ومن جديد غمره الشعور بالواقع ، ما الذى يدريه أنه لا يوشك أن يقع فى كمين ، وأن خلف هذا الباب يوجد الآن من ينتظره مشهرا السلاح ليقبض عليه متلبسا بالجريمة المخيفة ؟ ومن جديد فكر أن يطلق ساقيه

للريح مبتعداً عن المكان بأسرع ما يستطيع ، ولكن إيمانه بالله بعث فيه قوة دافعة ، ففتح القفل ودفع الباب وهو مستعد للنضال عن نفسه ، فلن يسلم بسهولة . ولكن الهدوء كان مسيطراً على الشقة ، وكانت صرة الملابس ملقاة فى وسط الصالة حيث ألقى بها البوليس كما ذكرت له صاحبة البيت ، فحل عقدتها فى اضطراب وذهول ، فوجد بدلته الوحيدة وملابسه الداخلية ، ولكنه لم يجد شيئاً من الأسلحة فزاد ذلك فى اضطرابه .

وأسرع فى غير احتياط أو حذر نحو باب حجرة المكتب الذى كان مفتوحا ، ولم يكن بالحجرة سوى مكتب وكرسى ، ووقف مفزوعا بمجرد اقترابه من المكتب وهو يرى كل شىء أمامه فى الأدراج المفتوحة ، القنابل والمسدسات ومدفع التومى جن .

وهتف خالد فى حدة ، وكاد يصرخ من شدة الانفعال :

— ولكن ماذا حدث ... ماذا جرى ؟

وبدأ الإحساس بالخطر المحدق به يجعل قواه تعمل فى سرعة فعاد إلى باب الشقة فأغلقه بالمزلاج ، وقرر أن ينقل هذه الأشياء من هذا المكان بسرعة . وبينما كان يرتبها وملابسه داخل حقيبتين، كان يحاول أن يتصور ما حدث ... لا بد أن يكون اللص الذى اقتحم الشقة ، أحد هؤلاء اللصوص الضعفاء المساكين الذين يسرقون لحافا أو مخدة أو حلة أو فرخة ممن اعتادوا أن يتندروا بهم فى أحاديثهم ، ولا بد أن يكون قد اكتفى بسرقة البدلة وبعض الملابس الداخلية الموجودة

بالدولاب ووضع المسروقات فى ملاءة السرير ، ثم عنّ له قبل أن يخرج أن يدخل حجرة المكتب ، ولم يكد يفتح الأدراج حتى أفزعته رؤية المسدسات والقنابل ، فأسرع يعدو خارج الشقة . . . وعندما فاجأته صاحبة البيت بصراخها ، أصيب بالذعر أكثر وأكثر فترك المسروقات وأطلق ساقيه للريح .

ويطمئن خالد إلى هذه الصورة ... لا بد أن يكون هذا هو ماحدث بالتقريب ... ولكنه يعود فيصرخ من الدهشة والذهول فى أعماق نفسه ..

ولكن البوليس ... ماذا فعل البوليس ..؟ إن صاحبة البيت تقول إن ضابطاً قد جاء على رأس القوة التى حضرت... ماذا فعل البوليس.. ألم يدخل حجرة المكتب .؟ ألم يحاول أن يقترب من المكتب ، ليرى المسدسات والقنابل ومدفع التومى جن...والمنشورات ، وبذلك تتحول الحادثة التافهة إلى حدث خطير يهز البلاد هزا..؟ ما الذى حال بينه وبين ذلك ، ما الذى أوقفه ، من الذى أعجزه . . ؟ ولمعت عينا خالد ببريق من الفرح وراح يغمغم :

بوركت يابوليسنا . . . كم أحب كسلك وبلادتك يابوليسنا .

ونزل خالد وهو يحمل الحقيبتين المليئتين بأخطر ماكان يمكن للبوليس أن يضع يده عليه ، وقد كان يعرف أنه يجازف بهذا الحمل المخيف ... ولكنه لم يتردد ولم تكن له حيلة ... يجب أن ينقل هذه الأشياء من هذا المكان الذى سيعود البوليس لمعاينته .

ورأته صاحبة البيت فسألته :

— أرأيت كل شيء كاملا لم ينقص شيئا ؟

فأجاب :

— الحمد لله .

وأسرعت صاحبة البيت تقول :

— لقد أوصاني الضابط أن أطلب منك الذهاب إلى القسم لإتمام المحضر ... أتحب أن أذهب معك ؟

فابتسم خالد فى مرارة ساخرة وقال لها :

— لا تزعجى نفسك ... سأذهب بنفسى .

— الآن والنبى يا يوسف أفندى ...

— الآن ياست عيوشه ، حالا .

٧

قصد خالد بعد أن أودع ما كان يحمله فى مخبأ مصر الجديدة إلى بيت شريفة هانم حيث كان قد وعد بتناول طعام الغداء معهم ، ولم يبد عليه أى شيء غير عادى أو غير مألوف فقد كانت عيناه الزرقاوان تسطعان بهذا البريق المعتاد ، وكانت ابتسامته الرقيقة تتراقص على شفتيه وإن كان فوزى لاحظ عليه أنه كان أكثر مرحاً من العادة مع أفراد الأسرة .

وقال فوزى لخالد عقب فراغهم من تناول الطعام وانفرادهم فى حجرة الاستقبال :

— إن لدى وفاء ما تحدثك عنه بخصوص الدكتورة فاطمة .

واكفهر وجه الدكتور خالد وسأل فى لهفة :

— مالها الدكتورة فاطمة ؟

فأسرعت وفاء تقول وهى تضم خالد الصغير إلى صدرها :

— تقدم لخطبتها الدكتور والى شرف الدين .

وخيم صمت عميق على الثلاثة ، لم يقطعه إلا أنفاس الطفل الصغير النائم ، وأنفاس خالد التى تعالت بصورة ملحوظة ، على أن الدكتور خالد لم يلبث أن انتصر على اضطرابه وسيطر على أعصابه ، وإن كان لم يفلح فى رد الدم إلى وجهه الذى ظل ممتقعا ، وقال فى صوت خافت :

— مبروك عليها ألف مبروك ، إن فاطمة تستحق كل السعادة ولن تجد زوجا يكفل لها هذه السعادة كما يكفلها لها الدكتور والى ... إنه إنسان ممتاز .

وانفجر فوزى فى موجة من الغضب :

— ما هذا يا خالد ... أهذا ما كنا نريد أن نسمعه منك ؟

— وماذا تريد أن تسمع ؟

— إن فاطمة تحبك يا خالد ، وأنت تحبها ، ففيم العناد وفيم القسوة على نفسك وعليها ؟

وأطرق خالد برأسه وقد ظهر الأسى على جبينه ، على أنه لم يلبث أن رفع عينيه الصافيتين إلى فوزى وقال له :

— ماجدوى الحديث فى ذلك كله ؟

فقال فوزى :

— حدثيه ياوفاء عن زيارة فاطمة لك وحديثها معك .

ولم يزد خالد بعد أن سمع ما قصته عليه وفاء أن عاد يقول :

— مبروك عليها الدكتور والى ، إنه خير زوج لها .

وانفجر خالد الصغير فى عاصفة عاتية من البكاء لا يعرف لهاسبب .. واضطرت وفاء أن تعتذر وتبرح الحجرة وقد نسيت كل شىء إلا حرصها على رفع الألم عن وليدها .

وعندما خلا خالد بفوزى قال له :

إن مثلى لايحق له أن يتزوج . . . إنك لاتعرف ماذا حدث لى اليوم ، وأى خطر كان يمكن أن يحدق بنا .

وقص خالد على فوزى ، المصعوق المذهول ، قصة ماحدث فى بيت الخليفة . وانفجر فوزى بعد أن لم تعد أعصابه تحتمل المضى فى القصة :

— وكيف تسمح لنفسك بعد كل ماحدث ، أن تعرضها لهذا الخطر الفظيع فتحمل هذه الأشياء بنفسك فى وضح النهار وتروح تتنقل بها بالسيارات فى أنحاء القاهرة حتى تصل مصر الجديدة .

ورد خالد فى لهفة :

— أكنت تريد أن أتخلى عن هذه الأسلحة التى تعبنا كل التعب

فى جمعها . . . لقد تصورت أنه أهون علىّ أن يقبض علىّ وهى فى حوزتى . . . من أن أتخلى عنها وأهجرها لتقع فى يد البوليس .

وغمغم فوزى :

— إنها كرامة . . . إنها إحدى كراماتك . . . أنت ولى من أولياء الله .

فقال خالد :

لا تقل ذلك ، بل هى كرامتنا كلنا ، إننى أرى فيما حدث يد الله الرحيمة التى تظلنا برعايتها ، واستمد من هـذا كله اليقين بأننا لابد منتصرون .

٨

على أن النوم لم يعرف سبيله إلى جفنى خالد هذه الليلة ، فقد كان ما مر عليه من الحوادث وما سمعه من حديث فاطمة شيئا فوق احتماله .

ودقت الساعة الرابعة صباحا وهو لا يزال يتقلب على فراشه فى عصبية . لقد استطاع أن يتغلب نهائيا على الانفعال الذى سببه له حادث الأسلحة وكيف نجوا من هذه المحنة التى كان يمكن أن تودى بهم بما يشبه المعجزة . وكان العامل الذى ساعد على تهدئة نفسه هو اقتناعه بأن الله عرضه لهذه المحنة لتكون بمثابة إنذار وتحذير . إنه عبد الله ولا زيادة لا حق له فى الزواج ، لا حق له أن يكون رب أسرة يكدح من أجل إعاشة أولاده . . إنه صاحب رسالة ، وهذه الرسالة فى حاجة إلى كل قطرة من دمه ، إلى كل دقة من دقات قلبه . كل كيانه يجب أن يكون وقفا على أداء الرسالة والموت فى سبيلها .

لا شيء آخر .. لا شيء حتى لو كان هذا الشيء هو فاطمة نفسها .

ولكنه لا يكاد يصل إلى هذا القرار الحاسم حتى يحس بالوهن يدب إلى نفسه ، وبموجة من الضعف تغشاه ، وتتملكه رغبة قوية فى البكاء .

ويراجع للمرة الألف هذه العلاقة التى طالما أسهدته وأشقته الليالى الطوال .

لقد تعلق قلبه بفاطمة مذ وقع بصره عليها للمرة الأولى ، وأخذ بنضارتها وحيويتها ، وما تبذله من ذات نفسها ، من أجل كفاحهم المشترك .

وعاش يراقبها عن كثب ، فلا يرى فيها إلا ما يسره ويبهجه ويضاعف فى غبطته ، ولكنه ظل أمدا طويلا لا يسمح لنفسه بالذهاب إلى أبعد من ذلك ، لقد نذر نفسه لربه وبلاده .

على أنه ظل ينجذب إليها يوما بعد آخر تحت وطأة عاطفته التى بدأ يزكيها فى نفسه ، عاطفتها المشبوبة نحوه والتى لم تكن تحاول إخفاءها .

وبدأ يحس بالسعادة تغمره وهو ينظر إليها . . وهو يقترب منها ، وتحولت السعادة الروحية إلى هزات بدنية عند ما كان يلامس يدها فى بعض الأحيان ، مما جعله يحس بشعور من الإثم والخطيئة ، فيروح يقسو على نفسه ويعذبها بالصوم ويفزع إلى الصلاة والندم والاستغفار ويألو على نفسه أن يخرجها نهائيا من قلبه وفكره .

ولكنه كان يعود دائما حانثا فى عهده ، ولا يقوى على مقاومة

الإحساس بالسعادة والغبطة الذى يغمره كلما اقترب من فاطمة ، وأقبلت عليه بعينها وبسمتها وروحها التى تطل نحوه من خلال كيانها كله .

وهكذا عاش فى محنة لا يعرف كيف يكون الخلاص منها . إنه لا يمكن أن يتزوج ، فقد كان قلبه يحدثه أنه لا يستطيع أن يجمع بين الجهاد وبين الزواج ، ومع ذلك فقد كانت هذه العاطفة التى تقوى يوما بعد يوم ، تناوشه وتفسد عليه هدوءه وراحة باله وضميره .

على أنه لم يلبث أن اعتاد هذا الوضع ، وبدأ يجد فيه مصدراً جديداً للإحساس بالحرمان والتضحية وإنكار الذات ، وهو ما كان يجاهد ليحققه فى نفسه . فهاهى السعادة المادية والحسية فى متناول يده ، ما عليه إلا أن يقول كلمة واحدة كلما خلا بفاطمة لكى ترتمى فى أحضانه ، لقد كانت عيناها دائما ناطقة بذلك . وكانت رغبته لا تقل عنفا عن رغبتها بل تزيد بمقدار ما فى نفسه من رجولة وذكورة وقوة جسد ، كانت الرغبة المجنونة كثيراً ما تستولى عليه ، أن يضمها إلى صدره أن يعبث بشعرها ، أن يلامس شفتيها الرقيقتين بشفتيه . . كان يحلم بنفسه يغمغم فى أذنها هامسا بكلمة الحب .

ولكنه استطاع حتى الآن أن يكبح جماح عاطفته ، لائذاً بهذا العهد والنذر الذى قطعه على نفسه أن يكون عبداً لله ووقفا على أداء رسالته .

أما الآن وقد كشفت فاطمة بطريقة سافرة عن حبها له ، وأظهرت عزمها على استعدادها للتضحية بالرجل الكريم الذى تقدم لخطبتها

لو أنه قال لها كلمة واحدة .. كلمة واحدة تزحم نفسه وتؤرقها ، وهى أنه يحبها .

ولقد قضى الأمر ، وأبى أن يتلفظ بهذه الكلمة ، ومعنى ذلك أنه فقد فاطمة نهائيا ، فقد حبها ، فقد عطفها بعد أن جرحها فى كبريائها . وفوق ذلك فسوف تذهب إلى رجل آخر وتنقطع كل صلة بينها وبينه . لن يكون فى استطاعته بعد اليوم أن ينظر إليها بالعين التى كان ينظر بها إليها بالأمس ، لن يسمح لنفسه أن يتصورها حتى فى خياله أنها حبيبته ، أنها يمكن أن تكون له .. فإن مثل هذا التصور يكون جريمة دنيئة . .

وتسطع فى رأس خالد صورة فاطمة بين أحضان الدكتور والى .. وتدوى ضحكة رهيبة فى أذنيه ، ويشتعل جسد خالد ، وتختنق أنفاسه ويحس كما لو كانت جدران الحجرة ستطبق عليه ، كما لو كان السقف سيخر فوق رأسه ، ويهب من الفراش مذعورا ، وقد تملكته حالة جنونية ، إنه يجب أن يخرج من الحجرة .. يجب أن يخرج من البيت كله الذى يوشك أن ينقض عليه . ويدس قدميه فى نعله المنزلى ويسرع هاربا من الحجرة . . ولكنه لا يلبث أن يعود مستدركا . . يجب أن يأخذ معطفه ، وتحس أمه بحركته العنيفة ، فتهتف به منادية فى قلق :

— خالد . . ماذا بك يا حبيبى ؟

ويرد عليها فى صرامة وتجهم لأول مرة فى حياته :

— لا شىء . . إننى خارج .

ولم يعرف خالد بماذا أجابت والدته ولا أى فزع سببه لها بسبب هذا التصرف ، وصفق الباب وراءه فى عنف وانطلق فى الشوارع هائما على وجهه .

كانت تعليمات الاظلام بسبب الحرب ، التى أصبحت تدور على الأرض المصرية ، قد ازدادت صرامة وشدة ، وكان لا يزال باقيا على الفجر أكثر من ساعة . . وكانت الغيوم والضباب تزيد الجو ظلمات فوق ظلمات ، وكانت نفس خالد من الداخل أشد ظلاما . .

وعلى هذه الوتيرة سار . . سار بجلبابه ونعله ومعطفه لا يعرف إلى أين . . أو ماذا يريد ويقصد ؟

كم مضى عليه وهو فى هذه الحـالة ؟ أى الشوارع طرق ، وأى الأفـكار تسلطت عليه ، ذلك ما لم يدريه ولا وعى منه شيئاً . . فقد جاءه الوعى والإدراك فجأة أمام مسجد السيدة زينب . أحس بأطرافه تـكاد تتجمد من شدة البرد والصقيع ، وأحس بتعب فى ساقيه . وكان موظفو المسجد قد شرعوا فى فتح أبواب المسجد استعدادا لصلاة الفجر ، وكان شعاع من النور الخافت ينفذ من خلال الأبواب التى فتحت . وأحس خالد فجأة بهذا الشعاع من النور يجذبه ويهديه ، فانطلق إلى داخل المسجد كما لو كان غريقا انتشل من الماء ، أو تائها فى الصحراء أوشك على الضياع فلاحت له واحة وارفة الظلال .

وصلى خالد ما طاب له أن يصلى ، وركع وسجد وأطال الركوع والسجود والقيام ، وتحدرت الدموع على خديه وقد بدأت السكينة تعود إليه والإيمان يضىء أرجاء روحه .

وصلى مع الجماعة التى توافدت لصلاة الفجر ، واستمتع بترتيل القرآن وملأه بالنشوة والوجد كما لو كان يسمعه لأول مرة .

ولم يعرف ماذا حدث له بعد ذلك ، ولم يتنبه إلا على دوى صوت كفرقعة قنبلة ، وعندما فتح عينيه وجد أحد موظفى المسجد يطرق العمود القريب من أذنه بعصا من الجريد وهو يهتف به :

— اسع وصلى على النبى . . اسع وصلى على النبى . . إصح يا سيدنا الافندى .

وتلفت خالد حوله فى اضطراب وخجل ، لا بد أنه قد نام عقب الصلاة ولم يحس بمرور الوقت ، كان نعله تحت رأسه ، ونور الشمس يغمر صحن المسجد ورائحة البخور تعبق الجو .

ووثب واقفا وقد احمر ووجهه من فرط الخجل وراح يقول فى اعتذار :

— أنا آسف . . أنا آسف .

وغمره فجأة شعور بأنه يعانى وطأة كابوس ثقيل ، هذا الجلباب وهذا النعل . . ماذا حدث ؟ ؟ !

وراح يستعيد كل الذى مر به ، وأسعده أن بدأ يستعرض الحوادث فى هدوء وفى غير انفعال .

وتلفت حوله والسكينة تغمر روحه ، وراح يطالع الآيات القرآنية ، ألا ما أجمل الخط الذى كتبت به ، ومن آيات القرآن إلى الأعمدة

الرخامية الجميلة بتيجانها الرائعة وأطواق النحاس الذهبية التى تطوقها .

واستوقفته النجفة الضخمة المدلاة من القبة ، وراح يتأمل أجزاءها ويعجب بالتناسق العجيب والتكامل بين فروعها ، وأشعة الشمس تصل إلى كل ذرة فيها ، وطاف عليه فى هذه اللحظة سقاء يوزع الماء فى طاسات نحاسية جميلة . . وشرب خالد طاسة مملوءة ماء وزهرا . . وقادته قدماه فى هدوء واستسلام نحو باب المسجد ، بينما كان يردد فى رضاء وسعادة :

— أنا عبدك يارب ، أنت وحدك هدفى وغايتى .. سامحنى .. سامح ضعفى . . سامح خطيئتى يا رحمن يا رحيم .



الفصل السابع

١

كان قد مضى على الحوادث السابقة شهران عندما نظر خالد فى ذهول إلى يد فوزى الممتدة له تحمل جواز سفره إلى العراق ، وأحس بانقباض جعله لا يسارع لأخذ الجواز من اليد المبسوطة إليه.

ولم تفت فوزى انقباضة خالد وإحجامه ، ولكنه تجاهل ذلك كله ومضى يقول :

— ها هو الجواز بعد أن أكملت كل الإجراءات المطلوبة ، لم يبق أمامك إلا أن تحدد أى يوم خلال هذا الأسبوع لتسافر إلى بغداد .

وامتقع وجه خالد وهو يمد يده أخيراً لأخذ جواز السفر وغمغم يقول فى حزن وأسى :

— أكاد لا أصدق نفسى ، يخيل إلىّ أننى فى حلم أو كابوس .

ورد فوزى متصنعاً الحماسة :

— ولكن ما الذى لا تصدقه ياخالد . . . أو لم نقتل موضوع سفرك بحثاً حتى اقتنعت بأنه واجب وطنى ؟

وصاح خالد :

— أنت . . ! أنت تعمل على إبعادى عنك بكل هذه الحماسة والسرعة ؟ دعنى أصارحك يا فوزى وقد تحقق لك ما تريد ، إنك لا تتصور مقدار المرارة التى أحس بها . كنت أتصور أنه قد أصبح من المستحيل على أى منا أن ينفصل عن الآخر ، كنت أحسب أننا سنعيش معا ونموت سويا .

وأوشكت الدموع أن تطفر من عينى فوزى ، ولكنه سارع إلى السيطرة على عواطفه إدراكا منه أن أى بادرة ضعف تبدو عليه من شأنها أن تحطم المشروع من أساسه ، فاندفع يقول فى اهتياج وعصبية :

— من قال إننا سنفترق ، لماذا لا تقول اننا نمتد ؟ أو تظن أننى أقل عنك ألما ، إننى أقدم لجهادنا أعظم تضحية قدمتها حتى الآن . أى قوة استمدها فى هذه الأيام العصيبة إلا من وجودك معى ، إنك لا تكاد تسافر حتى أصبح وحيدا ، ولكن عزائى أنك ستكون هناك ، قطعة منا فى قلب العراق ، فى بغداد عاصمة الرشيد وقلعة القومية العربية فى هذه الأيام .

— كل هذا أعرفه وهو الذى جعلنى أنصاع لرأيك وأخرج عن مبدئى فى رفض تقلد أى وظيفة حكومية .

— ولكن ياخالد هذه ليست وظيفة ، إنك تذهب كسفير . لقد رأيت بنفسك كيف رحبت الحكومة العراقية بك ، واختارتك لجهادك الوطنى بالذات ، رغم اعتراض البوليس السياسى المصرى والدوائر

الإنجليزية . ولقد رأيت كيف أن هذه الاعتراضات هى التى زادتهم تشبثا بك وإصرارا على أن تسافر بهذه السرعة ، فأنت لم تخرج عن مبدئك ، إنك تسافر بغداد لتجاهد .

وهم خالد أن يقاطع فوزى ، ولكن فوزى استوقفه باشارة من يده ، وقد واتته حجة جديدة أحس أنه سيفحم بها خالد :

— أو يدور فى خلدك لحظة أن ما تم حتى الآن هو من صنعى وتدبيرى ، ألست ترى يد الله خلف كل حركة من حركاتنا منذ هذه اللحظة التى طالعت فيها إعلان الحكومة العراقية عن حاجتها إلى أستاذ للرياضيات ، وكيف سارت الأمور بسرعة غير متصورة بالرغم من موقفك السلبي ورفضك التوقيع على أى ورقة أو التقدم بأى طلب لجهة من الجهات ؟

وأطرق خالد رأسه وقال :

— إننى خاضع لمشيئة الله ، ومن أجل ذلك أسافر ، إنك لو كنت رئيسا للوزارة لما استطعت أن تجد لى وظيفة بهذه السرعة ، ومع ذلك فما زلت أقول لك وأرجوك أن تبقينى هنا معك ولا تدعنى أسافر العراق . . .

ودخلت وفاء فى هذه اللحظة على الصديقين تدعوهما إلى مائدة الطعام .

وتنهد خالد وهو يجلس على المائدة وقال لوفاء :

لن يكفينى اليوم كل ما فى قدرك من حساء ولحم وخضار ، فالله وحده يعلم متى يقدر لى أن أعود لتذوق طعامك .

وأجهشت وفاء بالبكاء ، ولم يستطع فوزى أن يغالب دموعه ، على أنه لم يلبث أن صاح بوفاء يعاتبها على خلق هذا الجو الحزين فى لحظة من لحظات انتصارهم .

٢

عندما جلس فوزى إلى جوار خالد فى أحد صالونات القطار المسافر إلى القنطره ، ليستقل منها القطار المسافر إلى فلسطين كان الحماس الذى ما فتىء يدفعه ويسوقه لإتمام مشروع هذا السفر قد استنفد أغراضه ، فقد كان القطار ينهب الأرض نهباً فى الطريق إلى بغداد .

ولذلك فقد خيمت كآبة عميقة على فوزى فراح يتقصى فى أغوار نفسه سر هذا الحزن ، أكان مخطئا وهو يدفع خالدا دفعا لقبول هذه الوظيفة التى ستبعده عنه مئات الأميال ؟

إنه لم يكن يكذب خالدا ، وهو يؤكد له أن حافزه الأكبر للتحمس لتحقيق المشروع ، هو رغبته فى تحقيق الحلم الذى طالما تاقت إليه الجماعة ، وهو أن يمدوا نشاطهم إلى البلاد العربية وخاصة إلى العراق ، بعد أن وحد الخطر الذى يوشك أن يدهم فلسطين ، مشاعر العرب ، وألهب حماسهم من أجل تحقيق الوحدة العربية ، وأى ترجمة عملية لهذه الوحدة أكثر من أن يسافر خالد أمين ، قلب حركة البعث الخفاق ،

إلى بغداد ليكون أستاذا بها لجيل من العراقيين فى العلم ، وليشارك مع المجاهدين من كل البلاد العربية جهادهم .

وتململ فوزى على مقعده ونظر من طرف خفى صوب خالد كما لو كان يستجدى موافقته على هذا الخاطر ، فوجده مغمض العينين مسندا رأسه على المقعد الجلدى ، ولم يشك فوزى فى أن خالدا لم يكن نائما ، وإنما كان غارقا فى سبحات أفكاره وتأملاته الحزينة .

وعاد فوزى إلى تأملاته وقد ازدادت فى نفسه نبضات القلق فراح يحاول أن يخفت صوتها وأن يغرقها بأحاسيسه الأخرى الواضحة وعلى رأسها حبه العميق لخالد .

كان فوزى قد بدأ يضيق بما يتصوره سرقة لجهاد خالد وتضحياته وفدائيته ... فبينما يحظى هو بالشهرة على كل حال ، وتسلط عليه الأضواء ويدعوه إخوانه بالرئيس ، فان خالدا الأجدر منه بذلك كله ، يرضى بالمكان الثانى إلى جواره ويتوارى فى الظل فى كثير من الأحيان .

ولم يكن فوزى يعرف ما الذى يفعله للتخلص من هذا الوضع ، فوجد فى هذه السفرة الكريمة إلى بغداد حلا لهذه المشكلة . لن يكون خالد أمين فى بغداد الثانى لأحد ، سيكون الأول فى كل شىء ، وسيحبه العراقيون ويلتفون حوله ، سوف يتبوأ مكانه الجدير به فى دنيا العلم والوطنية والزعامة . وحاول فوزى أن يشعر نفسه بالراحة والطمأنينة وأنه لم يفعل سوى الخير ... ولكن ذلك لم يقلل من كآبته وحزنه لفراق صاحبه .

ووقف القطار فى إحدى المحطات ، فانقطع سيل الأفكار والخواطر والتأملات ... والتقت عينا خالد مع عينى فوزى فى نظرة حزينة ، وارتسمت على شفتى كل منهما بسمة باهتة .

وقال خالد :

— أتعرف يا فوزى أهم عنصر يبرر لى هذه السفرة ؟

وكاد قلب فوزى يثب من الفرح وخالد يسوق سبباً لتبرير الرحلة ، بينما مضى خالد يقول :

— لطالما أرقنى شدة حاجة حركتنا للمال ولدخل منظم بطريقة دورية يمكنها من مواجهة التزاماتها الدورية من إيجار مسكن واستضاءة ونظافة ، ولذلك فقد رأيت فى هذا المرتب الذى سأتقاضاه وقدره خمسة وأربعون جنيهاً ، حلا لهذه المشكلة . . . سوف استبقى لنفسى منها خمسة جنيهات ، وأبعث بالأربعين كل شهر إليك .

ووثب فوزى من فوق المقعد كما لو كان قد ضرب بسوط على وجهه وصرخ قائلا :

— مستحيل .. هذا جنون !

وأجاب خالد فى عزم وقد لمعت عيناه ببريق التصميم :

— سمه ما شئت ، ومع ذلك فهذا هو المبرر الوحيد الذى جعلنى أقبل السفر إلى العراق .. فإذا لم توافق على ذلك فدعنا نختصر الطريق وأعود معك من هنا .. لأنى سأعود من بغداد إذا رددت لى المبلغ الذى سأرسله لك .

وأسقط فى يد فوزى .. إنه يعرف عناد صاحبه .. وسرى الهلع إلى نفسه ، فلم يحدث أن دار هذا الخاطر فى رأسه وحاول أن يتظاهر بالهدوء والاتزان ومناقشة الأمور مناقشة موضوعية .

— إنك يجب أن تعيش كأستاذ .

سأعيش بالجنيهات الخمسة .. إن بغداد لا يمكن أن تكون أغلى من القاهرة وأنت وأسرتك تعيش بهذا القدر ، فماذا علىّ لو عشت به .. وإذا وجدت صعوبة ، فإن على أسرتى أن تبعث إلىّ بنصيبى من أموال أبى .

— ولكنه نصيب ضئيل جدا يا خالد ، وأخوك كما تعلم يحصله بشق النفس .

— ليس أمامى من سبيل غير ذلك ، ولولا هذا الخاطر لما قبلت السفر ، مهما كانت الحجج التى سقتها إلىّ مقنعة ، ومهما كان استعدادى لتنفيذ أوامرك .

وامتقع وجه فوزى ، وأحس من جديد أنه وقع فى ورطة إذ يحمل صاحبه هذا العناء غير المحتمل ، ونظر صوب النافذة فى التماس مخرج ، فوجد الظلام يمد رواقه على الكون بعد أن غربت الشمس ، وبدأت أعمدة التلغراف تبدو ظلالا وأشباحا ، وأحس بثورة عارمة على صاحبه لشدة ما بدأ يعانيه من ضيق فصرخ فى وجهه :

— لماذا تأبى إلا أن تعذبنى دائماً بهذه المبالغة فى التحامل على نفسك والإفراط فى التضحية والزهد والتقشف ، لقد كان أحد أهدافى

من سفرك إلى العراق أن أخرجك من هذا الحرمان الذى فرضته على نفسك ، فإذا أنت تأبى إلا أن تغرق فيه إلى الأذقان .

وابتسم خالد وأمسك بيد فوزى وقال له :

— أتظن أنه يغيب عن فكرى أى خاطر من خواطرك وخلجات نفسك ، لقد كنت أعلم أن ذلك على رأس دوافعك ، وقد كان هذا ما يجعلنى أقاوم الفكرة ، وقد ظللت أقاومها ، وكان يمكن أن ترانى فى آخر لحظة وقد عزفت عن السفر ، لولا أن هدانى الله لهذا القرار فانشرحت نفسى للسفر .

فقال فوزى :

— سأرد لك كل ما ترسله .

— إذن أعود فى اليوم التالى .

وأسقط فى يد فوزى ، وغشيته موجة من الاضطراب لهذا المأزق الذى وجد نفسه فيه ، على أن وصول القطار إلى القنطرة ، واشتغالهما بانزال الحقائب قد خفف من حدة الموقف إلى حين .

٣

وقال فوزى لخالد وقد جلسا فى بوفيه محطة القنطرة يمضيان سويا آخر ما بقى لهما من ساعات اللقاء قبل أن يحين موعد قيام قطار فلسطين وألم الفراق قد بدا يحز بعنف فى نفسه :

— ستكتب لى مرتين كل أسبوع .

— بل سأكتب كل يوم ، أعدك ألا أنام قبل أن أكتب إليك قد لا أرسل الخطاب على الفور ، ولكنك ستجد أفكارى وأخبارى يوما بعد يوم فى أى خطاب يصلك .

وعاد الصمت يخيم عليهما من جديد ، وكان خالد هو أول من قطع حبل الصمت هذه المرة على خلاف العادة . . . فقال فى تردد :

— فوزى . . .

— نعم يا خالد ؟

— كنت أريد أن أحدثك فى موضوع فاطمة .

وخفق قلب فوزى ، واتسعت حدقتاه من الدهشة ، وأرهف سمعه فى انتظار مايقوله خالد ، دون أن يقول شيئا ، وظهر التردد من جديد على خالد ، وتملكته حركته العصبية التى تعيبه عن الكلام ، ولكنه لم يلبث أن سيطر على أعصابه وشرع يقول لفوزى :

— هناك شىء يثقل على ضميرى ، وأريدك أن تبلغ فاطمة عنى رسالة .

ولم ينطق فوزى بأى كلام فقد كان التوتر قد بلغ منه أشده ، ومضى خالد يقول وهو ينظر فى عينى فوزى :

— إننى أخشى أن أكون جرحت عاطفة فاطمة وآذيت شعورها وأنا أعتذر عن عرضها الكريم علىّ ، وأن أكون قد سببت لها ألما لتصورها أننى لا أحبها . . فأرجوك أن تبلغها عنى ، أنها كانت وستبقى

حبي الوحيد ، وكان الزواج منها هو الأمنية التي طالما تمنيتها ، وما أكثر ما سمحت لنفسى فى خلوتى بالاستسلام لهـذا الخاطر السعيد ، خاطر الزواج منها .

واهتاج فوزى من جديد فى شدة وعنف :

— حرام عليك يا خالد ، أن تقسو على نفسك وعلى أحبابك بهذا الأسلوب ، لقد كانت كلة واحدة من هذه الكلمات كفيلة باسعاد فاطمة وإسعادك وإسعادنا جميعا . . فلماذا ، لماذا سامحك الله أبيت إلا أن تقف هذا الموقف المتصلب ؟

— أكنت تحب أن أحرمها من زوج كالدكتور والى شرف الدين ؟

— أنت أعظم من شرف الدين ومن الدنيا كلها .

— فى نظرك أنت لا فى نظر الواقع ، لقد نذرت نفسى للجهاد ، وما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه .

— ولكنك يا خالد تجعلنى أحتقر نفسى ، فأنا متزوج وأصبح لى ولد فكأنى لا أصلح للجهاد .

— إننا لن نعود لهذه المقارنة ، لطالما قلت لك إن لديك القـدرة على أن تكون زوجا وأبا ، وتظل مع ذلك تعرض نفسك للمخاطر والسجون والاعتقالات .. أما أنا فلست واثقا من نفسى هذه الثقة ، ولست أعرف إذا كثر فى يدى المـال .. أو إذا تزوجت .. أ أظـل نفس المجاهد ؟

— كلام فارغ تقوله لتسد الطريق على نفسك وعلىّ .

— ليكن كلاما فارغا .. ولكن هذا هو إحساسى وشعورى .. ولذلك أرجوك أن تحمل الرسالة لفاطمة .

— طبعا سأحملها ، ولكن مافائدة هذا بعد فوات الوقت،لقد حدد لعقد قرانها غدا .

— ومن أجل هذا سمحت لنفسى أن أكلفك بحمل الرسالة ، إنها يجب أن تطمئن بعد أن ظفرت بالزوج الجديد بها ، أنها كانت وستبقى حبى الأول والأخير .

٤

راحت الست أم الدكتورة فاطمة تهز ابنتها التى كانت لاتزال غارقة فى النوم وتقول لها فى احتجاج :

— ما هذا يا فاطمة ؛ ليس من عادتك أن تتأخرى هكذا فى النوم، أنسيت أن اليوم هو موعد كَتْب كتابك ؟

وتثاءبت فاطمة فى أسى وقالت :

— لا ، لم أنس .

— إذن هيا قومى وانظرى ماذا فعل أخوك حسن من الاستعدادات والترتيبات .

— أى ترتيبات ... ؟ أو لم نتفق أن يتم كل شىء فى هدوء . ؟ إن وفاة أزهار لم يمض عليها عام .

— طبعا ... طبعا يا فاطمة ، لا زينات ولا تعليقات ، ولكنه على كل حال كتب كتاب .. وسيأتى العريس ومعه أقرباؤه ، وقد عزم أخوك حسن رئيس النيابة بعض زملائه ، ولذلك فقد أحضر ورودا وأزاهير وزين البيت كله ، سوف ينشرح قلبك .

وهزت فاطمة كتفيها فى عدم مبالاة لم تلحظها والدتها التى قالت من جديد :

— على فكرة ، حسن يرجوك أن تكفى عن عنادك وأن تدعى الأستاذ فوزى أو الأستاذ محي وصبرى .

ونهضت فاطمة من الفراش فى عزم وقالت فى عصبية :

— لا .. لا .. لا أحد من الحزب . ولم تلبث أن هزت كتفيها فى يأس وقالت وهى تتنهد : وعلى كل حال فالأستاذ فوزى سافر منذ الأمس .

ودخل حسن وهو مرتد بدلة السهرة « السموكن » الجديدة الأنيقة التى أصر على إعدادها لهذه المناسبة ، ولكن علامات القلق كانت تبدو على وجهه وفى صوته وهو يقول :

— أخت الدكتور شرف الدين تريد أن تحدثك فى التليفون .

وأمعنت فاطمة النظر إلى أخيها وقالت له فى دهشة :

— وما الذى يقلقك فى هذا ، لم هذا العبوس ؟

— لا أعرف ... لقد انقبض صدرى من لهجتها فى السؤال عنك.

وصدق حدس حسن ، فإن أخت الدكتور شرف الدين لم تزد عن أن تطلب من فاطمة أن تحضر على الفور لبيت الدكتور دون أن تشرح لها سبب هذه الدعوة الغريبة المفاجئة .

وعندما وصلت فاطمة إلى بيت عريسها وجدته لا يزال راقداً فى الفراش ووجهه محتقن بالحمى . وهتف شرف الدين بفاطمة بمجرد أن وقع نظره عليها :

— لقد دعوتك لنتفق على أن كل شئ يجب أن يتم فى الساعة الخامسة بعد الظهر كما اتفقنا . وسوف أتحامل على نفسى حتى يتم العقد، وأرجو ألا يكون لديك مانع من نقل الحفلة إلى هنا بدلا من عندكم .

وابتسمت فاطمة بالرغم من شحوب وجهها ابتسامة مشجعة ووضعت يدها على جبين شرف الدين فوجدته ملتهباً ، فطلبت من أخته إحضار بعض الثلج لتعد له بعض المكمدات وقالت له :

— إنك لم تعد الآن أستاذى ، أو زوجى صاحب الأمر والنهى ، إنك مريض فى حاجة إلى الرعاية ، يجب أن تهبط هذه الحرارة أولا ، ثم نفكر بعدها فيما يجب عمله من شئون .

— إنها لا تعدو أن تكون انفلونزا عارضة .

— وهذا هو ما أرجوه وأتمناه — ووضعت مقياس الحرارة فى فمه بينما كانت شقيقته قد جاءت تحمل طاقية من الثلج .

وسألتها فاطمة :

متى بدأت الحرارة ؟

— لقد شكا لى بالأمس أنه متوعك المزاج وعزا ذلك لما عاناه من مجهود وقال لى إنه سينام مبكراً ليكون على استعداد لليوم .

وعندما أخرجت فاطمة مقياس الحرارة « الترمومتر » من فم الدكتور ونظرت إليه ، لم تتمالك أن قطبت وجهها وأحست بخيبة أمل شديدة تغمرها .

وسألها شرف الدين :

— كم ؟

— مرتفعة !

— أربعون ؟

— قلت مرتفعة ويجب ألا تبرح الفراش،وسأظل هنا إلى جوارك .

— وعقد قراننا ؟

— يجب أن يؤجل،مستحيل أن تعقد العقد وأنت على هذه الحالة .

— وضيوفنا يا فاطمة ؟

— ليس فيهم أحد غريب ، وسيأتون جميعاً للسؤال عنك والاطمئنان على صحتك وسوف يقدرون .

٥

لم تستطع فاطمة طوال أسبوعين كاملين ، أن تلبي دعوة فوزى لمقابلته نظراً لانشغالها بتمريض الدكتور شرف الدين ، وعندما زارته بعد ذلك فى دار الجريدة كان أثر الإرهاق من فرط السهر ليالى متوالية باديا عليها وهتف فوزى فى دهشة :

— ما هذا .. غير معقول ، أكل هذا من أثر كتابة العقد ؟ !

— لم أتزوج بعد .

— لم تتزوجى ؟! ألم يكن محدداً لكتابة العقد يوم الخميس الأسبق؟

— ولكنه تأجل لسبب مرض الدكتور شرف الدين .

وهتف فوزى بحركة لا شعورية .

— الحمد لله .. ما أكرمك يارب .

— ماهذا ياأستاذ فوزى..إن الدكتور شرف الدين كان مريضاً جداً.

واستدرك فوزى فقال فى اعتذار :

— أنا آسف جداً .. لا تتصورى أننى حمدت الله على مرضه ، طمئنينى أولا .. كيف صحته الآن ؟

— أحسن والحمد لله .. لقد بدأت الحرارة فى الهبوط هذا الصباح، وهذا ما جعلنى قادرة على الحضور إليك فأنا التى أتولى تمريضه .

وعاد فوزى يقول :

— الحمد لله .. الحمد لله .. تصورى يا فاطمة أن الدكتور خالد يحبك حباً لا أول له ولا آخر .

ولمعت عينا فاطمة بوميض من الفرح والدهشة بينما مضى فوزى يقول:

— خالد يحبك ، حب الأساطير الذى نسمع عنه فى الكتب والروايات ، عندما يضحى الإنسان بنفسه تصورا منه أن فى ذلك سعادة من يحب .

وخفق قلب فاطمة من فرط الانفعال ، وأقبلت على فوزى بكل حواسها وقد احمر وجهها وسألته فى غمغمة :

— قل لى .. حدثنى أهذا استنتاج أم أنه قال لك .. ؟ متى .. وكيف ؟

وحدثها فوزى بحديث خالد ، وكيف كرر له أكثر من مرة أن يبلغها أنها كانت وستبقى حبه الأول والأخير ، وأنه لن يشرك فى حبها ما بقى حيا إنسانة أخرى .

وصاحت فاطمة وقد اختلطت عواطفها واشتد انفعالها :

— ولماذا كتم عنى ذلك .. لم لم يصرح به إلا وهو يغادر مصر ؟

— لقد كانت هذه هى نفس عباراتى له ، إنك تعرفين خالد فهو لم يقل ما قال إلا بعد أن أصبح متأكداً من زواجك من الدكتور شرف الدين ، وأن تصريحه هذا سيضاعف فى سعادتك ، إذ يزيل من نفسك أى شجن لموقفه منك . لقد كان يؤرقه ويؤلمه تصوره أنه ربما كان سببا فى إيلامك أو إيذاء مشاعرك .

وانفجرت فاطمة فى عاصفة من البكاء وراحت تقول :

— وهل أحبه إلا لهذا ، ولا أعدل به رجال الدنيا إلا من أجل هذا ؟! وتوقفت فجأة عن البكاء وقد لاح فى عينيها مظاهر العزم والتصميم وقالت :

— إن الوقت لم يضع بعد ، إننى أعرف ما الذى سأفعله .. صدقت يا أستاذ فوزى فيما قلت :

— الحمد لله .. الحمد لله .

٦

كانت الساعة قد شارفت منتصف الليل عند ما استلقى خالد أمين على المقعد الوثير فى الحجرة التى حجزتها له المفوضية العراقية بفندق فيلادلفيا بمدينة عمان . وكان الإعياء قد بلغ به إلى الحد الذى جعله عاجزاً عن خلع ملابسه ، فقد أمضى يوما مثيراً حافلا بالانفعالات من كل نوع وطراز ، فمن طواف بمدينة القدس والصلاة فى المسجد الأقصى ، وزيارة كنيسة القيامة ومسجد عمر المواجه لها .. ومن القدس قصد إلى عمان ، وإذ كان يعتبر نفسه سفيراً فقد قصد إلى قصر أمير شرق الأردن ووقع فى سجل التشريفات ، ولم يكد يعود إلى الفندق حتى وجد دعوة من الأمير لتناول العشاء معه هذه الليلة .

ولقد تخيل خالد نفسه وهو فى حضرة الأمير يتناول العشاء معه ، كما لو كان يشترك فى مسرحية ، فقد كان كل شىء حوله يوحى بجو المسرحية : القصر الصغير البسيط فوق ربوة الجبل ، وهيئة الأمير وملابسه التى تجمع بين الشرق والغرب وبين البنطلون والصديرى والجبة والعمامة الكبيرة المنسقة على شكل خاص وفريد ، واللحية التى تشبه أن تكون لحية أحد أساتذة السوربون .

وزاد إحساس خالد بالمسرحية وهو ينتقل — فى رفقة الأمير — إلى حجرة الطعام .

كانت المائدة كبيرة فسيحة ولكنها فى ذات الوقت بسيطة ولم يكن يغطيها مفرش أو تزينها ورود ، وجاءت أصناف الطعام لذيذة جميلة

ومتعددة ولكن فى غير بذخ . وكان يعرف أن ذلك لم يكن لفضيلة الاعتدال فى الأمير قدر مايعود إلى رقابة الإنجليز الذين فرضوا أنفسهم على مطبخه حتى لا يبعثر النقود التى يخصصونها له .

وكان يزيد من خلق جو المسرحية طبيعة « المونولوجات » التى انفرد الأمير بإلقائها ، والتى لا يمكن أن يتفوه بها بهذا الأسلوب إلا أمير مسرحى لا أمير فى الحق والواقع ، فقد كان حديثه يقطر بالحقد والكراهية للملك السعودى الذى جلس على عرش آبائه وأجداده فى الحجاز ، وكان لا يتورع عن سوق الألفاظ العنيفة وعن سرد أحلامه فى العودة إلى مكة .

وقد لاذ خالد بالصمت ، ورضى الأمير منه بذلك فراح يتدفق فى أحاديثه وفى إسماعه بعضا من أشعاره ، والدفاع عن نفسه لما يتهم به من أنه رجل الإنجليز ، وهو لا يفعل ذلك إلا من أجل خير العرب والمسلمين ، فالإنجليز هم أقرب الأوربيين إلى العالم الإسلامى ، وراح يوازن بينهم وبين الفرنسيين والألمان وما يفعلونه فى مستعمراتهم وما يرتكبه الألمان فى هذه الحرب الدائرة من فظائع .

ولم يسمح الأمير للدكتور خالد بالانصراف إلا بعد أن أوشك الليل على الانتصاف .. وإلا بعد أن تأكد أن الدكتور خالد لا يجيد لعب الشطرنج ، وإلا لأراه الأمير من فنونه ما يدهش ويثير .

واسترخى خالد على مقعده فى الفندق وهو يستعيد كل هذه الصور والأحداث ، ولم يلبث أن أغفى وخضع لسلطان النوم .

لم يعرف كم كانت الساعة عندما فتح عينيه من جديد ، فقد كان قد خلعها بمجرد عودته ووضعها إلى جوار السرير ، وكان لايزال عازفا عن القيام بأى حركة وراح يغمغم :

— إننى متعب .. إننى مجهد .

وسرح بنظره عبر زجاج النافذة الزجاجية التى تطل على مدينة عمان ، والتى لم تسكن قد هجعت كلها بعد .. كانت بعض الأنوار لاتزال تتلألأ هنا وهناك على سفوح الجبال يومض بعضها ، وينطفىء بعضها ، ويختلط بعضها بنجوم السماء فلا تميزه العين فى هذا الظلام . وأحس خالد بوحدة موحشة وتأوه فى ألم واحتجاج :

— ما الذى جاء بى إلى هنا ؟ أى واجب وطنى هذا الذى أقوم به وأنا أستمع لترهات هذا الأمير دون أن أصرخ فى وجهه بكل ماأعرفه عنه من أنه يتآمر مع الإنجليز واليهود على تمزيق فلسطين ، ألأجل أن أستمع إلى هذا الغثيان الذى كان ينطق به .. إلى هذه الشتائم يوزعها ذات اليمين وذات الشمال على ملوك العرب ورؤسائهم وشعوبهم الذين لايقدرون عبقريته ، قد تركت مصر وتركت أسرتى .. وتركت فاطمة ؟

وعاوده الانفعال فهم واقفاً وهو يقول بصوت مرتفع :

— ما كان يجب أن أترك مصر .. ما كان يجب أن أترك فاطمة .

وقصد إلى النافذة ولصق جبهته الملتهبة بالزجاج البارد فأحس لذلك براحة وانتعاش ، وغمغم قائلا :

— أواه يا فاطمة .

وراح يحدق فى الأنوار القليلة التى كانت لاتزال باقية وهى تتناقص واحدة بعد أخرى مخلفة وراءها الظلام وهو يزداد حلكة . ومضى يسائل نفسه :

— أأعود مرة أخرى إلى البيت الأخضر ؟ واستعاد صوت آلات الطباعة وهى تدور لطبع مجلة البعث ، واستعاد صورته وهو يبيع فى الجمعية التعاونية التى أنشأتها حركة البعث لخدمة الحى الذى يقيمون فيه .. وهو يدورعلى مخابئه الثلاثة فى حلوان ومصر الجديدة والخليفة كأنه زوج يطوف على نسائه . وتعاوده ذكرى هذا الحادث الخطير الذى كان يمكن أن يودى بهم لولا رعاية الله ولطفه .

ويرفع خالد رأسه عن الزجاج البارد ويفكر :

— أصحيح قد زال كل أمل كما يقول فوزى فى القيام بثورة ضد الإنجليز ، بعد أن هزموا الإيطاليين وأجلوهم عن صحراء مصر واحتلوا برقة ؟

وتنهد خالد من جديد وأحس بأنه متعب ومجهد ، وشرع فى خلع ملابسه ليشغل نفسه ، ولكن الخواطر ظلت تلح عليه وتناوشه ، فألقى بنفسه على الفراش مستسلما لها .

كانت صورة فاطمة تلاحقه ، وكان صوت لا يفتأ يصرخ فى نفسه محتجا ومؤنبا ، لماذا .. لماذا أقام بينه وبينها كل هذه الحواجز والسدود ، لماذا لم يقل لها هذه الكلمة التى كانت تحرق شفتيه كل

مرة يجد نفسه وحيداً معها ، لماذا اعتبر فكرة ضمها إلى صدره وتقبيل شفتيها جريمة دائماً ، لقد كان باستطاعته أن يتزوجها ، وأن ينعم بجسدها وبحبها وأن يستمتع بإطالة النظر إلى عينيها .. وأن يمر بأصابعه خلال شعر رأسها الناعم الفاحم الذى طالما هفا إلى مداعبته . وتلفت خالد حوله فى حسرة ، ما أفخم هذه الحجرة التى يقيم فيها .. ما أصلحها لأن تكون مقرا لشهر عسل يقضيه مع فاطمة . ودفن خالد رأسه وسط الوسائد محاولا أن يطفئ وحشته التى يحس بها ... وغمغم من جديد :

— إننى مجهد ... إننى متعب .

وأيقظه من وحشته نغمات موسيقية حملها إليه نسيم الليل، وانتعشت روحه كما لو كان مصباح قد أضىء فى حجرة مظلمة ... إنه يعرف هذه النغمات ... إنها مقدمة أحد أدوار عبدالوهاب ... ولم يلبث صوت عبدالوهاب أن ارتفع رخيما فى هدأة الليل .

طول عمرى عايش لوحدى غريب وراضى بحالى

وانحدرت بعض الدموع فى بطء على وجنتى خالد .

٧

كان أول خطاب تسلمه خالد من مصر بعد وصوله إلى بغداد هو خطاب من فاطمة ، وقد بلغ به التأثر والانفعال أشده وهو يطالع كلماتها « لماذا قسوت على يا خالد كل هذه القسوة على الرغم من قلبك الرحيم ؟ لماذا جعلتنى أحس بالثكل واليتم والتعاسة والشقاء ،

فى الوقت الذى كنت تستطيع بكلمة واحدة أن تحول ذلك كله إلى نور ورجاء وسعادة . ما الذى يخيفك منى ياخالد ...

أتتصور أننى سأعوقك عن الجهاد ؟ أو لم ينبئك قلبك أننى إنما أحبك من أجل هذا الجهاد ،وأننى أريد أن أقف إلى جوارك لأكون ردءا لك فيه ؟

أتراك فكرت فى قلة ذات يدك وأنك لن تكون قادرا على إعالتى؟ أنسيت ياخالد أننى طبيبة قادرة على أن أعول نفسى فلا أكون عبئا عليك ، أما إذا أحببت أن أتخلى عن عملى فلن أتردد لحظة . ألم ينبئك قلبك ، أو لم تفصح لك عيناى ، إننى على استعداد أن أقنع بالخبز والماء مادمت أعيش إلى جوارك وأننى زوجتك أنت ... أنت ياأحسن الناس عندى وأعظمهم » ! .

ولم يستطع خالد أن يمضى فى مطالعة الخطاب أكثر من ذلك وقد طفرت الدموع من عينيه .. لقد كان لا يزال عليه أن يلقى بعض المحاضرات ، وأن يقوم ببعض الواجبات .. ولم يكن يجدر به أن يستسلم لعاطفته وتأثره ولذلك فقد طوى الخطاب دون أن يكمل قراءته .. ومضى يقوم بواجباته .. أكثر مرحاً وتفاؤلا مما لم يفت عن ملاحظة تلامذته وزملائه الذين كانوا يحبونه الحب كله ، بالرغم من قصر المدة التى أمضاها بينهم .

وليس إلا فى آخر الليل عندما آوى إلى حجرته فى الفندق المتواضع الذى اختاره للإقامة فيه ، أن عاد إلى الخطاب يطالعه من



جديد منذ البداية .. واهتزت نفسه كما اهتزت من قبل وهو يطالع الـكلمات الجياشة الصادقة ، وخفق قلبه فى عنف وهو يقترب من نهاية الرسالة وفاطمة تقول له :

« لن أسمح لك بعد اليوم أن تمضى فى تعذيبى وتعذيب نفسك كما فعلت ، لقد شاء الله أن يحول بين تمام عقدى على الدكتور والى شرف الدين فى الموعد المحدد له ، ولم يكد الأستاذ فوزى يبلغنى رسالتك حتى استقر عزمى على ما يجب أن أفعل . ولقد تلقى الدكتور والى قرارى بما أعرفه فيه من رجولة ، لقد شكرنى أن أخبرته فى الوقت المناسب أين كانت عواطفى دائماً ، وفسخنا الخطبة وإن ظللنا صديقين ، وخلعت دبلته ، ولـكننى ارتديت دبلة أخرى نقشت عليها اسمك » .

وصرخ خالد :

— لا ... لا غير ممكن .

وكأنما فاطمة كانت تتوقع منه هذا الانفجار فإذا خطابها يمضى قائلا :

« إننى لم أكن أنتظر منك سوى كلمة ... كلمة واحدة أو إشارة لـكى أعتبر نفسى زوجتك ، فكيف بى بعد أن عرفت أننى حبك الأول والأخير .

إن مكانى الطبيعى هو حيث تـكون ، ولذلك فقد قررت أن ألحق بك فى العراق ، ولن أعدم أن أجد عملا إذا رأيت أن تؤجل زواجنا لأى سبب من الأسباب .. سوف أتخذ منذ اليوم الإجراءات اللازمة

لذلك .. ومن حسن الحظ أن أخى حسن سيعقد قرانه خلال شهرين وستعيش والدتى معه .. وهكذا لن أدعها وحيدة » .

وصرخ خالد مرة أخرى :

— مستحيل .. مستحيل أن أقبل هذه التضحية .

ولكن قلبه لم يلبث أن صرخ فيه :

— من أنت حتى تتصرف هكذا ، وكيف يجوز لك النكول عن زواجها بعد أن فسخت خطبتها من أجلك، لماذا أهرب من السعادة ، ما هذه الرهبانية التى تفرضها على نفسك ، أو لم يتزوج رسول الله .. أو لم يتزوج عمر وأبو بكر وعلىّ وكل الصحابة . . ؟ ما الذى أخافه .. ما الذى أخشاه ؟

وصرخ من جديد قائلا :

— أجل .. يجب أن تحضر .. سأجد لها عملا هنا .. وسوف نتزوج .. وسنكون سعداء وسنجاهد معاً .. سأكتب لها الآن وقبل أن أنام .

* * *

وكان أول عمل قام به فى اليوم التالى هو إيداع خطابه إلى فاطمة فى صندوق البريد وقد دعاها إلى أن تلحق به فى بغداد لإتمام مشروع زواجهما بمجرد أن يتم زفاف أخيها حسن .

الفصل الثامن

١

لم يكن منظر الجموع المحتشدة حول بعض أجهزة الراديو فى شوارع طنطا ولا اللغط الذى يلغط به الناس من أن رئيس الحكومة حمدى باشا قد سقط ميتاً أثناء تلاوته لخطاب العرش الذى كانوا يستمعون إليه ، يثير اهتمام بيومى رمضان ، فضلا عن أن يحمله على مشاركة الجماهير فيما كانت تعلق به على الحادث ، من إظهار الأسى والتفجع على الرجل الذى جاء به الملك باعتباره صديقاً للإنجليز ، فإذا هو يواصل سياسة سلفه باهر باشا فى تجنيب مصر ويلات الحرب ، على الرغم من تطور الظروف ودخول إيطاليا الحرب والأراضى المصرية نفسها .

وكان بيومى يهز كتفيه فى أسف وسخرية من هذه الخلائق الغافلة عن نعيم الذكر ، وحلاوة الأوراد والتى لا تسعد بشهود «الحضرات» التى أصبح بيومى من زبائنها الدائمين كل خميس بعد أن أصبح من سكان طنطا ومجاورى السيد البدوى .

وقد جاءت سكناه طنطا نتيجة لازمة لتعيين شاهين السلانكلى مديراً للقرعة فى الوجه البحرى بعد أن رقى إلى رتبة الأميرالاى .

وكان بيومى وهو يسير فى شوارع طنطا اللاهثة الفائرة تحت وطأة هذا الحدث ، يحمل تحت إبطه ملفاً من ملفات مصلحة الأملاك طلب مدير الغربية الاطلاع عليه .

ولم يكد يقترب من ديوان المديرية وهو مشغول بإتمام ورد مقابلة الحكام الذى بدأه منذخرج من ديوان المصلحة حتى استوقفه الشاويش عويس سائق عربة الأميرالاى شاهين :

— صباح الخير يا بيومى افندى .

وتململ بيومى لقطع الورد قبل إكماله .. فقد كان لايزال باقياً عليه أن يكرر «قيوم» خمسين مرة ، و«قهار» خمسين مرة أخرى ، ولكنه لم يكد يرى مخاطبه حتى افتر ثغره عن ابتسامة بلهاء وهتف قائلا :

— شاويش عويس ؟ أين أنتم ، ماذا تفعل هنا .. أين سعادة الباشا ، لماذا انقطع عنا طوال هذين الشهرين ؟

— اسكت .. اسكت يا بيومى افندى لقد رأينا الويل فى هذين الشهرين ، الله يخرب بيت الطليان الذين نكدوا على الناس بالغارات فى رمضان ، الشهر الفضيل . مناظر تقطع نياط القلب ، تصور يا بيومى افندى : رؤوس مهشمة وبطون مبقورة ومئات البيوت المهدمة على رأس أصحابها ، وكلما رفعنا الأنقاض وجدنا عشرات الجثث التى دهمها الموت من الرجال والنساء والأطفال ، إننى لن أنسى ماحييت منظر طفلة ميتة وهى تحتضن عروستها ، ومنظر أم ميتة وابنها يرضع من ثديها وهو يبكى .

وأشاح بيومى برأسه وقد اصفر وجهه وراح يغمغم :

— حوالينا ولا علينا يارب ، سلام قولا من رب رحيم .

ومضى الشاويش عويس يقول :

— لا أعاد الله هذه الأيام أبداً ، لقد خلت مدينة الاسكندرية وأصبحت قاعاً صفصفاً وهجرها سكانها فى فزع .

فقال بيومى :

— أجل .. أجل رأيناهم هنا مكدسين فى المحطة وحولها وفى المسجد ، لا حول ولا قوة إلا بالله .

وكأن بيومى قد ضاق بهذا الحديث فقال للشاويش عويس :

— وما للباشا والغارات فى اسكندرية ؟

— لقد انتدبوه ياسيدى لتنظيم إجلاء السكان المدنيين عن اسكندرية . من أجل وجع قلبى وقلة راحتى .

— وأين الباشا الآن ؟

— فوق عند سعادة المدير .. وكنا فى طريقنا إليكم لولا أن سمعنا فى الراديو نبأ موت رئيس الحكومة فقرر سعادة الأميرآلاى أن يقابل المدير .. والله الواحد تكدر جداً لموت رئيس الحكومة .

ولكن بيومى هز كتفيه فى عدم اكتراث ، وصعد سلالم المديرية فى تباطؤ ، فقد كان مصمما على أن يتم تلاوة ورده ، لتتم المقابلة مع سعادة المدير على خير .. ومضى يتمتم :

قهار .. قهار .. قهار ..

ودلوه على حجرة سكرتير المدير وراح يسوى طربوشه ويعدل فى رباط رقبته ، ويمسح وجه حذائه فى بنطلونه وهو لا يفتأ يغمغم :

— قيوم .. قيوم .. قيوم .

وسلم سكرتير المدير الملف المطلوب ، وسأل فى استحياء :

— أصحيح أن سعادة الأميرالاى شاهين السلانكلى موجود لدى سعادة المدير ؟

وفوجئ السكرتير بهذا السؤال وقطب حاجبيه فى دهشة وغضب :

— وما لك أنت والأميرالاى السلانكلى إذا كان موجوداً أو غير موجود ؟

فاحمر وجه بيومى خجلا وقال فى تلعثم :

— معذرة .. لا تؤاخذنى .. المسألة اننى .. قرابة من بعيد .. أنا محسوب سعادة الباشا .

وتوقف سكرتير المدير لحظة وظهرت على وجهه ابتسامة غامضة كما لو كان قد اكتشف أمراً ، وسأل بيومى فى صوت تشوبه السخرية والازدراء .

— ما اسمك ؟

— بيومى .. بيومى رمضان .

— أنت الموظف بمصلحة الأملاك ؟ ثم أضاف قائلا فى احتقار

« تشرفنا » كنت أرغب أن أراك من زمن بعيد فقد سمعت عنك .

وقال بيومى فى فرح وابتهاج :

— لا بد أن حدثك عنى أحد إخواننا فى الطريقة الشاذلية . هل حضرتك شاذلى ؟

وضحك السكرتير فى سخرية واحتقار أكثر :

— لا ياسيدى ، لم أتشرف بأن أكون شاذلياً ولا بيومياً ، وإنما سمعت عنك ما قلته الآن بنفسك من أنك محسوب شاهين السلانكلى ، شى الله ياسلانكلى . أتحب أن أبلغه أنك موجود هنا

فأطرق بيومى واحمر وجهه خجلا وقال :

— إذا سمحت ، فقد مضى شهران لم نره خلالهما .

ولم يكد السكرتير يختفى فى حجرة المدير ، حتى سمع بيومى قهقهة شاهين المجلجلة ، وإن هى إلا لحظات ، حتى كان باب المدير يفتح على مصراعيه فى عنف ويظهر شاهين على عتبته بقامته الضخمة وشنبه المبروم ووجهه الذى يتفجر منه الدم ، وجذب بيومى من يده وهو يقول :

تعال سلم على سعادة المدير .

وأوشك بيومى أن ينكفئ على وجهه من هول الموقف لولا أن شاهين كان ممسكا بيده ، وانكب على يد سعادة المدير يقبلها فى شدة وحرارة . وابتسم المدير فى وجه بيومى وسأله :

— أنت الذى أحضرت هذا الملف ؟

— نعم يا سعادة الباشا .

— وماذا تعمل فى مصلحة الأملاك ؟

— فى الأرشيف يا سعادة الباشا .

— وكم راتبك ؟

وتدخل شاهين قائلا :

— ثمانية جنيهات فقط ، مع أن حسان بك كان قد وعدنى أن يرفعها إلى عشرة ، ثم نكل وقال لى فى الميزانية الجديدة .

فقال المدير :

— ننقله نحن عندنا من أجل خاطرك يا شاهين بك وندفع له الجنيهات العشر ، يبدو عليه أنه ابن حلال .

وعاد بيومى يقبل يد سعادة المدير ويبللها بدموع الشكر ، لينتقل منها إلى تقبيل يد شاهين ، وهو يهتف من أعماق روحه :

— قيوم ... قيوم . . . قيوم .

٢

نفذ شاهين السلانكلى مشروعه الذى اقترحه على بيومى وزوجته ، وهو أن تضع حملها فى عزبته القريبة من طنطا . ورزق بيومى بولد ذكر ، لم يغب على الداية المولدة من أهل عزبة الباشا ، وجه الشبه بين

أذنيه ويديه والباشا ، وقالت فى ضحك وتخابث : إن عطيات لأبد أن تكون قد توحمت على الباشا .

وانتهز شاهين السلانكلى فرصة سبوع ميلاد محبوب وهو الاسم الذى اختاره للمولود ، لكى يقيم حفلا من هذه الاحتفالات الصاخبة التى اعتاد أن يقيمها من حين لآخر فى عزبته مع فلاحيه .

ولم يكن لاشتعال الحرب من جديد فى أوروبا وما حملته الأخبار من هجوم الجيوش الألمانية على يوغوسلافيا واليونان وصدور الأمر لسلاح الجو الألمانى بمسح مدينة بلغراد من الوجود ، وما ترتب على ذلك كله من عودة التوتر إلى مصر واحتمال هجوم الجيوش الألمانية عليها ، أى أثر فيما رسمه شاهين السلانكلى من خطة وبرنامج للاحتفال ، فلم يحل المساء إلا وكانت « كلوبات » الغاز تحول ظلام الليل إلى نهار . واحتشد السامر وعزفت موسيقى الطبل البلدى الذى جيء بها من طنطا ، وكانت نجمة الحفلة غازية دسوق المشهورة والتى راحت تخلب الألباب وتفتنها برقصها وحركاتها المثيرة .

وكان بعض الرجال والشبان من فلاحى العزبة المحتشدين يتحرقون شوقا الى الإستمتاع بجسد الغازية بعد انفضاض السامر ولكن نظرة واحدة منهم إلى وجه الباشا الذى كان يتوسط عقدهم ، تبسطا منه وتواضعا ، كانت كافية لإبعاد هذا الخاطر عن خيالهم ، فقد كان الباشا الكبير لا يحاول إخفاء إعجابه وافتتانه بالغازية ، بل ولا يحاول الاقتصاد فى اظهار مشاعره . فكان يصفق لها بكفيه على سبيل الايقاع ، وكان

يتمايل مع تمايلها ويوجه لها من حين لآخر كلمات الإعجاب والثناء على جسدها وشقاوتها . وكانت الغازية اللعوب من ناحيتها تذكى نيران شوقه، فتتمايل عليه فى حركات خليعة وتسمعه بعض العبارات المثيرة عن رجولته وفحولته .

وغمز الطنانى خولى العزبة ، الشيخ الدسوقى كبير مستأجرى أرض الباشا والذى كان يجلس إلى جواره وقال له :

— صاحبنا الباشا متسلطن جدا .

وأسرع عبد العزيز الطالب بمعهد طنطا يقول :

— كما هو شأنه دائما كلما جاء إلى هذه العزبة حيث يقلبها إلى ماخور ، متى يخلصنا الله من هذا الرجل الفاجر وأمثاله ؟

ونظر الطنانى حوله فى رعب وفزع خوفا من أن يكون أحد قد سمع كلام عبد العزيز ، ولكنه وجد الجميع مستغرقين فى تتبع حركات الراقصة المثيرة ، ووجه حديثه إلى عبد العزيز منتهرا إياه :

ما هذا يا عبد العزيز ، هل جننت ، ألن تكف عن هذه الهوسة ؟ ثم وجه حديثه إلى والده الشيخ الدسوقى قائلا :

— احذر يا شيخ دسوقى أن يعرف الباشا أن ابنك يريد أن يؤلف شعبة لحزب البعث فى العزبة ، إن هذه تكون مصيبة علينا جميعا .

فقال الشيخ الدسوقى :

— أولادنا معذورون يا طنانى . . . أترضيك هذه الأعمال ؟

وقطع عليهم الحديث اشتداد الضجيج والصخب فاسترعى ذلك

انتباههم ، فإذا الغازية قد شرعت تداعب بيومى رمضان باعتباره والد العريس المولود ، فراحت ترتمى عليه وهو يتقاصر فى نفسه من فرط الخجل والحياء وقد اصفر وجهه وارتعش بدنه ، دون أن يجرؤ على القيام بأى حركة توقف الغازية ، خوفا من الباشا وتأدبا فى حضرته .

وأطلق السلانكلى إحدى ضحكاته المجلجلة ثم قال للغازية وهو يفتل شاربيه :

— دعيه وشأنه يا دلال ، مالك أنت والكتاكيت التى لم تخرج من البيضة ، لا تعدلى عن الفرخ إلى الكتكوت .

وضج المحتشدون بالضحك ، بينما كانت الغازية تشهق وتزفر وتصيح فى خلاعة :

— أموت أنا فى الفرخ والديك .

ومرة أخرى صفق الفلاحون وضجوا من فرط الابتهاج والسعادة.

وجاء الدنجاوى العملاق شيخ خفر الباشا وصفيه ويده الباطشة فى العزبة وكل ما يحيط بها ، جاء يفرق الصفوف وهو يحمل إبريقا من الشاى وقدحا . حتى إذا اقترب من الباشا قال له :

— الشاى ياسعادة الباشا .

وغمز له السلانكلى بطرف عينيه وقال :

— عسى ألا تكون قد نسيت إضافة نقط الدواء التى وصفها الطبيب لى !

فقال الدنجاوى :

— أمال ياسعادة الباشا . . . وهل من المعقول أن أنسى ، ربنا يجعل لياليك كلها أنسا وأفراحا .

ومال الطنانى على الشيخ الدسوقى وقال له :

— أتعرف ياشيخ دسوقى . . . إن هذا الشاى ليس إلا خمرا ! ؟

وانتفض الشيخ الدسوقى من الغضب وقال :

— أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، سلام قولا من رب رحيم . حرام عليك ياطنانى أن تظن هذا الظن ياابنى .

وأسرع الطنانى يقول :

والله العظيم خمرة . . . أما سمعته يسأله إذا كان قد أضاف الدواء إلى الشاى ، هذا هو « السيم » المتفق عليه . . . لطالما قدمت أنا نفسى هذا الإبريق وهو ملىء بالخمر ، وأنا أستغفر الله العظيم وأطلب منه أن يتوب على من هذا الذل .

وهتف عبد العزيز :

— إن الله لا يرضى بهذا الجبن ، إن الله يطلب منا أن نقاوم المنكر بأيدينا .

وأسرع والده الشيخ الدسوقى يهدىء من ثائرته ويقول له :

— مهلا يا عبد العزيز يا ابنى ... لقد أمضيت من قبلك فى الأزهر عشر سنوات ، إن الإنكار باليد لا يكون إلا على القادرين . . . أما نحن فضعفاء وحسبنا الإنكار بقلوبنا .

فصاح عبد العزيز محتجا :

— لو ملأنا قلوبنا بالإيمان لما خفنا من أى مخلوق .

ومن جديد حدث هرج ومرج وارتفع الضجيج والصخب فانتهز الطنانى هذه الفرصة ومال نحو الشيخ الدسوقى وقال له :

— أتعرف يا شيخ دسوقى أن أم السعد الداية قالت لى إن عطيات زوجة بيومى أفندى عشيقة الباشا وهى تقسم أن المولود الجديد هو ابن الباشا .

وانتفض الشيخ الدسوقى ، وراح يحوقل ويبسمل ويستغفر الله ... ثم قال فى غضب :

— اسمع يا طنانى أنت تعرف أننى لم أرض فى أى يوم من الأيام أن أخوض فيما تخوضون فيه من سيرة الباشا . . . أنا رجل فى حالى ولا دخل لى بهذه الأمور وربنا يسترعلينا جميعا ويتوب على كل عاص .

ولكن الشيخ دسوقى لم يكد يتم عبارته ، حتى فوجىء بابنه عبد العزيز يندفع وكأنه إعصار نحو الباشا ، وينتزع من يده على حين غرة فنجان الشاى الذى كان يشرب به ويشم ما كان فيه ، ثم لا يلبث أن يصيح فى الحاضرين الذين كانوا جميعاً مذهولين تحت وقع هذه المباغتة ، ولم يكن الباشا والدنجاوى وفرقة الموسيقى والرقص بأقل ذهولا من الآخرين :

— أتعرفون ماذا يشرب سيدنا الباشا أيها المسلمون الطيبون . . . إنه يشرب الخمر ... يشرب الخمر على رؤوس الأشهاد .

وأهوى شاهين بكفه الغليظة على وجه عبد العزيز وقد راح يصرخ في انفعال وغضب بعد أن زال عنه عنصر المباغتة :

— اخرس يا كلب ، لا بد من قتلك .

وسقط عبدالعزيز من شدة اللطمة ، وركله شاهين بقدمه فى عنف ، بينما كان الدنجاوى شيخ الخفر يرفع « دبشك » البندقية عاليا ليهوى بها على رأس عبد العزيز ، ولكن الشيخ الدسوقى ، الذى كان قد أدرك منذ لحظات أن ابنه يوشك أن يقتل ، أسرع فارتمى بجسده عليه ، بينما كان بعض الفلاحين الآخرين قد أمسكوا فى الوقت المناسب يد الدنجاوى ليحولوا دون تهشيم رأس عبدالعزيز . وارتفعت بعض الأصوات :

— فى عرضك ياباشا ... لا تلوث يدك بدم ولد مجنون .

وساد الهرج والمرج وارتفع اللغط ، وتعالت بعض الصرخات من هنا وهناك ... وتمالك شاهين السلانكلى نفسه فقال للدنجاوى :

— انتظر يادنجاوى حتى نعرف ماهى الحكاية ، من هذا الولد يا شيخ دسوقى . . . ماهى حكايته ؟

— إنه ابني . . . ابني ياباشا .

وصاح شاهين وقد استولى عليه الغضب من جديد .

— هــذا غير معقول .. ! ابنك أنت .. ابنك أنت يعتدى على ويتحدانى ولحم أكتافكم من خيرى .. ؟ !

وتدخل الطنانى محاولا تهدئة الموقف :

— الله يجازى أولاد الحرام، يا باشا .. لقد لعبوا برأسه وأغووه وضموه لهذه الجماعة المهووسة التى كانت تكسر الخمارات .

وصعق شاهين السلانكلى لهذا النبأ وقال فى ذهول :

— جماعة الولد المجرم فوزى السيد ؟

وصاح عبد العزيز :

— فوزى السيد ليس مجرما ، إنما المجرم من يقول عنه ذلك .

وراح شاهين يركل عبد العزيز من جديد بقدمه ولكن أكثر الضربات كان يطيش أو يصطدم بوالده الشيخ الدسوقى .

وارتفعت الصيحات وتعالى الصراخ من جديد ، والدنجاوى يضرب فيمن حوله ممن يحولون بينه وبين الفتك بعبد العزيز .

وأحس بيومى رمضان ، الذى بوغت بهذا المشهد فظل فى بادئ الأمر مشلولا عن القيام بأى تصرف ، بحرارة تسرى فى دمه ، وبنفسه تتصلب ، وبنفور من الباشا ورغبة تتملكه فى أن ينقذ هذا الشاب المسكين من المصير الذى يتهدده .. فأمسك بيد الباشا وقال له :

— اعمل معروف ياسعادة الباشا من أجل خاطرى .. وخاطر ابنى المولود .. أنسيت ياباشا أن هذا سبوع « محبوب » وأن الليلة ليلة فرح ولا يجب أن تتحول إلى غم ؟

فقال شاهين :

— أو لم تسمع ماذا يقول هذا الكلب المجرم ؟

فقال بيومى وقد واتته جرأة لا عهد له بها من قبل :

— طيش .. طيش شباب اتركه لى يا باشا وسأتولى أمره .

فقال شاهين :

— شريطة أن لا يبيت الليلة هو أو أبوه فى العزبة .

وصاح الدنجاوى :

— يبيتون بالعزبة ؟ والله العظيم أشرب من دمهم .

وأسرع الطنانى الذى تشجع بتدخل بيومى ، فأنهض الشيخ الدسوقى وابنه عبد العزيز الذى كانت الدماء تسيل من أنفه ، ولم يكد يقف حتى امتدت يد الدنجاوى لتضربه بعنف على قفاه ، فزاد ذلك من غزارة الدم المتفجر من أنفه ، وقال الدنجاوى :

— حضرتك عامل راجل ؟

فرد عبد العزيز فى تحدّ :

— أنا رجل رغم أنفك يا مجرم .

وهاج الدنجاوى وهاجت الناس من جديد ، ومرة أخرى تدخل بيومى قائلا :

— اعمل معروف يا باشا أمن أجل ولد أرعن مجنون نعكر صفو الحفلة .. !

وقهقه شاهين فجأة وقال :

— عندك حق يا بيومى ، سأعرف فيما بعد كيف أؤدب هذا الولد ، سوف آخذه فى الجيش المهم أن تبعده الآن من أمام وجهى . . وأنت يا طنانى .. أنت مسئول عن طرد هذا المجرم وأبوه وعائلته فلا ينامون الليلة فى العزبة .

والتفت نحو الدنجاوى بعد إصدار هذه الأوامر فى محاولة لنسيان ما حدث وصاح قائلا ..

— خلاص .. خلاص يا دنجاوى .. املأ لى كأساً من الويسكى وليحيي أبو نواس .

وجلجلت ضحكته من جديد . . وطلب من فرقة الطبل البلدى أن تستأنف عزفها ، وأسرعت دلال الغازية تسترد الأرض التى فقدتها وتستعيد سلطانها على الباشا المخمور .

وقال الطنانى لعبد العزيز بعد أن كانوا قد ابتعدوا عن مكان الواقعة وأوقفوا نزيف الدم من أنفه .

— أعملتها ياعبد العزيز أهكذا تخرب بيت أبيك وتعرض حياتك وحياته للخطر ؟

فقال عبد العزيز :

— الدنيا ليست فوضى .. فيه قانون .. وفيه محاكم .

وعاد الطنانى يقول فى سخرية وإشفاق :



— لا تكن أبله ، من الذى سيمكنك من الحاكم .. إن رصاصة من الدنجاوى هى التى ستحسم القضية .. اعمل معروف يا عبد العزيز اعقل ..

وصاح عبد العزيز يخاطب جمهور الفلاحين الذى كان ملتفاً حوله ينظر له فى عطف وإشفاق .

— هذا هو الخوف الذى يملأ قلوبكم ، لقلة إيمانكم بالله ، أنا لن أترك العزبة ولن يتركها أبى وسنرى ماذا يستطيع الباشا أن يفعل .

وهنا تدخل الشيخ الدسوقى قائلا :

— اسمع يا عبد العزيز ، أنا رجل مؤمن وموحد بالله .. وأعرف ان لا مفر من قضاء الله .. وقد اعتبرت ما حدث منك الليلة بقضاء الله وقدره ، ولكنى لا أسمح لك أن تتمادى فى هذا التيار ، لقد كدت تهلكنى وتهلك نفسك برعونتك لولا أن أنجانا الله على يد هذا الرجل الطيب بيومى أفندى ، والتفت نحو بيومى أفندى الذى كان يجلس معهم صامتا كئيباً وقال له :

— ربنا يا ابنى يستر عليك ولا يشمت فيك عدو .

وارتجف بدن بيومى تحت تأثير هذا الدعاء .. وأحس لأول مرة فى حياته بأن له كياناً وشخصية فقال وقد احمر وجهه من الخجل :

— العفو .. العمل عمل ربنا .

فقال الطنانى :

— ونعم بالله ، ولكنه يسبب الأسباب ، الحق أنه لولا تدخلك يا حضرة الأفندى ، لما علم غير الله ما الذى كان الدنجاوى سيفعله ، إنه مجرم عات يا سيدنا الأفندى لا تساوى حياة الإنسان عنده أكثر من فرخة ، وإنى أرى أنه لم يعد للشيخ الدسوقى وأسرته مقام فى العزبة ومن الخير لسلامتهم أن يبرحوا العزبة هذه الليلة .

فقال بيومى :

— أجل يا شيخ دسوقى لا مانع من تفادى الزوبعة على الأقل هذه الليلة ، وأتعهد لكم أنا بإصلاح الحال .. وسأجعل الباشا يسامح عبد العزيز بمجرد أن يعتذر له .

— أنا أعتذر لهذا الرجل .. والله لو قطعتم رقبتى .

وأحس بيومى بروح من الإعجاب لا عهد له بها من قبل تملأ نفسه بهذا الشاب الذى يسترخص الحياة فى سبيل مبدئه ..

وامتلأت نفسه بأحاسيس غامضة ، وراح الدم يجرى فى عروقه بسرعة غير عادية ، وهو يرقب خروج أسرة الشيخ الدسوقى ناجية بنفسها من غضب الباشا والدنجاوى . ولم يلبث أن سأل الطنانى :

— أصحيح ماقلت من أن عبد العزيز هو من إخوان فوزى السيد ؟

— نعم يا سيدى أولاد مهاويس ، يريدون أن يهدوا الدنيا ، ولا يرضون عن أحد ، وقد رأيت بنفسك كيف يتحدى هذا المجنون رجلا يهد الجبال ، وعلى رأى من قال تروح فين يا صعلوك بين الملوك .

ولمعت عينا بيومى ببريق غامض وقال فى شىء من الزهو لطنانى :

— تعرف يا طنانى أنا قابلت فوزى السيد هذا وسافرت معه إلى الإسكندرية .

— يا شيخ ؟ ..

— والله العظيم .. كانت عربته قد انقلبت به وهو عائد من الإسكندرية فى الطريق إلى مصر ، ولكن الله نجاه هو وزوجته ومن كان معه وأوصلناهم نحن بعربة الباشا .

— يا سلام ؟ ! وما شكله فوزى السيد هذا لابد أن يكون مارداً عملاقا كالجبل ! ؟

وابتسم بيومى وقال فى شىء من الزهو :

— أبداً .. أبداً ياطنانى .·. إنه بسيط جداً .. وفى مثل حجمى

ونظر طنانى إلى حجم بيومى الضئيل وشكله الذابل ، ودارت فى رأسه الأحاديث التى تتردد عن أن زوجته عشيقة الباشا ، فإذا هو يغمغم :

— مش معقول .. مش معقول .

٣

كانت أحلام الدكتورة فاطمة فى السعادة ، تقترب بسرعة نحو التحقق باقتراب شهر مايو من عام **١٩٤١** فقد تحدد موعد زفاف أخيها حسن ، وكانت قد فرغت من إعداد كافة الأوراق واتخذت الإجراءات اللازمة للسفر إلى بغداد . وبدأت فى مطلع شهر أبريل تعد الأيام

والساعات التى لا تزال تحول بينها و بين الانطلاق نحو حبيبها المعبود فى بغداد .

ولكنها فوجئت بأحداث صارخة تقع فى العراق ، فقد قامت قوات من الجيش بخلع الوزارة القائمة وأعادت إلى الحكم الكيلانى ، وفر الوصى على عرش العراق من بغداد ، ولاح على الأفق صدام يوشك أن يقع بين الإنجليز وحركة التحرير الجديدة .

وبدأت فاطمة تتابع الإذاعة العراقية فى لهفة ووجل ، فإذا هى تفاجأ ذات صباح بالمذيع العراقى يعلن عن مهاجمة الجيوش البريطانية ، للجيش العراقى المرابط حول قاعدة الحبانية ، ووقوع الاشتباك المسلح بين الجيشين. واصفر وجه فاطمة وهى تسمع إعلان الحكومة العراقية أنها تعتبر نفسها فى حالة حرب مع انجلترا ، فقد أدركت على الفور أن أملها فى السفر إلى العراق قد قضى عليه ، فارتمت على مقعدها والدموع تنحدر من عينيها غير ملقية بالا للهتافات والأحاديث المتفجرة التى كان المذياع يهدر بها ، على أنها لم تلبث أن وثبت من فوق مقعدها كما لو كانت مست بتيار كهربائى ، فقد دوى فى الحجرة صوت الدكتور خالد وهو يخطب فى المذياع .

وراحت تنتفض تحت وقع كلمات خالد وصوته .. وسرعان مانسيت كل شىء ، نسيت خيبة أملها وأحزانها ، نسيت المخاطر التى باتت تحدق بحبيبها وأقبلت تستوعب كل كلمة يتلفظ بها خالد ، وكل نفس وكل نبض .. لقد أيقنت أنها الوحيدة التى تسمع حديث خالد فى هـذه

اللحظات ، وأنه قد وقع على عاتقها أن تكون هى التى تحمل رسالته ونداءه لبقية الإخوان . وفكرت أن تستعين بورقة لتكتب ما تسمع ولكن خوفها من أن تفلت منها كلمة جعلها لا تستطيع التحرك من جوار الراديو ، وإذ كانت الإذاعة مشوبة بالاضطراب وعناصر التشويش ، فقد ألصقت أذنها بسماعة الراديو ، وحبست أنفاسها ، وهى تلتقط العبارات التى كانت تنقطع من حين لآخر وتعلو وتنخفض .

— إن الساعة التى طال انتظارنا لها قد دقت .

— على العالم العربى كله أن يغضب وينهض قوياً فى الأرض ليحطم قيوده .

— إننى أهيب بإخوانى أن يتحركوا ..

— لتكن عود الثقاب الذى يشعلها ناراً تحرق المستعمر .

وزاد التشويش على الإذاعة فلم تعد تسمع شيئاً .. ولكنها لم تلبث أن سمعت المذيع يقول :

« سمعتم أيها العرب نداء الدكتور خالد أمين وكيل حزب البعث المصرى والأستاذ بكلية المعلمين ببغداد ، والذى كان أول من تطوع بنفسه فى الجهاد ضد الإنجليز فارتدى الملابس العسكرية . ومضى المذيع يقول .. وقد تلقى رئيس الحكومة العراقية برقية تأييد من الأستاذ فوزى السيد رئيس حزب البعث المصرى وهذا نصها .. ولم تستطع فاطمة أن تسمع ما جاء بعد ذلك فقد زاد التشويش والاضطراب ..

ولم يكن لديها شك ، أن هذه البرقية من صنع الدكتور خالد نفسه ، إذ لا يمكن أن يكون فوزى السيد قد علم بعد بقيام الثورة .. وأسرعت فى اهتياج نحو التليفون لتروى لفوزى هذه الأنباء الخطيرة .

٤

كانت أنباء ثورة العراق قد ألهبت الجو فى البيت الأخضر ، وكان أعضاء مجلس الجهاد قد أسرعوا من تلقاء أنفسهم ليتباحثوا فيما ينبغى عمله ولما يمض على سماع النبأ بضع ساعات . ودق جرس التليفون فى مكتب فوزى فأمسك بالسماعة وهتف قائلا :

— المجد لمصر .

ورد عليه صوت وإن بدأ هادئاً ولكنه كان يخفى انفعالا شديدا ..

— حانشرف ! ؟

ولم يزد المتكلم حرفا واحداً على هذه الكلمة الغامضة المرتعشة المتباطئة : « حانشرف » وأغلق التليفون .

وأحس فوزى كما لو كان قد لدغ فوثب واقفاً ، قبل أن يعرف عقله الواعى سبباً لذلك ، أو ما تعنيه هذه الكلمة .

إنه يعرف هذا الصوت ، إنه لا يمكن أن يخطىء هذه النبرات إنها صوت علام ضابط القسم السياسى المخصص لحركتهم ، والذى طالما جاء لتفتيش بيوتهم والقبض عليهم .

ومن جديد دوت فى أرجاء نفسه وهزتها هزاً الكلمة الغامضة كما لو كانت قنبلة تنفجر :

— حانشرف .

إنها لا تعنى سوى شىء واحد ، لقد سمع الإنجليز إذاعة العراق لقد سمعوا نداء خالد ، فاتصلوا برئيس الحكومة الجديد صنيعتهم وطلبوا منه أن يقبض عليه ، وقد أراد علام أن يجامله لأمر ما ، فيخطره سلفاً بهذا النبأ .

لم تستغرق هذه الخواطر كلها فى نفس فوزى أكثر من بضع ثوان ، كان ينظر إليه فيها الأعضاء المحتشدون حوله فى دهشة ، ولم يلبث أن قال لهم فى لهفة :

— البوليس قادم لاعتقالنا .. يجب أن تنصرفوا فى سرعة وهدوء ، لا ينبغى أن يقع واحد منكم فى أسر الاعتقال .. إننا فى حرب ، حيث لا قوانين ولا أنظمة ، ولا نعرف ماذا يمكن أن يحل بنا ، فيجب أن نبقى أحراراً طلقاء لنقوم بدورنا فيما لو اشتعلت فى البلاد ثورة .

وانطلق فوزى على أثر هذه الكلمات كما لو كان قذيفة .. وأسرع يبتعد عن دار الجريدة بأسرع ما يستطيع ، وعندما وقع بصره على سيارة أجرة استقلها وطلب من السائق أن يتوجه إلى بيته فى القصر العينى ، فقد أحس أنه يجب أن يذهب إلى البيت ليودع وفاء ويقبل خالد الصغير ويتزود ببعض الملابس والنقود والحاجيات الضرورية مادام قد انتوى أن يختفى عن أعين السلطات .

على أن السيارة لم تكد تقترب من الشارع الذى يقع فيه البيت حتى مرّ فى رأسه خاطر جعل الدم يفر من وجهه وقلبه يخفق ، لم لا يكون البوليس الآن فى انتظاره فى البيت بالذات ليعتقله ؟.. فأسرع يلقى بأوامر جديدة أكثر احتياطاً . وهو أن يقصد بيت والده . واستقبله والده الذى كان قد بدا يساير فوزى فى جهاده بعد أن أحيل إلى التقاعد هاشاً باشاً وهنأه قائلا :

— مبروك يا فوزى ثورة العراق .

— الله يبارك فيك يا والدى ، ولكن الانجليز لم يضيّعوا وقتاً هذه المرة ، لقد أخطرت أنهم سيقبضون علينا .

وانزعج الوالد وارتج عليه ثم قال فى احتجاج وسخط :

— يا سبحان الله .. يا سبحان الله . ربنا يحرق الانجليز ويخلصنا منهم .. وراح يضرب كفاً على كف .

ولم يلبث الرسول الذى بعث به إلى البيت أن عاد يحمل أنباء مثيرة ، فالبوليس يحاصر البيت بالفعل ويجلس أحد الضباط فى حجرة الصالون فى انتظار وصول فوزى ، وهو لا يشك فى أن فوزى سيصل إلى البيت عند الظهر لتناول الغداء ، وسوف يرحب بالقبض عليه كما هو شأنه دائماً .

والتهم فوزى بعينيه الكلمات التى كتبتها له وفاء رداً على خطابه :

« أحسنت صنعاً بعدم حضورك إلى البيت فالجماعة فى انتظارك .. وقد ذهب فريق آخر إلى إدارة الجريدة . أتوسل إليك يا فوزى لا من أجل نفسك ، ولا من أجلى أنا ، بل من أجل خالد الصغير أن تحافظ

على نفسك ، وأنا دائماً رهن إشارتك وطوع امرك .. ماما تسلم عليك وتدعو لك وتبلغك أن قلبها معك ، أما خالد الصغير فهو يقبل يديك ويرفع عينيه إلى السماء داعياً لك بالنجاح والتوفيق » .

وبكى والد فوزى وبكت زوجته وهما يسمعان هذا الخطاب .. بينما جمدالنوتر الذى كان يعانيه فوزى ، الدموع فى عينيه . وقال والدفوزى:

— إلى متى يا بنى تعيش فى هذا العذاب ، الذى كلما امتدت به الأيام لا أرى طائلا من ورائه؟ .. أنسيت أنك لم تعد صغيراً وأنك أصبحت رب أسرة وواجبك المقدس هو أن تفكر فى زوجتك وابنك . ماذا عليك لو طلقت السياسة وتفرغت لعملك فى المحاماه . إن الدنيا كلها تقول إنك لو تفرغت للمحاماه لكسبت الألوف ولوصلت بك إلى كرسى الوزارة .

وقال فوزى لوالده وقد انتابته موجة من الضعف والتخاذل .

— ليتنى كنت أستطيع فعل ما تشير علىّ به ، ولكن هل تدع الحوادث لى اختيارا .. هل كنت أنا الذى أشعلت ثورة العراق ، هل أنا الذى أوعزت للحكومة أن تبادر باعتقالى ؟

— الحكومة معذورة يافوزى ، والانجليز معذورون ما دمت لا تنفك تفكر فى الثورة وتعمل على إشعال نيرانها . لماذا لا تطاوعنى وتسمح لى أن نبذل مساعى عند رئيس الحكومة الجديد حسنين يسرى ، إنه قريب والد صاحبك شكرى ، وباستطاعته أن يضمن تعهدك بعدم الاشتغال بالسياسة فلا تعتقل . وصاح فوزى :

— أعوذ بالله .. أى سياسة تلك التى أعتزلها ، وهل أنا سياسى ؟ إننى صاحب مبدأ وعقيدة ، فكيف يتخلى الإنسان عن عقيدته . لقد انخرط خالد فى ثورة العراق بناء على هذه العقيدة ، وهو يعرض نفسه الآن للموت والاستشهاد من أجل هذه العقيدة ، أفتحب لابنك أن يغدر بإخوانه ويتخلى عن عقيدته التى ضحى من أجلها من ضحى واستشهد من استشهد ؟

ومسح الأب دموعه بكم يده وقال متنهدا :

— ماذا تريد منى أن أقول لك ، وقد جرح قلبى وأنت تطالع رسالة وفاء .

— وأنا ايضا كان قلبى ينزف . . . إنها لحظة ضعف ولكنها مرت والحمد لله ، إننى الآن مستعد . . . استودعكم الله .

وحار الأب لا يعرف ماذا يفعل ولا كيف يتصرف وسأل فوزى :

— ألا يمكنك البقاء هنا ؟

وضحك فوزى وقال :

— إن الذى حال بين البوليس وبين الحضور للتفتيش عنى هنا ، إعتقاده أننى سأذهب إلى البيت بمجرد سماعى نبأ رغبتهم فى القبض علىّ ، ولا يكادون يشكون فى أن العصفور قد طار هذه المرة من أيديهم حتى يجن جنونهم ويقلبوا الدنيا بحثا عنى .

واستقل فوزى سيارة أجرة أسرعت تبتعد به عن منطقة الخطر .

٥

كان قد مضى شهر منذ صدر الأمر باعتقال فوزى و بعض إخوانه ، دون أن يتمكن البوليس من إعتقاله أو اعتقال صبرى أو غيره من الأعضاء البارزين .

وكان صبرى يختفى فى بيت صديق له من الفنانين . ودوى ذات صباح فى ساعة مبكرة جرس الشقة التى كان يقيم فيها ، وانخلع قلبه ونهض من الفراش مذعورا فلم يشك أن الطارق فى هذه الساعة المبكرة لا يمكن إلا أن يكون البوليس . . . إنه لايمكن أن يكون صاحب الشقة فإن لديه مفتاحا وهو لايحتاج لقرع الجرس ، ولا يمكن أن يكون بائع الصحف أو اللبن أو الخبز فلم يعتد أحد من هؤلاء أن يطرق الأبواب قبل الخامسة صباحا .

وعاود الجرس رنينه المفزع ، وأحس صبرى بنفسه كما لو كان فأرا فى مصيدة ومع ذلك فقد كان يجب أن يعمل شيئاً . . يجب أن يتحرك . وسار على أطراف أصابعه حابسا أنفاسه واقترب من باب الشقة ، فسمع صوتا يغمغم فى يأس :

— إنه ليس هنا .

ولجأ الطارق كإجراء أخير قبل أن ينصرف فيما يبدو ، فوضع فمه على ثقب الباب وراح يهتف بصوت خافت :

— يا أستاذ صبرى . . . يا أستاذ صبرى ، أنا عبد الحكيم .

وكاد صبرى يصرخ من شدة الفرح ، فلم يكن الطارق سوى مجاهد صديق ممن يعرفون سره ويتصلون به ، وأسرع يفتح له .

وتنهد عبد الحكيم فى ارتياح وهو يغلق وراءه الباب :

— الحمد لله كدت أيأس من وجودك هنا .

— سامحك الله ، لشدما أفزعتنى .. لم يكن لدى شك فى أنك البوليس .

— على كل حال اطمئن فلن يغيب عنا البوليس طويلا .. مصيبة .. مصيبة يا صبرى .. عزيز باشا . . .

وامتقع وجه صبرى :

— ماله ؟

— حاول أن يفر من مصر ويلحق بالألمان فى ليبيا بمعاونة اثنين من الضباط الطيارين فاستقلوا طيارة عسكرية من ألماظة ولكن القدر أبى إلا أن تسقط الطائرة فى بنها .

— هل مات ؟

— لا والحمد لله .

— وكيف عرفت الخبر ؟

— جاءنى ثلاثتهم إلى البيت منذ ساعتين ، وطلبوا منى أن أخبئهم عندى ، وأن أرسل من يذهب لإحضار حقائبهم من الطائرة المحطمة .

وشك صبرى فى أن يكون هذا الذى يقال له أمزوحة من نوع ما

ولكن نظرة منه إلى وجه صاحبه كانت كفيلة بتبديد هذا الخاطر ، فعبد الحكيم هو الجد كله :

— ولكن كيف وصلوا إلى بيتك ، وماذا فعل البوليس ؟

— لقد كان البوليس هو الذى خف لنجدتهم ولم يتصوروا إلا أنهم كانوا فى مهمة رسمية ، فأحضر لهم سيارة نقلتهم إلى القاهرة ، ثم جاءت عزيز باشا هذه الفكرة أن بيتى فى الدقى يصلح للاختفاء . . وقد كان اسمك هو أول ما خطر على ذهنه بعد أن استقر به المقام فطلب منى أن أتصل بك . واكفهر وجه صبرى ، وأحس بالانقباض يستولى على مشاعره ، ومع ذلك فقد عمد إلى بدلة صفراء مما يرتديه السعاة فلبسها ، ووضع منظاراً أسود على عينيه وكبس الطربوش على رأسه وأمسك بحقيبة جلدية فى إحدى يديه وبعصا يتوكأ عليها فى اليد الأخرى ثم قال لصاحبه :

— هيا بنا نسمع قصة المغامرة الفاشلة .. يخيل إلى أن القدر يحاربنا.

٦

لم يكن فزع فوزى عندما وصله نبأ حادث عزيز باشا ، بأقل من فزع صبرى .

لقد كان اختفاء فوزى من وجه السلطة التى تطارده ، هو أول تجربة من نوعها فى حياته ، ولم يكن يقدر عندما أقدم عليها أنها ستكلفه كل هذا العناء ، الذى يجعل السجن بالنسبة لها جنة ونعيما . كانت الظروف تفرض عليه فى كثير من الأحيان أن يلوذ بالصمت أياماً وهو الذى

اعتاد أن لا يكف عن الكلام ، وإذا اضطرته الظروف لتبادل بضع كلمات فلا يقولها إلا همساً وهو المدوى الصوت الحاد النبرات . كان شبح البوليس — وفكرة انقضاضه عليه فى أى لحظة — يقض مضجعه ، فلم يكن ينام إلا غرارا ، وينام نومة الذئب بعين مفتوحة ، يوقظه من نومه حفيف شجرة ، أو مواء قط أو عويل طفل . كان إذا انتقل لا ينتقل إلا ليلا ، وإذا سار تصنع العرج فى مشيته . مجرد وقوع نظره على عسكرى فى الطريق يجعل الدم يهرب . كان يحذر كل الناس ويشك فى كل إنسان ولا يقترب من أحد ، ولا يستقر فى مكان واحد أكثر من ليلة واحدة .

تصور أنه قد يجد فى الريف بعض الراحة من هذا العناء فغادر القاهرة بعد مناورات ومصاعب ، فوجد الريف أكثر خطرا من القاهرة ، فالريفيون الطيبون يتشممون الأخبار ويتناقلونها ، ونزول أى وافد جديد إلى قريتهم يصبح بعد بضع ساعات حديث الجيرة كلها ، ولذلك فقد عاد إلى القاهرة من جديد أشد حيرة واضطرابا منه يوم أن خرج منها .

على أن الإنسان جبل على اعتياد حياته مهما كانت المصاعب التى تكتنفها ، وقدرة الإنسان على التكيف هى إحدى أسرار الحياة ، ولذلك فقد بدأ فوزى يعتاد أسلوب حياته الجديد على مر الزمن ، وبدأت تتكون لديه حصيلة من التجارب التى تهون عليه مشاق الاختفاء . وقد ساعد مرور الوقت على نمو لحيته فساعده ذلك على انتحال شخصية أحد علماء الأزهر ، فاستعار من بعض المعارف عمامة

وجبة ولوازمهما ووضع على عينيه نظارات بيضاء « وليست سوداء حتى لاتثير الشك » وأطلق على نفسه اسم الشيخ حسن عبدالجواد .

وكانت الدكتورة فاطمة ووالدتها أكبر عون لفوزى فى هذه الفترة ووصل الأمر إلى حد أن تطوعت والدة الدكتورة فاطمة فاستأجرت مسكنا خاصاً فى حى الباطنية بالقرب من الأزهر واتخذت من فوزى ابناً لها . وهكذا بدأ فوزى يحس بشىء من الاستقرار والأمن النسبيين . ولكن ذلك كله تحول من جديد إلى قلق ونوع من الفزع، بمجرد أن ترامى إلى سمعه خبر حادث عزيز باشا واختفائه ، إذ لم يعد لديه شك أن الحكومة ستقلب الدنيا كلها بحثاً عنه وسوف تنفذ إلى كل شارع وكل حارة وكل زقاق للبحث عن الهاربين والمختفين. ولم يسعه إلا أن يعلن حالة الطوارىء ، فكف عن جولاته التى كان يقوم بها فى الليل ، ولزم البيت وطلب من الدكتورة فاطمة أن تكف عن التردد على البيت ليلا أو نهاراً ، حتى لا يكتشف أمره عن طريقها.

وانطوى على نفسه فى وحدة حزينة يجتر آلامه ، فقد كانت ثورة العراق قد بدأت تتعثر وتترنح ، بعد أن تباطأ هتلر فى نجدتهم بالإمدادات العسكرية ، فأفلتت بذلك من يده الفرصة الذهبية التى فتحت الشرق الأوسط كله على مصارعه ليلتهب بالثورة ضد الإنجليز ويجليهم عن كل شبر فيه .

وعكف فوزى على الصلاة والابتهال إلى الله ألا يوقعه فى يد أعدائه ، فقد أصبح من جديد لا يعرف ماذا يكون مصيره بعد أن

أحنق الحكومة كل هذا الحنق بفراره ، وبعد هذا الحادث الجديد المفزع ، حادث عزيز باشا وزميليه الطيارين .

وصدق حدس فوزى فيما أصبح عليه موقف الحكومة من غضب وحنق ، فقد أذاع الراديو تحذيراً لكل من يؤوى أحدا من الهاربين، ووعد بمكافآت لمن يرشد عنهم ، وأنذر بأشد العقوبات لكل من يضبطون عنده .

وكاد فوزى يصعق عندما سمع ذات صباح عجيج سيارات البوليس وهى تحاصر الحى الذى كان يختبىء فيه . لقد كان صوت سيارة واحدة يفزع فوزى فى الأيام العادية ، فشارع الباطنية لا ترتاده السيارات ، ولكن هذا الفزع كان سرعان ما يزول بانصراف السيارة العابرة . . أما هذه المرة فلم يكن هناك شك فى أن هذا الدوى والضجيج هو سيارات البوليس الذى قرر أن يفتش القاهرة حياً حياً .

وانتشر الجنود فى أرجاء الحى يطرقون الأبواب ويفتشونها بيتاً بيتاً .

وأحس فوزى بقشعريرة تدب إلى أوصاله .. وهبطت دقات قلبه إلى الحضيض ، واصفر وجهه واضطرب وبدأ يشعر بدنو النهاية .

وكان يضاعف فى مرارة مايعانيه أنه لايستطيع أن يقوم بأى محاولة للإفلات ، فالبيت الذى كانوا يقيمون فيه كان دوراً أرضياً لا نوافذ له على الطريق العام وليس فيه إلا فتحة واحدة هى فتحة الباب الخارجى .

وطرق الباب الخارجى فى عنف وشدة ، وكاد قلب فوزى أن يقف،

وران عليه صمت عميق لم يعد يسمع فيه سوى أنفاسه المتحشرجة ، ونظر فى بلادة إلى عينى أم فاطمة التى لم تفهم من نظرته شيئاً ،وفتحت عينيها بدورها متسائلة فأومأ إليها ما فهمت منه أن تسارع بالرد حتى لا تثير الشبهة ، فصاحت فى صوت باهت أجوف .

— مين ؟

— افتحى حالا .

وعاود الطارق الطرق أشد بأساً من ذى قبل ، وأكثر إفصاحا عن عزمه وإصراره .

وهرولت أم فاطمة نحو الباب فى اضطراب وارتباك تكاد تقع على الأرض ، وصاحت تقول للطارق :

— ماذا جرى .. ؟ إن الله مع الصابرين ، هل خربت الدنيا . . ؟
وأنّ الباب وهى تفتحه وعلا صريره ، وهو يتحرك على محاوره التى علاها الصدأ ، وتصور فوزى فى هذا الصرير صوت الآلة التى ستزهق حياته وارتجف بدنه ، واستسلم لقدره . وصك مسامعه صوت أم فاطمة تصرخ فى عصبية بعد أن فتحت الباب :

— ماهذا الخبط .. ماذا تريد . ؟

— بوليس .

وصاحت أم فاطمة فى عصبية وانفعال جنونى :

أأسألك يارجل ماذا تريد فتقول لى بوليس..مالى أنا والبوليس.. وما دخل البوليس عندى ؟

وتنحنح عسكرى البوليس ، بينما بادر مرافقه البوليس الملكى يقول:

— أصل ياستى ..

ومن جديد صرخت أم فاطمة فى وجهه :

— أنا لست ستك ، ما هذه البلاوى ، أجئت تقرع بابى لتقول لى ياستى .. قل يارجل .. انطق ماذا تريد ؟ إن الطعام يوشك أن يحترق على النار .

وأسرع رجل البوليس يقول فى لهفة وسرعة لتهدئتها :

— نريد أن نعرف من الذى يسكن فى هذا البيت وأن ..

وقطعت عليه أم فاطمة كلامه وقد ازداد هياجها :

— أما مصايب والله العظيم .. أما بلاوى والله العظيم .. أأقول لك إن الطعام يوشك أن يحترق على النار وأنت تسألنى من الذى يسكن هنا ؟ .. ها أنا أمامك قل ما تريد وخلصنى .

يا ستى اعملى معروف اهدئى ، الحكاية وما فيها . .

ولم تدعه أم فاطمة يكمل كلامه بل انقضت عليه محاولة أن تمسك بتلابيبه لو لم يتراجع فى دهشة وذهول من هول المفاجأة بعد أن لم يبق لديه شك فى أنها امرأة مجنونة ، بينما كانت تقول له :

الأكل احترق على النار وأنت تريد أن تحكى لى حكاية .. أتريدنى أن أرقع بالصوت .

وسحب المخبر الذى كان يرافق العسكرى من يده وقال له :

— هيا بنا يا شيخ ، أتريد أن نضيع وقتنا مع هذه المجنونة ؟

ورد عليه عسكرى البوليس قائلا :

— ووالله ما مجنون إلا الحكومة ، عزيز باشا الآن عند الألمان يدبر مع هتلر الخطط للهجوم على مصر ، وهم يطلبون منا أن ندق بيوت الأرامل والغلابة ، و نصطدم بالدون والغجر .

ولم تصدق أم فاطمة أن الخطر قد زال نهائياً .. حتى بعد أن أغلقت الباب ، وسمعت بعد حين أصوات سيارات البوليس وهى تنسحب ولم يهدأ لها بال إلا بعد أن رأت فوزى وهو يكاد يموت من فرط الضحك وهو يستعيد ذكرى ما حدث .

— أتضحك منى يا أستاذ فوزى ؟ .. لا أعرف ماذا أصابنى حتى تصرفت هكذا .

وتوقف فوزى عن الضحك فجأة وقال لها :

— أضحك منك أنت وقد أنقذت حريتى بأعجوبة ؟ دعينى أقبل يدك ، لقد كان تصرفك نجدة إلهية .

وعاد من جديد يضحك .. ويضحك كما لم يضحك منذ صدر الأمر باعتقاله .

الفصل التاسع

١

خيم الصمت على ضباط القسم المحتشدين فى مكتب رئيسهم الحكمدار بعد أن قص عليهم ما دار بينه و بين رئيس الحكومة حسنين يسرى . وقال أحد مساعدى الحكمدار من دهاقين الضباط الذين صاحبوه منذ اليوم الأول :

— ماذا يريد منا أن نفعل ، هل نحن مسئولون عن حادث عزيز باشا ، أين كانت مخابرات الجيش ، أيريدون منا أن نتولى حفظ الأمن داخل الجيش نفسه ؟

— يقولون يا سيدى إن عزيز باشا مذ فصل من الجيش ، كان يجب أن يكون تحت مراقبتنا الدائمة باعتباره سياسياً خطراً .

فاحتج أحد الضباط قائلا ..

— وأين عددنا ونحن لا نتجاوز زحفنة تعد على الأصابع من جهاز الجستابو فى ألمانيا الذى يبلغ عدد ضباطه عشرات الألوف ، ومع ذلك فإن هذا لم يمنع فرار هيس نائب هتلر بطائرة إلى انجلترا ، هذا الحادث الذى هز الدنيا .

— لم يفتنى أن ألفت نظر رئيس الحكومة إلى هذه المقارنة ، ولكنه صرخ فى وجهى قائلا : « يا افندى كل بلد له ظروفه »

وصاح أحد الضباط :

— وهل سمحت له أن يقول لك يا أفندى ؟

فابتسم الحكمدار فى امتعاض وقال :

— اسكت يا صلاح إن هذا أسلوب الرجل ، وطول عمره لسانه زفر ، ولو اعترضت عليه لحدث ما لا تحمد عقباه .

أتتصورون ماذا قال لى .. لقد توعدنى إذا لم نقبض على عزيز باشا وفوزى السيد فى خلال أسبوعين فسوف يلغى القسم السياسى ويسرح ضباطه .

ووجه الحكمدار حديثه نحو اليوزباشى علام الذى كان يقف مصفر الوجه واجما لم ينبس بحرف واحد طوال هذه الجلسة .

— إن ما يهيّج رئيس الحكومة ضدنا هو هذه الرسائل التى يبعث بها إليه فوزى السيد مندداً بتصرفاته ، فقد راح يلوح فى وجهى برسائل ومنشورات يبعث بها إليه فوزى السيد على سبيل التحدى

واحمر وجه علام وشد عضلاته وقوم جذعه ، فبدا بقوامه الفارع عملاقا بين بقية الحاضرين ، ولكنه لم يلبث أن تقاصر من جديد وتخاذل ومضى يقول للحكمدار فى تلعثم وارتباك :

— سعادتك شاهد على أنني لم آل جهداً للقبض على فوزى السيد إننى لم أبت فى بيتى خلال هذا الشهر إلا أياما معدودة ، إننى أدور

فى أنحاء البلاد كالطواف مفتشاً عشرات ومئات البيوت ، ولقد وعدت المخبرين والمرشدين بمكافأة خاصة من جيبى علاوة على مكافأة وزارة الداخلية . إننى أكاد أجن ولست أعرف ماذا أستطيع أن أفعل أكثر من ذلك ؟

وترقرقت الدموع فى عينى علام من فرط التأثر وإحساسه بأن الجميع يعتبرونه المسئول عن الفشل فى القبض على فوزى .. ولم تلبث نفسه أن امتلأت بروح العزم فقال فى حدة :

— اسمح لى يا أفندم أن أخرج الآن ، ولا أعود إلا بعد أن أقبض على فوزى السيد .. وإذا لم أقبض عليه خلال أسبوع فسوف أقدم استقالتى .

وسأله الحكمدار :

— ماذا فعلت فى مراقبة الدكتورة فاطمة ، هل أدت إلى نتيجة ؟

فقال علام :

— ستؤدى إن شاء الله ، إنها مفرطة فى الحذر ، وهى تضلل رجالنا ، ولكنها ستقع من غير شك .

فقال الصاغ صلاح :

— يا أخى اعتقلوها ودعونا ننتهى منها .

فقال الحكمدار :

— لا يا صلاح . . إن علام يرى أنها طرف الخيط الذى سيوصلنا إلى فوزى . . وأنا أوافقه على هذا الرأى .

٢

كانت الساعة العاشرة مساء عندما خرج اليوزباشى علام من حجرة الحكمدار وهو ممتلىء بعزم وتصميم على اعتقال فوزى بأى ثمن من الأثمان ، ولكنه لم يكن يعرف ماذا يفعل ولا كيف يبدأ ومن أين يبدأ ؟

وغادر مبنى المحافظة وراح يسير هائماً على وجهه على غير هدى يتلفت بعينين زائغتين ذات اليمين وذات اليسار ، حتى إذا وجد نفسه فى ميدان العتبة راح يسائل نفسه فى مرارة :

— إلى أين ؟

وجاء الرد من أعماق نفسه :

— أقبض على فوزى السيد .. يجب أن أقبض عليه وكاد يحكم على نفسه بالجنون لولا أن هذه لم تكن المرة الأولى ، التى يسير فيها فى الشوارع على غير هدى ويوجه لنفسه هذا السؤال ويرد بنفس الجواب .. لقد كان يعتمد على المصادفة ، على حظه السعيد على توفيق الله له . . كان متأكدا أن عينه لا بد واقعة فى يوم من الأيام . . على فوزى أو على واحد من رفاقه الأقربين ممن لا يزالون مطلقى السراح ليكونوا طعما يقودهم إلى فوزى . وانتهى المطاف بعلام أمام مدخل حديقة جروبى بشارع عدلى باشا ..وظل يحدق فى الداخلين والخارجين فى سأم وملل ووعى شارد .

كان باب الحديقة مفتوحاً كالعادة على مصراعيه وبعض الرواد يجلسون حول الموائد .. وليس هناك مايلفت النظر .

وفوجئ علام بيد ثقيلة توضع على كتفه وارتعش بدنه للوهلة الأولى .. ودوى فى أذنيه ضحكة عالية وصوت مجلجل :

— ماذا تفعل هنا يا حضرة اليوزباشى ؟ لابد أنك تبحث عن الرجل المجنون عزيز باشا وصاحبيه ، قل لرؤسائك لو أنهم استمعوا إلى تقاريرى التى كانت تحولها إليهم المخابرات الإنجليزية لوفروا على أنفسهم كل هذا العناء .

ورحب اليوزباشى علام بالأميرالاى شاهين الذى كان يعرف كل شئ عنه ثم مضى يقول :

— إن القبض على عزيز باشا ليس مسئوليتى بمفردى ، بل هو مسئولية القسم السياسى كله ، وإنما الذى يؤرقنى وقد حرمنى الهواء والراحة هو فوزى السيد .

وأسرع شاهين يقول :

— أنت المسئول الوحيد عن هذه المتاعب ووجع الدماغ التى تعانيها ونعانيها معك . واصفر وجه علام وخفق قلبه ، ونظر إلى شاهين فى قلق ، أيكون هذا الرجل المستهتر مطلعاً على سره وأنه هو الذى حذر فوزى قبل اعتقاله فمكنه من الهرب وقال فى صوت خافت :

أنا يا فندم ؟

فأجاب شاهين ، وقد بدأ بدوره يخفت صوته :

— ألم يكن باستطاعتك وأنت تعتقل فوزى هذا عشرات المرات أن تضربه بالرصاص وتخلص البلد منه .

وسرى عن علام ، وإن كانت الدهشة لهذا الاقتراح العجيب استولت عليه فقال :

— ولكن هذه مسئولية ياأفندم !

— ولا مسئولية ولا شيء من ذلك .. ليس عليك إلا أن تقول إنه حاول أن يفر منك فاضطررت لإطلاق الرصاص ، أو أنه قاومك فدافعت عن نفسك .. إننا فى حرب يا علام .. من الذى سيحاسبك ؟

وامتقع وجه علام وهم بأن يرد على ذلك معترضاً ، لولا أن وقع نظره فى هذه اللحظة على شاب يعرفه من المنتمين لفوزى وجماعته يخرج من جروبى يحمل لفافة ضخمة استرعت انتباه علام ، فراح يتابع بحركة آلية خطوات الشاب ، فوجده يتجه نحو سيارته . وخطر لعلام خاطر غامض ، ماذا عليه لو تتبع هذا الشاب ؟ ليس لديه ما يفعله ، وقد خرج خصيصاً لمثل ذلك . . وتلفت علام حوله فى قلق عندما بدأت السيارة تتحرك . . وأدرك شاهين ما يدور فى خلد علام وقال له :

أتريد ملاحقة هذه السيارة ؟ أنا وسيارتى على استعداد لمعاونتك . ولم يكن بوسع علام إلا أن يقبل هذا العون وإلا ضاعت الفرصة .

٣

قال علام لشاهين وهو ينظر إلى الفيلا التى قادهم إليها الشاب والتى تقع فى آخر حى الدقى وحيدة بعيدة عن كل عمران وجميع نوافذها مغلقة :

— يجب أن أعين مراقبين لمراقبة هذا البيت . . إن قلبى يحدثنى أن فوزى السيد فى داخله .

فقال شاهين :

— إذا كان هذا إحساسك فلماذا لا تقتحم البيت قبل أن تفر الطريدة ، أنا على استعداد لمعاونتك .

وألفى علام نفسه بين نارين ، فهو لا يحب أن يقحم هذا الرجل المتطفل معه ، وإذا كان سيقدر له أن يعتقل فوزى فيجب ألا يقاسمه أحد هذا الفضل . ومن ناحية أخرى فقد كان يخشى بالفعل أن تفوت منه هذه الفرصة ، ولو أنه انصرف لإحضار نجدة تاركا شاهين لمراقبة البيت ، فقد يخرج فوزى ويستأثر شاهين باعتقاله . . ولذلك فلا مناص من أن يقدم على هذه المغامرة بمعاونة شاهين السلانكلى .

وطلب من شاهين السلانكلى أن يجمع ما يستطيع من رجال بوليس الداورية المنتشرين فى المنطقة .

وبعد زمن طويل ممض من الانتظار عاد شاهين بالسيارة وليس معه سوى عسكريين ممن قبلا أن يصحباه . وازور علام لمرأى الرجلين

المزيلين ، ومع ذلك فقد كانا يحملان بندقيتهما . وطلب منهما أن يعمرا البندقية بعد أن عرفهما بنفسه وأراهما أوراقه المثبتة لشخصيته ، ثم أخرج مسدسه ، كما أخرج شاهين مسدسه واقتربا من البيت الغارق فى الظلام .

ودق علام الجرس وهو خافق القلب مشدود الأعصاب ولم يرد عليه أحد ، فزاد ذلك فى يقينه أن العصفور فى القفص فأعاد دق الجرس ، وسمع صوت من الداخل .

— من ؟

— صديق .

وفتح الباب فى بطء وحذر فانقض عليه علام مقتحما وقد أشهر مسدسه ومن خلفه شاهين وهما يصيحان .

— ارفعوا الأيدى . .

وغشى أبصارهم الضوء الساطع الذى كان يغمر البهو الذى اقتحماه ولكن ذلك لم يكن إلا للحظة قصيرة صاح بعدها شاهين السلانكلى :

— عزيز باشا . . ؟ !

واستيقظ علام من ذهوله تحت تأثير هذه الصيحة ، ليرى أمامه الشاب الذى قاده إلى هذا الطريق . . وثلاثة . . ثلاثة يقفون أمامه يرتدون البيجامات وقد أخذت منهم المفاجأة كل مأخذ . . ولم يكونوا سوى عزيز باشا والطيارين الفارين .

٤

وقع اعتقال عزيز باشا وزميليه على فوزى موقع الصاعقة ، وكانت الضربات تتوالى عليه واحدة إثر أخرى . . فقد اعتقل صاحبه صبرى . وفشلت ثورة العراق نهائياً ، وانقطعت أخبار خالد وغشى الضباب مصيره ، وكان الأمل الوحيد الذى يراود فوزى من هذه الناحية ما أذيع من أن زعماء الثورة العراقية قد فروا إلى إيران ، وقد ذكرت الأنباء أسماء من قبض عليهم ومن أعدموا رمياً بالرصاص ولم يكن اسم الدكتور خالد فيمن ذكر . . وكان هذا هو شعاع النور الوحيد الذى يبقى على فوزى من الانهيار ، وإن ظل الغموض الذى يحيط مصيره يسحق فوزى سحقاً من فرط الخوف والألم .

وكان هتلر من ناحية أخرى ، قد ارتكب ، فى رأى فوزى ، حماقته الكبرى التى لا يمكن إلا أن يرتكبها كل طاغية ديكتاتور ، وذلك بإعلانه الحرب على الاتحاد السوفيتى الذى كان مرتبطاً معه بمعاهدة صداقة وعدم اعتداء فاتحاً بذلك على نفسه جبهة واسعة عريضة قاتلة . وهكذا ضاع آخر أمل فى هزيمة انجلترا فى وقت قريب ، وضاع معها كل أمل فى إشعال الثورة ضدها فى مصر .

ووجد فوزى نفسه وسط الأحداث العامة والخاصة يائساً ضائعا وهى تجرى كلها فى الاتجاه المعاكس . .

وكأن وفاء قد أبت إلا أن تسهم فى مضاعفة متاعب فوزى وآلامه فى هذه اللحظات الحرجة من حياته ، فأظهرت عدم رضائها عن اختفائه

فى هذا البيت الذى كان يقيم فيه آمنا مطمئنا تحت رعاية أم الدكتورة فاطمة ، وتردد فاطمة على هذا البيت ومبيتها فيه من حين لآخر . وكانت هذه هى القطرة التى طفح بها الكأس ، والقشّة التى قصمت ظهر البعير كما يقولون ، وكاد يجن وهو يتصور أن تصل الغيرة بها إلى هذا الحد .

وعبثاً حاول أن يعيد وفاء إلى صوابها ، وأن يذكرها بأن فاطمة لا يمكن أن تكون بالنسبة له إلا أختا مقدسة ومحرمة عليه فهى خطيبة خالد . لقد أصمت أذنيها عن سماع هذه الحجج وقالت تنهى الحديث ، إنه باستطاعته أن يفعل مايشاء ، فهى لاتشك فى متانة أخلاقه أو أخلاق فاطمة ، ولكن المسألة عندها مسألة إحساس وشعور وهى غير سعيدة كلما تمثلت هذا الوضع .

ولم يكن باستطاعة فوزى فى خاتمة المطاف إلا أن ينصاع لمشاعر زوجته ، مسلما بينه وبين نفسه أن عليه أن يدفع ضريبة الزوجة التى يؤلف زوجها كل شىء فى حياتها .

ووجد أن الحل الكامل الذى يخرجه من هذا الضيق ، هو الاستسلام للبوليس .

واتصل بشكرى الذى كان لا يزال حرًّا طليقاً ، وقد حماه من الاعتقال قرابته لرئيس الحكومة . ولم يكد شكرى يسمع هذا القرار حتى هتف صارخاً :

— مستحيل . . مستحيل تسلم نفسك ، إذا كنت قد تعبت

من الاختفاء هنا فى القاهرة فسأهيء لك سكناً فى طنطا حيث تستطيع أن تعيش فى جو أكثر حرية فى رحاب السيد البدوى وأنت شيخ بعمامة .

واحتج فوزى على صاحبه :

— ولكن يا شكرى ما جدوى ذلك كله ؟ وأى نفع لقضيتنا من هذا الاختفاء الذى أعانى منه الأمرين ؟ أى جهاد فى ألاّ أسير إلا ليلا ولا أتكلم إلا همسا ، أرتجف من كل صوت وأفزع من كل طارق ، وأعد أوقاتى بالدقائق والثوانى ، والحلقة تضيق بى يوما بعد يوم وساعة بعد أخرى .

— إننى أعرف ذلك كله ، وأعرف أننى شخصياً يجب أن أكون آخر من يطلب منك أن تحتمل هذه المعاناة وقد شاءت الظروف «وهو مايخجلنى» ألاّ أكون من المعتقلين ، ومع ذلك فأنا مصر على أن تبقى كما أنت ، وأن تحتمل ما تعانيه من الآلام وأن تتجرعها فى صبر . . إن نجاحك حتى الآن فى عدم الوقوع فى يد السلطة هو مظهر عزيمتنا وإرادتنا على المضى فى الكفاح حتى النهاية ، وسط أقسى الحوادث وأحلك الظروف .

وكانت فكرة السفر إلى طنطا تحل لفوزى الإشكال الذى لم يستطع أن يحدث شكرى عنه ، وهو تضرر وفاء من إقامته بهذا الأسلوب ، فقال لصاحبه :

— سأسافر كما تشاء إلى طنطا . ولكنى فقدت الشعور بأن اختفائى يخدم غرضاً صالحا .

فأجاب شكرى فى حماسة :

— لو لم يكن فى اختفائك حتى الآن إلا أنه يؤرق ضباط القسم السياسى ، ويشعرهم بعجزهم وضعفهم حيالك وإحساس رئيس الحكومة بأنه عاجز عن تلبية رغبة الإنجليز فى اعتقالك ، لكان ذلك مبررا للاستمرار فيه إنك لا تعرف كيف أصبحت صورتك مع كل رجال البوليس فى أنحاء البلاد ، لا تعرف كم من البيوت تدهم ليلا ونهاراً بحثا عنك ، إن ذلك كله يثلج صدورنا ويزيد فى ثقتنا بأنفسنا . دع الأمر لى لأنظم كل شىء .

وانصاع فوزى لرأى صاحبه .

وسافر معه إلى طنطا بعد أن أعد له بيتا ليقيم فيه .

٥

خفق قلب فوزى وهو يقدم على مغامرته الأولى فى زيارة المسجد نهاراً ، ولم يكن خفقان القلب نتيجة الإحساس بالخشوع ولكنه الخوف . . الخوف من أن ينفضح أمره . وكان فوزى قد اتخذ قراره ليكون باستطاعته أن يحيا حياة عادية بين الناس ، بعد أن استطالت لحيته وغيرت ملامحه وأصبح مطمئنا إلى الشخصية التى تقمصها ، شخصية الشيخ حسن عبد الجواد الذى التجأ إلى طنطا هربا من الغارات الجوية فى إسكندرية ، والذى كان بسبيل استحضار عائلته بعد أن يستقر به المقام .

واقترب فوزى من الشارع المؤدى إلى المسجد الكبير وبدأت

المناظر المألوفة حول المسجد تستوقفه كما لم تستوقفه فى أى يوم مضى ، واستأثرت أكوام الحمص الضخمة باهتمامه وتراءت له كما لو كانت جبالا يجلس الباعة على قمتها ، بينما أشبهت كتل الحلوى الضخمة أحجاراً قطعت من الجبل وتناثرت فى غير انتظام . وهجست فى نفس فوزى خواطر صبيانية ، ما أمتع أن يجلس فوق قمة هذا الكوم من الحمص وأن يتدحرج عليه . أو يغوص بكل جسده فيه ! وهفت نفسه إلى أن يشترى حمصا ولاحت رغبته فى عينيه وشفتيه وصاح به أحد الباعة :

— تفضل يا أستاذ .. حمص السيد . حب العزيز بالبركة . وكأن هذه الدعوة كانت سوطا ألهب نفس فوزى بالفزع فأسرع يهرول ليختفى داخل المسجد .

وأنعش فوزى هواء المسجد الرطب وروائح البخور والعطور ، وغمرته السكينة ، وانتابه الإحساس بالخشوع الذى يسيطر عليه كلما غشى أحد المساجد الكبرى .

وتوجه فوزى نحو ضريح السيد البدوى ، ولم يقف عند قراءة الفاتحة بل راح يملس بيده على حديد الضريح ويمسح به وجهه ، ثم أدنى رأسه ووجهه من النحاس اللامع وبدأ يغمغم ويتمتم ويهمهم ، فهكذا يجب أن يكون الشيخ حسن عبد الجواد الذى نكبته الغارات بهدم بيته فى الإسكندرية .

وقصد بعد الفراغ من أداء هذا الواجب ، نحو القبلة ليصلى ركعتين تحية المسجد ، وبدأ يستمتع بالسير فوق الأبسطة الثمينة والسجاجيد

التى طال حرمانه من السير فوقها ، وأبهجه منظر الثريات الضخمة المتدلية من السقف فى شموخ وجلال ورشاقة ، كما أسعده أن يلامس الأعمدة الرخامية الناعمة البراقة بكف يده . لقد كان ذلك كله جديداً عليه ، كما لو كان يراه لأول مرة فى حياته ، أو كما لو كان من أصحاب الكهف وقد بعث بعد طول رقاد .

وراح فوزى يبالغ فى السجود والركوع لا تقربا من الله ، فطالما أحس بنفسه أقرب ما يكون إلى الله وهو خائف يترقب ، وهو يتحسس طريقه فى الظلام ، وهو يحبس أنفاسه .. أما الآن فقد كان يطيل فى الركوع والسجود طبقا لمقتضيات الشخصية وأصول التمثيل .

وجلس فوزى عقب الصلاة ، يسبح ويحمد الله ويكبر وهو راض عن الأثر الذى لا يمكن إلا أن يكون قد تركه فى نفس كل من راقب صلاته ، ولذلك فلم يدهش أو يباغت عندما سمع أحد المصلين يقترب منه زحفا وهو يقول :

— تسمح يامولانا .. يا سيدنا الشيخ ..

واستراب فوزى فى الصوت بعض الشىء ، وتباطأ فى الالتفات نحو مصدره ، وجفل عندما أطل عليه وجه محدثه الذى اقترب منه ، فقد كان منظر هذا الوجه الباهت غير غريب عليه ، هاتان الأذنان الكبيرتان ، وهذه الجبهة البارزة والفم المفتوح فى بلادة ، والشارب المتدلى على الشفة العليا ، إن هذه الصورة منقوشة فى رأسه ، ومع ذلك فلم تسعفه ذاكرته بالزمان أو المكان الذى رأى فيه هذا الوجه . وقطع صاحب الوجه عليه تأملاته قائلا :

— تسمح لى بسؤال يا سيدنا الشيخ ؟

— اتفضل .

— أنا اتعلمت من سيدنا الشيخ العرنوسى ، أن بطن الإبهام يجب أن يلامس الأرض عندما يجلس المصلى للتشهد ، وأن تكون القدم اليمنى عمودية ، بينما يرتكز الإنسان بمقعدته على الساق اليسرى ، ولكنى لاحظت أن فضيلتكم لم تجلسوا على هذه الهيئة .

وابتسم فوزى فى خيبة أمل وسأل محدثه وهو يتصنع الوقار والتباطؤ فى الحديث والضغط على مخارج الألفاظ :

— أهلا وسهلا ، أولا نتشرف باسم حضرتك .

— بيومى رمضان .

ولم يحمل الاسم جديداً إلى ذهن فوزى ، فمضى متسائلا :

— حضرتك موظف يا سيد بيومى ؟

— نعم فى الأرشيف بمديرية الغربية .

واكفهر وجه فوزى وهو يسمع كلمة المديرية ، وومض فى ذهنه من جديد أن يكون بيومى على صلة بالبوليس والمباحث وأنه يستدرجه فى الكلام ، ولكنه لم يكد يعاود النظر إلى أذنى بيومى وشاربه والبلادة المطبوعة على وجهه حتى استبعد هذا الخاطر . ولم يكن يعرف مدى الصواب فيما قاله بيومى عن جلسة التشهد ، ولكنه لم يشأ أن يخوض معه فى مناقشة فأقبل عليه هاشًّا باشًّا وقال :

— أولا : اسمح لى يا سيد بيومى أن أهنئك على دقة ملاحظتك . وما علمك إياه الشيخ العرنوسى هو الصحيح الذى يجب أن تتمسك به . . أما أنا فمن سوء الحظ أن مرض الروماتيزم الذى أصابنى بعد هدم بيتى فى الإسكندرية أعجزنى عن الجلوس للتشهد كما ينبغى ، عافاك الله وإيانا .

وأحس بيومى بالأسى من أجل الشيخ ، وإن كان أساه لم يطغ على ابتهاجه بثناء الشيخ عليه ، ورأى أن يعبر عن عاطفته بتقبيل يد فوزى ، بينما حرص فوزى على أن لا يمكنه من ذلك قائلا :

— أعوذ بالله . وأستغفر الله .. نحن إخوان يا سيد بيومى .

— ربنا يشفيك ياسيدنا الشيخ ويعوضك خير عوض إن شاء الله . أنت أول شيخ عالم يقرنى على رأى أقوله فى موضوع الدين .

— الحق . . أحق أن يتبع يا بيومى أفندى . على أنى أريد أن أضيف إلى ماقلته لك حقيقة أخرى وهى: «أن الله لاينظر إلى صورنا ولكنه ينظر إلى قلوبنا » وربنا كما يقول العامة بحق : « رب قلوب » .

فأسرع بيومى يقول وقد استطاب لأول مرة فى حياته الجدل مع هذا الشيخ الذى أوسع له صدره وشجعه :

— ونعم بالله ، ولكن الله «لاينظر إلى الصف الأعوج فى الصلاة» .

وأرتج على فوزى لهذه الإجابة غير المتوقعة ، ولم يلبث أن اندفع يقول :

— باسم الله ما شاء الله .. باسم الله ما شاء الله .. أنت رجل فقيه

يا بيومى أفندى ، كيف تشكو من أن رجال الدين يخطئونك وأنت بهذا العلم الواسع ؟

ومرة أخرى لم يجد بيومى ما ينفس به عن فرحه لهذا الثناء الذى ينهال عليه إلا أن يقسم على فوزى أن يسمح له بتقبيل يده . وأجاب فوزى محتجاً :

— تقبيل اليد هذه بدعة يا سيد بيومى ..

فحملق بيومى فى دهشة وقال :

— كيف يستطيع إذن المريد أن يعبر لشيخه عن خضوعه . ما الفرق إذن بين الصغير والكبير .. ؟

— لامحل لإظهار الخضوع لغير الله يا بيومى أفندى .. ولا كبير ولا صغير فى الإسلام فالمسلمون سواسية كأسنان المشط .

— ولكن أصابع اليد الواحدة ليست متساوية ، وربنا رفع بعضنا فوق بعض درجات .

— درجات فى العلم والعمل الصالح والتقوى ، وليس فى الكرامة والعزة ، فالعزة لله ولرسوله وللمؤمنين « وإنما المؤمنون إخوة »

وهتف بيومى :

— الله أكبر .. فما الرأى فى الباشوات الكبار والبكوات ؟

— لا يعرف الإسلام طبقات ولا باشوات ، وكل هذه بدع من صنع الإنسان لظلم أخيه الإنسان « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر

وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم »
لم يقل الله إن أكرمكم عند الله أغناكم : أو الأمراء منكم أو الباشوات
بل أتقاكم .

وهتف بيومى :

— حىّ ... حىّ .. مدد هذه أول مرة فى حياتى أسمع هذا الكلام العظيم .

وتعلق بيومى بفوزى ورجاه فى أن يشرفه بزيارة بيته ، ولم يجد فوزى حرجا فى تلبية هذا الرجاء فقد اطمأن قلبه لبيومى ، وكان شديد الحرص على تذكر متى وأين وكيف رآه من قبل .

٦

قالت عطيات لزوجها بيومى فى غضب ، بعد أن انصرف فوزى من زيارة بيتهما .

— من هذا الرجل الذى جئت به إلى بيتنا يا بيومى ؟

— ألم أقل لك إنه شيخ عظيم ... عالم فى الأزهر يسمى الشيخ حسن عبد الجواد ، وقد هدم بيته فى الإسكندرية فالتجأ مع بقية المهاجرين إلى رحاب السيد البدوى .

ونظرت عطيات فى شك إلى زوجها وقالت له :

— بيومى ماذا جرى لك ، لقد بدأت تتغير ، هل ستلعب على ؟

— ألعب عليك ؟ والله العظيم ما قلت لك إلا الصدق .

— إن هذا الرجل ليس شيخا ، لقد عرفته من صوته . إنه ليس شيخا .

— ما هذا السخف ، من أين لك هذه الفكرة الغريبة ؟

— أتذكر يوم سافرنا إلى الإسكندرية أول مرة وقابلتنا سيارة مقلوبة .

— طبعا أذكر جيدا ... وهل يمكن أن أنسى هذا الحادث ...؟ إنها سيارة فوزى السيد رئيس حزب البعث .

وهتفت عطيات فى انتصار :

— الحمد لله أن اعترفت بلسانك ... إنه الرجل الذى خرج من عندنا الآن ... إنك تعرفه وقد جئت به إلينا ، سوف تودى بنا فى داهية .

وصاح بيومى فى دهشة :

— غير معقول ... لا يمكن .

— والله العظيم هو بعينه ، أقطع دراعى إن لم يكن هو ، لقد ظللت طول الوقت أسائل نفسى متى سمعت هذا الصوت ... حتى تذكرت .

ولمعت عينا بيومى رمضان ببريق غامض وقال :

— ليت ما تقولين يكون صحيحاً يا عطيات ، إن أسعد يوم في حياتي أن أكون من أتباعه ، ألم أحدثك عن عبد العزيز البطل وكيف تحدى الباشا وثار في وجهه ولم يخف حتى من الموت .؟

وصرخت عطيات :

— الله ... الله ... ما الذي جرى لعقلك يا بيومي هل جننت ؟

ورد عليها بيومي في انفعال :

— لم أجن . . بل أنا في تمام عقلي .

— والباشا ماذا يقول عنك الباشا ؟ . . ألا تعلم أن هذا «الجدع» همه وموته .

وأحس بيومي بتوتر في أعصابه لدى ذكر الباشا وموقفه من فوزي ، وامتلأ مرة أخرى بالنفور من الباشا ولي نعمته وقال لها :

— اسمعي ياعطيات ، قد يكون ما تقولينه صحيحا ، ويكون هذا الشيخ هو الأستاذ فوزي بالفعل ، فحذار . . . حذار أن تنطقي بكلمة عن هذا الموضوع للباشا .

وتحدته عطيات قائلة :

— لا يمكن أن تكون أنت بيومي . . . لقد أصبت في عقلك ، كيف تخفي عن الباشا مثل هذا الموضوع ، إن هذا الرجل لابد أن يكون قد ارتكب جريمة حتى تنكر بهذه الصورة .

ونظر بيومى إلى زوجته فى صرامة لم يكن يتصور نفسه قادرا عليها فى أى يوم من الأيام وقال محذرا :

— يجب أن تسمعى ما أقول لك . ولا كلمة عن هذا الموضوع للباشا ... إنه متصل بالمخابرات الإنجليزية . . . وأنا لا أعرف شيئا فى السياسة . . . ولكن لابد أن يكون الأستاذ فوزى مختفيا عن الإنجليز .

وصاحت عطيات وهى تكاد تنفجر من الغيظ :

— إيه الحكاية ياسى بيومى ... اعمل معروف دعنا فى حالنا ، نعيش كما عشنا حتى الآن ، هذا الرجل لا يدخل بيتنا ثانية .

— أعدك أن لا أجىء به ثانية على أن تعدينى ألا تخبرى الباشا بشىء عن هذا الموضوع . وألا فسأغضب عليك .

وفوجئت عطيات بهذا التعبير الذى لم يسبق لها أن سمعته من بيومى والذى لم تكن تتصور أنه قادر عليه ، ونظرت إليه فى ضيق ، ثم لم تلبث أن هزت كتفيها فى سخرية وقلة مبالاة .

٧

طرق باب شقة فوزى « الشيخ حسن عبد الجواد » بشدة غير عادية ، وقد كان متخففا من ملابسه لا يرتدى غير القميص والسروال، وإذ كانت أبسط الحركات تفزعه ، فقد وثب واقفا فى حالة ترقب وقد بدأ قلبه يخفق . وارتفع صوت أنثوى صغير سرعان ما أعاد

إلى فوزى شيئا من هدوئه وقد عرف فيه صوت صفية ابنة صاحب البيت الصغيرة ، على أنه لم يلبث أن صعق و هو يتتبع عباراتها :

— افتح يا عم الشيخ حسن « الست جماعتكم وصلت » .

وأسرع فوزى يعدو صوب الباب ذاهلا و ناسيا أنه حافى القدمين بالملابس الداخلية وهو يهتف فى دهشة :

— وفاء ؟ حبيبتى ، غير معقول .

ولكنه لم يكد يفتح الباب حتى أصيب بصدمة من خيبة الأمل لم يلبث أن تحولت إلى اضطراب وارتباك من فرط الحياء والخجل لمظهره هذا فى حضرة سيدة غريبة ، فإن هذه السيدة المحجبة التى كانت تقف إلى جوار صفية ، لا يمكن أن تكون هى وفاء . . . وجرى إلى الداخل يرتدى القفطان ليستر نفسه .

وكانت صفية الصغيرة هى التى خففت بعض التوتر الذى سيطر على الموقف ، عندما أسرعت تقول فى مرح وبراءة :

— أنت استحييت منى ياعم الشيخ حسن . . . أنا ماشية ، اقعد بالعافية .

وانتهزت السيدة الغريبة هذا التصريح من الفتاة الصغيرة لكى تنقذ الموقف ، وتضع حداً للارتباك الذى اعترى فوزى . . . فأخذت من الصغيرة الصرة التى كانت تحملها وقبلتها شاكرة على وجنتها وقالت لها :

— شكرا لك يا صفية ، أرجو أن تسلمى على والدتك .

ولم تكد السيدة الغريبة تنطق بهذه الجملة حتى كان فوزى قد عرفها فقال لها فى دهشة وهى تغلق الباب بعد أن انصرفت الفتاة الصغيرة .

— أنت ؟

وابتسمت فاطمة فى مرح وهى تزيح النقاب عن وجهها المشرق ؛

— أولا يسرك أن ترانى ؟

وغمغم فوزى الذى كان لا يزال فى دوامة من المفاجأة والاضطراب :

— يسرنى طبعا ... ولكن ... !

— أنا آسفة لانتحال شخصية « جماعتكم » فلم يكن هناك مفر من ذلك ، فقد فاجأتنى صفية وأنا أسأل فى الحارة عنك ، بأنك تسكن فى بيتهم وتطوعت لتوصيلى إليك وراحت تخاطبنى على أساس أننى زوجتك ، وأنك تنتظرنى على أحر من الجمر .

وقال فوزى عابساً :

— كان يمكن أن تقولى لها : إنك شقيقتى .

وتطلعت فاطمة حولها فى شىء من الارتباك ولم تلبث أن قالت له فى عتاب :

— أولا تسمح لى بالجلوس ؟ إنى أكاد أموت من التعب .

وأسرع فوزى فأحضر لها مقعداً وساعدها على الجلوس عليه بينما كان يسألها فى لهفة :

— ولكن كيف عرفت مكانى ، كيف جئت إلى هنا ؟

وقالت فاطمة فى شيء من الدلال :

— إن فاطمة لا يخفى عليها شيء . أنسيت يا سيدى الجنرال أنك طالما أثنيت علىّ فى بلاغاتك اليومية التى كنت تصدرها قبل اليوم ، وأنا الصلة الوحيدة بينك وبين الحياة الخارجية ؟

وسرت رجفة فى بدن فوزى وهى تذكره بدورها إلى جواره فى القاهرة الذى أثار غيرة وفاء ، بينما نهضت فاطمة وراحت تبحث حولها فى تساؤل :

— ألا يوجد عندك ماء للشرب ، إن حلقى يلتهب من الظمأ ؟

ولم يلبث بصرها أن وقع على قلة ماء فهرعت نحوها وأمسكت بها وراحت تفرغها فى جوفها بشراهة وعدم احتياط ، فسال الماء على ذقنها وصدرها وبلل ملابسها . وتنهدت فاطمة فى سعادة بعد أن روت ظمأها ، وأعادت القلة إلى مكانها ، وشرعت تعبر عن بهجتها بالدوران حول نفسها فى حركة استعراضية رشيقة ، وهى تقول فى تخابث وشيطنة :

— ولكنك لم تقل لى حتى الآن رأيك فى تنكرى . . . أولا أصلح بالفعل أن أكون « جماعة الشيخ حسن عبد الجواد الأزهرى ؟

لم يكن هناك من سبيل لتضليل البوليس الذى يراقب حركاتى إلا أن أخرج من المستشفى بهذا الزى . إن المعطف الأسود معطف ماما ، والنقاب نقابها « أيام زمان » والطرحة طرحتها .

وخلعت فاطمة المعطف والطرحة السوداء التى كانت تغطى شعرها الجميل وصدرها معا ، وتبدت لأول مرة مذ جاءت برشاقتها المعهودة وثوبها السماوى الأنيق بخطوطه البسيطة ، وإن ظل الجورب الأسود الغليظ والحذاء الثقيل يلقيان ظلا مضحكا عليها .

وضحكت فاطمة بعد أن تخففت من ملابسها وقالت فى مرح .

— أرجوك لا تنظر إلىّ بهاتين العينين القلقتين ، إنى أقدر لهفتك على أن تعرف كيف جئت . . . ولم يغب عنى الخطر الشديد الذى يمكن أن أعرضك له بحضورى والبوليس يحصى علىّ أنفاسى ، ومع ذلك فلو أنك بسطت وجهك قليلا ، ورفعت عنه هذا العبوس الذى لا يلائمك ، لو أنك عدت إلى طبيعتك المرحة التى تحبب فيك كل من يتصل بك ، إذن لسمعت منى كل شىء ، ولأنهيت إليك على الفور الأنباء الهامة التى حملتنى على الإقدام على هذه المغامرة ثقة منى أنك فى أشد اللهفة على معرفتها .

وهتف فوزى :

— أنباء من خالد ؟

وأشرق وجه فاطمة ببريق النصر ، وقالت وقد توردت وجنتاها :

— ها أنت ذا على الفور تحذر سبب حضورى .

وأوشك فوزى أن يندفع إليها ليعانقها من فرط فرحه ؛ لولا أن كبح جماح نفسه فى اللحظة الأخيرة .

— أنت عظيمة يا فاطمة . . . لقد كنت دائماً عظيمة .

وضحكت فاطمة لأول مرة مذ جاءت بكل قلبها بعد أن زال عنها التوتر ، وقالت تعاكسه .

— الآن أصبحت عظيمة . . . أما منذ لحظات ، فقد كانت نفسك تحدثك بطردى .

واحتج فوزى قائلا :

— ما هذا الهراء ، أمن المعقول أن أطردك ... ولكنها المفاجأة .

وضحكت فاطمة فى خبث وقالت :

— أو بالأحرى خيبة الأمل ، فبدلا من وفاء هانم ، لم تجد سوى متعوسة هانم .

ورق قلب فوزى لفاطمة وقال لها :

— كفاك مزاحا . . . وحدثينى عن الأنباء ، إنها لا يمكن إلا أن تكون طيبة ما دمت بهذا المرح .

وأخرجت فاطمة من حقيبة يدها مظروفا أبيض وراحت تلوح به فوق رأسها وتقول فى خيلاء واعتزاز :

— إنه خطاب .. خطاب بخط يده يا أستاذ .

وانقض فوزى فى سرعة ليخطف الخطاب من يدها ولكنها كانت أسرع منه حركة ، وجرت بعيداً عنه وهى تقول له :

— أ ... أ ... أ من فضلك ، من فضلك هذا خطاب خاص جداً .

وتوقف فوزى فى ارتباك وضيق وهتف بها :

— أو لا تستطيعين التخلى عن شقاوتك فى ساعة الجد .. طمئنينى بكلمة واحدة .. أهو قادم ؟

وظهر الحزن فجأة على وجه فاطمة واختفت كل مظاهر المرح وقالت :

— أمعقول أن يأتى الآن ، لكى يسلمه الإنجليز على الفور لحكومة عبد الإله الذى لن يتردد فى إعدامه كما أعدم بقية الزعماء الذين وقعوا فى يده .

وتنهد فوزى وقال :

— هذا صحيح ، أعطنى الخطاب إذن .

وعادت فاطمة تداعبه :

— أعطيك إياه هكذا مجاناً .. إننى جائعة ، جائعة جدا .

وقبل أن يتحرك فوزى أى حركة ، مضت تقول :

— لا عليك فإن فى هذه الصرة التى أحملها طعاماً يكفى لسد جوع جيش ، ولو كنا فى ألمانيا لصادره هتلر لحساب الشعب . تصور أننى أحمل إليك أربع دجاجات محمرة . .

وأسرعت تفك رباط الصرة ولم تكد تفعل حتى بدأت روائح « الزفر » تفوح منها . ومدت فاطمة يدها بالخطاب إلى فوزى ، بينما

كانت يدها الأخرى تمسك بإحدى الدجاجات وقالت له :

— عليك الآن أن تسد نهمك روحياً ، بينما أسده أنا مادياً . وعلى فكرة ، إن هذه الدجاجات الأربع مرسلة لك مع تحيات شكرى .

وتوقف فوزى عن فض الخطاب . عندما سمع لفظ شكرى ونظر صوب فاطمة التى كانت قد افترشت الحصيرة إلى جوار الطبلية وراحت تقضم ورك الفرخة بشراهة ، وقال لها فى ارتياح :

— أهو شكرى إذن ؟

— ومن غيره يعرف مكانك ، ولولا هذا الخطاب لما سمح لى بالحضور .

وجلس فوزى على الكنبة وقد زال عنه آخر ما كان يعتريه من ضيق وقلق لجهله بالطريقة التى توصلت بها فاطمة لمعرفة مكانه ، وراح فوزى يتأمل الطوابع والعنوان المكتوب .

— إنه من استنبول يا فاطمة ، ومعنون باسمك .

وردت فاطمة وفمها ملىء بالطعام ، فى اختيال واعتزاز :

— طبعاً .. طبعاً يا أستاذ أنا رقم واحد .

على أن هذا القناع من المرح لم يلبث أن سقط عنها من جديد فجأة ، وتوقفت عن الأكل وأجهشت بالبكاء . وفزع فوزى لهذا الانقلاب الذى طرأ عليها ، وأقبل عليها يقول فى جزع :

— ماذا بك يا فاطمة .. لقد أخفتنى .. أبالخطاب خبر محزن ؟

فقالت فاطمة وهى تمسح دموعها وفمها وأنفها :

— كلا اطمئن . . . ولكنى أريد أن أسألك السؤال الذى طالما حيرنى ، كيف طاوعتك نفسك على أن ترسل خالدا إلى العراق .. لماذا أبعدته عنك وعنى . . عنا . . عن مصر ؟

وانفجر فوزى يقول فى غضب :

— إنك آخر شخص ياست فاطمة يحق له أن يسأل هذا السؤال ، أنسيت موقفك عندما جئت توجهين إلينا الإنذار إما أن يعترف لك بحبه أو تتزوجى الدكتور والى شرف الدين ؟

وطفرت الدموع من عينى فاطمة من جديد وقالت :

— رحماك يا فوزى ، لا تكن قاسيا على . . لماذا تسميه إنذاراً . . هل رجوت إلا كلمة و ... مجرد أمل !

— ومع ذلك فقد كان مجرد التلويح بالدكتور شرف الدين الأستاذ المساعد بكلية الطب ، كافيا لإحراجه وإحراجى . أعرفت الآن لماذا تحمست لسفر خالد إلى العراق . . إن هذا الخاطر لم أبح به لإنسان فى الدنيا غيرك الآن . . وقلبى يحدثنى أن خالد ما كان بدوره ليسافر لولا كرامته المجروحة .

وأجهشت فاطمة بالبكاء وقالت :

— حسبك .. حسبك يا أستاذ فوزى يظهر أننى ولدت والتعاسة توأمان ، لم أكد أفتح عينى حتى كان والدى يموت ، وعشت أتجرع هوان حياة أختى أزهار ، ولا أكاد أنخر بها وأعتز حتى تموت ،

ولا أكاد أظفر بحب الرجل الذى يملأ على نفسى حتى تفرق بينى و بينه الأيام .. إننى تعيسة يا فوزى .

وذاب قلب فوزى شفقة على فاطمة وأحس بدافع قوى إلى أن يضمها إلى صدره فى حنان ، وحار ماذا يقول أو يفعل . وأخيراً وجد فى مطالعة الخطاب مخرجا مما كان يعانيه .

عزيزتى فاطمة :

ها أنذا أختارك لتكونى أول من أكتب له بعد إبلالى من المرض ، ولتكونى أنت التى تزفين البشرى « لأخى الكبير » ووالدتى وجميع الإخوان . وقد حان الوقت لتعلمى أيتها الحبيبة أن سبب استفحال المرض ، هو الخلاف الذى دب بين الأطباء المعالجين ، والمهم أننى نجوت أخيراً وأصبحت بصحة وعافية ، وقد تنقلت فى أكثر من بلد التماساً للنقاهة حتى استقر بى المقام فى استنبول .

وليس هناك مايشغلنى الآن ، إلا ما ترامى إلى سمعى من أن الأطباء عندكم قد أدخلوا « أخى الكبير » أحد المستشفيات فهل هذا صحيح ؟ ما أخباركم ؟ ما أخبار الأسرة ؟ أرجو أن تطمئنينى بأسرع ما تستطيعين ، اكتبى لى على العنوان المرفق ، وأوصيك بوالدتى ، خففى عليها وطأة غيابى عوضيها بحبك وعطفك عما افتقدته منى . فكرى دائماً أنى أحبك .. أحبك وسيظل حبك إلى جوار حبى لأخى الكبير وبلادى ، هو شعاع النور الذى يضىء ظلام حياتى .

« صابر »

ولم يستطع فوزى أن يغالب عاطفته فأجهش بالبكاء وراح يقول كما لو كان امرأة تنوح وتعدد :

— أجل .. صابر .. صابر وإمام الصابرين يا خالد .

وشاركت فاطمة فوزى بكاءه ، وسادهما الصمت الكئيب فترة طويلة ، وإن كان حزنهما المشترك قد وحد بينهما مما أشعرهما بقبس من الراحة . وكانت فاطمة أول من قطع حبال الصمت :

— لم يفتك طبعاً كيف حدثنا عن كل شئ بدون حاجة لاستعمال شفرة .

— طبعاً .. طبعاً .. فشلت الثورة العراقية لاختلاف زعمائها ، إنها مصيبة الشعوب العربية ولعنتها منذ القدم . . هذه الخلافات التى تودى بها نحو العدم كلما حاولت أن ترفع رأسها . ثم مضى يقول :

— ويظهر أن أنباء صدور الأمر باعتقالى قد وصلت إليهم . وكيف حال والدة الدكتور خالد ألست تزورينها كثيرا كما يطلب منك .

— أنها لا يرقأ لها دمع لا ليلا ولا نهارا ، ولا تكاد ترانى حتى تجهش بالبكاء وتروح تعانقني وتقول لى « تعالى ياعروسة خالد » . . . أين كنت يا فاطمة منذ زمن بعيد . . . كيف لم تستطيعى يا فاطمة أن تحولى بينه وبين السفر ، لأسعد بكما وأفرح .

ومن جديد لم يتمالك فوزى نفسه من شدة التأثر ، لولا أن ارتفع صوت صفية ابنة صاحب البيت يقطع عليهما مشاعرهما وهى تصيح :

— ياعم الشيخ حسن ، افتح وخذ العشاء الذى أرسلته أمى للست هانم .

وأسرعت فاطمة تفتح الباب ، فصاحت صفية بمجرد رؤيتها لها :

— الله .. انت حلوه قوى ياست وفاء هانم ، جماعتك حلوة يا عم الشيخ حسن .

وارتبكت فاطمة لتسميتها بوفاء ، ولكن موجة خفية من الغبطة بالثناء على جمالها غمرتها ومدت يدها تأخذ الصينية التى كانت تحملها وهى تقول لها :

— لماذا هذا التعب ياصفية .. قولى لوالدتك تسلم يداها .

وردت صفية تقول :

— والنبى أمى تقول إن هذا الطعام ليس على قدر المقام ولو كانت تعرف بتشريفك فى وقت مبكر لذبحت لك خروفاً .

ولم تجد فاطمة ما ترد به على هذا الكلام اللطيف إلا أن تسرع وتأخذ دجاجة وفطيرة « مشلتتة » مما أحضرته وتضعها فى طبق وتقول لصفية :

· قولى لأمك ، النبى قبل الهدية .

ولمعت عينا صفية لمنظر الدجاجة المحمرة والفطيرة المشلتتة وسال لعابها ، على الرغم من محاولتها أن تعتذر فى أدب ، ولكن فاطمة ألحت عليها ، فأخذت الفتاة الهدية وهى تطل برأسها وتحرص على إسماع صوتها للشيخ حسن .

— ربنا يخلى لك الست هانم ياشيخ حسن ، والنبى هى طيبة وحلوة مثل القمر .

* * *

٨

انزعج فوزى أشد الانزعاج ، لهذا المزج بين شخصيتى فاطمة بوفاء وقد أرقه هذا الخاطر وظل يلح عليه ويتفاقم مع توالى ساعات النهار وحلول الليل ، ولم يغمض له جفن من فرط ما كان يعانيه من وساوس وهموم وخواطر غامضة . كان أول ما فكر فيه فوزى بعد أن ذهب عنه روع المفاجأة وأثر الأخبار الطيبة التى حملتها له فاطمة ، إنها يجب ألا تبيت معه فى الشقة وأن تسافر فى أول قطار إلى القاهرة . ولكن الجو الذى خلقه أصحاب البيت ، وسرى منهم إلى بقية الجيران جعل تنفيذ هذه الرغبة مخاطرة شديدة تثير الشكوك فى أن تكون فاطمة بالفعل زوجته ، فليس أقل من أن تبيت الليل مع زوجها لتسافر فى الصباح بحجة رغبتهما فى أن تعود بأسرع وقت لأولادها .

وهكذا استقر الرأى على ضرورة أن تمضى الليل معه . وكان ما يؤرق فوزى ويشغل باله ، هو وقع هذا الخبر على وفاء عندما يصلها ، عندما تعرف أن فاطمة قد باتت معه بمفردها ، باعتبارها زوجته ونادتها الناس باسم وفاء ؟ واحتج على نفسه قائلا : ولكن أنى لوفاء أن تعرف ، إنها يجب ألا تعرف ولن تعرف . على أن فوزى لايلبث أن يهز رأسه فى يأس وأسى : إنها ستعرف . . ستعرف من غير شك ، إن هذه الأخبار تصلها دائما كما لو كانت مغناطيسياً ، بل ستقول لها فاطمة نفسها الخبر ببراءة بمجرد وصولها إلى القاهرة . إن فاطمة لا تعرف الأزمة التى ثارت بين وفاء وبينه بسببها ، وسيخيل لها أنها

ستبهج وفاء عند ما تطمئنها على فوزى وأحواله ، وأنها ستضحكها على تقمصها شخصيتها .

وفزع فوزى لهذه الصورة وقرر أن يحذر فاطمة من أن تقول شيئاً عما حدث لوفاء .. ولكنه لم يلبث أن أحس بشيء من المهانة والحرج من فكرة التحذير ، أليس فى هذا خدش لكرامته وكرامة فاطمة وكرامة وفاء نفسها .. لا. إنه لن يحذر فاطمة .. ليدعها تتصرف على سجيتها وليكن ما يكون . إن وفاء مجنونة وحمقاء فى هذه الناحية . ويشعر رغم أنفه بالسخط على وفاء .

ويرهف فوزى سمعه نحو حجرة النوم ، فيسمع صوت أنفاس فاطمة تتردد فى هدوء ، كاشفة عن نومها العميق الهانىء . ويرخى فوزى لنفسه فى هدأة الليل العنان ، ليتأمل شخصية فاطمة ، لقد كانت تتصرف فى براءة ، ولم تر حرجا فى عمل أى شيء مما فعلت ، ولعل فكرة خلوتها مع فوزى لم تطرأ لها على ذهن ، فلم تكن هذه أول مرة يبيتون فيها سويا دون أن يسودها سوى شعور الأخوة والزمالة بالجهاد ؟

سامحك الله يا وفاء .. لماذا .. لماذا بذرت فى نفسه هذه الفكرة البغيضة ، فكرة احتمال أن يكون بينه وبين فاطمة علاقة حب غير أخوى . ويتحرك فوزى فى تململ ، وعلى أى حال فسوف تسافر . ولا تكاد ترتاح نفسه لهذا الخاطر حتى تتراقص من جديد فى ذهنه صورة فاطمة ، وهى تحييه تحية المساء ، وهى تخب ضاحكة فى أحد جلاليبه التى أصرت على لبسها ، وهى تقضم ورك الفرخة . ويحس



بضيق غامض ، ولا يجد له فى نهاية الأمر إلا أن يفزع إلى الصلاة . وتسكن نفسه بتلاوة القرآن ، ويحس بومضات من التلاشى والفناء فى ركوعه وسجوده ويهتف من أعماق روحه ووجدانه :

— رب . . رب ، يا من ترانى وتسمعنى ، هل أنت راض عنى . . هل أنا على الطريق المستقيم ؟ ولا يلبث أن يحس بلذعة الألم والشك :
— آه لو كنت واثقاً من أنك راض عنى .

٩

لم يكد فوزى يرجع من توصيل فاطمة إلى قرب المحطة حتى أخبره عم حسنين البقال ، أنه يستريب فى شخص كان يسأل عنه ويدقق فى السؤال ، ويطلب منه أن يصفه له .

ولم يكن لدى فوزى أى ذرة من الشك وهو ينطلق بعد سماع هذا القول قافزا فوق درجات السلم أنه البوليس ، وقرر أنه يجب أن ينفذ ما سار عليه حتى الآن ، وهو أن يغادر المكان على الفور لدى أى بادرة تجعله غير مطمئن .

ولكنه لم يكد يضم ملابسه فى الحقيبة ويتهيأ لمبارحة الشقة بصفة نهائية ، حتى وجد نفسه يتوقف فجأة متسائلا :

— إلى أين ؟

وتتوالى على رأسه عشرات الإجابات . . . إلى أحد الفنادق ربما يغادر البلدة ، أو إلى شربين ، أو إلى المنصورة ، المهم هو أن يبتعد

عن هذا المكان على التو . . . حالا . . . فورا . . .

ويحس فوزى بالحماس يتسرب منه وبموجة من الضعف والتخاذل تسيطر عليه :

— وما نهاية ذلك كله . . ؟ إلى متى يظل مطاردا . . . وكلاب الدولة كلها فى أعقابه ؟ أى جدوى من مواصلة هذا اللون المضحك من الكفاح .. أهو واثق أولا وقبل كل شىء من أن هذا الذى يفعله ، وهو يتزيا بزى شيخ ويطيل لحيته ، ويتقعر فى حديثه ويعرج فى مشيته ، أنه يكافح ؟ إن جمهرة إخوانه المكافحين المناضلين قد أصبحوا داخل المعتقل ، ولم يعد لحريته بعيداً عنهم أى معنى إلا أن يقع فى مثل المأزق الذى كان فيه بالأمس . والحرب ، الحرب التى كان يظن أنها مسألة أشهر ، إن لم تكن أسابيع بدأت تطول ولا يعرف لها نهاية قريبة ، وخاصة بعد أن بدأت مقاومة الروس تشتد ، كلما أوغلت الجيوش الألمانية فى سهول روسيا ، واقتربت من مدينة موسكو .

ويظهر العزم والتصميم على فوزى :

— لا . إنه لن يهرب هذه المرة . . فليأت البوليس . . فليأت وليكن ما يكون .

ولكن البوليس لا يأتى ، ويمضى فوزى ليلة أخرى ليلاء من السهاد والترقب والتوتر والقلق . .

وأشرقت الشمس وطلع النهار ، وأيقن فوزى أنه عذب نفسه لمجرد وهم من الأوهام ، فسقط فى سبات عميق وهو جالس بملابسه الكاملة

فوق أحد الكراسى إلى جوار النافذة المطلة على الشارع والتى ظل يرقب منها طوال نهار أمس وليله مقدم البوليس . ولم يعرف كم مر عليه من الوقت وهو على هذه الحالة ، عندما فتح عينيه فى فزع على صوت طرقات على الباب .

وحبس فوزى أنفاسه وهو يسمع صوت لغط خارج باب شقته فوق السطوح ، وصوت أقدام كثيرة تحتك بالأرض .

— قلت لكم لا يوجد أحد هنا ، ألم يقل البقال إنه خرج منذ صباح أمس مع زوجته ولم يعد .

وكاد فوزى يصرخ ، فقد كان الصوت . . صوت الصاغ إبراهيم علام ولكنه حبس أنفاسه أكثر وأكثر وضغط بيده على قلبه الذى أوشك أن يقفز من بين ضلوعه :

— نكسر الباب يا أفندم .

— كلا . . كلا لا أوافق على ذلك ، كفانا فضائح . . أتريدون من بوليس طنطا أن يضحك علينا . . أنا متأكد أن فوزى ليس هنا .

وأعاد أحد رجال القوة طرق الباب بشدة حتى كاد الباب أن ينخلع ، ولكن علام انتهره وطلب منه الكف عن هذه المحاولة وأصدر أمره بالانسحاب .

ودارت الصور والذكريات المُرة ، والمواقف المحرجة ، فى ذهن فوزى . . كل هذا الذى ظل يعانيه خلال الشهور الأربعة الماضية من

توتر وقلق واضطراب ، وهو لا يتكلم إلا همسا ولا يسير إلا ليلا ، ولا يتحدث مع الناس إلا كذبا . . لا . إن هذه فرصته الذهبية ولن يضيعها ، إن الله هو الذى أرسل إليه علام ليكون هو من يسلم نفسه إليه ، ليكون واثقا من أنه سيعامله بأدب وكرامة ، وهرع نحو الباب صائحا :

— انتظر . . انتظر يا علام بك . . أنا فوزى . . أنا هنا .

١٠

وقف رجلا البوليس الملكيان يتشاغلان بالحديث فى حجرة المحفوظات « الدفترخانة » بينما كان بيومى رمضان يبحث لهما عن الملف الذى جاءا يطلبانه .

ومال أحدهما على الثانى وقال له :

— أرأيت الحظ ياعم عندما يضرب ، لقد ترقى اليوزباشى إبراهيم علام إلى رتبة الصاغ منذ شهر فقط عندما قبض على عزيز باشا وهو يبحث عن فوزى السيد ، وها هو يرقى إلى درجة البكباشى بعد أن اعتقله هنا فى طنطا .

وسقط الملف من يد بيومى الذى سمع هذه العبارة الأخيرة بينما كان الرجل الثانى يقول لصاحبه :

— كاد سعادة المأمور يجن عندما سمع بمجىء إبراهيم علام للقبض على فوزى السيد ، راح يسب ويلعن ويقول هل نحن هنا طراطير ،

ألست أحق بالترقية من علام وأنا أقدم صاغ ألسنا نشتغل بالليل والنهار ، فى حوادث الأمن والتموين والبلاوى ووجع القلب .. ثم يأتى سى علام لكى يقبض على فوزى السيد ، ويترقى إلى البكباشى وهو الذى كان يوزباشياً منذ شهر واحد ، بينما أنا أقدم صاغ فى الدولة آكل طينا وزفتا .

ورد رجل البوليس الثانى :

— وسعادة الحكمدار لم يكن يقل غضباً عن المأمور ، وسمعته يندد بوليس مصر ويقول إنه لو ظل مائة سنة لما استطاع أن يقبض على فوزى السيد ، لولا هذه الإخبارية التى تقدم بها الأميرالاى شاهين .

وامتقع وجه بيومى وهو يسمع اسم الأميرالاى شاهين مقترناً باعتقال فوزى السيد واقترب من الرجلين وهو يرتعش وقال لهما :

— هذا هو الملف المطلوب ، من فضلكما فليوقع أحدكما بالاستلام . ووقع أحد الرجلين . . ولم يكد الرجلان يهمان بالتحرك حتى استوقفهما بيومى :

— من فضلك . .

— أفندم ؟ !

— هل الأميرالاى شاهين الذى كنتما تتحدثان عنه ، هو الأميرالاى شاهين السلانكلى مدير القرعة ؟

— وهل هناك غيره ؟ أتعرفه يا حضرة الأفندى . . ألك معه واقعة جنائية . . أم واقعة غرامية . وانصرف الرجلان وهما يقهقهان .

ودارت الدنيا حول بيومى ، وأحس برأسه توشك أن تنفجر ، شاهين السلانكلى يتسبب فى اعتقال فوزى السيد ؟! ومن أنى لشاهين أن يعلم بوجود فوزى السيد فى طنطا إلا أن يكون ذلك عن طريق عطيات زوجته ؟ ! ولكن ألم يحذر عطيات ، ألم ينبه عليها أن لا تقول شيئاً لشاهين ؟ وتسود الدنيا فى عينيه ويتصاعد الدم إلى رأسه من جديد .

انه يجب أن يخرج ، أن يقصد إلى البيت حالا ، ليعرف ، ليتحقق .

ولأول مرة فى حياته الوظيفية يشعر بالاستهانة بالرؤساء واللوائح والقوانين ، انه لن يستأذن أحدا .

وفوجئت عطيات بعودة زوجها فى غير الموعد المعتاد ، وهو ممتقع الوجه متقطع الأنفاس ، وسألته فى جزع :

— ما بك يا بيومى ؟

ولم يرد بيومى على زوجته إلا بعد أن أمسك يدها فى شدة وعنف وسألها فى صرامة :

— هل تحدثت عن موضوع الشيخ الذى زارنا للباشا ؟

وانتزعت عطيات يدها من يد بيومى محتجة فى صخب :

— طبعا وقلت له ، أتريد أن نخفى عنه هذه الأمور ؟

— ولكنى حذرتك يا عطيات وطلبت منك ألا تقولى له شيئاً وإلا غضبت عليك .

وصرخت عطيات فى وجه يومى :

— منذ متى ياسيد يومى تخاطبنى بهذه اللهجة ، ماذا جرى لعقلك ، أنسيت أنى لم أتزوجك إلا إكراما لأمى ، أنسيت أنه لولا الباشا لكنت الآن صائعاً ضائعا ؟ كيف تنسى أنه سيدنا وتاج راسنا .

— وصرخ يومى لأول مرة فى وجهها فى انفعال شديد :

— سيدك انت فقط ، أما أنا فلا سيد لى إلا ربنا ، إننى برىء من هذا الرجل .

وصعقت عطيات من هذا الهجوم على الباشا . ودوى فى هذه اللحظة صوت انكسار طبق ، وارتفع على الأثر صراخ ابنهما محبوب ، فأسرعت عطيات إلى المطبخ وعادت تحمل ابنها بعد أن لطخ ملابسه بالطعام الذى أريق عليه بعد انكسار الطبق . وتعالت صيحات الطفل عند رؤية أبيه ، فلطمته أمه على وجهه صارخة فى وجهه فازداد الطفل هياجا ، بينما لم يجد يومى مايفعله إلا أن ينطلق خارجاً من البيت عازفا عن تناول الطعام .

وقادته قدماه إلى المسجد البدوى ، فلم يكن هناك مايهدىء الثورة الجارفة التى اجتاحت نفسه إلا أن يلوذ بالصلاة .

واقترب منه عقب الصلاة طالب أزهرى :

— سلام عليكم .

ونظر إليه يومى بعينين زائغتين وهو يرد السلام بحركة آلية .

— أولم تعرفنى ، أنا عبد العزيز ، ابن الشيخ الدسوقى .. أنسيت ؟

وومضت فى رأس بيومى صورة الشاب الذى تحدى شاهين السلانكلى وكاد يفقد حياته ثمناً لذلك فوثب واقفا على قدميه وراح يعانق عبد العزيز فى شدة وحرارة :

— كيف حالك ، كيف حال والدك .. ماذا فعلتما بعد ترك العزبة ؟

— ماذا تتصور .. إننا لم نمت جوعا .. بل نحن الآن أفضل مما كنا فى العزبة المجاورة ، وقد رفع لنا أحد إخوانى المجاهدين من المحامين قضية .

وأطرق بيومى برأسه :

— أسمعت أن الأستاذ فوزى قد اعتقل ؟

— نعم سمعت .

— هل علمت أن شاهين بك هو الذى أرشد عنه ؟

— لا لم أسمع ، وقيل إن بوليس مصر تعقب إحدى الزميلات عندما جاءت لمقابلة الأستاذ هنا .

وقال بيومى فى شدة :

— لا .. لا تصدق ، إنه هذا الرجل هو الذى أوقع به .

وسأل عبد العزيز فى دهشة :

— ولكن من أين عرفت ذلك .. وما صلة شاهين بفوزى ؟

وقص بيومى على عبد العزيز ما مرّ به من حوادث مذ قابل فوزى السيد فى المسجد البدوى ، حتى سمع من رجل البوليس نبأ اعتقاله .

وامتقع وجه عبد العزيز لفرط انفعاله وقال :

— الويل لهذا الرجل المجرم ، كم أتمنى لو أقتله وأخلص النـاس من شروره . ماعلاقتك به يا بيومى أفندى أهو قريبك ؟

وراح بيومى يحدث عبد العزيز بقصته وعلاقته بشاهين السلانكلى ، وكيف تعرف به ، وطلب منه أن يعتبره كوالده وألحقه بالعمل فى الحكومة وراح ينقله معه أنى سار وحيث ذهب .

وروع عبد العزيز رغم حداثة سنه وقلة تجاربه وهو يتابع عناصر المأساة التى أحس بوجدانه أن بيومى رمضان كان غارقاً فيها دون أن يحس أو يشعر ، ولم يتمالك نفسه من أن يقبل على بيومى ويقـول له فى صرامة :

— اسمع يا بيومى افندى . أنا أصغر منك سناً ، وليس من حقى أن أتدخل فى شئونك الخاصة ، ولكنك يجب أن تقطع علاقتك فوراً بشاهين هذا وألا تسمح له بعد اليوم أن يتردد على بيتك .

واصفر وجه بيومى وقال :

حقًّا لقد بدأت أشعر بكراهة نحو هذا الرجل ، ولكن ماتدعونى إليه مستحيل ، إنه يعاملنى أحسن معاملة ، وهو الذى وظفنى ويساعدنا فى حياتنا .

— يا بيومى أفندى . . ابعد عن طريق هذا الرجل . . إنه رجل

شرير وعربيد وزير نساء وحديث استهتاره وتهتكه ملأ الأسماع ، لقد اعتدى على عفاف أكثر من فتاة عذراء فى العزبة ، وكانت آخر حوادثه ومآسيه هو اعتداؤه على ابنة أحد مستأجرى الأرض عنده ، ولما انفضح أمرها قتلها أبوها ، وحكم عليه بخمس سنوات مع الأشغال الشاقة . . كيف لم تسمع هذه الحكايات عندما ذهبت إلى العزبة .

وارتجف بيومى فى شدة وعنف كما لو كان قد مس بتيار كهربائى وغمغم :

— شاهين السلانكلى زير نساء ؟! شاهين السلانكلى يعتدى على الأعراض ؟!

وأشفق عبد العزيز على بيومى الذى كانت أسنانه تصطك وكل مافيه يرتعش فأمسك به وحنا عليه وقال له :

— يؤسفنى يا بيومى أفندى أن حدثتك بما يضايقك ، ولكن قلبى قد تفتح لك ، ولم أستطع أن أقاوم أن تعيش وأنت الرجل الطيب ، جاهلا ما يجرى من حولك .

ولم يرد بيومى على عبد العزيز ، ولكنه أسرع يهرول خارجاً من المسجد ، ولم يتبين إلا بعد أن قطع شوطا كبيراً فى الشارع أنه كان حافى القدمين ، وأنه يمسك بحذائه فى يده .

١١

ظل يومى منطلقا هاربا بنفسه من هول ما سمع . لم يكن ثمة شيء واضحا فى نفسه أو فكرة محددة فى ذهنه .. كان يحس بأنه غارق فى خضم من الانفعالات المتلاطمة المتصادمة الغامضة . . يخيل له تارة أن جسده يوشك أن يحترق بالنيران المستعرة فى جوفه . . ثم يشغله عن النيران المستعرة ما يتخيله مطارق تهوى فوق رأسه ، ويفزعه طنين كالرعد يدوى فى أذنه ، ليكتشف بعد ذلك أن العرق الغزير يتصبب من كل ذرة فى جسده .. ولا يجد ما يفعله إلا أن ينطلق فى سير أشبه بالعدو ، حتى ألفى نفسه فى خاتمة المطاف بعيداً عن المدينة الكبيرة تائهاً وحيداً بين الحقول والمزارع ، والشمس تؤذن بالمغيب وقد بدأ نقيق الضفادع وصفير الصراصير يتعالى ويرتفع ويتلاحم .

وهوى من فرط الإعياء عندما لم تستطع قدماه أن تحملاه أكثر مما حملتاه ، ووجد نفسه يحدق فى قرص الشمس الأحمر الغارب . . إنه لم ير الشمس فى أى يوم من أيام حياته بهذا اللون الأحمر القانى .. أو لعله رآها دون أن تستوقفه كما استوقفته فى هذه اللحظات . . ما أعجب هذا اللون الذى يلف الوجود كله من حوله ؛ وساورته أفكار عجيبة ، وناوشته خواطر جعلته ينكر نفسه . . أيكون قد جن ؟ ويثب واقفاً ثم يروح يعدو من جديد صوب المدينة . . صوب البيت وهو يصرخ :

— مستحيل . . مستحيل .. أيكون محبوبا . ؟! أيكون الوليد القادم بعد أسابيع ؟!

ويغطى عينيه بيديه ، ويختفى قرص الشمس ، وتسود الكون الكآبة والحزن وتهطل الدموع من عينى يومى ويبكى فى مرارة كما لم يحس أنه بكى فى يوم من الأيام . .

لماذا . . لماذا يارب ؟

* * *

وعاش يومى خلال الأيام التالية فى دوامة رهيبة ، ولم يستطع أن يخرج من هذه الأزمة القاتلة التى عرضت له وجعلت منه إنساناً جديداً ، إلا بعد أن قرر أن يقطع كل صلة بشاهين السلانكلى وأن يهرب بنفسه وزوجته وابنه من طريقه . فسعى عند مدير المديرية لكى ينقل إلى بلدة دسوق ، وتم النقل بالفعل رغم معارضة زوجته عطيات التى روعها هذا الانقلاب المفاجئ فى شخصية زوجها وتصرفاته ، وحارت ماذا تفعل ولا كيف تتصرف ، فتركت الأمر لشاهين السلانكلى ليرى فيه رأيه ويعالجه ، ولكن لسوء حظها وخيبة أملها مضت الأيام تتلوها الأسابيع دون أن يظهر لشاهين السلانكلى أى أثر ، مما حول حياتها إلى جحيم ، وخاصة بعد تنمر يومى لها وحظره عليها الخروج من البيت لأى سبب من الأسباب .

وبدأت نفس يومى تهدأ كلما طالت غيبة شاهين ، وكثيرا ما راح

يسال نفسه : ألا يكون قد تسرع فى فعل ما فعل ، وتطوح أكثر مما ينبغى مع الظنون ؟ ولكنه لا يلبث أن ينفض عنه هذه الوساوس ويطردها مستشعرا الرضا عن حياته الجديدة ، التى بدأ يشعر فيها بوجوده وكيانه ، وأنه أصبح لأول مرة فى حياته يعيش معتمدا على نفسه ، سيدا لبيتة . لقد صار رجلا . . . صار رجلا ، والفضل فى ذلك بعد الله ، لفوزى السيد وصاحبه عبد العزيز .

الجزء الثاني

اللهب

الفصل الأول

١

كان الشتاء فى باريس قارصاً ، يزيد فى قسوته قيود الحرب الصارمة التى حالت دون ما اعتادته باريس من ترف بتدفئة بيوتها وفنادقها إلا من ساعات محدودة ، وهذا ما جعل الدكتور سليم أحد المصريين الذين كانوا لا يزالون يقيمون بها — بعد أن حالت الحرب بينهم وبين العودة إلى مصر — ، لا يكاد ينسل من الفراش الدافىء الذى لم ينعم به منذ أسابيع ، بعد أن أدفأته هذه الليلة صاحبته سوزى ، حتى شعر بعضة البرد وقشعريرته فى جو الحجرة . . . وكاد يعود إلى الفراش ثانية ، ولكن الفكرة التى أيقظته فى هذا الصباح المبكر وأبعدته عن الفراش ، لم تلبث أن أعادت إليه عزيمته وتصميمه .

إنه يجب أن يتخلص من سوزى قبل أن يجىء الدكتور خالد .

ونظر الدكتور سليم إلى سوزى التى كانت لاتزال نائمة ولم يستطع أن يقاوم موجة الحنان والعطف اللذين ملأا نفسه حيالها ، لقد جعلت ليلته الأخيرة فى باريس دافئة ممتعة ، لقد هاجت فى نفسه ذكرى لياليه العاطرة طوال السنوات التى عاشها قبل اندلاع الحرب ، قبل أن تتحول باريس مدينة النور إلى مدينة الظلام ، قبل أن تتحول إلى مدينة محتلة

ذليلة تذرع شوارعها الدبابات الألمانية، ويرفرف على جنباتها علم النازى الأحمر بصليبه الأسود المعكوف . وانتفض قلبه كما ظل ينتفض منذ سمع بهذا النبأ السعيد وهو إمكان عودته إلى مصر ، وراح يتساءل للمرة الألف :

— أصحيح سأغادر باريس الليلة ، وأنجو بنفسى من هذا الجو الخانق المشحون بالرعب والخوف والقلق . . . أأعود إلى مصر . . . مصر الحبيبة ، وشمسها الدافئة وسمائها الصافية ... أأعود إلى معانقة أمى وإخوتى ، وأسير إلى جوار النيل الدافق ، وأسهر عند الهرم فى ضوء القمر ؟ هل سيقدر الله لى أن أنجو من براثن الجستابو ، وأسئلة الجستابو وتحريات الجستابو .. أأعود إلى الشبع والرى والأمان ... ؟

وكانت حقائبه المعدة والمجهزة فى ركن من الحجرة . . . والساعة التى تقترب من الثامنة ، حيث يجيئه الدكتور خالد أمين بجواز السفر والتذاكر وكل الأوراق اللازمة لذلك ، هى الدليل القاطع على أنه لا يعيش فى وهم أو خيال .

ولم يكد يذكر قرب مقدم الدكتور خالد . . . حتى سرت من جديد فى أوصاله رعدة الخوف من أن يرى عنده سوزى ، فغمغم من جديد :

— إنها يجب أن تنهض ... إنها يجب أن تنصرف

ونظر إليها فى عزم وتصميم على وجوب إنهاضها ، ولكن براءة الأطفال التى كانت مرتسمة على وجهها الملائكى وخصلات شعرها

الذهبى المتناثر فوق الوسادة . . جعله يتوقف ويعجب كما كان لا ينفك يعجب منذ عرف سوزى ، كيف يكون لهذه الغانية اللعوب المتاجرة بجسدها على أوسع نطاق ، هذا الوجه الملائكى البرىء ؟ وكان الغطاء قد انحسر عن كتفها العاجى العارى ، فأخذته بها الشفقة وهم أن يغطيه من جديد خوف البرد ، ولكن شبح قرب وصول الدكتور خالد قضى على هذا الخاطر وأحل محله ضرورة العمل على التخلص من سوزى قبل مقدمه . وانحنى على شفتى سوزى وراح يقبلها فى خفة فى بادىء الأمر ... فلما لم تستيقظ زاد من ضغطه وبدأ يستعمل يديه فى العبث بصدرها بدلا من فمه .

وفتحت الغانية الباريسية ، عينيها الزرقاوين فى إعياء وذبول . . . ولم تكد تعى ما حولها حتى ابتسمت لصاحبها ، ثم لم تلبث أن أغلقت عينيها من جديد ، والتفت بالأغطية أكثر وأكثر وهى تغمغم بلهجتها الباريسية :

Comme C'est beau كم هذا جميل ... إنه يذكرنى بأيام زمان .

وهتف بها الدكتور سليم :

— سوزى اذكرى ما اتفقنا عليه بالأمس ، من أنك يجب أن تنصرفى قبل الساعة السابعة فإنى أنتظر زائرا هاما .

وقذفته سوزى بسيل من العبارات البذيئة تعبر بها عن رأيها فيه وفى زائره الخطير .

واحمر وجه الدكتور سليم لأول مرة وارتجف بدنه وهو يسمع هذه الكلمات تنهال على زائره الذى لم يكن سوى الدكتور خالد .

وانتهر سوزى داعيا إياها أن تكف عن هذا الفحش والبذاءة .

ولم يكن لهذا العنف من أثر على سوزى إلا أن ضاعفت فى عباراتها مصحوبة بأصوات وحركات خليعة

وكاد سليم يجن من الرعب ، وقال لها :

— أرجوك ياسوزى ياحبيبتى ، إنك فتاة طيبة ، وقد طلع النهار ، إنك يجب أن تقومى وإلا سببت لى ضررا كبيراً ..

وعنّ لسوزى خاطر فإذا هى تنهض فجأة لتجلس على الفراش وقد ارتسم على وجهها قلق شديد :

— أيكون زائرك هذا من رجال الجستابو ؟

واحمر وجه الدكتور سليم خجلا وحياء من مجرد اقتران كلمة الجستابو فى رأسه بالدكتور خالد أمين وهتف فى وجهها صارخا :

— أعوذ بالله ... إن زائرى قديس .

وهدأت نفس سوزى وعادت واستلقت على الفراش فى دلال وقالت :

— إذن لا يهمنى أن يرانى ... إننى أحب القديسين . . . اتركه لى قديسك هذا لترى كيف أسيل لعابه .

وزاد ارتباك الدكتور سليم ، فأقبل على سوزى ، راجيا ومتوسلا أن تنفذ ما اتفقا عليه وألا تحرجه أمام صاحبه . وقالت سوزى وقد انقلبت سحنتها فى غضب :

— اسمع ، إذا كنت ستصر على خروجى الآن فى هذا الصقيع ، فلن ترى وجهى مرة ثانية ، ولن أذهب كما وعدتك إلى فندقك الجديد يوم الخميس القادم .

وإذ كان الدكتور سليم يعلم أنه لن يرى وجهها فعلا بعد اليوم ، وأنه اخترع لها حكاية الفندق الجديد ، ليعلل لها حقائبه المجهزة للسفر ، فقد مضى فى ضغطه عليها للنهوض والانصراف .

ولم تكد سوزى تشرع فى ارتداء ملابسها ، حتى دق جرس التليفون فى الحجرة ، وانخلع قلب الدكتور سليم ، فلا يمكن أن يكون هذا الجرس إلا إيذانا بمقدم الدكتور خالد ونظر إلى سوزى فى ارتباك وقلق وقال لها :

— أرأيت . . . ماذا أفعل الآن ؟

وقذفته سوزى بأحد فردتى الحذاء التى كانت فى يدها ، وسط سيل من شتائمها الباريسية وعباراتها الخليعة .

على أن الدكتور سليم لم يلبث أن سُرّى عنه عندما علم من صاحبة الفندق التى كانت تخاطبه فى التليفون ، أن القادم هو « مسيو عدنانى » زميل الدكتور خالد أمين وليس هو ، وأسرع سليم يطلب من صاحبة الفندق أن ترجو الزائر أن يتكرم بالصعود إلى حجرته . وعندما وصل عدنانى الضابط السابق بالجيش العراقى إلى حجرة الدكتور سليم فى فندق « كليات الجامعة » ووقع نظره على سوزى التى تضع اللمسات

الأخيرة من زينتها أشرق وجهه بابتسامة عريضة احتفالا بجمالها ، بينما كان الدكتور سليم يسأل فى لهفة :

— أين الدكتور خالد ؟

— لا يزال عليه أن يتم بعض الإجراءات فى دائرة الأمن العام ولما علم أنه سيتأخر عليك أرسلنى كى أطمئنك إلى أن كل شىء يسير على ما يرام ، وسيكون هنا فى الساعة التاسعة . وظهر الابتهاج على وجه الدكتور سليم ، وتنهد فى ارتياح ، وسألته سوزى التى لم يفتها هذا الانقلاب الذى طرأ عليه .

— ألم يأت الوحش الذى ملأك بالرعب وجعلك جلفاً غليظاً ؟

— سوف يتأخر من حسن الحظ .

فعادت سوزى تقذف من فمها سيلا من الشتائم الباريسية قبل أن تقول فى انفعال :

— هذا شأنكم دائماً أيها الرجال القذرون . . . بودى لو أستطيع أن أمزق أجسادكم ضربا بالسياط وأشوى أبدانكم شيًّا . . . تلهثون وراءنا كالكلاب ، حتى إذا نلتم منا إربكم لا تعودون تفكرون إلا فى مهامكم الحقيرة التافهة ، واندفعت نحو الباب وهى تقول فى غضب :

— لقد كنت مغفلة ومجنونة عندما تركت جاويشا ألمانيا كان باستطاعتى أن أحصل منه على بعض بطاقات للزبدة أو اللحمة ، لأمضى ليلتى معك أيها الجاحد المنكر للجميل .

وأسرع سليم يهدىء من غضبها ويقول لها فى أسف واعتذار :

— سامحينى بالله ياسوزى ... لم أقصد أبدا أن أسىء إليك ، إنك لا يمكن أن تفهمى موقفى . . . خذى . . . إليك . . .

وحاول أن يدس فى يدها بعض أوراق مالية قيمة ، ولكنها صرخت فى وجهه :

— بل هذه الأوراق واشرب مرقتها ، ماجئت معك من أجل نقود . . . ومع ذلك فأى فائدة للنقود التى لا تشترى شيئاً ؟

وابتسم عدنانى وأخرج حافظة نقوده وقال لها :

— إذن دعينى أدفع لك ما هو أحسن من النقود وأسدد دين صاحبى ، وأخرج من محفظته كوبونا أدركت سوزى على الفور من لونه وحجمه أنه يخول حامله الحق فى الحصول على خمس بيضات ، فزال ما بنفسها من غضب ، وشاع فى وجهها الابتهاج والرضا ، وعندما ناولها عدنانى الكوبون ، فاجأته بقبلة حارة طبعتها على شفتيه وهى تقول له :

— أنت رائع . . . مدهش ، إن اسمى سوزى . القطيطة البيضاء . . اسأل عني دائما فى مقهى السوفلو . . أنت تعرف . . على ناصية شارع المدارس والبوليفار .

وهز عدنانى رأسه فى ابتهاج وغبطة :

— أجل . . . أجل أعرف .

وخرجت سوزى مندفعة لتحصل على بيضاتها الخمس .

وقال الدكتور لعدنانى بعد أن تنهد فى ارتياح :

— شكرا لك على معاونتك ، إنها فتاة لطيفة ، لم أقابلها منذ بضعة أشهر ، وقد وجدتها فى مقهى السوفولو بعد أن تركت الدكتور خالد واشتهت نفسى أن أودع ليلتى الأخيرة فى باريس معها ، ولكننى كنت فى رعب من أن يراها الدكتور خالد عندى إذا حضر ولكن الله سلم .

— إننى أدرك شعورك ، أنا نفسى أحس هذا الإحساس حيال الدكتور خالد ، بالرغم من لطفه ورقته ، وجميع إخواننا فى برلين يكفون عن أى عبث أو مجون فى حضرته .

وقال سليم وقد شرع فى ارتداء ملابسه :

— إن أمره عجيب . . . لست أعرف كيف علم بظروفى ، فجاء من برلين وراح يعاوننى للسفر إلى مصر ، ولقد عشت معه هذه الأيام نتحدث فى كل شىء ، فى الله . . . فى الدين . . . فى تطورات الحرب فى مستقبل بلادنا ... فى التمثيل والمسرح والسينما . . . ولكن حديث المرأة لم يجر على لسانه فى أى لحظة من اللحظات . . . ولم أر عينه تطرف نحو امرأة فى الطريق أو المطعم أو فى المترو أو فى السينما والمسرح . . . أهو هكذا دائما ؟

— وأكثر من هذا ، أن واحدا من أصحابنا وهو الشيخ أبو السعود يقسم لكل من يراه . . . أنه بالرغم من أنه شيخ ومُفْتٍ ومع ذلك فلا يستطيع أن يدعى أنه لم يخطىء فى حياته ، ولكنه

يستطيع أن يقسم أن يد الدكتور خالد أمين لم تمس جسد امرأة في رغبة غير مشروعة .

— مدهش ! ؟

— لقد عرفته أول ما عرفت في بغداد وقد كان يدرس عندنا ... ولم تكد الثورة تعلن ، حتى كان أول مدني يرتدي لباساً عسكرياً وينخرط معنا ، ويلقي بنفسه في أشد المعارك هولا ، بحثاً خلف الاستشهاد لولا أن كلفه بعض زعمائنا بالإشراف على الإذاعة في الموصل لكي يحولوا دون استشهاده .

— كأنه ليس من طينة البشر .

— صدقني أنني أحياناً أشك في ذلك . . هل تصدق أنه ظل إلى وقت قريب جداً لا يملك إلا الملابس التي خرج بها من بغداد عندما فررنا منها ، وقد قدم لنا الألمان بمجرد وصولنا إلى استنبول الأموال والملابس وكل ما نحتاج إليه لتأمين حياتنا ، فرفض أن يأخذ منها شيئاً ، وأبى إلا أن يظل بالبدلة الوحيدة التي خرج بها من مصر وجاء بها إلى بغداد ، ولم تفلح كل توسلات زعمائنا وإلحاحهم عليه في العدول عن خطته ، وكلما أعطوه مالا لشراء بدلة جديدة أو معطف وزعه على الفقراء والمحتاجين من إخواننا .

فقال الدكتور سليم :

— لو لم أكن خبرت من أخلاقه بنفسي ما خبرت ، ما صدقت ما تقول . ولكنه يرتدي معطفاً سميكا ويرتدي ملابس جيدة هذه الأيام

— إنه لم يقدم على ذلك إلا بعد أن أنشىء فى برلين معهد إسلامى وعين سكرتيراً عاما له وأستاذا محاضراً فيه ، وأعطى راتبه كأستاذ فبدأ يشترى بعض الملابس بجزء من راتبه ، ويوزع الجزء الأكبر من هذا الراتب بعد ذلك . هل تتصور أنه اشتغل حمالا واشتغل بناء ليتقاضى أجراً يأكل منه رافضاً المخصصات الألمانية السخية التى خصصت لنا .

— إنه لم يقل لى شيئا من ذلك أبداً . . كل الذى قاله إنه رفض أن يذيع فى الإذاعة الألمانية حتى لا يسبب حرجا لأخوانه فى مصر

فقال عدنانى وقد ازدادت حماسته للتحدث عن خالد :

— إن هذه وحدها قصة لا يمكن أن يصدقها إنسان يعرف الأحوال فى المانيا ونظامها الشديد الذى لا يسمح لأى إنسان على أرضها أن يخالف أمراً من أوامرها . لقد عرضوا عليه ألوف الماركات لكى يذيع فى الإذاعة العربية الموجهة من برلين إلى العالم العربى فى أى موضوع يشاء بعيداً عن السياسة ، طلبوا منه أن يتحدث عن التاريخ عن الدين ؛ عن الأدب ولكنه رفض فى إصرار عجيب ؛ مع أننا جميعاً نذيع فى الراديو وتتقاضى أجوراً عالية .

— عفوا ولكن كيف يستطيع مع هذه السلبية والرغبة فى عدم التعاون أن يعيش فى المانيا ؛ إنك تغير رأيى عن النازى .

— النازيون هم النازيون كما تعرفهم وكما يعرفهم العالم كله .. قسوة وضراوة وشراسة .. ولكن خالد أمين استطاع أن يحملهم على

إجلاله واحترامه عندما اعتذر عن المخصصات التى رتبوها له ، وعندما رأوه يختار العمل بيديه . وعندما قدموا له بطاقة التموين التى تعطى للأفراد الممتازين فى ألمانيا ونحن منهم باعتبارنا ضيوفا لاجئين .. اعتذر وابى إلا أن يأخذ بطاقة تموين كأى فرد عادى فى ألمانيا .. وحتى هذا القدر الضئيل الذى يحصل عليه بهذه البطاقة لا يستبقيه كله لنفسه بل يوزع منه على المحتاجين من العرب والألمان على السواء حسب المناسبات .

— مع أنى لم أسمع هذا الذى تقوله من قبل ولم أره . . ومع ذلك فهو لا يبدو غريبا علىّ . . لقد كنت أحسه إحساساً وأنا أعيش معه هذه الأيام . . وأنا أرى تفانيه فى مساعدتى لتحقيق أملى فى العودة إلى مصر . وساد الصمت بعض الوقت ، ولم يلبث عدنانى أن تساءل :

— قل لى يا دكتور سليم . . أتعرف الأستاذ فوزى رئيس الجماعة التى ينتمى إليها خالد . . إنه دائم الإشادة به والتحدث عنه باعتباره أستاذه ، ولكنى لا أتصور أن يكون فوزى هذا كالدكتور خالد .

— من ناحيتى أنا لا أتصور أن هناك إنساناً آخر يصل إلى مرتبة الدكتور خالد فضلا عن أن يكون أستاذه ، ولكن من سوء الحظ لم أتعرف بالأستاذ فوزى ولا بحركتهم وإن كنت أسمع بها بطريقة عابرة ، لقد عشت طول عمرى مشغولا بدراستى الجامعية سواء فى مصر أو هنا ، ولقد كنت أكره السياسة وكل حديث فيها ، ولأول مرة فى

حياتى وجدتنى غارقا فيها عند ما جاءنى الدكتور خالد ليساعدنى على تحقيق أملى . . وهو يحدثنى عما يؤمله من مستقبل مصر عقب هذه الحرب .

— وهل حدثك عن الانتصار الرائع الذى أحرزه بمساعدة زعمائنا اللاجئين عندما استصدر من دولتى المحور بيانا يؤكدان فيه احترامهما لاستقلال مصر وسيادتها وحقها فى الاتحاد مع السودان ، واعترافهما بحيدتها ، وأن جيوشهما إذا دخلت مصر فليس ذلك إلا لمحاربة الانجليز ؟

— كان هذا هو أهم ما حدثنى عنه ، لكى أنقل تفاصيل ماجرى حول هذا الموضوع من مباحثات ومناقشات ، لأصحابه فى مصر .

وهز عدنانى رأسه وقال :

— إن مصر لا تعرف ولن تعرف ماذا فعله من أجلها الدكتور خالد أمين ، إننى أؤكد لك بيقين أن شخصية الدكتور خالد وجهوده التى بذلها فى برلين وروما كانت أحد العناصر التى جعلت دولتى المحور لا يقصفان مدن مصر بالقنابل كما فعلوا بغيرها من البلاد .

— إن هذا عجيب ، شىء لا يكاد يصدق .

— ومع ذلك فهو حق ، إن الدكتور خالد أمين إنسان غيرعادى ، إننى أشاطرك الرأى .. كأنه من غير طينة البشر .

ودق جرس تليفون الحجرة من جديد . . وكان ذلك إيذانا بمقدم الدكتور خالد .

٢

ظهرت الغبطة على وجه الدكتور خالد أمين ، وهو يلهث من أثر المجهود الذى بذله وهو يودع حقائب الدكتور سليم فى أمانات المحطة وهو ينقل الجزء الأكبر منها بنفسه رغم احتجاج الدكتور سليم . ولم يلبث أن تنهد قائلا فى ارتياح :

— الحمد لله . . تم كل شيء على الوجه الأكمل . . وأمامنا الآن أربع ساعات قبل قيام القطار . . أستطيع أن أحدثك فيها الحديث الشخصى الذى اخترته حتى الآن ، وما جعلنى أعفى صاحبى عدنانى من واجب توديعك .

وحملهما المترو إلى حدائق التوليرى وانطلقا يسيران بين دروب الحديقة التى ما زالت تحتفظ بسحرها رغم الشتاء القارص الذى جردها من أغصانها وأوراقها وسود جزوع أشجارها ، وقال خالد لسليم :

— كنت أحب أن أجلس معك فى مكان أكثر دفئاً . . ولكن أرجوك أن تسامحنى إذا كنت قد جئت بك إلى هذا المكان وإذا طلبت منك أن نظل سائرين على الأقدام حتى لا نتجمد من البرد ، فلست أظن أننى أقوى على التحدث معك فيما سأحدثك فيه . . إلا فى مثل هذا الجو وضحك خالد وقال :

— وقد أحضرت لك بعض الشطائر لتساعدك على احتمال البرد .

واحتج سليم قائلا :

— أقسم لك يا دكتور خالد أنني لا أحس بشيء من البرد ما دمت إلى جوارك . . أنت لا تعرف أي تأثير تحدثه في نفسي .

وقال خالد على حين غرة قاطعاً عليه استرساله في الحديث :

— إن لي في مصر خطيبة تسمى الدكتورة فاطمة وهي تعمل في مستشفى الدمرداش .

— إن بيتنا في مصر قريب من المستشفى .

— هذا من توفيق الله . . ماعليك إذن إلا أن تقصد الدكتورة فاطمة لتحمل رسائلي إلى الأستاذ فوزي .. هـذا إذا لم تكن قد اعتقلت .

ودهش سليم وقال :

— أيعتقلون النساء الآن في مصر ؟

— طبعا .. طبعا لقد اعتقلوا زوجة أبو الحسن أحد إخواننا المجاهدين ، ولكني أرجو ألا تكون فاطمة قد اعتقلت .

— وأنا أيضاً أرجو الله ذلك ، حتى أستطيع أن أقابلها وأحدثها عنك وعما فعلته من أجلي ، ومن أجل مصر وأهنئها وأغبطها على خطوبتها منك التي يجب أن تعتز بها على سائر نساء مصر .

وابتسم خالد في مرارة وقال :

— لا تبالغ يا دكتور سليم . إن الله وحده هو الذي يعلم إذا كنا سنلتقي ثانية أم لا .

واحتج سليم قائلا :

— ما هذا التشاؤم يادكتور خالد . . بل ستتقابلان إن شاء الله .

— وتنهد خالد تنهدة حارة وتوقف بعض الوقت ليغالب التأثر الذى تملكه ثم قال :

— هذا ما أصبحت أشك فيه . إنك ترى أن الحرب قد اتسعت بدخول اليابان وأمريكا وامتدت إلى أربعة أرجاء المعمورة ولم يعد يعلم سوى الله كيف تنتهى ولا متى تنتهى، وقد أصبح كل منا يعيش فى معسكر بعيد عن الآخر ، وقد تقطعت بيننا أسباب المواصلات ، ولذلك أرجو أن تبلغها عنى رسالة شفوية ، بعد أن تسلمها رسالتى الخطية . أرجوك أن تقول لها إننى أتوسل إليها ألا تربط مصيرها بمصيرى . لقد كفاها ماضحت من أجلى حتى الآن ، ومن حقها أن تتمتع بالسعادة التى هى أهل لها . . قل لها إننى أحلها من عهدها لى ، وأن باستطاعتها أن تحب من تشاء وتتزوج من تشاء ، وهى آمنة مطمئنة إلى أننى سأظل أحبها حتى آخر نفس من حياتى ، وأننى إذا مت فسوف يكون اسمها آخر ما يتلفظ به لسانى .

وأجهش سليم بالبكاء وقال :

— أرجوك يادكتور خالد . . أرجوك . . إننى لا أستطيع احتمال هذه الكلمات . . إننى لن أبلغها هذه الرسالة .

— بل أرجوك ، إنك تزيح عن كاهلى عبئا ثقيلا لو أنك فعلت ، إننى أعرف فاطمة وتقديسها للواجب ، قد تظل تضحى بنفسها من أجلى

تصورا منها أن هذا هو ما يقضى به الواجب ... أو خوفا من تصورها أن حبى لها ينقص مقدار ذرة لو انها أحبت غيرى أو تزوجت ، فيجب أن تعلم حقيقة مشاعرى ، وإننى أباركها إذا هى تزوجت ، وستبقى بالرغم من ذلك حبى الأول والأخير وشعاع النور فى حياتى .

وحانت التفاتة من سليم إلى إحدى ساعات الحديقة ... فبدا عليه شىء من القلق لم يفت عين خالد فأسرع يقول :

— لقد حان أوان عودتنا إلى المحطة ... يجب أن نكون هناك مبكرين .

وعندما أطل الدكتور سليم أخيرا من نافذة القطار فى انتظار تحركه سيطر عليه حزن كئيب وهو يدع خالد فى هذه الوحدة الموحشه فى الوقت الذى يتجه فيه نحو مصر ، ولم يلبث أن قال وقد اغرورقت عيناه بالدموع :

— ما أشد ألمى أن أتركك هكذا وحيدا ! .

وقال خالد متجلدا :

— لا عليك ، لقد اعتدت هذه الحياة ، ومع ذلك فأين ما نعانيه نحن من ملايين الجنود الغارقين الآن فى ثلوج روسيا والموت يتخطفهم من كل جانب ، أين نحن مما يعانيه عشرات الملايين فى أنحاء العالم ، من الآلام والحرمان . أهذه باريس التى عرفتها من قبل ؟

ودق الجرس الثانى وتحرك القطار فى بطء ... وراح خالد يسير إلى جوار القطار مكملا آخر وصاياه لسليم :

— ستقص على فوزى أو على زوجته كل ما قلته لك .

وازدادت سرعة القطار بينما كان سليم يقول فى لهفة :

— طبعا ... طبعا اطمئن .

وبدأ خالد يهرول إلى جوار القطار ، ومد يده للمرة الأخيرة مصافحا سليم الذى غلبه التأثر فانهمرت دموعه ... وأخذ القطار يبتعد ، والشقة تزيد بينه وبين خالد الذى راح يعدو ويلوح بيده بشدة :

— مع السلامة . . . مع السلامة . . . سلم على الحبايب . . . سلم على مصر ... سلم على كل من فى مصر ، قبل عنى تراب مصر .

وتضاعفت سرعة القطار ولم يعد باستطاعة خالد أن يلاحقه . . . فتوقف وهو يلهث ، وقال : فى أعلى صوت ليغطى على صوت القطار الصاخب :

— سلم على فاطمة ... سلم على فاطمة .

وانحدرت دمعة على خده ، فأسرع يمسحها ثم هز كتفيه . . . ومضى يحاول أن يغرق أفكاره وخواطره فى السير السريع ، غير حافل بصفارات الانذار التى دوت ، فأوقفت كل حركة . وهرع الباريسيون إلى المخابىء ومحطات المترو فى فزع ، ومضى خالد أمين وحده وسط الظلام والقتام ، وهطل البرد واقشعر بدن خالد من البرد ومع ذلك فقد مضى . . . مضى وحيدا . . . وحيدا تتراقص فى عينيه ويتردد فى ذهنه صورته فى فندق فيلادلفيا بمدينة عمان ، وهواء الليل السارى يحمل له صوت عبد الوهاب وهو يغني

طول عمرى عايش لوحدى .·. غريب وراضى بحالى .

٣

« خطيبي وزوجي ومني روحي الدكتور صابر .

لا أعرف إذا كان هذا الخطاب سيصلك أم لا . . . وهل يطوف أوربا كلها على أحسن الظروف حتى يصلك . ومع ذلك فقد كان يجب أن أكتبه وأجازف بإرساله وليكن ما يكون . . . إنني لم أستطع بعد أن تسلمت رسالتك الشفوية أن أغالب الرغبة العنيفة التي تملكتني في أن أحتج عليك بكل مشاعري وكياني ، في أن أصرخ في وجهك وأصيح « ياظالم » . . . في أن أرتمي تحت قدميك أبثك دموعي وشجوني وأشكو إليك منك .. كان يجب أن أفعل شيئا وإلا مت من القهر والكمد وها أنذا لا أستطيع أن أفعل من ذلك كله إلا أن أكتب إليك مؤملة أن يصل إليك ما أكتبه في نهاية الأمر .

سامحك الله يا صابر . . . سامحك الله . . . كأنك تأبى إلا أن تكون مصدر تعاستي وشقوتي أنت يا من تصر وتؤكد أنك تحبني . أمن الحب أن توجه إلى هذه الرسالة الشفوية القاتلة بعد أن أسعدتني برسالتك المكتوبة ؟ كيف تتصور أنك تحسن إلى عندما تقول إنك تحلني من وعدي ، وأنت لا يمكن أن تؤذيني وتشقيني بأكثر من هذه الكلمات . . أتراني هنت في نظرك إلى الحد الذي أصبحت تتخيل فيه إمكان أن أقع في حب إنسان غيرك وأن أتقلب بين أحضان إنسان غيرك . . . فليسامحك الله يا صابر . . . لشد ما كنت قاسياً عليّ وأنت تشعرني أنك لم تفهمني بعد ، وأنت تقيسني بمقياس بنات جنسي العاديات . إذن اسمح لي أن أقول لك ، إن العكس هو



الصحيح ... لا عليك ياصابر أن تحب من تشاء أو أن تتزوج ، فسأظل أعتبر نفسي ـ رضيت أم أبيت ـ زوجتك في هذه الدنيا .. وفي الآخرة . سأظل أعتبرك زوجي أمام الله وأمام الناس ، فقد وهبتك روحي وكياني وكل فكري وعواطفي ومشاعري ، .. وإذا كنت أحيا فليس ذلك إلا لأكون في انتظارك ، وإذا أصابك مكروه فإن ذلك لن يكون نهاية حياتي المادية فحسب ، بل وحياتي الروحية نفسها لأنني سأرتد كافرة جاحدة .

والآن قل ما تشاء ... وافعل ما تشاء ، واستهتر بحياتك وابحث عن الموت كما لو كان هو حبك الأول والأخير بعد أن عرفت مشاعري وأفكاري .

عفوا ياصابر ... عفوا يا حبيبي . . . عفوا يازوجي ، سامحني إذا اجترأت في التحدث معك بهذه اللهجة . . . إنني أحبك . . . أحبك . أنت محور حياتي وكياني على هذا أحيا وعلى هذا سأموت . . . فاعذرني وسامحني . «ف»

حاشية : نفذت جميع التعليمات . أخوك الكبير في المستشفى وهو بصحة جيدة ، وقد تسلم كل الأوراق والرسائل .

أما والدتك ، فإني أقضي أكثر أوقات فراغي الآن معها . وهي تعاملني باعتباري زوجة ابنها ، ونحن نقضي الساعات الطوال نذكرك ونروي حوادث حياتك ، ونضحك تارة ونبكي أخرى ، وندعو لك في كل الأوقات .

٤

« إلى الأمام يا روميل .. إلى الأمام ياروميل »

انطلقت هذه الهتافات المدوية كالقذيفة الصاروخية من فم الشيخ الشاب المحمول على أكتاف حشد من رفقائه ، وقد ظلت أوداجه منتفخة ، ووجهه محتقنا وأحبال صوته متوترة حتى بعد أن قذف بهذه الصيحة المجنونة التى لم يسبقها تفكير أو تدبير .

وهتفت الجموع فى فرح وحشى كما لو كانت قد وجدت فى هذه الصيحة التعبير الحقيقى عما يعتمل فى نفسها من عوامل السخط والرغبة فى الثورة والتمرد « إلى الأمام ياروميل .. إلى الأمام ياروميل »

وارتجت أجواء القاهرة بهذا الهتاف يصدر عن جموع الطلاب الأزهريين وما اختلط بهم من أفراد الشعب الذين ضاعفوا فى حجم المظاهرة .

على أن زعماء الطلاب الأكثر حكمة وتعقلا ، أدركوا ما فى هذا الهتاف من انحراف ، فضلا عما ينطوى عليه من خطورة عليهم ، فأسرعوا بإنزال زميلهم من فوق الأعناق ، وعاتبوه على هذه الصيحة ، ورفعوا بدلا منه هتافا جديدا ، راح يهتف بصوت غليظ رصين فى ثقة واعتداد بما ينبغى أن يهتف به فى هذه الساعة :

— أين الخبز .. أين الخبز ؟

وإذا كانت صيحة إلى الأمام ياروميل قد ملأت جموع المتظاهرين بالإحساس بالثورة والرغبة فى التمرد .. فقد كان هذا الهتاف الجديد ،

بمثابة المفجر لقوى الثورة والتمرد .. وزأر شارع الأزهر بكل من فيه .. لا السائرين فى المظاهرة أو المحتشدين على جانب الطريق بل المطلين من النوافذ والشرفات ، والواقفين داخل المحلات يبيعون ويشترون .

« أين الخبز .. أين الخبز »

وكأن الخبز كان بشرا سويا قد استجاب للنداء ، فقد ظهرت على الفور من أحد الشوارع الجانبية بضع عربات محملة بالخبز تخرج لأول مرة منذ ساعات عديدة لتوزع الخبز المفتقد على حوانيت بيع الخبز والبقالين .

وصاح الجميع فى فرح وحشى « خبز .. خبز » وانقضوا على العربات المحملة فى غير وعى . وتصور سائقو العربات وعمالها أن واجبهم يحتم عليهم انتهار هذه الجموع وردها إلى جادة العقل والصواب ، وتحذيرها من مغبة النهب والسلب ، ولكنهم قبل أن يتموا عباراتهم كانوا قد اقتلعوا من فوق العربات اقتلاعا ، وأوشكت الجماهير أن تفتك بهم فتكا ، لولا أن نجح من جديد عقلاء المتظاهرين فى تخليصهم ، فانطلقوا هاربين ناجين بجلودهم تاركين العربات بخيولها غنيمة للناهبين.

ولم يحتج الأمر لغير ثوان معدودة حتى كانت محتويات العربات من الأرغفة قد اختفت ، بعد أن شاهدها البعض تتطاير فى الهواء . وإذا كان بعضها قد ديس بالأقدام ، فإن قسما كبيرا منها قد وجد طريقه على الفور نحو البطون الجائعة . وهرب كثيرون من أفراد

الشعب بالقسم الأكبر من الخبز فائزين بغنيمتهم الثمينة بعد أن أخفوها في طيات أثوابهم وجيوبهم . وظهر البوليس في عرباته كما لو كانت الأرض قد انشقت عنه ، فإن الصيحة الأولى « إلى الأمام ياروميل » كانت قد أحدثت أثرها بمجرد التلفظ بها ، وصدرت الأوامر لحشود البوليس الواقفة داخل اللوريات إلى جوار قسم الموسكي بسحق المظاهرة ، وإطلاق النار على الهاتفين .

وإذا الشارع الكبير الذي كان يختنق منذ لحظات بحشود الجماهير ، يصبح قاعا صفصفا ، يصفر الهواء بين جنباته ، بعد أن ذابت الجموع في الشوارع والحواري والأزقة المتفرعة منه . . وعندما وصلت سيارة البوليس إلى موقع المظاهرة لم يكن باقيا من آثارها إلا عربات الخبز المنهوبة المحطمة ، وبعض الأرغفة التي ديست بالأقدام ، وبعض أرغفة أخرى مطروحة على الأرض لا تزال نظيفة ، بعد أن تخلى عنها بعض الناهبين بمجرد رؤية عربات البوليس المنقضة ، إدراكا منهم أن القبض عليهم وفي حيازتهم هذه الأرغفة كاف لإعدامهم . وانحنى بعض العساكر على الأرض يلتقطون الأرغفة القليلة التي سلمت وكسر الخبز الأخرى المداسة بالأقدام .. وراحوا يمسحون عنها التراب والغبار وهم يبسملون ويحوقلون ويستغفرون الله العظيم من كل ذنب عظيم .

— والله العظيم هذا كفر .. الخبز يداس بالأقدام! .. أين هؤلاء المتظاهرون المجرمون لنقتلهم قتلا .

ولم يعرف الجند ماذا يفعلون بكسر الخبز وأرغفته القليلة التى التقطوها من فوق الأرض ، وكان التقاطهم إياها هو المظهر الوحيد لنشاطهم ، ولم يكد الأمر يصدر لهم بمتابعة المتظاهرين فى الحوارى والأزقة ، حتى أسرعوا ينفذون الأمر ويبتعدون بأسرع ما يستطيعون عن أعين الضباط ليدسوا الأرغفة فى جيوبهم ، فما كانوا ليتخلوا عن هذه المزق من الخبز حتى ولو كانت ملوثة بالتراب .

٥

هلل المعتقلون من أعضاء حزب البعث وغيرهم فى معتقل الزيتون ، لأنباء ما حدث من هتاف المتظاهرين بدعوة روميل للتقدم ، ونهبهم عربات الخبز ، إذ وجدوا فى ذلك بوادر الثورة التى كانوا يتحرقون شوقا إليها. ولكن فوزى انفرد من بينهم بإظهار عدم الرضا عما حدث، والتشاؤم مما ستسفر عنه من نتائج مفجعة. فهذه الصيحة الخرقاء بدعوة روميل للتقدم ، فى الوقت الذى بدأ يشن فيه هجومه بالفعل على الإنجليز الذين اندحروا أمامه للمرة الثانية ، من شأنه أن يفقد سلطاتهم فى مصر صوابها فيقدموا على عمل طائش .

وصح ما توقعه فوزى ، فقد تدخل الإنجليز بقوة ، وأصروا على وجوب استقالة الوزارة التى عجزت عن حفظ الأمن وتوفير الحماية الكافية لتأمين ظهر الجيوش البريطانية ، وبدأت الصحف تعكس آثار الأزمة المتفاقمة ، وشهد ميدان عابدين وقصره ما اعتاد أن يشهده من نشاط مألوف فى أمثال هذه الأزمات، فمن سيارات ملكية حمراء،

وأخرى سوداء تروح وتجىء ، وحجاب يفتحون الأبواب ويغلقونها وتليفونات ترن ، وأحاديث هامسة ، وأخرى صاخبة ، ووجوه عابسة وأخرى باسمة ، وقهقهات وغمغمات ، وسجاير وسيجار ، وقهوة فى فناجين مذهبة وأخرى مفضضة ، ومشاورات ومناورات ومحاورات . . وتشدق بالكلمات من أمثال « اكسلانس ، ومون شير ، وساماجيستيه » وتنادى بالالقاب والرتب ابتداء من رفعة الباشا ودولة الباشا ومعالى الباشا وصاحب العزة وصاحب السعادة وانتهاء من جديد برفعته . وانقضت أيام ثلاثة منذ اشتعلت الأزمة دون أن يلوح لها على الأفق حل ، حتى كان يوم الأربعاء الرابع من فبراير سنة ١٩٤٢ عندما رن جرس التليفون فى حجرة كبير الحراس الملكى قبيل الساعة التاسعة مساء .

— دبابات انجليزية ياسعادة الباشا .. دبابات ؟ !

— ماذا تقول . . من أنت ؟

— أنا مأمور قسم الوايلى . . يمر الآن أمامنا دبابات انجليزية تزحم شارع العباسية ولا نعرف شيئا عن اتجاهها .

وامتقع وجه كبير الحراس الملكى ، فقد كان يعرف أن هذه الدبابات لابد أنها تقصد القصر . . كان يعرف أن السفير البريطانى قد أنذر أنه إذا لم تتألف وزارة برئاسة رئيس حزب الأغلبية قبل التاسعة مساء هذا اليوم فسوف يأتى بنفسه لمقابلة جلالة الملك .. ولم يدر بخلد أى منهم أنه سيجىء بالدبابات .

وحار ماذا يفعل ولا كيف يتصرف ، وكيف ينهى هذا الخبر إلى جلالة الملك ، وإذا التليفونات الخمسة الموضوعة إلى جوار مكتبه ترن كلها فى آن واحد..وزاغت عينا كبير الحرس ووقف مرتبكا ومضطربا لبعض لحظات ، ولم يلبث أن تنبه إلى أن أحد التليفونات التى تدق هو الخاص بجلالة الملك فأسرع يمسك بالسماعة بينما وقف متخشبا جامدا لا يتحرك فيه إلا لسانه وقلبه :

— أفندم يا مولاى — نعم يا مولاى — كنت قادما لأبلغ جلالتكم الخبر بنفسى — أعترف يا مولاى أننى تأخرت .. أنا غلطان ، أمركم يامولاى ، لن أتحرك حركة إلا بأمركم ، اطمئن يا مولاى ، لن تكون هناك أى مقاومة ، حالا .. حالا .

ولم يكد كبير الحرس الملكى يضع السماعة وهو لا يزال متخشبا متوترا ويطمئن إلى أنه لم يعد فى حضرة جلالة الملك حتى انطلق كالإعصار خارجاً من مكتبه وهو يسب ويلعن ويصخب ويصدر الأوامر لكل من يقترب منه ، وما أكثر الذين كانوا يقتربون منه وقد تملكهم الذعر بعد أن سرت الأخبار .

ودوى بوق الحرس مؤذنا بنوبة « كبسة » بينما كانت طلائع الدبابات قد بدأت تظهر فى مدخل الميدان .

واضطر كبير الحرس أن يرفع صوته فى عصبية ليسمع الجنود بالرغم من الضجيج الذى بدأ يحدثه وصول الدبابات :

— اسمع كله التعليمات . ممنوع إطلاق النار لأى سبب من الأسباب

إلا بأمر منى شخصياً . مفهوم . اسمع كله حضرات الضباط والجنود .. ممنوع منعاً باتا إطلاق النار لأى سبب من الأسباب إلا بإذن منى . مفهوم .. اسمع كله ..

وكانت هذه آخر عبارة يمكن أن تسمع ، بعد أن زلزلت الأرض زلزالها ، وأوشك زئير الدبابات وصلصلة عجلاتها وجنازيرها أن تصم الآذان ، بينما كان مرآها يخلع القلوب ، ولم تلبث أن اصطفت بمدافعها الثقيلة والسريعة الطلقات متحلقة فى شكل طوق حديدى حول القصر الملكى وهى على استعداد لأن تدكه دكا على رءوس من فيه بمجرد إشارة تصدر لها .

وفى مواجهة هذه الدبابات المرغية المزبدة ، وقف خلف الأسوار عشرات من جنود الحرس ببنادقهم الهزيلة التى حظر عليهم أن يستعملوها مهما كانت الأسباب . . وقفوا مصدومين صدمة الموت . . فقد كانت المفاجأة قد أحدثت فى أنفسهم الشعور باقتراب الموت .

ووجفت قلوب كل من فى داخل القصر ابتداء من الملك الكبير حتى آخر فراش نوبى ، الرجال قبل النساء وقد ذهب الروع بعقولهم ، فوقفوا جامدين مبهوتين ، زائغى الأعين مبهورى الأنفاس .

وكان الملك الشاب فى حجرة مكتبه مصعوقا من هول ما حدث. وكان الخاطر الوحيد الذى عنّ له هو هذا الأمر الذى ألقاه فى شدة لكبير حرسه ألا يبدى أى مقاومة .. وسقط بعد ذلك على مقعده خلف مكتبه الملكى وهو يحدق فى رئيس ديوانه النحيل الضامر ، والذى بدا فى عينيه قبيحا فى هذه اللحظات ، وسأله فى ذهول :

— هل يدكون القصر فوق رءوسنا ؟

وابتسم رئيس الديوان الضامر النحيل ابتسامة صفراء وقال مطمئنا مليكه :

— مهلا .. مهلا يا مولاى .. إن الأمور لم تصل إلى هذا الحد .. إنها مجرد مظاهرة عسكرية ، رأى السفير أن تسبق مقابلته لجلالتك .

ورد الملك وهو لا يزال فى ذهوله :

— ستكون لك الحلاوة إذا كانت مجرد مظاهرة . . سوف أفعل كل ما يريده السفير .. سأعين رئيس حزب الأغلبية رئيساً للحكومة كما يريدون .. كنت أتصور أن إنذارهم مجرد مناورة « بلفة » ، وأنهم لا يجرؤون على إرغامى بالقوة .. ليتنى سمعت نصيحتك .. ليتنى كلفت رئيس حزب الأغلبية بتشكيل الوزارة .. اسمع ألا نستطيع أن نفعل ذلك الآن .. ألا يمكنك الاتصال به وتكليفه بالحضور .. وتوقف الملك عن هذا السيل من العبارات ، بعد أن امتلأ قلبه ذعرا للهدوء الذى ساد الجو فجأة ، ولم يلبث أن صرخ فى رئيس ديوانه :

— أنظر .. انظر ماذا يجرى .. ماذا حدث . . ما هذا الهدوء ؟

واقترب رئيس الديوان من النافذة المغلقة وراح ينظر من خلالها ولم يستطع أن يتبين أى شىء من الظلام السائد فى الخارج .

وصرخ فيه الملك بعصبية :

— قل . . تكلم .. ماذا ترى ؟

— عفوا يا مولاى .. إن الظلام يسيطر على الميدان .. إننى لا أرى شيئاً .

ووثب الملك فى حنق وهو يصيح :

— بل يجب أن ترى .

— نعم بدأت أرى .. إنها الدبابات .. دبابات الشيرمان وقد وقفت فى صف واحد موجهة مدافعها نحو القصر .

— هل يستعدون لإطلاقها علينا ؟ والشعب ، أين الشعب ، ماذا يفعل الشعب ؟!

والتفت رئيس الديوان الضامر النحيل نحو مليكه المالع وقال له فى صوت بذل جهده حتى لا ينم عما يعتمل فى نفسه من سخرية وازدراء بصاحب الجلالة :

— اهدأ يا مولاى .. اهدأ ، بمجرد أن تقبل إنذارهم وتعين لهم رئيس حزب الأغلبية رئيساً للحكومة كما أشرت على جلالتك ينتهى كل شئ .

— سأعينه .. سأعينه .. تعال استدعه فوراً .. ولكن لا انظر أولا .. انظر ثانية ، هل يطلقون النار .

وسمع الملك طرقا على باب الحجرة فذعر .. ولم يهدئ من روعه ؟ إن كبير الأمناء ظهر على عتبة الباب .

وقال كبير الأمناء وهو مصفر الوجه مرتعش اليدين :

— عفواً يا مولاى سمعت أن السفير البريطانى فى طريقه إلى القصر فى عربة مصفحة .

فقال الملك محاولا أن يتجلد :

— وماذا نستطيع أن نفعل ؟ .. فليأت أهلا وسهلا .. لقد كنت فى انتظاره . لقد خدعت ، خدعونى كلهم ، قالو لى اننى يجب أن أرفض الإنذار وأن أعتبره مجرد « بلفة » .. وها هى الدبابات تحاصر قصرى .. وتهددنى فى حياتى وعرشى . هذا عهد الله علىّ إذا نجانى من هذه الورطة أن أنتقم من كل هؤلاء الباشوات ورؤساء الأحزاب. ثم راح يتهكم فى سخرية والألم يحز فى نفسه .. « زعماء .. أقطاب » مناقشات .. جعجعة .. كلهم حيوانات .. كلهم قش .. كلهم .

وفوجىء الملك بصوت اصطدام وقرقعة ارتج لها القصر . واصفر وجهه من جديد ووثب واقفاً .. بينما دخل كبير الحرس وهو يعدو ويقول فى صوت متهدج متقطع والملك يسمعه فى بلاهة :

— اقتحمت إحدى الدبابات باب القصر الحديدى فحطمته ، والسفير البريطانى فى طريقه إلى هنا ومعه قائد القوات البريطانية وثمانية من الضباط المسلحين ، وعند ما حاولت أن أعترض طريقه وأسأله عما يريد .. أزاحنى من أمامه بيده قائلا لى « إننى أعرف طريقى » . وقد شرع الجنود البريطانيون فى تجريد رجال الحرس من السلاح وتقطيع أسلاك التليفونات الموصلة للقصر ..

وقبل أن يرد الملك بشىء على هذه الأخبار المخيفة سمع صوت ضجيج وعجيج فى الخارج .. ولم يلبث السفير البريطانى أن ظهر على عتبة الباب بجسمانه الضخم وكأنه القضاء والقدر . . وكانت عينا السفير

الضيقتان تطفحان بالحقد والتشفى .. ووقف إلى جواره القائد البريطانى جامد الوجه صارمه .. ولم يعرف الملك ماذا يقول .. فوقف صامتا فى انتظار قضاء السفير ولم يلبث السفير أن قال فى ازدراء :

— لقد قلت لك فى إنذارى بصريح اللفظ إننى إذا لم أسمع حتى الساعة السادسة من مساء اليوم أن رئيس حزب الأغلبية قد دعى لتأليف الحكومة فيجب أن تتحمل نتيجة ما حدث ، والساعة الآن التاسعة فلم يبق إلا أن تقبل الإنذار فوراً أو توقع وثيقة تنازلك عن العرش .. ووضع السفير على المكتب الملكى وثيقة التنازل ، ولكن الملك الذى برقت عيناه بارقة من الفرح لم يعن بالنظر إليها واندفع يقول فى اندفاع شديد :

— كنت كلفت رئيس الديوان باستدعاء رئيس حزب الأغلبية لتأليف الوزارة . إننى لم أرفض الإنذار .. إنه مجرد سوء تفاهم .

ولانت ملامح السفير البريطانى بعض الشىء وترنحت أعطافه بزهو الانتصار ، فقد تردد الكثيرون من المسئولين الإنجليز قبل موافقتهم على هذا الإجراء العنيف الذى اقترح القيام به :

— هذا حسن .. ولكن إذا . .

وتدخل رئيس الديوان النحيل الضامر وقال :

— لا داعى لكلمة لكن هذه يا صاحب السعادة . . لن تنقضى ساعة من الآن حتى تسمع عن تأليف رئيس حزب الأغلبية الوزارة .

إن الزعماء السياسيين والأقطاب سيكونون هنا بعد قليل .. وسوف يصدر أمامهم أمر التكليف لرئيس حزب الأغلبية بتأليف الوزارة التي يختارها .

٦

كان السجناء في معتقل الزيتون ، من أشد المصريين لهفة على متابعة أنباءالأزمة القائمة ، دون أن يعرفوا ماذا يدوروراء الستار، أومايوجه من إنذارات لتعيين هذا أو ذاك في الوزارة ، وكان فوزي هو أكثر الجميع دهشة من توالي الساعات والأيام دون التوصل إلى تأليف وزارة وكان ينكر على الملك تلكؤه في دعوة رئيس حزب الأغلبية إلى تولي الوزارة باعتباره الرجل الوحيد الذي يلتف الشعب حوله ، والذي كان قد استعاد شعبيته بالدعوة إلى إلغاء الأحكام العرفية ، والإفراج عن المعتقلين ، ووجوب جلاء الإنجليز عن مصر والسودان بمجرد انتهاء الحرب.

ولم يكد ليل الأربعاء ٤ فبراير يحل ، حتى كان التوتر والقلق قد بلغ بالمعتقلين إلى ذروته ، وقرروا أن يعرفوا آخر الأخبار بأي ثمن من الأثمان ، ففكروا في اقتحام مكتب قومندان المعتقل والاتصال بإحدى الصحف عن طريق التليفون ، وأخذ صبري على عاتقه عمل الترتيبات اللازمة لتحقيق هذا الهدف ، فاستطاع أن يبعد الحراس الليليين بعيداً عن الحجرة وأن يشغل الضابط النوبتجي بتكليف نفر

من المعتقلين ليلعبوا معه الورق وتم أخيراً فتح الباب بغير الطريق الطبيعى ، بينما أخذ فوزى على عاتقه مسئولية المكالمة .

— ألو .. ألو .. جريدة الأهرام ؟

— ماذا تريد ؟

— قل لى من فضلك ، هل شكلت الوزارة الجديدة ؟

وفوجىء فوزى بعامل التليفون يجهش بالبكاء ويرد عليه منتهرا :

— وزارة إيه .. وزفت إيه ؟ .. الدبابات الإنجليزية تحاصر قصر عابدين .

وأغلق العامل التليفون فى وجه فوزى الذى وقف مصعوقا أو كما لو كان قد طعن بسكين حاد . وراع صبرى الذى كان يرافق فوزى ما تجلى على وجهه من صفرة مميتة ، فارتعد بدنه وسأل فى صوت خافت مرتعش :

— مابك .. ماذا حدث ؟

— الدبابات الإنجليزية تحاصر قصر عابدين .

وصرخ صبرى :

— إذن هم يريدون خلع الملك .. هى الثورة إذن .

وأعادت كلمات صبرى إلى فوزى الوعى والانتباه ، فعاد الدم يتدفق بسرعة فى شرايينه بينما تقلصت عضلاته وتوترت وبدأ ذهنه يعمل فى سرعة .

— إن المسألة جد خطيرة ، ولا يجب أن نقول شيئا للمعتقلين من

خارج صفوفنا ، وسأحاول أن أعمى عليهم وأقول إننى لم أسمع شيئا ، فى الوقت الذى تجمع المعتقلين من إخواننا فى حجرتى لنتفق على مايجب عمله .

وبعد دقائق كان فوزى ينظر فى رضاء وغبطة إلى هذه الحفنة من الشبان المجاهدين الذين وقفوا معه منذ الساعة الأولى لجهاده ، والذين أبت الحكومة إلا أن تتخذ من اعتقالهم سبيلا لتخويف وإرهاب كل من تحدثه نفسه فى مصر بأن يرفع رأسه بالمعارضة للإنجليز وخطط الإنجليز . كانوا جميعاً حوله ملتحفين بأغطية فراشهم كما جرت عادتهم فى الليل كلما اجتمعوا . وقذف فوزى أخيراً بقذيفته :

— قصر عابدين محاصر بالدبابات الإنجليزية .

وقفز البعض عن الأرض ، وشهق البعض الآخر ، وصرخ بعض ثالث ، ولكنهم اشتركوا جميعاً فى التخلى عن الأغطية التى كانت تثقلهم وبدوا أكثر نشاطاً واستعداداً للنضال .

وارتفع صوت أحدهم :

— كأنهم يريدون خلع الملك ؟!

وأسرع فوزى يحذرهم من أن لا يرفعوا الصوت حتى لا يلفتوا إليهم الأنظار وتفشل الخطة التى يجب أن ينفذوها .

ولم يكد فوزى يتلفظ بكلمة خطة . . حتى أسرع الجميع وقد حبسوا أنفاسهم مترقبين ما يتلفظ به :

— إذا خلع الإنجليز الملك ، فإن واجبنا يكون قد تحدد ، سوف نعلن الثورة ، ونقتحم أسوار المعتقل ونخرج لنجاهد . لست أعرف ماذا سيكون رد فعل خلع الملك عندالشعب ولكنا من ناحيتنا لانستطيع إلا أن نعلن عن غضبتنا غير ناظرين إلىالعواقب ، فلنمت إذا لزم الأمر ولكن كرامة مصر المهانة يجب أن تجد من يثأر لها .

وكان الشيخ توفيق أول من تقدم باقتراح عملى :

— إن الحارس على حجرة السلاح يغط الآن فىالنوم كما هى عادته وعلىّ أنا وحسن أن نستولى على السلاح .

وهمس طلعت :

— وأنا وزكريا ومهدى وإبراهيم والمليجى ، سنقتحم الباب الخارجى .

واندفع بقية المجاهدين ، يقترح كل منهم ما يجب عمله ، فهذا يقطع الأسلاك ، وهذا يتكفل بالضابط النوبتجى .

وارتفع صوت فوزى من جديد داعياً إياهم إلى الحذر والسكينة ، وإلى تلقى تعليماتهم من صبرى بعد أن يحكم الخطة ، وألا يشرعوا فى عمل شىء إلا بعد أن تصدر لهم الإشارة التى لن تصدر إلا عند التأكد من خلع الملك بالفعل .

وانسل المجتمعون فى هدوء ؛ كل إلى حجرته ؛ مدركين أن نجاح خطتهم يعتمد فى الدرجة الأولى على المباغتة والكتمان .. وأقبلوا فى صمت على ارتداء ملابسهم ؛ والتسلح بما يصل إلى أيديهم من سكاكين

مطبخ ، ومدى ، وبعض الآلات والأدوات التى كانوا يستخدمونها فى ممارسة مختلف أنواع النشاط الرياضى . ولم يكن لدى أى واحد منهم ذرة من الشك فى أنه سيكون باستطاعتهم الاستيلاء على أسلحة الحراس واقتحام الأبواب الداخلية والخارجية للمعتقل فقد كانت الألفة بينهم وبين الحراس تجعل الأخيرين لايستريبون فى شىء . وكان باستطاعة المعتقلين أن يقتربوا من أى حارس ، دون أن يثير ذلك فى نفسه أى شبهة .

وهكذا لم يسائل أى منهم نفسه ماذا سيكون باستطاعتهم أن يفعلوا بعددهم الضئيل بعد الخروج من المعتقل ، فقد عاشوا يرون فى أنفسهم أنهم ضمير الشعب وتجسيد آماله فى مستقبل أفضل من العزة والكرامة والحرية ، فإذا دعا الواجب الشعب للقيام بأى عمل ، فعليهم أن يخفوا سراعا لأداء هذا الواجب .. وإذا خلع الإنجليز الملك فسوف يثورون .

* * *

على أن فوزى لم يكد يعاود الاتصال ثانية بجريدة الأهرام فى الواحدة صباحا ، حتى سمع صوت عامل التليفون يرد عليه هذه المرة فى فرح وابتهاج :

— خلاص .. خلاص الأزمة انتهت ، رئيس حزب الأغلبية ألف الوزارة .

— والدبابات ؟

— غارت فى ستين داهية .

— لم يعد القصر محاصراً ؟

— كل شىء تمام والحمد لله .

— وجلالة الملك ..

— ماله جلالة الملك .. ربنا يحفظه ويخليه ، قلت لك الأزمة انتهت بسلام والحمد لله .

وهتف المعتقلون عند ما نقل إليهم فوزى الأنباء :

— الله أكبر .. والمجد لمصر

واستيقظ بقية المعتقلين فزعين مذعورين .. فأذهلهم ما يرون .. أنوار المعتقل كلها مضاءة ، وجماعة فوزى يرتدون ملابسهم الكاملة وهم يعانق بعضهم بعضا .

وتساءل المعتقلون من غير الجماعة وهم يفركون أعينهم من الدهشة :

— هل صدر قرار بالإفراج عنا ؟

— أعظم .. أعظم ، لقد نجت مصر من أخطر أزمة تعرضت لها .

٧

أجمع المعتقلون جميعاً ، على أن يبادروا بتهنئة رئيس حزب الأغلبية بتوليه الحكومة وإنقاذه العرش بذلك ، عن طريق إرسال برقية ، يذكروه فيها بخطبه وبياناته الداعية إلى وجوب إلغاء الأحكام العرفية ، والإفراج عن المعتقلين ، ومطالبة الإنجليز بالجلاء عن مصر والاعتراف بوحدة مصر والسودان .

وكان إرسال هذه البرقية ، هو أول عمل قام به قومندان المعتقل عندما جاء فى الصباح فرحا مسرورا .

ولكن الأخبار لم تلبث أن بدأت تتسرب إلى المعتقل عن طريق الزائرين ، وتحدث بعض الضباط والجنود عما لم تشر إليه الصحف الصادرة فى هذا اليوم أو الأيام السابقة ، من أن تعيين رئيس حزب الأغلبية لم يتم نزولا عند حكم التعقل أو ما تقضى به روح الدستور ، ولكن لأن الإنجليز هى التى طالبت بذلك . . والدبابات لم تحاصر عابدين إلا لأن الملك تباطأ فى تنفيذ هذا الإنذار ، ولذلك فبمجرد أن خضع للانذار ، لم تعد هناك حاجة لبقاء الدبابات .

وفزع فوزى من هذه الأنباء وجزع ، فتهنئة رئيس الحكومة الجديد فى هذه الظروف تكون عملا مشينا ما كان يجب أن يتردى فيه .

وجاء صبرى فى نهاية الأمر يحمل القصة كاملة . . فقد كان يوم الخميس هو موعد خروجه إلى مستشفى الدمرداش .

واصفر وجه فوزى وهو يسمع التفاصيل الرهيبة ، وسأل صبرى :

— أواثق أنت يا صبرى من صحة هذه الأنباء ؟

— لقد سمعتها الدكتورة فاطمة من مدير المستشفى الذى استدعى فى ساعة متأخرة إلى بيت أحد الأقطاب ممن شهدوا أدوار هذه المأساة منذ بدايتها ، وكيف كان الأقطاب يلحون على رئيس حزب الأغلبية أن يؤلف وزارة قومية ليواجهوا عدوان الإنجليز مجتمعين ، فكان يأبى إلا أن يؤلفها من حزبه لحما ودما كما اعتاد أن يقول . . مما جعل الدكتور باهر رئيس مجلس النواب يصرخ فى وجهه قائلا : « إنه يسجل عليه أنه جاء الحكم على أسنة الحراب الإنجليزية » .

ودارت رأس فوزى وغامت الدنيا فى عينيه ، ونظر إلى صبرى فى فزع :

— والبرقية التى أرسلناها يا صبرى . . البرقية ؟

— هذه هى المصيبة . لقد شرحت لفاطمة الظروف التى أحاطت بنا ، وكيف كنا نجهل جهلا تاما هذه التفاصيل وإلا لما فكرنا فى إرسالها ، بل لأرسلنا برقية استنكار واحتجاج وأعطيتها نص البرقية وقد أبدت اغتباطها لإشارتنا إلى إلغاء الأحكام العرفية وتحقيق المطالب القومية . . ومن رأيها ألا حرج علينا فى هذا التأييد المشروط ، فلو أن رئيس حزب الأغلبية فعل ذلك بالفعل لكان جديرا بكل تأييد .

ولكن فوزى رد عليه فى لوعة :

— إن أخشى ما أخشاه هو أنه لن ينشر من البرقية إلا شطرها الأول الذى يحمل التهنئة .

إن رئيس حزب الأغلبية قد عاد إلى لعبته القديمة ، فكلما طال شوقه إلى الحكم تظاهر بالتطرف وتحدى الإنجليز ليحملهم على الضغط لإعادته . . ولا يمكن أن يكون الإنجليز قد أقدموا على ما أقدموا عليه بغير اتفاق سابق معه . . لقد وقعت فى مأزق خطير بإرسال هذه البرقية وكان يجب أن أكون أكثر فطنة وحسن تقدير . . لقد اندفعت فى غير تروٍّ . . إن هذه آفتى .. إننى إنسان ضائع . . لا يصلح لشىء .

واحتج صبرى قائلا :

— إن آفتك ـ إن كانت تعتبر آفة ـ هى المبالغة وتضخيم كل شىء .. لماذا تشتد على نفسك وتنحو عليها باللائمة وقد كنا جميعاً معك ونشاطرك مسئولية ما حدث . أنسيت ما كنا فيه من توتر ؟

ولكن فوزى قاطعه قائلا :

— اسكت . . اسكت يا صبرى ناشدتك الله ، لا تحاول أن تهون الخطب على . . إن قلبى يحدثنى أننى سأدفع ثمن هذه الخطيئة غاليا .

* * *

وصدق حدس فوزى من جديد ، فقد نشرت البرقية فى صحف الحكومة مبتورة وقاصرة على التهنئة ، وأثار نشرها ضجة شديدة فى الأوساط الوطنية انعكس على أعضاء الحركة المطلق السراح ،

الذين ذهلوا من أن يكون رئيس حركتهم التى اشتهرت بالتطرف فى الوطنية ، يكون فى مقدمة المهنئين على ما اعتبر خيانة قومية كبرى .

وزار شكرى فوزى فى المعتقل ، وسمع منه تفاصيل ما حدث والظروف والملابسات التى أدت إلى إرسال البرقية ، وما طرأ عليها من مسخ وتشويه فى النشر ، فهدأ من روع فوزى وخفف من أحزانه مؤكدا له أن ثقتهم بإخلاصه وإيمانه لا يمكن أن تتزعزع .

على أن ذلك لم يكن رأى محيى سكرتير عام الحركة وصديق طفولة فوزى ، والذى كان بدوره مطلق السراح لم يعتقل . . لقد كانت نفسه تراوده منذ أمد بعيد للاستقلال بجهوده ونشاطه الوطنى عن الحركة التى أصبحت علما على التطرف الذى لا يتفق ومزاجه ، ولقد هم بتقديم استقالته أكثر من مرة ، فكان يرجعه عن عزمه ما تعانيه الجماعة من اضطهاد ومحنة فكان يخشى أن تفسر استقالته على أنها فرار من المعركة . . أما الآن والجماعة تقف إلى جوار الحكومة فالخروج عليها شجاعة ووطنية .

واستغل الأعضاء الساخطون هذا الموقف من جانب محيى فالتفوا حوله ، وراحوا يؤججون سخطه ويقوون عزيمته فى إعلان استنكار تصرف فوزى والخروج من الجماعة والانفصال عنها .

ولم يحس فوزى بتعاسة فى حياته ، كما أحسها وهو يسمع هذه الأنباء . . لقد كان أمله معلقا بإخوانه فى الخارج أن يبصروا الرأى العام بحقيقة ما حدث ، وبأنه لا يقل استنكارا لما وقع عن أى مصرى

آخر ، ولكن هذه الحركة من جانب محي ستكون بمثابة الطعنة التى تجهز عليه . وصرخ فوزى فى يأس وفزع :

— لا . . لا . . إن أخى محي لا يمكن أن يضربنى هذه الضربة سوف أتوسل إليه . . سأتنزل له عن رئاسة الحركة . . سأفعل كل ما يطلبه منى أو ينزله على من عقاب . . ولكن يجب أن يبقى للحركة وحدتها وإلا تمزقت وضاعت للأبد .

٨

راح محي يفرك يديه فى عصبية ، وقد اغرورقت عيناه بالدموع وغلبه التأثر وهو يطالع رسالة صاحبه فوزى ، وإذ كان أكثر الناس معرفة بأخلاق فوزى وطباعه ، فقد اهتزت روحه لما يعانيه فوزى من إحساس بالضيق والاعتراف بالذنب وإلا لما كتب ما كتب . . وراح يتلو الفقرة الأخيرة من الرسالة :

« لقد عرفنا الناس يا محي أخوين منذ عشرين سنة ، ولا قوام لحركتنا ولا زاد لها إلا الإخلاص والحب الذى يحمله كل منا للآخر ، فما أخوفنى إذا انفرط عقد صداقتنا ، لا على مستقبل حركتنا فحسب ، بل على أنفسنا وصفاء أرواحنا . أتوسل إليك يا محي ، أن لا تتخلى عنى فى محنتى . . كن زعيمى ، كن قائدى . . ولكن لا تتخل عن الحركة التى كانت لك اليد الطولى فى جهادها المستميت خلال السنوات السبع الماضية . . » .

ومن جديد غلب محي التأثر فنهض وراح يذرع الأرض فى حجرة

مكتبه . إنه لا يمكن إلا أن يلبي نداء صاحبه . . إنه لا يستطيع أن يتخلى عنه فى محنته ، فلم يكن لدى محيي شك فى أن فوزى فى محنة ، فالرقابة المفروضة على الصحف تجعل من المتعذر تفسير موقفه فضلا عن الدفاع عنه ، وتبقيه أمام الكثرة الغالبة موصوما بهذه الوصمة الشائنة .

وبرقت عينا محيي ببريق من العزم والتصميم ، وغمغم قائلا :

— لا لن أتخلى عنه .. وسوف أتولى رئاسة الجماعة .. إن هذا من شأنه أن يصحح الموقف .

ويتوقف محيي عن السير مراجعا نفسه .. إن توليه الرئاسة فى هذه الظروف لا يعد استغلالا للموقف .. أولم يصارحه الكثيرون بأنه هو الأحق بها من فوزى نفسه .. أولم يثن بعض الرجال الكبار على ثقافته وحصافته ورصانته ، ويكثرون من عقد المقارنات بينه وبين فوزى المتهور المستبد العاطفى ؟

لا .. إن رئاسته للحركة هى وضع طبيعى بغض النظر عن الأزمة التى خلقها فوزى حول نفسه .

ويعود محيي ليتابع سيره ذهاباً وجيئة ، بعد أن قفز فى رأسه خاطر بدأ يزعجه من جديد :

— ولكن ماذا تساوى رئاسة الحركة فى هذه اللحظات .. وليس لها دار أو جريدة ، أو اجتماعات تعقد ، أو دعوة تروج ؟ . . والمغزى الوحيد لتوليه الرئاسة فى هذه المناسبة هو إعلان معارضته الصارخة

للحكومة الجديدة ، وهذا لا يعنى سوى أنه سيجد نفسه معتقلا على الفور فأى فائدة للقضية الوطنية فى أن يعتقل ؟

ويدخل عليه ابنه فيقطع عليه سلسلة أفكاره ، ويخفف بعض ما يعانيه من توتر . .

— ماذا يا حازم ؟

— مدير شركة المقاولات العمومية ؛ يريد موعدا ليقابلك فى المكتب ليعهد إليك بقضية للشركة .

— قل له سأكون فى المكتب فى الساعة السابعة مساء .

— ألا تكلمه . ؟

— لا يا حازم .. إننى مشغول ومبلبل .

ولكن حازم لا يكاد يخرج ، حتى يعود بعد قليل وهو يحمل التليفون فى يده هذه المرة ؛ ونظر محيى إلى ابنه فى دهشة إذ جاءه بالتليفون ؛ ولكن حازم همس له قائلا :

إنه الشيخ المهدى ، رئيس الدعوة المحمدية .

ويهرع محيى إلى سماعة التليفون مرحبا بالرجل الكبير الذى يتفق معه على موعد يتقابلان فيه لاستطلاع رأيه فى الموقف الحاضر .

ولا يكاد محيى يضع سماعة التليفون ويهم ابنه بأخذ التليفون خارج الحجرة .. حتى يدوى الجرس من جديد .

إنه صاحبه قطب الحزب الوطنى يدعوه لتناول العشاء معه .

ويهم حازم أن يأخذ التليفون خارج الغرفة .. ولـكن محيي لا يرى داعيا لذلك .. إن سبيله قد اتضح . . إنه يجب أن يحيا حياة بناءة . . لا حياة مغامرات ، إنه قادر على أن يقود حياة وطنية مثالية بغير حاجة لهذا التهديد المستمر بالتشتيت والحبس والاعتقال .

٩

كان الصخب قد بلغ أشده ، وأحس محيي أن سيطرته على الجلسة التى دعا إليها المجاهدين من أعضاء الحركة ممن لم يعتقلوا ، قد أصبحت مهددة ، وخاف أن يقع تشابك بالأيدى بين المتحمسين من الطرفين .

لقد وضح لديه منذ اللحظة الأولى التى افتتح فيها الاجتماع فى بيته أن هناك قلة تعادى فوزى معاداة سافرة فراحت تهاجمه وتندد به وبتصرفه الذى أقدم عليه ، وتصفه بالحماقة والاندفاع والتهور ، فأدى هذا الهجوم العنيف إلى تصلب أغلبية الحاضرين إلى جانب فوزى فراحوايدافعون عنه فى عنف وضراوة .

وقد بدأ محيي يقود المناقشات محايدا .. ولـكن الجلسة كلما امتدت.. زاد اقتناعه بوجوب عدم إضاعة هذه الفرصة الذهبية التى أتيحت له للانعتاق من هذه الحركة التى لم تعد تحيا على غير التطرف . لقد أغراه فى بداية الاجتماع أن يقبل الحل المعروض عليه وهو أن يتولى رئاسة الحركة بدلا من فوزى . . وكان يهزه بعمق أن يجد نفسه محاطا بما يقرب من خمسين شابا هم زهرة شباب مصر وطليعة جيل ، إنهم قادرون على أن يفعلوا الـكثير .. كانت تبهره فى الدرجة الأولى

شخصية شكرى المثالية الرصينة التى تذكره بإخلاص خالد وتفانيه . وكان يثلج صدره حماسة سعد المشتعلة وصوته المدوى وجسده الفارع وقوته الصارمة . . ويسحر لبه أنوثة فاطمة ورقتها ، وصدق إيمانها وإخلاصها ولكن هؤلاء الثلاثة بالذات لم يدعوا سبيلا لإظهار حبهم لفوزى وتعلقهم به تعلقاً خيالياً أو أسطوريا إلا وسلكوه ، كانوا لاينفكون يكررون مايؤكد ثقتهم المطلقة بكل مايفعله فوزى .. إنه قد يخطىء وهو نفسه يقول إنه أخطأ ولكنهم على استعداد لأن يسيروا وراءه مغمضى الأعين إيمانا منهم به .. وهم إذا كانوا على استعداد لقبول رئاسته فليس ذلك إلا لأن فوزى يريد ذلك ، ولأن هذا هو السبيل للخروج من هذا المأزق الذى وجدت الجماعة نفسها فيه . إنه متأكد كل التأكد أن فوزى لا يكاد يخرج من المعتقل حتى يعيدوه إلى الرئاسة فى أول انتخابات تجرى للجماعة .

لا .. إنه لن يكون كحجر الشطرنج .. لن يكون رئيساً مؤقتا لاجتياز أزمة .. إنه لن يضيع فرصته ويجب أن يعلن ذلك فى شجاعة إما الآن .. وإلا فلن يستطيع ذلك أبداً .

وقرع على المائدة التى كانت أمامه طالباً من الجميع السكوت ، وكأنهم أحسوا بغريزتهم أن سيسمعوا قراراً خطيراً فران عليهم صمت عميق :

— اسمعوا يا جماعة .. إن هذا الاجتماع يجب أن يصل إلى نهايته ، لقد تكلمنا كثيراً وناقشنا الموضوع من جميع زواياه وأعتقد أن الموقف قد أصبح واضحاً كل الوضوح .

إنكم تعرفون صداقتى لفوزى منذ الطفولة .. وهذا يجعلنى لا أقل عن أى منكم فهما له وتقديراً لجهاده . ولكننى أرى أننا وصلنا إلى نقطة تحتم علينا المصلحة والظروف فيها أن نفترق .

إننى شاكر لأخى فوزى ما عرضه على وأقررتموه عليه من عرض رئاسة الحركة علىّ ويؤسفنى ألا أكون قادراً على قبول هذا العرض الكريم . ومن ناحية أخرى فلست أستطيع الاستمرار فى الجماعة بعد حدوث ما حدث ، ولذلك فلست أستطيع إلا أن أعلن أمامكم انسحابى منها .

ووجمت الأغلبية ، بينما صفق بضع نفر من الحاضرين فى حماسة .

ولكن محيي عاد يطرق على المائدة بشدة وقد امتقع وجهه هاتفاً :

— أرجوكم .. أرجوكم .

وسكت المصفقون ، بينما استأنف محيي قائلا وقد خنقه التأثر :

— ولكن أرجو أن تكونوا على ثقة أن هذا الانسحاب لا يعنى أى مساس بشخص فوزى الذى أومن بإخلاصه ووطنيته وإنى واثق أن الطريق سيجمعنا من جديد فى المستقبل إن شاء الله .

١٠

لم تكد أنباء ما حدث فى الاجتماع تصل إلى فوزى حتى أحس بآلام حادة فى أمعائه جعلته يصرخ ويتلوى من شدة الألم ، وارتفعت حرارته ارتفاعاً مخيفاً فى الليل وأمضى إخوانه المعتقلون ليلة مفزعة من

حوله وهم فى خوف عليه وعند ما عاده طبيب المعتقل فى الصباح المبكر قرر بمجرد الكشف عليه أن ينقل فوراً إلى المستشفى لإجراء عملية جراحية له فى الزائدة الدودية وإلا تعرضت حياته للخطر .

وكادت الدكتورة فاطمة تقع مغشيا عليها عند ما فوجئت بمنظره وهو يدخل فى حجرة الاستقبال محمولا على إحدى النقالات وهو جامد الحركة مصفر الوجه مغمض العينين ، ولم تضيع وقتها بالنظر إلى الأوراق التى قدمها لها الضابط المرافق لفوزى . . بل أسرعت تجس نبضه وهى تناديه فى صوت يذوب لهفة وحنانا :

— أستاذ فوزى .. أستاذ فوزى . .

وفتح فوزى عينيه الذابلتين فى إعياء ، وقد انطفأ بريقهما المعهود ولكنه لم يكد يرى فاطمة . . حتى افترت شفتاه عن بسمة خفيفة وغمغم قائلا :

— لقد حانت نهايتى .. سأموت يا فاطمة . . ليتنى أموت .

وشحب وجه فاطمة وصاحت به :

— اسكت . . اسكت . . إن شاء الله نموت كلنا وتبقى أنت .

ولم تشأ أن تضيع دقيقة واحدة ، فأصدرت أمرها بإعداد حجرة العمليات ، بينما راحت تجمع أساتذة الجراحة وتقودهم دامعة العينين نحو حجرة العمليات لإنقاذ فوزى .

* * *

استعاد فوزى وعيه لأول مرة بعد زوال أثر البنج عنه ، ولم يكد يفتح عينيه ويرى الوجوه المحيطة به حتى عاد إلى إقفالهما بسرعة تصورا منه أنه فى العالم الآخر ، وأن هذه الوجوه المشرقة التى تحيط به هى وجوه الملائكة .

ولكن موجة الوعى كانت تتزايد فى كل لحظة ، ومع تزايدها بدأت الذاكرة تعمل .. إن هذا الوجه الملائكى الذى كان منحنيا عليه يشبه وجها يعرفه . . وجها يحبه ويعزه . . ويقفز الاسم فجأة إلى رأسه « شريفة هانم » ويفتح عينيه من جديد ليؤكد إحساسه بالحياة . وأنه لا يزال من أبناء هذه الدنيا ولم تصعد روحه للعالم الثانى . ورأى إلى جوار وجه شريفة هانم هذه المرة وجه سامح ابنها وشقيق زوجته وأكبر معين له فى كفاحه هذه السنوات الأخيرة حتى بعد أن أصبح وكيل نيابة .

وارتسمت على شفتى فوزى ابتسامة واهنة ، وبدأ تيار الحياة يتسرب إلى كل ذرة من ذرات جسده ، ومع الحيوية التى ملأته راح يدير بصره ، فوقعت عيناه على وجه زوجته الشاحب وقد ارتسمت عليه كل علائم الخوف والذعر والألم .. وهتف فوزى بأول صوت من حلقه :

— وفاء ... ؟

وانفجرت وفاء فى عاصفة من البكاء دون أن تقول شيئا من فرط

تأثرها ، وانتهرتها أمها فليس ثمة ما يستدعى البكاء وكل شيء قد تم فى نجاح .

واقتربت وفاء وهى تمسح دموعها مترددة متهيبة من أن تحدق فى فوزى ، فضلا عن أن تلمسه ، فقد كان خيالها يصور لها كما لو كانت بطنه مفتوحة والدماء تنزف منه . وقالت لها أمها مشجعة :

— مالك هكذا مذعورة ؟.. قبلى زوجك .

— ألا يضره ذلك ؟

وابتسمت شريفة هانم وقالت :

— بل سيفيده ياست وفاء .

وكأن وفاء لم تكن تنتظر إلا هذا التصريح لكى تغمر فوزى بقبلاتها ودموعها .

ودخلت الدكتورة فاطمة فى هذه اللحظات ، ولم يكد بصرها يقع على منظر وفاء وهى تقبل زوجها فى وله حتى شاعت فى وجهها بسمة رضا وقالت مداعبة :

— الله ! على المناظر الجميلة .. الله !

واحمر وجه وفاء خجلا ، ولم يلبث أن اصفر وامتقع ، بينما كانت فاطمة تقول :

— ها هى وفاء ياسيدى التى ما فتئت تناديها وتهتف باسمها وأنت فى شبه الغيبوبة .

وابتسمت شريفة هانم وقالت:

— لقد حدثتها عن كل شيء . .

وصاحت وفاء :

— لا لم تقل شيئا . . حدثيني أنت يافاطمة . . ماذا قال . . ماذا فعل . . هل تعذب كثيرا ؟

ضحكت فاطمة وقالت : كان يجب أن تريه وتسمعيه بنفسك . وانطلقت تقلد فوزى فى خفة ومرح ، وهى تتماوت وتنطق بصوت خافت متقطع :

— أنا عذبتكم معايا ، أنا عذبتك يا وفاء .. أنا عذبتك ياماما .. أنا عذبتكم كلكم .. عذبت كل اللى بيحبونى .

وقطع على فاطمة تمثيلها ، دخول العسكرى الحارس يعلن عن مقدم بعض الزوار الذين يستأذنون فى الدخول . وخرج سامح ليرى من من الزائرين ، ولم يلبث أن عاد من جديد والبشر يتلألأ فى وجهه ، وعلى أثره شكرى وسعد وعامر ، وقد حال سامح بين سعد وبين أن ينقض كالإعصار ليعانق فوزى فاكتفى بأن يقول وجسده كله يرتجف من شدة الانفعال :

— حمد الله على السلامة .

وهتف فوزى :

— شكرى .. سعد .. سامح .. عامر .. وفاء .. ماما .. فاطمة !

ما أسعدنى ! ما أغنانى ! الحمد لله .. الحمد لله .

وسمع فوزى وهو يغمض عينيه وقبل أن يغيب من جديد عن وعيه الدكتورة فاطمة تقول لهم :

— سيظل هكذا لمدة ساعة أخرى ، يفيق ليغيب من جديد ، كما لو كان غريقا يطفو على سطح الماء ثم يغطس إلى أن يفيق نهائيا .. المهم أن العملية قد نجحت تماما ورؤيته الآن لكم ستقوى من روحه ومعنويته التى كانت منهارة .. وسيساعده ذلك على الشفاء السريع .



الفصل الثانى

١

تململت عطيات زوجة بيومى في الفراش وهى لا تزال راقدة إلى جوار شاهين مبهورة الأنفاس، وراحت تتوسل إليه أن يسرع إلى ارتداء بذلته العسكرية قبل أن يدهمها زوجها . وضحك شاهين بكل ما فى نفسه من فجور واستهتار وقال :

— أحقاً ياعطيات لا تزالين تخافين من زوجك الدهل العبيط ؟

— اسكت .. اسكت والنبي ياباشا ، إنك لن تعرف بيومى إذا رأيته، لقد أصبح إنسانا آخر . آه لو تعرف ماذا قاسيت منه خلال الشهرين الماضيين عقب انتقالنا إلى هنا فى دسوق . إنه يحظر على فتح أى شباك ولم أبرح البيت مذ جئنا .

وقال شاهين وقد شرع فى لبس ملابسه :

— إن عقلى لا يصدق ، لا يمكننى أن أتصور بيومى رمضان يحاول أن يلعب دور الزوج الغيور ، منذ متى استيقظ ضميره ؟ أتتصورين يا بلهاء أنه لا يعرف ما بينى و بينك منذ اللحظة الأولى ؟

وتوقفت عطيات التى كانت تعمل فى إعادة تنظيم الفراش وقالت مؤكدة :

— أقسم لك بالله العظيم أنه لم يكن يعرف ، وكان يصدق حكاية عطفك وأنك تعدنى مثل ابنتك .

وقهقه شاهين فى سخرية :

— فهو إذن كما أقول عنه مغفل ودهل .

— ولكننى بدأت فى آخر أيامنا فى طنطا ألمح عليه شيئا من التغيير ، فكنت لا ألقى إلى ذلك بالا ، حتى كانت حادثة المتعوس ربنا يجحمه حيث راح وذهب .

— من تقصدين ؟

— وهل هناك غيره ، الله لا يكسبه أو يحسن إليه ، الراجل بتاع السياسة .

وتجلى الحقد فى عينى شاهين وقال لها :

— تقصدين فوزى السيد الذى اعتقل ؟ لقد ذهب فى ستين داهية وهو الآن كالكلب فى المعتقل ، وسيموت دون أن يحس به إنسان .

— هذا هو أصل البلاء الذى أصاب بيومى ، فمنذ سمع بأمر اعتقاله وأنك كنت السبب فى ذلك وقد جن جنونه .

— ولكن هذا غير صحيح ، ولم يكن لى دخل فى اعتقاله . . من الذى قال ذلك ؟

— فاجانى ذات يوم والشرر يقدح من عينيه وسألنى إذا كنت قد اخبرتك عنه ، ولما قلت له إننى فعلت ذلك ، تركنى وخرج غاضباً ، ثم عاد فى الليل المتأخر ، وبدأت الأمور تتطور كما حدثتك وطلب من المدير نقله إلى هنا ، ولما حاولت أن أعترض وأقول إننا يجب أن نستأذنك أولا ، صرخ فى وجهى وقال لى «اسكتى، وإلا فإننى سأقتلك».

— بيومى الصرصار الحقير ، يتحدث عن القتل ! لا أصدق ، ألا يعرف أننى أسحقه بحذائى . ولمع فى رأسه خاطر جعله يمسك بذراع عطيات ويضغط عليه بعنف مما جعلها تتأوه :

— أنت نفسك أطؤك بحذائى ، إذا تصورت أنك تواطأت معه لتحاولا اللعب علىّ بهذا التظاهر والتمثيل ؟

ونظرت إليه عطيات فى عتاب وقالت :

— اخص عليك يا شاهين ، أهكذا تقول علىّ ، وأنا خدامتك وجاريتك ؟ !

وهدأ غضب شاهين لهذه العبارات فاقترب منها وراح يربت على كتفها :

— أعمل إيه يا عطيات ؟ عقلى لا يتصور ما تقولينه عن بيومى .

— على كل حال ، أنت عليك الحق . فلولا انقطاعك وغيابك عنا طول هذه المدة ، لما تطورت أحواله إلى هذه الدرجة من السوء .

— قلت لك إن ذلك كان رغم إرادتى ، لقد أوفدنى الإنجليز بمهمة خاصة فى فلسطين .

— طوال هذه المدة ؟ ثم اضافت فى دلال وعتاب :

— دعك من هذا ياباشا ، لا بد أنك قد سلوتنى ووجدت من يشغلك عنى .

وضحك شاهين فى زهو وفتل شاربيه :

— الحق أن الفتيات اليهوديات فى تل أبيب يأكلن العقل ، ولكن أنت . . أنت ياعطيات لك سحر خاص فى نفسى ، فلم أكد أصل إلى طنطا حتى قصدت إلى بيتكم ، وتستطيعين أن تتصورى مقدار الصدمة التى أصبت بها عندما قيل لى إنكم انتقلتم إلى حيث لا يعرفون ، ولم أعرف مصيركم إلا بعد أن اتصلت بالمديرية .

ودوى فى هذه اللحظة صوت آلة تنبيه سيارة شاهين بصورة مزعجة ، جعلت عطيات تهتف فى فزع :

— لا بد أنه بيومى .. وعويس ينبهك كما طلبت منه ، ما الذى جاء به فى هذه الساعة ، قبل موعد خروج الدواوين ؟

وأسرعت تطل من خصاص النافذة المغلقة ، فألفت زوجها يندفع مهرولا من أول الشارع مكفهر الوجه ، واستوقفه ابنهما محبوب الذى كانت قد أنزلته إلى الشارع بمجرد قدوم الباشا ، ولم تغب عنها نظرات الحقد والغضب التى شاعت فى وجهه وهو يتطلع نحو نوافذ البيت بعد أن تبادل كلمات لم تسمعها مع محبوب .

واصفر وجه عطيات وهرعت نحو الحجرة الثانية من البيت والتى كانت طفلتها وحيدة ، حديثة الولادة ، ترقد بها .

وقطب شاهين السلانكلى حاجبيه فى غضب ، ولم يكد يسمع الباب يقرع بشدة حتى أسرع بفتحه بنفسه فى تحد .

وفوجئ بيومى بمنظر الباشا بجسده الضخم ووجهه المكتنز المتورد وشاربه المفتول وملابسه العسكرية ورقبته الغليظة وروح القوة والسيطرة والبطش التى تفوح منه .

وزاغت عينا بيومى وارتج عليه وتلاحقت أنفاسه . . وظهرت فى هذه اللحظة عطيات وهى تحمل وجيدة بين ذراعيها وهتفت متصنعة الفرح والدهشة :

— كم أنت ابن حلال يابيومى ، كأن قلبك أحس بتشريف الباشا لنا بعد الغياب فجئت قبل موعدك .

غمغم بيومى فى تردد وارتباك :

— هكذا أخبرنى أحد زملائى فى البلدية . وتوقف بيومى بعض الشىء ، ثم قال فى تخاذل : أهلا وسهلا سعادة الباشا .

ونظر إليه شاهين متفرسا متحديا ، ولم يلبث أن انطلق فى إحدى قهقهاته المجلجلة .

— أهلا بك يابيومى أفندى.. أهكذا تستقبلنى بعد غياب شهرين؟

وزاد ارتباك بيومى واضطرابه وغمغم قائلا :

— عفوا ياسعادة الباشا .. إن المفاجأة أذهلتنى .

وتقدم فى تثاقل وبرود فصافح الباشا دون أن ينحنى فيقبل يده كما اعتاد ذلك من قبل ..

ولم تفت هذه الحركة شاهين السلانكلى ، فظهر الغضب عليه وقال لبيومى فى تحد :

— تسمح أولا تفسر لى سر هذه العملة التى عملتها ؟

— أى عملة ؟..

— عجبا ألا تعرف أى عملة ؟ عملة انتقالك بهذه الصورة الغريبة وبدون استئذانى أو أخذ رأيى ، أو حتى إعلامى بها بعد حدوثها .

وبدأ بيومى يستعيد قواه المبعثرة ، ويتغلب على تأثير العادة التى تشعره بالضعف والقصور إزاء هذا الرجل المسيطر ، فقال فى قوة وتحد .

— أنا لم أرتكب جريمة فيما فعلت . لقد طلبت نقلى من سعادة المدير إلى هنا فنقلنى .

— ومنذ متى ياحضرة الأفندى أصبحت تقابل المدير ، وتطلب منه طلبات .. وبأى جاه وبأى نفوذ أجابك المدير إلى طلبك ؟

ولم يحر بيومى جوابا ، وخبت من جديد نيران إرادته ، وهذا الرجل يذكره بالحقيقة الصارخة ، وهى أنه مدين بكل كيانه المادى له .

وعاد شاهين يقول ضاغطا على بيومى بعد أن أحس أنه ضيق عليه الخناق :

— وما معنى إرسالك حجرة نومى الخاصة وحاجياتى عندكم إلى العزبة ، هل أفهم من ذلك أن حضرتك تقطع علاقتك بى ؟ .

وأسرعت عطيات تتدخل بين شاهين وزوجها وتقول فى سرعة ولهفة وهى تهز طفلتها بشدة :

— من نحن يا باشا حتى نفكر فى قطع علاقتنا بك ، نحن خدمك وعبيدك ، وأنت مصدر حياتنا وولى نعمتنا .

واستثارت هذه الكلمات حمية بيومى فنظر إليها فى صرامة وعنف وصرخ فى وجهها :

— اخرصى أنت ولا تتدخلى فى الحديث بينى وبين الباشا ، نحن لسنا عبيد أحد .

ولكن عطيات التى شجعها وجود شاهين إلى جوارها ، ردت صرخته بأقوى منها :

— حيلك .. حيلك ، ما هذا الصراخ والزياط ، على رأى المثل « سكتنا له دخل بحماره » ألم تسمع ماذا يقول الباشا ؟ أمعقول بعد كل الذى فعله من أجلنا أن نقطع علاقتنا به ؟

وساد الصمت لحظات، قال بعدها شاهين لبيومى متحديا ومنتهرا :

— ما تتكلم يا أفندى ، مادمت قد أصبحت رجلا . ومنذ متى هذه الشهامة المتدفقة ، أتكون قد انضممت إلى حزب البعث ، أتكون نفسك قد تاقت للاعتقال لتصبح بطلا على آخر الزمن ؟ .

وأسقط فى يد بيومى وظهر عليه التردد ، ولم يعرف ماذا يقول ، بينما مضى شاهين يقول فى عنف وصخب . ما تتكلم يا أفندى ... ياشهم يا شجاع ، ما الذى حملك على الانتقال من طنطا إلى هنا بدون إذنى

واستشارتى ، وما معنى إرسالك حجرة نومى وحاجياتى إلى العزبة ؟

ونظر بيومى إلى شاهين بعينين زائغتين ، لا يعرف ماذا يقول ولا كيف يتصرف ... أيقول لهذا الرجل الجبار الذى يزحم الحجرة بجسده أنه لم يعد يخافه ، إنه يحس بنفسه ندا له .. أيقول له إنه فعل ما فعل لأنه تصور أنه عشيق امرأته التى كان يدعى أنها ابنته وهى فى الحقيقة عشيقته ، أيقول له ... إنه يشك فى ولديه محبوب ووحيده ؟

وتسود الدنيا فى عينى بيومى وتدور رأسه ، فيترنح ويوشك أن يسقط على الأرض ، لولا أن يسارع فيستند إلى المائدة .لا ، إنه لن يتفوه بشىء من ذلك ... إنه أمر فظيع ، لا يمكن أن يقذف بثلاثتهم بل بخمستهم إلى الجحيم بمجرد النطق بهذه الكلمات الكبيرة ، وهو غير واثق ومتأكد من صحتها ، وإنما هى شكوك . . . شكوك وهواجس حديثة العهد فى نفسه .

ويطرق بيومى برأسه ،ويجلس على أقرب مقعد وهو منهار الأعصاب كسيف البال .

ويبتسم شاهين اختيالا ويبرم شاربه وهو يحس أنه قد انتصر على هذا العبيط الدهل ، ويقرر أن يمضى فى خطته التى اتفق عليها مع عطيات وهى أن ينقلهم إلى القاهرة مقر عمله الجديد .

٢

كانت مستشفى الدمرداش ، كأى مكان آخر فى أنحاء الدنيا فى ذلك اليوم من يونيو سنة ١٩٤٢ ترتج بالنبأ المدوى الذى أذهل العالمين ، وهو نبأ سقوط طبرق حصن الإنجليز فى ليبيا والذى أودعوا فيه زهرة جيوشهم وأقوى أسلحتهم وذخائرهم ، بعد كفاح قصير لم يستغرق ساعات وهى التى كان مقدرا لها ألا تسقط إلى الأبد .

وكان فوزى يدير مع محدثيه من الأطباء والممرضات وبقية المرضى البحث حول معقبات هذا النبأ ودلالته ومغزاه وما سوف يترتب عليه من رد فعل . وكان الإجماع على أنها ضربة مذهلة من ضربات روميل قائد الألمان العبقرى ، وأن انجلترا قد أصيبت بنكبة حقيقية مروعة .

على أن فوزى لم يحس بأبعاد هذه النكبة وعمق الأثر الذى خلفته فى نفوس الإنجليز بعامة والمقيمين فى مصر بخاصة ، إلا بعد أن دخلت عليه مس لورنس الإنجليزية مساعدة كبيرة الممرضات ،وقد ارتسم على وجهها أشد أمارات الفزع والرعب وهى تقول له كأنها تلتمس منه العون والمدد :

— أسمعت عن هذه المصيبة ... ؟ سقطت طبرق .

وكانت مس لورنس بالرغم من شبابها وجمالها الأنجليزى المادى قد اشتهرت بالصلف والغطرسة ، التى حجبت حسنها ، ولم يعد كل من فى المستشفى يرى فيها سوى انجليزية بغيضة ، أما فى هذه اللحظة فقد

كان منظرها يثير الشفقة والرثاء ، وهى لا تعدو أن تكون مهيضة الجناح فى حالة خوف وفزع .

وأسرع فوزى لنجدتها ، فتظاهر بالتفكير والتقدير ثم قال لها بالإنجليزية :

— وأى شىء فى ذلك ؟ أنسيت أن الإيطاليين وصلوا فى هجومهم السابق على مصر إلى سيدى برانى ثم طردهم الإنجليز ؟.

فصاحت الإنجليزية فى انفعال :

— هؤلاء كانوا إيطاليين ولقد طردناهم فيما بعد كالنعاج ، أما اليوم فالمهاجم هو روميل . . . أتعرف ماذا يقول جنودنا عن روميل . . . إنهم يصفونه بأنه إله الحرب ... إن الرصاص بل والقنابل منها لا تؤثر فيه ولقد اعتدت أن أسخر بكل ذلك ... أما بعد استيلائه على طبرق بهذه السرعة المذهلة ... فإن جسدى يرتعد .

— ولكن روميل يامس لورنس ، أجلى الجيش البريطانى عن كل قواعده فى ليبيا فى مرة سابقة ، ولم يلبث أن توقف على حدود مصر ولم يستطع أن يتخطاها .

وصاحت مس لورنس :

— هذه هى المسألة ... لقد كان وجود طبرق كالشوكة فى جنبه.. كانت تهدده بقطع خط رجعته ومواصلاته ... أما الآن وقد سقطت طبرق بجيشها الضخم الذى وقع فى الأسر فسيحول هجومه إلى سيل جارف ... إن خطوط جيشنا تتداعى فى سرعة عجيبة ، إن الارتباك يسود صفوف الجيش الثامن الذى يتراجع فى ذعر . . . لقد اخترق روميل الحدود المصرية واحتل السلوم وهو لا يزال منطلقا فى اندفاعه.

— أتصدقين بلاغات الألمان ؟ !

وصاحت مس لورنس فى عصبية وانفعال :

— إننى أقول لك أخبار إذاعة لندن نفسها . . لقد صرح تشرشل نفسه بأنه قد ذعر عندما سمع نبأ سقوط طبرق بكل جيوشها وأحس لأول مرة بالمهانة والذل ، وأصدر أمره بعزل ريتشى قائد الجيش الثامن .

ونزلت هذه الأخبار على قلب فوزى برداً وسلاماً ، فكل مايزعج الإنجليز لا يمكن إلا أن يطربه ، ولكنه كان شديد الرغبة فى التهوين على مس لورنس ، وحدثته نفسه لو استطاع أن يضمها إلى صدره فى حنان ويربت على خدها ليخفف عنها بعض هذا الذعر والألم الذى كانت تعانيه ، ولكنه أبعد هذا الخاطر باستنكار وأقبل يهدئها بكلماته :

— أؤكد لك أن لاخطر على مصر إلا إذا سقطت مرسى مطروح ، إن مرسى مطروح هى حصن مصر الحصين على ما يقولون وما بقيت صامدة فلا خطر قريب .

وقالت مس لورنس بالعربية :

— إن شاء الله « يامتر » فوزى . . إن شاء الله ، ثم مضت تقول على كل حال لقد أعددت حقائبى للسفر من مصر ، فلن أنتظر إلى أن أقع أسيرة فى أيدى النازيين المتوحشين .

وخرجت مس لورنس ، ليأتى بعدها دور مسز كاترين رئيسة الممرضات الكبيرة المسنة ، والتى كانت خلوا من غطرسة مس لورنس وصلفها ، وتحيط المرضى برقتها وحنانها . وسألت فوزى باللغة العربية

فى ابتسامتها العادية وبرودها الانجليزى ومسحة الجمال التى لم تستطع يد السنين أن تمحوها :

— ازاى الصحة ؟

— طيبة والحمد لله .

وأمسكت بلوحة التقارير الطبية المعلقة على السرير ، ونظرت بحركة آلية إلى ما سجل عن النبض والحرارة ، ثم استدارت بعد ذلك فى طريقها لمبارحة الحجرة ، وسألته سؤالها التقليدى :

— أتريد شيئاً ؟

وشكرها فوزى ، بينما أسرعت تخطو نحو الباب . وعجب فوزى لهذا البرود القاتل الذى لا يتصوره العقل . . أو لم تسمع الأنباء المخيفة ؟ ألم يدب إليها بعض ما دب إلى صاحبتها من الخوف والهلع . . ولم يستطع فوزى أن يكتم ضيقه بهذا البرود وعدم الاكتراث الذى أبدته الإنجليزية المسنّة ، وقرر أن يناوشها فقال لها :

— ما هذا القلق الذى لا مبرر له ، والفزع الذى استولى على مس لورنس ؟ لقد حاولت أن أهدئ من روعها فلم أفلح .

وكأن مسز كاترين كانت فى حاجة لهذه الكلمة لكى تنفس عما كان يعتلج فى صدرها ، فإذا هى تنطلق كالبركان الثائر :

— إنها بلهاء حمقاء . . يجب أن تعرف أنها ليست إنجليزية . . إن أمها إيرلندية وأنت تعرف خفة هؤلاء الإيرلنديين وعصبيتهم ، لقد حذرتها ، لقد نبهت عليها أن هذا الذعر الذى استولى عليها لا يليق

بوقارنا ، إن النازيين لن يدخلوا مصر . . لن يدخلوها . وضربت الأرض بقدمها الصغيرة تأكيدا لهذا القول .

وحاول فوزى أن يخفى ما استولى عليه من فرح طاغ وهو يرى الإنجليزية الأخرى لا تقل انفعالا عن صاحبتها ، فقال متصنعا البرود وعدم الاكتراث :

— تقول إنها سمعت من إذاعة لندن أن الجيش الثامن يتراجع فى ارتباك وانحلال ، وأن ألوفا من أفراده يهيمون على وجوههم فى الصحراء ، يكادون يموتون من الظمأ ، وهم يبحثون عن مراكز العدو لتسليم أنفسهم .

وصاحت مسز كاترين فى عصبية :

— ليكن . . ولكنهم سيتوقفون فى الوقت المناسب ، وفى الموقع المناسب ليسحقوا النازيين سحقا .

ولم يستطع فوزى بالرغم من سخريته فى أعماق نفسه بأوهامها أن يخفى الإعجاب بشدة إيمانها بالنصر ، وإذ كان لا يحب إزعاجها فقد قال لها :

— أوافقك على ما تقولين . . أنا من هذا الرأى .

ونظرت له مسز كاترين فى اعتراف بالجميل وقالت وهى تبرح الحجرة :

— أنت الوحيد الذى تتكلم اليوم بتعقل . . أشكرك .

* * *

على أن جو المستشفى لم يلبث أن ازداد اشتعالا ، وأصبحت كل دقيقة جديدة تزيد فى شحن الجو والناس بالانفعالات . وانفرط عقد

النظام فلم يعد هناك كبير أو صغير أو رئيس أو مرءوس ، وتوافد على فوزى عشرات الزوار من إخوانه دون أن يصدهم صاد ، فقد كان أفراد الحرس المكلفون بالتحفظ على المعتقلين لا يختلفون عن الآخرين فى شدة الاهتياج ، ونشوتهم المستمرة لسماع أنباء جديدة عن زحف الألمان وسقوط هذه البلدة وهذا الموقع .

وتلاطمت الأقاويل والروايات . . ولم يعد يعرف ما هو الصحيح ، فقد كان كل إنسان يتحدث ، وكل إنسان ينقل ، وكل إنسان يروى ، وكل إنسان يتكهن .

— بدأ الإنجليز يحرقون أوراقهم السرية فى دار السفارة والقيادة العامة .. كانت سحب الدخان تغطى سماء قصر الدوبارة .

— قيل إنهم سيدمرون الكبارى والجسور والطرقات ومنشآت النور والمياه .

— لقد فتحوا عيون القناطر الخيرية لإغراق الدلتا كلها وتحويلها إلى مستنقع من الوحل ليحول دون تقدم الدبابات الألمانية .

— بدأت الحكومة تتخذ الترتيبات للسفر إلى السودان ..

— إذا لم يتوقف الزحف الألمانى اليوم أوغدا فسوف يعلن الملك انتقاله إلى الخرطوم ..

— اليهود يصفون أملاكهم ويبيعون متاجرهم ويفرون مذعورين

— هل تعلمون أن فلان باشا والكاتب الكبير قد هربا إلى السودان ؟

— إن الحرب لن تطول بعد الآن ، سيقتل هتلر انجلترا فى مصر .

— ستأخذ الحكومة بناء على أمر الإنجليز المعتقلين من المصريين معهم عندما تنتقل إلى السودان .

ويحس فوزى بالدم يغيض من وجهه ، والعرق يتصبب من جبينه وسائر أطرافه ، والجفاف يستولى على حلقه ، وهو يسمع هذه الكلمة الأخيرة ... « سيأخذون المعتقلين معهم » . لا .. إنه لن يسمح أن يساق كالماشية فى أعقاب الإنجليز المنسحبين ، وحتى لو لم يتحقق ذلك الخطر وبقى المعتقلون فى مصر ، فهو لا يمكن أن يتصور دخول النازى فى مصر وهو سجين رهن الاعتقال .. سوف يمزقونه إربا جزاء لاجترائه على زعيمهم وإلههم ، ألم يصف هتلر إبان أزمة ميونيخ بأنه قد تحول إلى بلطجى دولى .. أو لم يقل له فى رسالته وهو يدعوه إلى الإسلام. إن مصيره ومصير ألمانيا كلها سينتهى إلى الدمار إذا لم يعدل عن سياسته فى السيطرة على العالم . إن الألمان لا يمكن أن يكونوا قد نسوا هذه المقالات التى احتجوا عليها رسميا فى وقتها، وحتى لو كانوا نسوها فسيجدون من أبناء مصر من يذكرهم بها .. لقد بدأ بالفعل هذا النفر ممن خرجوا على فوزى يلوحون بهذه المقالات ويستعيدون ذكراها .. كآية ودليل على سفه فوزى وحماقته .

ويغمض فوزى عينيه ويصرخ من هول الرؤية التى تتجسد أمام عينيه ، وهو يستذكر الأحاديث والروايات عن أفاعيل الجستابو ، وأساليب الجستابو فى تعذيب البشر . ويصرخ فوزى فى أعماق نفسه .

لا .. لا .. مستحيل أن يبقى رهن الاعتقال .. يجب أن يهرب . . يجب أن يفر ، يجب أن يستعيد حريته فى مواجهة الإنجليز والألمان معا .

٣

— صباح الخير

— صباح الخير يا أونباشى سعيد .

ولم يكن سعيد فى حقيقته إلا مجرد نفر عادى لم يتزين ذراعه بعد بشريط الأونباشية ومع ذلك فقد كان لابد لفوزى من أن يعظمه ويدخل السرور على نفسه وهو الحارس المعين للتحفظ عليه .

وفتل الأونباشى سعيد طرفى شاربيه اللذين كان يعتز بهما ويرى فيهما الإعلان عن رجولته وحيويته فى ذات الوقت ، بينما كان يقول وعيناه تبرقان :

— صباحك صباح الخير والقشطة يا أستاذ فوزى ، الأخبار اليوم « فُل » لقد سقطت مرسى مطروح منذ أيام والإنجليز يتكتمون الخبر .. إن الجيوش الألمانية على مشارف اسكندرية .

— يا شيخ حرام عليك البلاغات الألمانية الصادرة أمس لا تتحدث إلا عن اختراق حصون مرسى مطروح الخارجية .

— صدقنى أنا ، لقد سمعت الخبر من أحد أصدقائى الأسطى مدبولى وهو الذى يسوق قطار السكة الحديد الذاهب إلى مرسى مطروح ، وقد أصبح يتوقف بالقطار فى محطة الحمام ، وهى تكاد تكون من ضواحى اسكندرية .

ودخلت فى هـذه اللحظة إحدى الممرضات الحسناوات فارتفعت يد سعيد بحركة لاشعورية نحو شاربه يبرم طرفيه فى اختيال وهو يقول :
« أيام الإنجليز انتهت ، فليروحوا فى ستين داهية إلى حيث ألقت »
وفرك يديه بعد أن وضع البندقية جانباً ،وقال لفوزى وهو يرنو بطرف بصره نحو الممرضة الحسناء :

ـــ اطلب لنا قهوة سكر زيادة لأعمر مخى من هذه الأخبار المفرحة.

وطلب فوزى من الممرضة أن تتكرم بإحضار القهوة للأونباشى سعيد .

ـــ وهل الناس فرحانة يا أونباشى سعيد ؟

ـــ فرحانة ؟.. الناس تكاد تجن من الفرح ، لقد كان رواد المقهى بالأمس يتبادلون التهانى ويوزعون الشربات . . وأبى بعضهم إلا أن يرقص .

ـــ ألا يخافون من النازيين . . إن النازيين يرتكبون من الفظائع فى كل بلد يدخلونه ما يقشعر منه الأبدان ، لقد طالعت فى إحدى الكتب أنهم أنشأوا أفران رهيبة لخنق مئات الألوف من اليهود ثم إحراق جثثهم بالنار وتحويلها إلى سماد يفلحون به الأرض .

وضحك الأونباشى سعيد فى فرح وجزل .. وقال :

ـــ وهل نحب هتلر فى الدرجه الأولى إلا لهذا ؟.. ليته يبيدهم جميعاً عن بكرة أبيهم ويطهر الدنيا منهم ومن شرورهم .

وامتقع وجه فوزى رغم أن هذه لم تكن المرة الأولى التى يسمع فيها مثل هذه التمنيات بالنسبة لليهود :

— يا أونباشى سعيد . . حرام عليك أن تقول هذا ، أليس اليهود بشراً كبقية البشر .. وعلى كل حال فما يفعله هتلر باليهود لايلبث أن يفعله بنا نحن أيضاً وبكل من يحاول أن يعترض مشيئته .

فصاح الأونباشى سعيد . .

أعوذ بالله يا شيخ ، كيف تقول هذا القول عن هتلر . . إنه رجل مسلم وموحد بالله . . ولن تلبث أن تسمع إعلان نبأ إسلامه ، والمهم هو أنه سيخلصنا من الإنجليز أولاد الكلب الذين سرقونا ونهبونا وأجاعونا .

وخطر ، لفوزى وسعيد يتناول فنجان القهوة من يد الممرضة الحسناء ، أن يستغل حماسة سعيد وكراهيته للإنجليز ليعاونه على إتمام مشروعه فى الهرب . . ولكنه رأى أن لايفاجئه بالمشروع مباشرة ، وأن يبدأ بجس نبضه :

— مارأيك يا شاويش سعيد فى أننى أطمع منك فى خدمة ؟

وفتل الحارس شاربه فى زهو وأسرع يقول فى شهامة :

— رقبتى فى خدمتك يا أستاذ فوزى ، إنت رجل بطل وستصبح رئيس حكومة أو أحلق شاربى هذا .

وتشجع فوزى فقال لصاحبه :

— ما رأيك فى أننى فى شدة الضيق من حبسى طول الوقت داخل

جدران المستشفى ، فما رأيك لو خرجنا معا فى نزهة خارج المستشفى ؟

واصفر وجه العسكرى وظهر عليه الاضطراب والارتباك .. وتوهم فوزى كما لو كان شاربه قد تدلى . . وراح يقول فى تلعثم :

— والله هذه مسألة صعبة ، ثم انطلق العسكرى يقول وكأنه استجمع إرادته المبعثرة :

— إنك رجل طيب ولايمكن أن تفكر فى خراب بيتى .. ومثل هذا العمل لا يمكن إلا أن يخرب بيتى .

وابتسم فوزى فى مرارة وخيبة الأمل تغمره وقال فى سخرية :

— ولكن جميع زملائك يفعلون مثل ذلك مع بقية المعتقلين من المرضى .

— جميع المعتقلين كوم ، وأنت بشخصك كوم آخر ، ولو أنك كنت معتقلا عاديا لما ترددت فى إجابتك إلى طلبك على عينى ورأسى فالمعتقلون الآخرون غير معروفين وهم لا يلفتون النظر . . أما أنت فكل الدنيا تعرفك ، والعيون تقع عليك حيث سرت وأنى اتجهت .. لا . . لا يا أستاذ فوزى . . أنت رجل عظيم فدعك من أمثال هذه الأفكار .

— خلاص .. خلاص ، لقد صرفت النظر عن هذا الطلب .

وتنفس العسكرى الصعداء وراح يقول فى حماسة وحرارة :

— ربنا يبقيك ويعمر بيتك، إن أمامك المستشفى كله .. وحديقة المستشفى تحت أمرك . . أما خارج المستشفى ...

وكأن هذا الحديث قد نبه إحساساً خفياً فى نفس سعيد، فإذا هو يتقلد بندقيته التى كان قد أرساها إلى جوار سرير فوزى، وإذا هو يحرص هذا الصباح على خلاف العادة أن يلازم فوزى فى كل حركة يخطوها حتى عند ذهابه إلى دورة المياه وهو ما لم يكن يفعله من قبل. وانتهت نوبة سعيد قبيل المساء وحل محله عسكرى آخر أقل حماسة منه فى كره الإنجليز وحب الألمان .. !؟!

٤

وعوت صفارات الإنذار عند ما جاء المساء وانخلع قلب كل من فى المستشفى وساد الجو شعور بالخوف والهلع الرهيب .. لم يكن الشعب المصرى قد عانى من ويلات الغارات الجوية إلا ما قام به الإيطاليون من هدم بعض البيوت فى الاسكندرية على نطاق واسع منذ عام مضى، ولم يتكرر ذلك بعدها أبدا، ولكن هذا الموقف الجديد كان من شأنه أن يجعل كل مصرى يحس بفزع حقيقى، فقد أصبحت الحرب الآن على الأرض المصرية نفسها، والتحدث عن سقوط الإسكندرية فى أية لحظة أصبح حديث الساعة، وإذا كان الألمان قد حصلوا على انتصاراتهم العظمى فى هذه الحرب بفضل سلاحهم الجوى المنقض الذى كان يسبق هجوم جيوشهم ليحطم كل شىء خلف الجبهة وليشيع الذعر وراء الصفوف المحاربة، فها قد جاء الدور ليعانى المصريون هذه المحنة.

ولم يكن فوزى عند ما سمع صفارات الإنذار تعوى بأقل من أى

إنسان آخر فى الإحساس بالخوف من الموت الذى أصبح محدقا بل لعله كان يزيد عن الكثيرين فى الاستشعار بالخوف لشدة خياله الذى يصور له فظائع الغارات وأهوالها ، فيتمثل الجدران والأسقف وهى تتهاوى فوقة .. وبقطع الأحجار المتساقطة وهى تدكه دكا وأسياخ الحديد وهى تبقر بطنه ، وتراب الردم وهو يخنق أنفاسه . . ولقد تذوق فوزى طعم ذلك كله وتجرعه بمجرد سماعه صفارات الإنذار هذا المساء ، على أنه لم يلبث فى اللحظات التالية أن وجد نفسه — لكبير دهشته وسخريته — يحاول تهدئة خوف الخائفين من المرضى ويعمل على إدخال الطمأنينة إلى نفوسهم . وأسعفه خاطره أن يحدث المرضى عن قواعد الحرب وأصولها التى تحتم عدم التعرض للمستشفيات فى الدرجة الأولى .. فالمستشفيات هى آمن مكان من الغارات الجوية .

وصاح أحد المرضى محتجا :

— وكيف تميز الطائرات بين المستشفيات والثكنات ، يا عالم نحن هنا فى العباسية بجوار الثكنات الإنجليزية .. لا حول ولا قوة إلا بالله العظيم .

ويرتج على فوزى وترتسم على شفتيه ابتسامة باهتة ناطقة بارتباكه واضطرابه وإحساسه بصدق ماقال المريض .. ولكن إحدى الممرضات تدخلت قائلة :

— لقد رسمنا على سطح المستشفى هلالا كبيرا جدا باللون الفضى لا يمكن أن تخطئه الطائرات .

ويشعر فوزى بشىء من الراحة لفكرة الهلال المرسوم على سطح المستشفى ، وينتقل إلى عنبر جديد لتشجيع باقى المرضى فقد راق له هذا العمل . على أن الوساوس لا تلبث أن تعاوده :

— وأنى للطائرات فى الليل أن ترى هذا الهلال المرسوم حتى لو كان باللون الفضى ؟ وينقبض فوزى من جديد ويعود إلى خوفه وتشاؤمه ، لولا أن تسعفه الذاكرة من جديد ، فهذه الليلة هى ليلة الرابع عشر ، فهى مقمرة كأعظم ما يكون القمر جلالا وبهاء . . وسيكون باستطاعة الطائرات الألمانية أن تميز صورة الهلال الفضى بسهولة .. إن الجميع يتحدثون عن دقة الطيارين الألمان فى اختيار أهدافهم . ولكن أليس من أهدافهم إشاعة الذعر والفوضى ؟ فمن الذى يضمن أن لا يكون ضرب المستشفيات هدفا مقصودا .. ويتصبب العرق على وجه فوزى ، ويسرع إلى تعويذته فى أمثال هذه الحالات « قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا » ويسرح بخاطره لأول مرة نحو زوجته وولديه خالد وشكرى ترى ماذا يفعلون الآن وأى ذعر يلم بهم ؟

— يا أستاذ فوزى .. يا أستاذ فوزى ...

ويشعر فوزى بالطمأنينة تسرى فى أوصاله وهو يسمع هذا النداء فقد كانت الدكتورة فاطمة هى صاحبته :

— أين أنت ، إننى أبحث عنك فى كل العنابر وكلما دخلت عنبراً قال المرضى إنك كنت هناك منذ لحظات .. لقد أتعبتنى فى البحث عنك

ويتساءل فوزى فى لهفة :

— خيرا ؟!

— تعال عاونى على إقناع ثلاث فتيات بالذهاب إلى المخبأ .

ويذهب فوزى إلى إحدى حجرات الدرجة الأولى ، حيث كانت قد أجريت لإحدى المريضات عملية خطيرة ، ولا يكاد بصر السيدة المريضة يقع عليه حتى تهتف به مستغيثة :

— أرجوك يا أستاذ فوزى ، أن تاخذ بناتى من حولى إلى المخبأ.

وتحتج الفتيات الثلاث ويعترضن ويصممن على البقاء بجوار أمهن. وعبثا تحاول الأم أن تقنعهن بأنها ميئوس منها وأنها مائتة لا محالة .. ولن تهنأ أو تسعد إلا إذا اطمأنت على وجودهن بعيدا عن الخطر ، ولكن ذلك كله لم يكن يزيد الفتيات إلا تشبثا بالبقاء حولها .

ويسأل فوزى فاطمة عن مكان المخبأ الذى يدعو الجميع للذهاب إليه ، ولم يكن قد شهد مخبأ منذ قيام الحرب ، وكان عليه فى المرات القليلة التى دهمته فيها هذه الغارات عندما اعتقل فى سجن الأجانب أن يتجرع غصص الخوف من الغارات وهو قابع فى داخل زنزانته . وها هى ذى الفرصة تتاح له أخيراً ليشهد مخبأ ، وقد قيل له إنه مخبأ على أعظم طراز . وهبط فوزى مع فاطمة على درجات سلم رحب فسيح وإذا هو بعد قليل فى بهو متسع تضيئه أنوار خافتة وتوحى جدرانه بالصلابة . وأذهل فوزى أن المخبأ خال من أى إنسان ، فلم يفكر طبيب أو ممرض وممرضة ، فضلا عن أحد من المرضى أن يلجأ إلى هذا

المخبأ ، الذى كان مجهزاً بالطعام المحفوظ وبأوانى الماء وبعض الأدوية والمقاعد والأغطية . ويكتشف فوزى فجأة أنه يقف مع فاطمة منفردين يلفهما سكون وفراغ بعد أن انعزلا عن الضوضاء التى كانت تغمر المستشفى ، والتى صاحبت الدقائق الأولى من الفزع الذى أحدثه الإنذار بالغارة . ويخفق قلبه ، ويسرى فى كيانه شعور غامض مبهم ، فأسرع يقول فى اضطراب وارتباك مفاجئين :

— هيا بنا يا فاطمة ، لخير للإنسان أن يموت فى الهواء الطلق من أن يموت هنا مختنقا .

ولم يكدا يبتعدان عن المخبأ ويسيران من جديد فى دهاليز المستشفى التى كانت تغص بالمرضى والموظفين باعتبارها آمن أجزاء المستشفى ، حتى قابلا مسز كاترين ومس لورنس تروحان وتجيئان فى صمت ووجوم . . واستأذنت فاطمة من فوزى أن تذهب للاطمئنان على بعض مرضاها ولتخاطب أمها فى التليفون ، بينما اقترب فوزى من الانجليزيتين محييا بإيماءة من رأسه دون أن تسعفه الكلمات ليقول شيئاً ، فقد كان منظر المرأتين باعثا على الرثاء .

وهمست مس لورنس فى أذن فوزى :

— سقطت مرسى مطروح .

وأخذ فوزى بالنبأ الخطير فقال فى غمغمة وتلعثم :

— من قال ؟

— إذاعة لندن .

وخجل فوزى من أن يسوق للمرأتين أى عبارة تافهـة بقصد التخفيف عليهما أو التهوين ، فاكتفى بأن قال فى احساس عميق من العطف والشفقة :

— أأستطيع أن أقدم لـكما أى خدمة ؟

وأجابت المرأتان فى آن واحد :

— كلا وشـكراً .

ومضتا فى طريقهما تروحان وتجيئان فى هدوء وبرود ، وعجب فوزى وهو يبتعد عن المرأتين لهذا الهدوء الذى حل على مس لورنس بصفة خاصة . . لقد كانت بالأمس بمجرد سماعها سقوط طبرق التى تبعد عن القاهرة مئات ومئات من الـكيلو مترات ترتجف من الفزع والخوف وتتحدث عن وجوب الفرار . . فـما بالها وقد أصبح الخطر محدقا وجاثما بالفعل . . تتصرف بهذا الهدوء . . أهو اليأس والاستسلام ؟ .. وهز فوزى رأسه ، لطالما أذهلته النفس البشرية وعمق أغوارها وغموض مصادر انفعالاتها .

على أن خبر سقوط مرسى مطروح سرعان ما استولى على تفـكيره .. إن معنى ذلك أن دخول الألمان الإسكندرية قد أصبح مسألة ساعات ، وليس يدهشه أو يفاجئه أن يسمع بأن جنود المظلات الألمـانيين قد احتلوا مطارى الدخيلة والماظة ، وأنهم أصبحوا جميعاً فى خط النـار الأول . .

وصرخ فوزى فى أعماقه :

— يجب أن أهرب . . يجب أن أختنق .

وإذ كان حارسه الليلى مشغولا كبقية زملائه بأنفسهم عن كل شىء ، فقد مضى نحو باب المستشفى المؤدى إلى الحديقة خطوة . . خطوة . . لم يكن يفكر فيما لو هرب أين يذهب . . إنه كان بملابس النوم ، وينتعل « شبشبا » ، وكان عارى الرأس ، وكان لا يزال يحس بآثار العملية الجراحية فى بطنه . . ومع ذلك فقد بدأت فكرة واحدة تستولى عليه . . إنه يجب أن يهرب . . يجب أن يهرب . وقادت هذه الفكرة خطواته فإذا هو على عتبة باب مبنى المستشفى ولم يعد يفصله عن الباب الخارجى الذى كان مفتوحا على مصراعيه سوى أن يجتاز هذه الحديقة التى لا يمكن أن تزيد عن خمسين خطوة .

٥

بهر فوزى ضوء القمر الساحر الذى كان يغمر الدنيا من حوله .. وملأ رئتيه بالهواء النقى ، ولم تشغله فكرة الهرب التى بدأت تسيطر عليه ، عن الاستمتاع بهذا الجمال الذى يلف السكون فراح يعب منه عبا وسط السكون الشامل العميق ... أيمكن أن يتحول هذا النعيم إلى جحيم فى غمضة عين ... أيمكن أن يكون هذا السكون والهدوء هو السابق على العاصفة ... أيمكن أن تتهاوى القنابل الآن فى أى لحظة ، فإذا بالعويل والصراخ ، والحرائق تشتعل والبيوت تنقض ، هل تمطر هذه السماء الصافية بعد قليل حمماً ورجال مظلات ، وجحيما وسعيرا . . ؟! وتثيره هذه الفكرة ... إنه يجب أن يهرب ... يجب أن يهرب . سوف يكون

إنساناً آخر بمجرد أن يصبح حراً ، بمجرد أن يجتاز عتبة هذا الباب الكبير المفتوح ولا أحد بجواره لا حارس ولا رقيب . ويسير خطوات جديدة نحو الباب المفتوح ولكنه لا يلبث أن ينتفض من الرعب والفزع والإحساس بخجل من أن يضبط متلبساً بعمل شائن ، بمجرد أن سمع صوتا نسائيا يناديه . .

— « مستر فوزى . . . »

إنه صوت الممرضة الإنجليزية مس لورنس . وينظر فوزى إلى مصدر الصوت ، فإذا هو يرى مس لورنس ومسز كاترين جالستين على السلم الرخامى لأحد أبواب المستشفى الجانبية . ويسرع فوزى نحوها طاويا فى حناياه خيبة الأمل فى فرار عاجل ، وسألته مسز كاترين بمجرد أن جلس إلى جوارها :

— ما هو طريق السفر إلى الخرطوم ؟

ولمعت عينا فوزى فى الظلام ببريق من الشعور بالنصر ، فها هى ذى المرأة التى كانت حتى الأمس فقط قوية متماسكة شديدة الإيمان الذى لا يتزعزع بالنصر ، قد انهارت أخيراً وبدأت تفكر فى النجاة بجلدها ، وأدرك الآن تفسير ما كان يعييه نحو فهم سر الهدوء الذى طرأ على مس لورنس ... ورد قائلا :

— إن هذا من أيسر الأمور وأسهلها فما عليكما إلا أن تقصدا محطة مصر فى أى ساعة من نهار الغد وتستقلا أحد القطارات الذاهبة فى اتجاه

الصعيد . وفى مدينة أسوان توجد بواخر نيلية تنقل الناس إلى بلدة وادى حلفا فى السودان .

وأضاف فوزى قائلا فى محاولة لتهدئة روع المرأتين :

— على أى حال أستطيع أن أؤكد لكما أنه لن يوجد مصرى واحد يؤذى سيدة انجليزية فضلا عن ممرضة تقوم بعمل إنسانى .

فأسرعت مسز كاترين تقول :

— هذا ما لا نشك فيه بحال ، إن لنا أصدقاء من المصريين نعزهم ويعزوننا بأكثر من أقاربنا وأقاربهم ، إنما الخوف من هؤلاء النازيين ، إنهم وحوش ضارية .

ونهضت المرأتان وابتعدتا عن فوزى تاركتين إياه من جديد وحيدا فى الحديقة .

ونشطت فكرة الهرب فى نفسه كأقوى ما كانت فى أى لحظة سابقة واقترب من الباب أكثر وأكثر حتى إذا بات على بعد عشرين خطوة منه . . . إذا هو يسمع صوت حديث دائر ، وإذا هو يكتشف فى ظل إحدى الشجيرات مالم يتبينه من قبل وهو وجود بعض الأطباء . واقترب منهم فى ضيق وخيبة أمل ، لولا أن أنعشه من جديد صوت فاطمة التى هتفت به :

— أهلا أستاذ فوزى ... اتفضل .. كنا فى سيرتك .

وقال أحد الأطباء الجالسين :



كانت الدكتورة فاطمة تحدثنا عن دورك الرائع فى تهدئة خواطر المرضى وإدخال الطمأنينة عليهم ورفع معنويتهم .

وضحك فوزى فى مرارة لضياع أمله فى الفرار وقال فى استسلام :

— الحقيقة أننى كنت أحاول إغراق خوفى الشخصى وذعرى فى هذا التظاهر بتهدئة روع الآخرين .

وهتفت فاطمة لزميلها :

— أرأيتم أسلوبه فى التحدث عن نفسه ، إنه دائم السخرية والهزو بها والتقليل من شأنها .

وسأله أحد الأطباء :

— ما رأيك يا أستاذ فوزى ؟

— فى أى شىء ؟

— فى هذا الذى تراه .

وسرى إلى وعى فوزى لأول مرة هذا المنظر الذى كان يجرى أمامه والذى حالت ظروفه النفسية من تبينه للوهلة الأولى .. كان يشهد تياراً لا ينقطع وسيلا منهمراً من السيارات الانجليزية العسكرية وعلامة الصليب الأحمر مرسومة على جوانبها ، وليس يسمع لسيرها سوى حفيف عجلاتها وهى تحتك بالأرض الأسفلتية . . وتساءل فوزى فى شرود :

— أكل هذه عربات صليب أحمر ؟

— وهل رأيت شيئاً .. إنها على هذا الحال منذ ساعتين . إن عدد الجرحى لايمكن أن يقل بحال عن ثلاثين أو أربعين ألفاً .

وهتف فوزى :

— إذن لا بد أن يكون ذلك هو السر فى إطلاق صفارات الانذار منذ ساعتين حتى الآن دون أن نسمع طلقة واحدة . لقد أراد الانجليز أن يتوقف المرور وأن تنفتح الطرقات والشوارع أمام حركة انسحابهم الرهيبة .

وصاح أحد الأطباء :

— لعنة الله على الانجليز ، خدعونا وفضحونا .. إنهم نسوان وجبناء . لقد قلنا بعد سقوط طبرق إنهم سيقاومون فى مرسى مطروح .. وها هى مرسى مطروح تسقط بدون مقاومة .. إن الجيش الثامن يفر كالجرذان المذعورة .. لعنة الله عليهم .

وصاحت فاطمة :

— مساكين هؤلاء الانجليز .. يا ويلهم اليوم من أصدقائهم قبل أعدائهم .. أتتصور يا أستاذ فوزى أن الدكتور صلاح الذى يلعن الانجليز بهذه الصورة كان يتحدانا حتى الأمس بقوة الانجليز ، وأنهم سيثبتون ويحطمون الهجوم الألمانى ؟

وتنهد الدكتور صلاح وقال :

— من كان يتصور يا فاطمة أن تتهاوى الامبراطورية البريطانية بهذه السهولة .. لعنة الله عليهم .. لعنة الله عليهم .

ونهض الدكتور صلاح متثائباً :

— يا عم فلينفلق هؤلاء وهؤلاء .. دعونى أذهب لأنام فإن لدى عمليات فى الصباح .

واستوقفه زميله قائلا :

— خذنى معك ، أتظن أننى سأدعك تهرب قبل أن أخلص ثأرى وأسترد خسارة الأمس ؟

وانصرف الطبيبان مخلفين فوزى وفاطمة على بعد أمتار من باب المستشفى المفتوح على مصارعه وقد بدأ سيل العربات المنهمر يخف ويهدأ . . والطريق يصبح خالياً من كل إنسان وحركة .

— فاطمة ..

— نعم ؟

— يجب أن أهرب الآن .

— على بركة الله ، دعنى أحضر لك « تاكسيا » .

— لا .. لا يجب ألا تزجى بنفسك فى هذا الموضوع .

— ولكنى فيه بالفعل ولا أرضى أن لا أكون فيه .

وقطع على الاثنين ظهور البواب الذى كان لائذا طوال الوقت بحجرته إلى جانب البوابة ، وشرع يغلق مصراعى الباب الكبير . وصك صرير الباب الحديدى سمع فوزى كما لو كان نصل سكين بينما كانت فاطمة تصيح :

— لماذا تغلق الباب ياعم سرور ؟

— الوقت أمسى يا دكتورة فاطمة ، وكان يجب أن يكون مغلقاً لولا هذه الغارة .

وهمت فاطمة أن تقول شيئاً للبواب ، ولكن فوزى أسرع يقول لها هامساً :

— لا يا فاطمة لا يمكن أن أضحى بك ، سوف يقبضون عليك حتما إذا أنا هربت .. سيشهد عليك الجميع أنك أنت التى هربتنى .

— وأى شىء فى هذا ؟ المهم هو أنك يجب أن تهرب ، يجب أن تكون حر التصرف قادرا على الحركة عند دخول الألمان . وخطر لفاطمة خاطر جعلها تغض من صوتها وتقول فى شىء من الحياء والتردد:

— أليس يعنى دخول الألمان عودة الدكتور خالد إلى مصر ؟

— طبعا .. طبعا يا فاطمة .. هذه هى الحسنة الوحيدة لدخول الألمان .. لقد أصبحت أكرههم .. لقد أصبحت أخافهم أكثر من خوفى من الانجليز .. ومع ذلك فإن دخولهم هو السبيل الوحيد لالتقائنا بخالد .. إن قلبى يحدثنى أنه ليس بعيدا عنا فى هذه الساعة .

ووثبت فاطمة وقالت فى انفعال :

— إذن ليتهم يدخلون . . إنهم سيدخلون حتما . . أليس كذلك ؟ إنك يجب أن تهرب وسأعد لك بنفسى وسائل الهرب فى الغد . . لابد من سيارة تنقلك لا تنس أنك لا تستطيع السير الطويل .

وبرت فاطمة بوعدها ، وأعدت بمساعدة عبد الحميد أحد زملائها المجاهدين خطة لتهريب فوزى بعد إشغال انتباه حراسه .

وسار كل شىء فى الموعد المقرر طبقا للخطة الموضوعة ، ووجد فوزى نفسه فى منتصف الليل حراً طليقا ، بعيداً عن قبضة السلطات الإنجليزية المنسحبة ، أو الألمانية المنقضة .

الفصل الثالث

١

كان أفراد الجيش الإنجليزى الثامن ، يتساءلون حيارى ذاهبى اللب وهم يندفعون نحو الشرق مندحرين . . ما الذى حاق بهم ، أى لعنة أصابتهم فجعلتهم يفرون كالجرذان ؟!

إن أسلحتهم لا تزال مشرعة بأيديهم محشوة بالرصاص القتال فما لهم لا يطلقون .. ومدافعهم الثقيلة التى طالما أنالتهم النصر من قبل ليست أقل عددا أو فاعلية مما كانت فى يوم من الأيام . . مالها لا تقف لتصد عنهم هذه الغيلان الزاحفة كما فعلت من قبل أكثر من مرة .. وبوارج الأسطول . . أين بوارج الأسطول سيد البحر والبحار كلها ؟ . . ما لمدافعه العملاقة صامتة لا تطحن العدو طحنا ؟ . . بل أين سلاحهم الجوى الذى لا تنقصه الشجاعة أو الفدائية كما أثبتت ذلك معركة لندن الرهيبة .. أين ذلك كله .. أين ذهب .. أين راح ؟!

لماذا يعدون ويتساقطون صرعى كعصف مأكول دون أن يملكوا لهذا الشر دفعا .. !

ويعزو بعض قادة الميدان من الإنجليز ، هذا الشلل إلى السرعة المذهلة التى كانت وحدات الجيش الثامن تتراجع بها بعد أن فقدت كل نظام ، وبالتالى لم يعد باستطاعة مختلف الأسلحة أن تؤدى دورها ،

وخاصة بعد أن اختلط الحابل بالنابل وتداخلت صفوف الألمان المهاجمين فى شراذم الإنجليز الفارين .

آه لو أتيح لهم خمس دقائق فقط . ليتوقفوا فيها عن الجرى ويتمالكوا أنفاسهم ، ثم يستديروا نحو العدو ليواجهوه بمدافعهم ورصاصهم .. خمس دقائق فقط .. إنهم لا يطمعون فى أكثر من خمس دقائق ، لكى يقلبوا ميزان المعركة . فهل يضن عليهم القدر بهذه الدقائق الخمس .. ويهزون رؤوسهم فى استسلام ويأس .. إن القدر قد أصبح فى خدمة هذا القائد الألمانى ثعلب الصحراء .. لابد أن يكون روميل هذا جنا أو شيطانا .. بل هو مارس إله الحرب نفسه وقد تزيا بزى هذا الإنسان الممشوق الصلب العود .

وكان روميل كأى إنسان فى هذا اليوم ومنذ أيام فى ذروة الانفعال والتوتر ، يتصور أنه يدير المعركة والمعركة هى التى تديره ، وقوة الدفع تجذبه محولة إياه إلى ريشة فى مهب الرياح ، أو قطعة خشب تتقاذفها الأمواج ..

كانت طلائع القوات المدرعة من الفيلق الألمانى قد اندفعت كثيرا .. كثيرا جدا نحو الأمام فانقطع اتصاله بها ، واضطربت المواصلات اللاسلكية بينه وبين هذه الطلائع من فرط التوتر والإعياء والشوشرة والاختلاط .. فلم يتمالك نفسه من الاندفاع ليتابع الموقف فى الطليعة بعينيه كما كان شأنه دائما .. وإذا كان الطريق قد فتح إلى الاسكندرية ، فليكن هو أول الداخلين . واندفع فى سيارة مكشوفة لا يفكر فى الاحتماء بأى درع .. ولا يطوف فى ذهنه

أن رصاصة طائشة ، أو شظية عابرة قد تطيح بالقائد العظيم .. لقد تحول كأى فرد فى جيشه إلى « صمولة » فى هذه الآلة البركانية الفوارة بالحمم والنيران والزلازل والبروق والرعود .

وتوقفت سيارة روميل المندفعة وأعاد توقفها الفجائى إليه الوعى فراح يسب ويصخب ويلعن ، ولكن صراخه وسبه لم يكن يصل إلى أذنيه ، فقد كان الدوى والضجيج والزئير والصرير شيئاً يفوق كل تصور ، ولم يبق أمام القائد العظيم إلا أن يتفاهم مع سائق سيارته بالإشارة داعيا إياه إلى التقدم .. إلى الانطلاق .. نحو الأمام .. نحو الإسكندرية .

وأدرك روميل بعد لأى أن السيارة قد أحرقت آخر نقطة كانت بها من الوقود . وعاد روميل يصخب ويسب ويلعن ، لماذا لا يضع السائق ومعاونوه بنزينا فى خزان السيارة الفارغ .. وكان سيل الدبابات والسيارات المدرعة والمدفعية الثقيلة المنهمر قد بدأ يخف بعض الشىء وابتعدت الانفجارات ، فاستطاع أركان حرب روميل أن يشرح له خلاصة الموقف التى تتلخص فى حقيقة واحدة :

— لا بنزين .

وانحرفت إحدى السيارات المنطلقة عن الطريق فأثارت زوبعة من الرمال صفعت حفنة منها وجه الماريشال العظيم ، فأغلق عينيه وارتفعت يده تسد فمه وأنفه ، وقد زاد ذلك فى هياجه ، إنه لا يمكن أن يتوقف الآن أبداً بعد أن أصبح النصر الكامل فى قبضة يده ، إنه لن يبيت الليلة إلا فى اسكندرية ولو اقتضى الأمر أن يدخلها بمفرده .. لم يبق

بينه وبين الإسكندرية سوى ستين ميلا .. والسيارة كفيلة أن تقطعها في ساعة ..ساعة واحدة وهو متأكد أن الإنجليز المندحرين لن يضعوا في طريقه أية عراقيل فهم يفرون الآن بسرعة خمسين ميلا .. إنهم لم يفقدوا فقط القدرة على المقاومة بل فقدوا .. الرغبة في المقاومة نفسها ..

وصرخ روميل :

— فلنركب سيارة الحرس . .

— ولكن سيارة الحرس توقفت قبل عشرة أميال لموت سائقها وفراغ بنزينها .

— وأين عربات تموين البنزين ؟

— لقد توقفت بدورها بعد أن انتهت آخر قطرة في مستودعاتها وخزانها الخاص وبعد موت كثير من سائقيها .

— ولماذا لم تنبهوني إلى ذلك ؟

— لقد نبهناك ياصاحب السعادة ...ولكنك لم تشأ أن تصغى لرجائنا ألا تطوح بنفسك في هذه المخاطرة .

وتلفت الثعلب حوله وراح يفتش بعينيه الزرقاوين النافذتين عن أى نوع من السيارات . . . مدرعة أو مكشوفة أو حتى دبابة . . فهي على الرغم من بطئها يمكنها أن تنقله . . تنقله نحو الأمام .. نحو المقدمة نحو الإسكندرية .

على أن وجهه لم يلبث أن اكفهر وامتقع ، وقد استوقف بصره طائرات « اشتوكا » الألمانية المنقضة تنحدر من الجو في بطء وتثاقل لتدرج على الرمال . . وصرخ روميل في مساعده :

— ماذا حدث . . ماذا جرى ؟!

وتلقى مساعده الإجابة من جندى اللاسلكى ونقلها بدوره إلى قائده :

— لا بنزين .

وبدأ السكون الموحش يتسلل إلى الجو مع اختفاء طليعة الجيش الزاحف ، وتوقف المؤخرة عن متابعة الانطلاق وانهالت الصرخات والصيحات عن طريق اللاسلكى :

— نريد وقودا . . . نريد وقودا . . . لا نستطيع التقدم . . . نريد وقودا .

ونظر روميل إلى الشمس الغاربة ، وقد كست الوجود بوشاح وردى وران على الكون سكون عميق بدأ يسمع فيه صوت هدير الأمواج وهى ترتطم بالشاطىء على مبعدة منه . . وعادت إليه عقلية القائد وواقعيته ، لقد وصل اندفاعه الهجومى إلى آخر مداه .. إلى آخر نقطة من البنزين فى جعبته ، ولا مناص من الانتظار حتى الصباح . . حتى تجىء نجدات التموين من القاعدة فى المؤخرة من طبرق حيث ترك الإنجليز وراءهم بحوراً من الوقود والذخائر والأقوات.وسأل معاونيه :

— أين نحن الآن ؟ ورد عليه واحد منهم :

— لست أرى على الخريطة معالم مميزة . . يوجد هنا اسم مكتوب بحروف صغيرة . . أحسب أنه . . أنه « العلمين » .

وغام وجه الماريشال ، وراح يتساءل فى بلادة وهو الذى كان بالأمس يحفظ هذه الأسماء كلها عن ظهر قلب :

— العلمين ؟ .. أى شىء هى .. مدينة .. قرية .. ؟

— الخريطة لا توضح يا صاحب السعادة ، لا قرية بهذا الاسم .. لا أشجار .. لا مبانى .. لا ماء .. قد تكون كهذه اللافتات التى رأينا مثلها من قبل على طول خط السكة الحديد .

وهز روميل كتفيه فى أسى ومرارة وخيبة أمل .. وقال :

— لكن ، سوف تصبح مشهورة بعد اليوم ، فعندها توقف الفيلق الأفريقى لبضع ساعات ، لا تنس أن تذكر اسمها فى بلاغنا الرسمى .. « العلمين »

٢

غربت الشمس وخيم الظلام قبل أن تصل عربات التموين محملة بالوقود لتعود بالماريشال إلى مركز قيادته فى المؤخرة وإذ كانت الليلة مقمرة ، والبدر يضىء الصحراء إضاءة كاملة فقد كان باستطاعته وهو يعود أدراجه إلى الوراء أن يرى فيلقه الأفريقى الجبار الذى قطع خمسمائة كيلو متر فى وثبة واحدة ، يقف مبعثرا على جنبات الطريق معطلا بسبب نفاد آخر قطرة من البنزين . ووقعت أنظار الجنود على قائدهم المعبود فأوشكوا أن يجنوا من شدة الفرح ، وارتجت الصحراء بصراخهم :

— هايل هتلر !

وكان لمروره بهم وتحيته لهم فعل السحر فى نفوسهم ، لقد أحس الجنود كما لو كانوا شبعوا نوما ، كما لو كانوا امتلأوا غذاءً وتصلبت

عضلاتهم من جديد وتوترت أعصابهم وشحذت العزائم الخائرة ، واشتعلت النيران الخابية . . حتى الجرحى من الجنود المحمولين على النقالات رفعوا رؤوسهم المضمدة ولوحوا بأيديهم المبتورة .. ولوح روميل لجنوده فى ابتسامة مشرقة :

— لن نقف غدا إلا فى الإسكندرية يا أولادى .. سنستأنف الهجوم بعد ساعات من الآن بمجرد أن تملأوا خزاناتكم بالوقود .

وارتفعت الصيحات من جديد :

— هايل هتلر !

وبدا يلفت نظر روميل كلما اقترب من القاعدة حشود الأسرى والجرحى من الأعداء ... فأمر بإيقاف سيارته وقال للأسرى متلطفا :

— إنها الحرب أيها الأخوان . . . لا تأسوا ولا تحزنوا .

وصفق الأسرى من الإنجليز . . . وتقدم بعض أفراد منهم وصاحوا قائلين :

— لم نأكل . . . نحن جوعى أيها الماريشال وجرحانا لايجدون العلاج .

وهز الماريشال رأسه :

— جنودنا أيضاً لم تأكل . . . لقد كان المشوار طويلا . اصبروا فسنعوضكم عن ذلك كله عندما ندخل الإسكندرية . . . ولن يتأخر ذلك طويلا . . . إنها مسألة ساعات . . . ومضى روميل وهو يلوح بيديه ، وإعجاب الأسرى من الانجليز لا يقل عن إعجاب جنوده به .

فعشرات القصص التى تروى عن جسارته ومغامراته فى الميدان ، والتى لايتصورها العقل ، بل إن نجاته من الموت المحقق عشرات المرات بما يشبه المعجزات ، قد خلقت منه فى أذهان الأعداء والأصدقاء على السواء ، بطلا أسطوريا .

وعندما وصل الماريشال إلى مركز قيادته فى سيدى عبد الرحمن الذى أعد على عجل ليكون أقرب ما يكون من المقدمة .. التف حوله ضباطه ومعاونوه ، وطالبوه بوجوب التريث ثمانى وأربعين ساعة حتى يستطيعوا إعادة حشد القوات المبعثرة وإصلاح الدبابات المعطلة وإعادة شحن السيارات والدبابات وناقلات المدفعية بالوقود الكافى والذخيرة والجنود الأشداء . . . وقد كان روميل يعرف أنهم يشيرون بالحق والصواب وماتقضى به أبسط القواعد العسكرية . . . ومع ذلك فقد هز رأسه فى إنكار وقال لهم :

— ليس باستطاعتنا أن نضيع دقيقة واحدة بعد طلوع الفجر ، إن هذا هو أملنا الوحيد الباقى لاختطاف النصر من الجيش الثامن المترنح . . . إما الآن وإما . . أبدا .

وسأل روميل ضابطاً مختصا :

— أين ذلك المصرى الذى قالت لنا القيادة إنها ستبعث به ليكون معنا عند دخولنا إلى الإسكندرية .

— تعنى هر دكتور خالد يا صاحب السعادة ؟

— لم أعن بحفظ اسمه اكتفاء بجنسيته ، لقد كان الجميع يتحدثون

عندما كنت فى برلين أخيرا عن الدكتور المصرى . . والثناء على أخلاقه وكفاءته .

— لقد جاءت برقية تقرر أسف وزارة الخارجية الألمانية لعدم استطاعة الاستفادة بخدمات الهر دكتور بسبب مرضه .

وهتف روميل فى استنكار :

— أفى مثل هذه اللحظات يمرض . . . ياللخسارة . . . كنت أحب أن يكون معى ليعرف المصريون أننا ندخل بلادهم كأصدقاء ... وأننا سنحترم عهدنا فى المحافظة على سيادتها واستقلالها .

وقال ضابط الجستابو . . . إن لدى تقريراً يفيد أنه ليس مريضا فى الحقيقة وإنما تظاهر بذلك لكيلا يدخل الإسكندرية معنا .

ولمعت عينا روميل وهو يسمع هذا النبأ ، ولكنه لم يقل شيئاً ومضى يقول . . . دعونا من ذلك كله أيها السادة . . . فلدينا ما هو أهم من ذلك كله وأخطر . . .

وانكفأ مع معاونيه على الخرائط العسكرية ، لا ليدرس هذا الجزء من الأرض الذى لا يزال يفصله عن الإسكندرية ، ولكن ليفحص إمكانيات انطلاقه بعد ذلك إلى القاهرة .

٣

لم يكد فجر اليوم السادس من يوليو عام ١٩٤٢ يشرق حتى جنت الدنيا من جديد على امتداد هذا الشريط الساحلى ، وزلزلت الأرض

وانفطرت السموات ، واندلعت نيران الخراب والدمار والموت والصراخ والدم والبارود ..

فجرت المدفعية الثقيلة التى حشدت نيران مدافعها ، وعربدت الطائرات المنقضة من جديد بعد أن استكملت شحنتها من القنابل والألغام والطوربيد والوقود .. واندفعت دبابات الطليعة تنفث الموت مكتسحة فى طريقها كل شيء .. وتراكمت مرة أخرى سحب الدخان والرمال والبارود ، وأظلمت الدنيا بعد إشراق وارتج الهواء بالانفجارات والأزيز والصليل والصفير ، وتعالت صرخات الأحياء ، وسالت الدماء وتناثرت الأجساد وفاحت رائحة الحرب الكئيبة الرهيبة تلك الرائحة المؤلفة من مزيج من الدم والبارود والعرق والعفن والرمال والحشرات . بينما كانت حرارة الشمس وأشعتها تشوى الأجساد شياً ، والظمأ يكاد يخنقها خنقاً .

وعاد روميل إلى حيث بلغ بالأمس متخذاً من هذه النقطة الأمامية مركزا لقيادته . . وكان أمره اليومى الذى وزعه على جنوده « يجب أن نبيت الليلة فى الإسكندرية » ولم يكن له من تعليمات يعطيها لمساعديه لإبلاغها للفرق والوحدات ولكل جندى ولكل طائرة ولكل دبابة إلا القول « اضربوا بشدة وعنف .. تقدموا .. تقدموا بأى ثمن .. اسحقوا العدو ولا تدعوا له فرصة للتنفس »

ولكن التقارير بدأت ترد منذ اللحظات الأولى لبدء الهجوم عن

تصلب مقاومة العدو . . إنه لم يعد يفر . . لقد توقف . . لقد استدار إن مدفعيته تطلق النيران . . إن طائراته تتصدى للطائرات المنقضة .

ويقطب روميل حاجبيه ، إن مقاومة العدو ليست سوى صحوة الموت . . يجب أن نجهز عليه . . ويصدر أوامره بقذف كل مالدى الفيلق من قوات احتياطية .

— ولكن هذه القوات التى تخوض المعركة الآن هى أقصى ما استطعنا أن نجهزه للقتال فى هذه الساعات القليلة . . لقد طالبنا بالأمس بثمان وأربعين ساعة .

ويصرخ روميل :

— وماذا يفعل جنودنا فى جزيرة كريت . . إن هناك لواء كاملا من جنود المظلات . . لقد وعدتنى القيادة بأن نستخدمه فى الهجوم الأخير على الإسكندرية . . أبرق لهم أن يقذفوا به فى هذه الساعة . .

— آسف ياصاحب السعادة . لقد أخطرنا أن لانعتمد على ذلك فقد أرسلت الفرقة لتساهم فى معركة ستالين جراد التى بلغت مرحلة حاسمة . .

ويكاد روميل يجن من شدة الغضب ..

— ستالين جراد . . ستالين جراد ! قل لهم أن يرسلوا طائرات لتساعدنا من أى مكان حالا .. حالا .. من فرنسا .. من إيطاليا .. من ألمانيا .. من ستالين جراد نفسها إذا استطاعوا إلى ذلك سبيلا .. قل لهم على لسانى . . إما أن يضربوا الآن فى خلال ساعات وإلا ضاع منا النصر إلى الأبد .

* * *

ولم يكن روميل مخطئا فى حسابه . . فقد انهمرت عليه التقارير والبلاغات تشكو من شدة مقاومة العدو ، وتطالب بإرسال نجدات عاجلة ومزيد من الدبابات والمدرعات والطائرات والمدفعية الثقيلة للقضاء على مقاومة العدو .

ويغم على القائد الألمعى من جديد ، وينسى طبوغرافية المكان كما درسها طوال الليل على الخريطة ، فيصدر أمره بالالتفاف حول خطوط الدفاع التى أنشأها الإنجليز . . ليبتعدوا عنها ويلتفوا حولها ليضربوا العدو من الوراء .. كما حدث فى طبرق .. كما حدث فى مرسى مطروح .. ولكن مساعده يذكره بأن ذلك قد أصبح متعذرا فلا طريق هناك للمناورة والالتفاف .. إن منخفض القطارة العميق يحول دول ذلك .

ويسرع روميل متأملا الخريطة التى بسطها أمامه أركان حربه .. ويدرك الموقف فى لمحة فيمتقع وجهه ويدرك أن الإنجليز قد اختاروا هذا الموقع خصيصاً ليقفوا عنده ويستديروا له . . حيث يتحصنون بالبحر عن يمينهم ومنخفض القطارة عن يسارهم ، ولا يبقى أمامه إلا هذه الثلاثون ميلا التى تحصنوا فيها ، وحشدوا له كل قوتهم .

وتتلاحق تقارير المعركة التى لم تحرز أى نجاح أو تقدم منذ ساعتين لقد نجحت بعض الدبابات فى فتح ثغرات فى دفاع العدو .. وقد تراجع العدو فى بعض قطاعات محدودة هنا وهناك . . ولكن المقاومة تشتد والمدفعية تعمل وسلاح الطيران البريطانى يتزايد .

ثم جاءت تقارير مفصلة حملتها طائرات الاستطلاع التى استغلت ضوء القمر بالليل وأشعة الفجر الأولى . . كانت كل الطرقات التى تتخلل الدلتا تعج بألوف السيارات والمعدات العسكرية المتجهة كلها صوب ميدان المعركة ، من على ضفاف القنال تنزل شحنات من الدبابات التى جاءت بها القوافل من عبر البحار وتحمل على سيارات جبارة تنطلق بها نحو العلمين وهى على استعداد لخوض المعركة مباشرة ، وكان باستطاعة الفيلق الأفريقى أن يقتحم طريقه نحو الإسكندرية قبل تراكم هذه النجدات . . ولكن سلاح الطيران الإنجليزى بدأ يفقد السلاح الجوى الألمانى سيطرته على جو المعركة .. فتشددت عزائم جنود الجيش الثامن ، ونجوا من مطرقة الطائرات المنقضة وسياطها التى كانت تصيبهم بالهلع فلا يملكون إلا العدو والفرار والتساقط كما لو كانوا ذبابا .

وانتصف النهار دون أن يحرز الفيلق الألمانى أى تقدم ، وارتفعت الحرارة بحيث تحولت الدنيا إلى جحيم ، وبدأت الخسائر ترتفع وتزداد. واسقط فى يد روميل . . إن الاستمرار فى الهجوم بقواه الهزيلة المنهوكة المجهدة لا يعنى سوى مزيد من الخسائر بغير نتيجة ، فقد كان مركز العدو يقوى باستمرار ، والنجدات تنهمر عليهم انهمارا والجنود الجدد يأخذون مكانهم فى خط الدفاع . لم يبق أمامه مناص من الانتظار ، لا بد له من فترة طويلة ينظم فيها قواته ، وليستجلب نجدات جديدة ، ومزيداً من الدبابات والطائرات والمدفعية والوقود .

وأصدر روميل والألم يعتصر قلبه اعتصاراً ، أمره للفيلق الأفريقى

الألمانى بالتوقف عن الهجوم والتراجع عن خطوط العدو واتخاذ مواقف للدفاع .

لم تكن هذه أول مرة يصدر فيها روميل مثل هذا الأمر لجنوده الأشداء البواسل ، لطالما طلب منهم الانسحاب لكى يعودوا أشد قوة واستعداداً و بطشا وسط ذهول الدنيا كلها وإعجابها .. أما هذه المرة فقد كان يحس فى نفسه إحساساً خفيا . . إن ذلك لن يتكرر . . لقد أفلتت الفرصة من يده ويد ألمانيا إلى الأبد .

وشع الحقد من عينيه وشدد على قبضة يده وغمغم بين شفتيه :

— الأحمق . . المجنون . . هذا الهتلر الشاويش الجاهل . . الذى لم يسمع كلامى . . إنه يدمر زهرة الجيش الألمانى بين أنقاض ستالين جراد ، بينما لوزودنى بأربع فرق من هذه الفرق الستين التى يهاجم بها ستالين جراد لامتلكت له مصر والشرق ، ولضربت له روسيا من الخلف واتصلت باليابان ، وأنهيت الحرب .



٤

كانت الأخبار المحمومة المسعورة التى تطن حول بيومى رمضان ، وانفعال كل من حوله وهم يتوقعون من دقيقة لأخرى إعلان وصول الألمان إلى الإسكندرية ، لا تجد طريقها إلى نفسه فقد كانت الحرب الداخلية والأعاصير التى تزمجر فى داخله ، تحول بينه وبين معرفة شىء مما يجرى حوله فى الدنيا القائمة القاعدة .

كان شاهين السلانكلى قد نقله وزوجته إلى القاهرة ، رغم أنفه ومعارضته ، فى بيت أعده لهم ، ولم يعد لدى بيومى أية ذرة من شك فيما يعنيه ذلك كله ... خاصة وهو يرى الانقلاب الذى طرأ على زوجته وقد قصت شعرها وبدأت ترفل فى الأثواب الأنيقة والحريرية التى غمرها بها شاهين السلانكلى . وقد رضى بيومى بذلك كله بعد أن استقر عزمه على قتل شاهين بعد أن يضبطه متلبسا ذات يوم مع زوجته ، فليس سوى قتل شاهين ، ما يعيد له عمره الضائع وغفلته الشائنة وكرامته المسلوبة والمهدرة .

وفوجىء بيومى بهذا التطور الحربى ، وما يترتب عليه من استعداد الإنجليز للجلاء عن مصر وشروعهم بالفعل فى إجراءات هذا الجلاء ... وإذا شاهين السلانكلى يفر إلى السودان مع من فر

خوفا من دخول الألمان .. وأسقط فى يد بيومى رمضان ، لقد كان يتعزى عن قبول هذا الوضع الجديد والتبديل الذى طرأ على زوجته بأنه سبيله الوحيد للاقتصاص من شاهين . . فأما وقد هرب . . . فلم يخلف له غير الدنس والإثم والغفلة ليظل غارقا فيها دون أمل فى القصاص .

وذهب بيومى رمضان يجأر بالشكوى إلى سيدنا الحسين ولم يكن للناس الذين اجتمعوا لصلاة الجمعة سوى السخرية مما أعلنه الإنجليز ، من أن قائدهم الجديد قد استطاع أن يوقف الهجوم الألمانى عند موقع العلمين ، على بعد ستين ميلا غرب الإسكندرية . ولم يكن هناك مصرى واحد داخل المسجد أو خارجه يشك فى أن تصفية الإنجليز فى مصر قد أصبحت مسألة أيام إن لم تكن ساعات .

ودعا بيومى رمضان الله فى حرارة ألا يدخل الألمان إلى مصر ، لقد كان دخولهم يعنى فرار شاهين السلانكلى من يده إلى الأبد ، أما استقرار الأمور فسوف يعود به فيتمكن من الاقتصاص منه . إن حياته لن يكون لها معنى إلا إذا قتل شاهين وغسل بدمه العار الذى كان غارقا فيه .. ووقع بصره على الشيخ عبد العزيز صاحبه ، فاندفع نحوه فى فرح وابتهاج فقد كان يرى فيه خير معين ومدبر له على الانتقام من شاهين .

وكان عبد العزيز عند حسن ظن بيومى به ، فقد أكد له أن شاهين السلانكلى حشرة تستحق أن تداس بالأقدام ، ولكنه حذره من أن يقتله لمحض الشك فإن بعض الظن إثم .

وعرض عبد العزيز على بيومى ذات ليلة أن يصطحبه إلى دار الدعوة المحمدية ، فدهش بيومى وسال صاحبه إذا كان قد خرج على فوزى وجماعته ، فاستعاذ عبد العزيز من ذلك الخاطر ، وشرح له أنه يتخذ من دار الدعوة المحمدية هو ونفر من إخوانه المجاهدين ، مكانا يلتقون فيه بعد أن أصبحت دار هذه الجماعة هى المكان الوحيد الذى تغمض الدولة عينها عما يجرى فيه .

* * *

وذهل بيومى وهو يرى نفسه لأول مرة وسط حشد متلاطم من الشباب والرجال الذين احتشدوا فى دار الجماعة ليسمعوا حديث الرائد الأسبوعى .

وأهل الرائد بطلعته ، فكادت الجموع تجن من فرط الحماسة وارتج المكان بهتافهم التقليدى : الله أكبر ... الله أكبر ...

ولم يع بيومى الكثير من الأقوال التى راحت تنهمر من فم الشيخ المهدى ، ما بين آيات وأحاديث وأبيات من الشعر ، فقد كانت هذه أول مرة فى حياته يشهد مثل هذا الحفل الجياش بعواطف حارة ملتهبة ، وكان من الممكن أن يظل شارد اللب مأخوذا طوال الاجتماع ، لولا أن قرع سمعه كلمات الزنا والزانى والزانية ، وراح يتتبع القصة التى يرويها الشيخ المهدى ... قصة ذلك الأعرابى الذى ذهب إلى رسول الله معترفا أنه زنى ، وكيف أعرض عنه الرسول أكثر من مرة ، فلما أبى الرجل

إلا أن يظل مصرا على اعترافه ، لم يسع الرسول إلا أن يصدر أمره برجمه... واستوقف بيومى قول الشيخ المهدى تعليقا على هذا الحادث...
« إن إثبات الزنا طبقا لأحكام الشريعة الإسلامية من الأمور الصعبة المتعذرة إذ هو يتطلب أربعة شهود عدول يشهدون على واقعة الزنا بأركانها ، فليس سوى الاعتراف ، والاعتراف فقط السبيل الوحيد لإمكان إثبات جريمة الزنا » .

ولم يعرف بيومى رمضان ماذا قال الرائد العام بعد ذلك ، ولا ماذا حدث فى الاجتماع ... فقد انتزع نفسه من جوار صاحبه ورفيقه الشيخ عبد العزيز ، ومضى يشق طريقه متزاحما بمنكبيه ليبرح الاجتماع ، غير حافل بنظرات السخط التى غمرته من كل جانب وكأنها نار تتلظى لحرقه حرقا ... فلم يحدث أن بارح إنسان الاجتماع العظيم قبل أن يفرغ فضيلة الرائد من حديثه الأسبوعى . كان بيومى مشغولا عن ذلك كله بما هداه إليه الرائد العام :

— الاعتراف ... الاعتراف .

الاعتراف هو حل مشكلته ، هو السبيل للإجهاز على كل شك فى نفسه من جرم شاهين ، فيجب أن يحمل عطيات على الاعتراف والإقرار بفعلتها ، يجب أن تقص عليه تفاصيل كل شىء . . . ليقتل شاهين السلانكلى وهو آمن واثق أنه لا يظلمه أو يفتات عليه .

٥

استيقظت عطيات فزعة على إثر إحساسها بما يهزها فى عنف ، ولم تكد عيناها تقعان على منظر بيومى المخيف حتى كادت تصرخ فى فزع ، لولا أن عاجلها بيده التى وضعها على فمها فى عنف ... بينما راحت يده الأخرى تلوح لها بسكين لمع نصلها الحاد المشحوذ فى ظلام الليل . واحتبس صوتها فى حلقها من هول المفاجأة ، وتجمد الدم فى أطرافها . وقال لها بيومى فى صوت أقرب ما يكون إلى الفحيح :

— إذا سمعت كلامى وأطعتنى فى كل ما أطلبه منك ، فلن يمسك سوء ... أما إذا حاولت أن تقاومى ، أو أن ترفعى صوتك فسأذبحك على الفور .

ولم تقل عطيات شيئا فقد كانت فى حالة انهيار وتداع نتيجة هذه الصدمة المذهلة ، وأحس بيومى بذلك فبرقت أساريره وراح ينهضها ويقودها إلى خارج الحجرة بعيدا عن ولديهما . ودخل بها إلى حجرة نوم شاهين التى كانت قد عادت لتحتل مكانها من جديد فى بيتهما الجديد .

وتلفظت عطيات ببضع كلمات أسعفتها بها طاقتها المنهارة :

— هل ستقتلنى يا بيومى ؟

— لن أقتلك بالرغم من استحقاقك للرجم ، إذا كنت تطيعينى فى كل ما أفعل . .

وقالت عطيات فى استسلام :

— سأطيعك يا بيومى .. أنا زوجتك وخادمة تراب قدميك .

وأسرع بيومى منتهزاً فرصة تداعيها واستسلامها ، وأوثق كتافها إلى أحد أعمدة السرير وثاقاً محكما ، حتى إذا فرغ من مهمته بأيسر جهد ، نظر لها بفرح وحشى ثم أسرع إلى ناحية من الحجرة فأخرج سوطاً من الجلد المتين المجدول . . . وفرقع به فى الهواء فشهقت عطيات وقالت له فى ذعر وهى تخافت فى صوتها فزعا منه :

— فى عرضك يا بيومى لا تضربنى .. أنا زوجتك . . ألم توصيك علىّ أمى .

وجحظت عينا بيومى ونفرت أوردة الدم فى جبهته وصدغيه ورقبته وقال لها :

كل شئ يتوقف على مسلكك . . أريد منك اعترافا كاملا بكل شىء .. اعترافا من البداية حتى النهاية . . .

— أعترف بأى شىء .. إننى لم أرتكب إثماً لأعترف به .

وعاجلها بيومى بضربة سوط حادة هوت على فخذها فندت منها صرخة عالية ، فأسرع يضع السكين بالقرب من رقبتها وقد جن جنونه .

وأحست عطيات سكرات الموت فقالت له فى ذلة وانهيار :

— لن أصرخ ثانية . . سأفعل ما تريد . . سأقول كل شئ .

— إذن عجلى .

— ما الذى تريد أن أقوله لك .. عن أى شئ ... ؟

وزجر بيومى وصرخ فى وجهها وأشهر السوط من جديد :

— إنك تعرفين .. تعرفين أيتها العاهرة ما الذى اريد أن أعرفه ، تكلمى وإلا مزقت جسدك .

وانخرطت فى بكاء مر ، محاذرة أن تحدث صوتاً .. وقد رضى منها بذلك ، فلما أحست أنه لم يفعل شيئاً طمعت من جديد فى استعطافه وترقيق قلبه فراحت تقول له فى صوت يذوب توسلا :

— وهل أهون عليك بعد هذه العشرة الطويلة . . ارحمنى من أجل أولادنا .

وهوى بيومى من جديد بالسوط على ذراعها، وهو يلوح بالسكين، فتأوهت عطيات فى صمت محاذرة أن تحدث صوتاً وقد تعلقت عيناها بالسكين فى فزع .. بينما كان بيومى يقول لها فى جنون :

— أقسم بالله أيتها العاهرة أننى سأذبحك ، أتسمعين ؟ .. سأذبحك إذا لم تتكلمى وتقولى كل شىء . . . قولى . . . تكلمى . . . ورفع السوط مهدداً . . .

واعترفت عطيات لبيومى بكل شىء . . . وكلما حاولت أن تتوقف أو تكتفى بما قالت ،لوح لها بالسوط والسكين ، وكلما حاولت أن تجنبه مرارة الكثير من التفاصيل كان يأبى إلا أن تزيده منها . . ويطالبها بالدليل المدعم لأقوالها من تذكيره ببعض الحوادث والملابسات .. حتى إذا طلع الصباح وفك وثاقها .. ارتمت على الأرض فى حالة إعياء وإغماء فركلها بقدمه فى قوة وعنف وقال :

انتهينا .. انتهينا . . لم يبق أمامى الآن إلا أن أقتله . . بعد ما سلبنى رجولتى وشرفى وزوجتى وأولادى .

٦

كان أول ما فعلته عطيات بعد أن استفاقت من الصدمة وانقضاء بضعة أيام دون أن يعود بيومى إلى الظهور ، أن أخذت ولديها وأسرعت بهما نحو بيت شاهين السلانكلى فى الزمالك وكان قد وصل إلى مصر عائداً من الخرطوم .

ودخل شاهين حجرة الصالون وهو يقهقه فى صخب كما هى عادته ، ولم يكد يرى عطيات التى تحولت إلى امرأة عصرية مقصوصة الشعر حاسرته ، عارية الساقين والعنق وجزء كبير من الصدر ، حتى غلت فى نفسه مراجل الرغبة فاندفع نحوها معانقاً مقبلا غير ملق بالا لولديها اللذين كانا يلوذان بها فى رعب وذعر .

وأحس شاهين لأول مرة بتوتر عضلات عطيات وعدم تجاوب جسدها مع رغبته ، فبدت عليه الدهشة وسألها فى استنكار :

— ماذا بك ..؟ أتخافين من الأولاد ..؟ ونظر صوب الولد وقال : هيا يا محبوب ... أنت ووحيدة ، اذهبا والعبا . وأسرع يدق الجرس ، فظهر حسنين السفرجى فطلب منه أن يأخذ الولدين وأن يسقيهما شرابا ويطعمهما من كل شىء .

ولكن محبوب لم يدع ثوب أمه الذى كان ممسكا به وراح ينظر إلى شاهين السلانكلى فى خوف واضطراب . . . بينما اندفعت وحيدة

فى البكاء . وعيل صبر شاهين واشتد به الضيق ... فانتهر الطفلين وصاح بعطيات :

— ماهى الحكاية ياست عطيات . . . ماذا حدث . . . ما الذى جاء بك فى هذه الساعة ... ؟ ! وما هذا « البالو » الذى أحضرتيه معك إلى هنا ؟

وقالت عطيات فى جفاف :

— بيومى أصبح يعرف كل شىء .

وتوقف شاهين للحظات ، وظهر التردد فى بريق عينيه ، على أنه لم يلبث أن اندفع يقهقه فى عربدة :

— قديمة . . . لعن الله القواد وأباه وأمه . . . إنه يعرف منذ اليوم الأول ، وإن تظاهر بالبلاهة والغفلة . . . هل جئت لتقولى لى ذلك ؟

وحسرت عطيات الثوب عن فخذها ، فظهر أثر السوط بألوانه الداكنة البنفسجية الحمراء الزرقاء بحيث ارتجف شاهين من المفاجأة وأذهله المنظر :

— ما هذا ؟

— ضربنى بيومى بالسوط . . . وأسرعت تكشف عن ذراعها لتريه الضربة الثانية .

وهاج شاهين وماج :



— يومى يفعل ذلك ، يضربك أنت بالسوط . . . متى ولماذا ، وكيف اجترأ ؟

— ليجبرنى على الاعتراف له بكل شىء .

— الحمد لله حتى لاتصبح المسألة رسمية .

— أرجوك ياشاهين أن تأخذ الأمر بما يستحق من الجد ، إن يومى صار إنسانا غير الذى تعرف . . . لقد حذرتك من قبل وأخبرتك أنه يتطور ويتغير فكنت تهزأ وتسخر دائماً . . . وتتصور أنه يريد مزيدا من الترقية ، وها هو ذا الآن قد وصل إلى الحد الذى أصبح يقسم فيه بأنه سيقتلك .

وبهت شاهين لدى سماعه هذه العبارة . . . ثم انتابته نوبة من الضحك الصاخب التى جعلت الدموع تطفر من عينيه :

— ربنا يحفظك ياعطيات . . . لقد أضحكتنى كما لم أضحك منذ هجوم روميل على مصر . . . يومى رمضان يقتلنى أنا . . . يومى الصرصار الحشرة الذى يرتعد فزعا بمجرد وقوع بصره علىّ ! لا تكونى بلهاء وقولى كلاما غير هذا . . . على أن خاطرا جديدا لم يلبث أن طرأ عليه فإذا هو ينتفض واقفا فى غضب ويمسك بذراع عطيات فى خشونة وعنف وينظر إليها بصرامة :

— أيكون هذا ملعوبا جديدا فكرتما فى لعبه علىّ ... أيريد حضرته ترقية جديدة . . . أم يريد طاقما جديدا من الملابس الفاخرة؟

وأجهشت عطيات بالبكاء وبكى الطفلان لبكائها فأمسك بهما شاهين

فى عصبية وجذبهما إلى خارج الحجرة وهما يبكيان ، وطلب من السفرجى أن يسكتهما بأى ثمن وأن يضربهما إذا لزم الأمر ، وعندما عاد إلى عطيات كانت قد أصيبت بنوبة هستيرية . فراح شاهين ينتهرها بشدة وعنف وقد ضاق صدره .

وقصت عطيات ، بعد أن هدأت العاصفة على شاهين كل شىء على التوالى ، منذ كانت هذه النقلة الأخيرة إلى القاهرة ، كيف كف بيومى عن الاقتراب منها فى الفراش ، وكيف أصبح لا يتدخل فى شئونها ويدع لها الحبل على الغارب ... كيف كان غارقا فى الصمت ، لا ينام الليل . . وكلما حاولت أن تسأله عما به هز رأسه ولم يرد عليها بشىء ، وكيف كان يمسك بمحبوب ووحيدة ويطيل النظر فى عينيهما لعدة ساعات ، ثم كف عن فعل ذلك ، وأصبح لا يلتفت إليهما ويبعدهما عنه بغلظة إذا حاولا الاقتراب منه . ووصلت فى قصتها أخيرا إلى هذا المشهد الأخير وكيف هددها بالذبح وضربها بالسوط حتى انتزع اعترافها الكامل .

وسكت شاهين لأول مرة بعد أن فرغت من قصتها ، وبدا عليه الارتباك وعدم التصديق . . ولم يلبث أن قال كأنه يخاطب نفسه :

— بيومى . . (الدهل . . الخرنج) يفعل ذلك ؟ . . يريد أن يلعب دور الرجل ؟

ونظر شاهين إلى عطيات فى تنمر وقال لها :

— اسمعى ، سوف أبطش ببيومى وأدوسه بقدمى ، سأعطيه درسا لا ينساه مدى حياته . . سأقذف به إلى السجن جزاء فعلته هذه .

— ولكن ماذا يحل بى إذا دخل السجن ... أليس هو فى نهاية الأمر زوجى ..؟

— سوف تظلين على حالك ، وسوف أنفق عليك .

— خير من هذا ياباشا أن تطلقنى منه وتتزوجنى ... هذا هو الحل الوحيد .

وبهت شاهين من هذا الاقتراح ... ثم انفجر يضحك فيما يشبه الهستريا ، وتوقف فجأة عن الضحك ونظر نحو عطيات فى صرامة وصاح فى وجهها :

— أهذه إذن هى اللعبة الجديدة .. ؟ أجننت ، أنسيت من أنت ياست عطيات ومن أنا ... أنا الذى عرض على الزواج من أميرات وجميلات وثريات ، كل بنات العائلات والبيوتات كن يتحرقن إلى زواجى ، ولكنى آثرت حريتى ...؟ تريدين أنت أيتها الصعلوكة الحقيرة أن أتزوجك ؟ لقد رفعت رأسك عاليا أيتها المجرمة .

ونظرت إليه عطيات فى تحد وقالت :

— أليس هؤلاء الأولاد أولادك ؟ لحمك ودمك ؟

— اخرصى ... قلت لك لاتكررى هذا القول أمامى مرة ثانية .

واشتد الهياج بشاهين السلانكلى ، وزعق على السفرجى وطلب منه أن يطرد عطيات وولديها إلى الخارج ، وإذا حاولت أن تفتح فمها فما عليه إلا أن يستدعى البوليس ويسلمها إليه .

وخرجت عطيات خائفة مذعورة مسودة الوجه ، بينما كان شاهين يقسم أن يزج بيومى فى السجن ثم يغمغم فى حنق... المجرمة الصعلوكة... تريد أن تكون زوجتى . . . أنا شاهين السلانكلى . . ! وانفجر من جديد يقهقه مجلجلا فى صخب .

وشرع بعد قليل يفكر ويدبر :

كيف يودع بيومى غياهب السجن .

ولم يلبث أن شاعت فى وجهه ابتسامة خبيثة ، وفرك يديه فى ابتهاج وسرور ، بعد أن استقر عزمه على الخطة التى سيسجنه بها .



٧

زوجى العزيز دكتور صابر

مضى أكثر من خمسة شهور لم أتلق ردا على رسائلى التى أرسلتها على عنوانك الجديد فى سويسرا ، ولا يمكنك أن تتصور مقدار الفزع الذى أصبحت أعيش فيه لانقطاع أخبارك ، لقد صليت فى حرارة وتضرع والدموع تغمر عينى ، فى مناسبة قريبة أن يجمع الله شملنا ، وقد كنت أعرف أننى ارتكب بذلك خطيئة وأننى أضع عاطفتى فوق المصلحة العامة ، وكنت متأكدة أنك أنت نفسك لا يمكن أن ترضى عن ذلك ، ومع هذا فقد فعلت وصليت ، فأنا فى نهاية الأمر أنثى من دم ولحم ولى قلب وعاطفة ، إن من حقى أن أنعم بالسعادة التى حرمتها طويلا ... ولكن صلواتى لم تستجب والحمد لله ، فحرمت من لقائك ... بل ومن خطاباتك وهذا هو ما يوشك أن يورثنى الجنون .

إننى أعود فأكتب لك على عنوانك القديم فى استنبول عساك تكون قد عدت إلى جامعتها لإلقاء المحاضرات .

كنت قد حدثتك فى خطاب سابق عن إبلال اخينا الكبير من مرضه ، وأنه بارح المستشفى وقد ظل سليما معافى أربعة شهور ، ولكن عندما انقلب الجو وتبدل هذا التبدل العجيب ، نكس من جديد وعاوده المرض ، وكان هو الذى طلب بنفسه أن يعود إلى المستشفى .

وقد خصص له مدير المستشفى جناحا مستقلا وسمح لزوجته وولديه أن يقيما معه، ولقد اعتدت أن أزوره وأطمئن عليه، فكان يعيش في رغد وسعادة، وقد تملكته روح من التصوف وحب القراءة والانقطاع للعلم، واستمرت هذه الحياة الهادئة الساكنة في دنيا التأملات. ولكن القدر الذي يأبى فيما يخيل لنا إلا أن يذيق أخانا كل تجارب الحياة أخرجه بعنف من هذا الجو الهادئ الساكن.. إذ مرض ابناه بحمى التيفود في يوم واحد، ووصلا إلى ذروة الخطر، ولم يلبث أن استرد الله وديعته في الابن الأصغر، ولكن الابن الأكبر نجا برحمة من الله ونعمة. وقد ترددت كثيرا في هل أسوق لك هذا النبأ المحزن، أم أوفره عليك، ولكنك لا تفتأ تقسم عليّ، ألا أخفى عنك شيئاً وأن أشركك في مسراتنا وأحزاننا على السواء.

والآن يا صابر وقد بدأ اللغط يدور حول اقتراب نهاية الحرب، بعد أن نزل الحلفاء في فرنسا وبدأت جيوش المحور تقاتل متراجعة في كل مكان، وجيوش الحلفاء تطبق عليها في الشرق والغرب وسائر الميادين، ألا يجدر بك أن تحافظ على نفسك لتعود إلينا فائزاً منتصراً. إن أخاك الكبير قد تلخصت كل آماله في الدنيا أن يجتمع بك من جديد... وليس له من حديث أو اهتمام بقرب نهاية الحرب إلا لأنها السبيل الوحيد لالتئام شملنا.. أما أنا يا زوجي العزيز أمام الله في الدنيا والآخرة.. فماذا أقول لك، وأي العبارات والألفاظ يمكنها أن تصور ما أتجرعه من آلام وغصص..؟ إن الأحلام المفزعة تناوشني وتكاد تخمد أنفاسي، وتضيق بي الدنيا وأحس برغبة عنيفة في أن أحطم

رأسى على إحدى الصخور أو أن أفقأ عينى وأسيل دمى ، ولكنى لا ألبث أن أستيقظ وأحس أن ما كنت فيه لم يكن سوى حلم وكابوس ثقيل . . فيتجدد فى نفسى الأمل والرجاء ، أنك لا تزال سليما معافى ، وأن الله الذى حفظك ورعاك من كل سوء حتى الآن سيتم نعمته عليك وعلينا ويجمع شملنا من جديد . . آمين يارب . . آمين .

ودمت لزوجتك الوفية الأمينة

القاهرة فبراير ١٩٤٤ ف

الفصل الرابع

١

تلفت فوزى حوله فى أسى إلى الحجرة التى اتخذ منها مكتباً فى معتقله الجديد بمصر الجديدة ، ثم سرح بخياله — وقد تضاعف الأسى فى نفسه — فى باقى حجرات المعتقل الخمس الخاوية . إن الهواء يصفر بين جدرانها ، بعد أن كانت تتجاوب بالمرح والضحكات الملائكية . . وتتمثل له صورة شكرى الصغير وهو يفيض بالمرح والحيوية . . لقد ذهب . . ذهب ولن يعود . . مخلفا له الحسرات . . ويتنهد فوزى وهو يذكر نعمة الله عليه بنجاة خالد الصغير بعد أن يئس الأطباء من شفائه وقرروا أنها مسألة ساعات ليلحق بأخيه، ولكن الله استجاب لدعائه ، ورثا لدموعه وآلامه ، فقيض له النجاة . ويغمغم فوزى :

— الحمد لله . . الحمد لله . . اللهم شكراً وحمداً .

وكيف لا يكون شاكراً حامداً ، وقد أخرجته هذه المأساة من عزلته النفسية التى كان يعيش فيها مذ أودع هذا المعتقل الخاص مع زوجته وولديه ، وأعادته إلى دنيا الجهاد والكفاح . . إنه صاحب رسالة . . ولا يمكن إلا أن يكون صاحب رسالة . إن كل قطرة من

دمه .. كل خاطرة من خواطره ، كل نسمة من حياته يجب أن تكون من أجل هذه الرسالة .. وهى أن يرى بلاده حرة من كل قيد ، وأن يرى مواطنيه أحراراً من الخوف والجوع والمرض والجهل ، وإذا كانت ظروف الحرب قد أخمدت نشاطه ، وحبست صوته وحطمت قلمه ، وحالت بينه وبين الجماهير فهاهى ذى الحرب تقترب من نهايتها ، لقد تحطمت إيطاليا واستسلمت بغير قيد أو شرط ، والجيوش الألمانية ما انفكت ترتد ارتدادها الذليل فى الشرق بعد استسلام جيشها فى ستالين جراد والغرب بعد أن نجح الحلفاء فى النزول إلى نورمانديا . التى كان هتلر يتيح بأن الفناء ينتظر كل من يقترب منها .

حتى اليابان . . اليابان التى بدأت الحرب كما لو كانت إعصاراً أو زلزالا لا يقاوم ، قد بدأت تخسر المعارك فى الجو والبحر . . . وأسطولها الذى حطم الأسطول الأمريكى فى بيرل هاربور بضربة قاصمة أذهلت العالمين ، قد تحول إلى جريح يترنح يوشك أن يلفظ الأنفاس الأخيرة ..

لم يعد هناك شك فى أن الحرب تقترب من نهايتها السريعة وأن التسليم بلا قيد ولاشرط الذى اعتبر جنونا ولوثة عندما فرضته انجلترا لأول مرة على ألمانيا ، قد أصبح آتيا لا ريب فيه . فيم إذن يبقى رهن الاعتقال ؟ يجب أن يخرج ، يجب أن يسترد حريته ، يجب أن يحطم القيود والأغلال التى تكبله . . ولن يكون ذلك عن طريق الهرب كما فعل من قبل ، وإنما عن طريق الإفراج عنه بدون قيد أو شرط أجل يجب أن يفرج عنه أو أن يموت . . ولن يرضى بغير ذلك .

وقطع على فوزى سلسلة خواطره وأفكاره دق جرس باب المعتقل ، فقام يفتح الباب فى تثاقل وهو زاهد فى أن يقابل أحدا ، وحياه الشاويش الحارس ، وأعلمه أن القائمقام شاكر بك يرغب فى مقابلته ، ولمعت عينا فوزى . . لقد قيل له إن شاكر بك هو من المقربين إلى رئيس الحكومة ، وقد أفرج عن الكثيرين من أعضاء الحركة بمساعدته على ما قيل له ، وشعر فوزى بالفرح والابتهاج . . لا لأنه تصور أن القائمقام شاكر قد جاء يحمل له بشرى بالإفراج ، ولكن فرحه كان نتيجة رغبته وتحرقه فى مقابلة إنسان يصب عليه جام غضبه ، ويسمعه قوارص الكلم فى وصف رئيس الحكومة وزعيم البلاد .

ودخل القائمقام شاكر رئيس البوليس الخاص بمجلس الوزراء فى ملابس مدنية ، نحيلا طويلا سمح الوجه أسمره ، وابتسم فى وجه فوزى الذى لم يقابل بسمته بمثلها واكتفى بأن قاده إلى حجرة المكتب وهو يقول فى برود :

أهلا وسهلا .

وتلفت شاكر بك حوله ثم قال :

— إنك تقيم فى معتقل لطيف يا أستاذ فوزى ، لقد حللت أزمة المساكن ، يا بختك !

فرد فوزى فى سخرية وتحفز للهجوم :

— اتفضل !

وابتسم شاكر بك :

— أظن لن أستطيع أن أشرب فنجان قهوة بعد أن أصبحت تعيش هنا بمفردك .

— ستأتيك القهوة على الفور .

ودق جرساً على المكتب فظهر الشاويش الحارس ، فطلب منه فنجاناً من القهوة المضبوطة لشاكر بك .

ألن تشرب معى ؟

— كلا أشكرك .

وخرج الشاويش ليحضر القهوة ، ودخل شاكر بك على الفور فى صلب موضوعه :

— لقد طالعت خطابيك اللذين بعثت بهما إلى رفعة الرئيس ووزير الداخلية ، ها هما الخطابان . . وأخرج شاكر بك من جيبه خطابين عرضهما على فوزى ، فلاحظ فوزى على الفور أنه مؤشر بالأحمر فوق عبارته التى أنذر بها بالإضراب عن الطعام حتى الموت إذا لم يفرج عنه ، وقد أحس لذلك بابتهاج إذ اطمأن إلى أن إنذاره قد وصل إلى حيث يرجو أن يصل ، ولكنه ظل لائذاً فى انتظار ما يقوله شاكر بك ، الذى استأنف قائلا :

— والحق أننى أقدر مشاعرك كل التقدير ، وأفهم المرارة التى تحس بها وقد أربى اعتقالك على السنوات الثلاث فى الوقت الذى خرج فيه بقية المعتقلين . وأرجو أن تصدقنى إذا قلت لك إننى تألمت أشد

الألم عندما سمعت بحادث ولديك ، وقد جئت اليوم لأساعدك فى الإفراج عنك ، وكل الذى أرجوه منك ، هو أن تعطينى بعض الوقت لأبذل مساعىّ ، وأن تصبر قليلا .

وانفجر فوزى غاضباً كالبركان :

— اسمع يا شاكر بك ، لقد كنت أحب ألا تكون أنت من يقابلنى فى هذه الظروف ، إذ يبدو لى من وجهك أنك رجل طيب ومستقيم ، وقد علمت بمساعيك الحميدة فى الإفراج عن زملائى . إن فى نفسى ثورة تريد أن تنطلق ويؤسفنى أن تكون أنت الذى يسمعها منى ويتلقاها . . لقد ضقت ذرعاً بكلمة الصبر ، وضاقت نفسى بالوعود والعهود . . . إنك لا تتصور كم أصبحت أحتقر هذه الأسماء الضخمة الطنانة الرنانة ، وهى تكذب علىّ وتخلف وعودها معى . . .

هل أتاك من العلم ، أننى عندما ذهبت إلى شمس الدين باشا فى بيته لأسلم نفسى بعد أن نجح مونتجمرى فى هزيمة روميل وطرده من مصر ، أقسم لى أنه لن يسمح بعودتى إلى الاعتقال ، ثم تركنى وذهب لمقابلة رئيس الحكومة وعاد من لدنه يقص على بتفاخر كيف قال له إنه كفلاح لا يسمح أبداً باعتقال أخ وزميل دراسة لجأ إليه ؛ وأن الرئيس وعده أن لا أعود إلى الاعتقال بالفعل . . وعندما قابلت رفعة رئيسك طلب منى أن أقبل الضيافة فى بيت أحد الضباط ليومين أو ثلاثة ، حتى يتصل بالإنجليز ويحيطهم علماً باعتزامه الإفراج عنى ؟

— أجل إننى أعرف القصة .

وازداد هياج فوزى وارتفع صوته . . .

— ولكنك لا يمكن أن تعرف أننى قلت له فى هذه الليلة . . . إن ذلك ليس بالرأى ، فهو لو أفرج عنى على الفور لما اجترأ الإنجليز أن يقولوا له شيئا . . . أما لو استشارهم فلن يكون لهم إلا قول واحد وهو أن يستمهلوه بعض الوقت ، وعندها لن يستطيع أن يفرج عنى مادام قد التجأ إليهم ... وها هو ذا مصداق قولى فقد انقضى لى أكثر من عام . . . والإنجليز لم تسمح بعد . فأى صبر هذا الذى تطلبه منى يا سيد شاكر . . . أن أصبر عاما آخر أو عامين ، تكون الحرب فيهما قد وضعت أوزارها ثم شب لظاها من جديد .

— إنى أراك متشائما جداً ، إن الأمر لن يحتاج لأكثر من أسبوع .

وصرخ فوزى :

— ولا يوم واحد ، لقد سئمت الدنيا ، لقد عافت نفسى الحياة وأنا لا أرى حولى إلا أكاذيب وأضاليل وغشاً وخداعاً . . . أليس رفعة الرئيس هو زعيم البلاد الوطنى الذى كان يملأ الدنيا صراخا منذ عامين وهو فى المعارضة بضرورة إلغاء الأحكام العرفية والإفراج عن المعتقلين ، وأليس هو اليوم الحاكم العسكرى الذى يملك فى يديه الرحمة والنقمة ، فما له يعجز عن الإفراج عن معتقل أوذى بسبب تأييده عندما جاء إلى الحكم ، وحاربه نفر من إخوانه لهذا الموقف ، مع تصريحه المتكرر بأنه راغب فى الإفراج عنه . . ؟ إن الأمر لا يعدو أحد فرضين ، إما أن يكون رفعة الرئيس وزعيم البلاد كاذباً فيما يدعيه بأننى

معتقل لحساب الإنجليز ، وأنه إنما يبقيني معتقلا لحسابه هو ، ويتخذ من الإنجليز ذريعة لإخفاء فعلته ، وأحسب أن ذلك لا يليق برجل عادى فضلا عن رئيس حكومة وزعيم . . .

وحاول شاكر بك أن يعترض وقد اكفهر وجهه ولكن فوزى صاح فيه بانفعال :

— يجب أن أتم كلامى. بقى الفرض الثانى ، وهو أن أكون حقا وصدقا معتقلا بأمر الإنجليز ولحسابهم ، ولو صح هذا لكانت المصيبة أعظم فإن رفعة الرئيس الذى يصرخ كل صباح ومساء أنه حاكم هذه الأمة وصاحب السلطان الأوحد فيها ، هو كاذب مضلل يعمل لحساب الإنجليز .

وتجهم وجه القائمقام شاكر واعترض قائلا :

— مهلا يا أستاذ فوزى . . . إننى لم أجيء إلى هنا لأسمع منك الشتائم فى رفعة رئيس الحكومة ... إنك يجب أن تعلم أننى لا أجل هذا الرجل لمجرد كونه رئيس الحكومة ورئيسى ولكن لأنى أحبه وأثق به . . . فأرجوك ألا تحرجنى بهذه الأقوال التى لن تفيدنا فيما نحن بصدده .

وخرج فوزى عن طوره ، وراح يضرب المكتب بيده وقد تناثر رشاش الماء من فمه فى وجه شاكر بك :

— أفتظن سعادتك أننى أخافك أو أخاف رئيس حكومتك . . . أكنت تتصورنى سأجثو على قدمى طالبا الإفراج وأننى سأتملقك

وأداهنك . . . لا . . . لا يا أستاذ شاكر لقد قضى الأمر . . . إننى عندما أرسلت هذا الخطاب الذى تحمله الآن فى جيبك لم أفعل ذلك إلا بعد أن قررت إعلان الحرب على رفعة الرئيس وزعامته الزائفة . . أتسمع . . . لقد أعلنت الحرب ... أنا السجين المعتقل .. أنا الوحيد الأعزل سأحارب رئيسك فمن حسن الحظ أنه لا يزال لدى السلاح البتار وهو أن أموت تاركا دمى فى أعناقكم وروحى تطاردكم وتقتص منكم .

وقرع الباب الخارجى ودخل الشاويش الحارس حاملا صينية القهوة ، فأنقذ دخوله الموقف الذى كان قد توتر بصورة تنذر بالشر .

وقال شاكر بك ، وهو يرشف فنجان القهوة ممتقع الوجه مبتسما فى مرارة محاولا السيطرة على أعصابه :

— اشرب . . . اشرب يا أستاذ فوزى كوب الماء . . . إن الاعتقال قد أثر على أعصابك . من حسن الحظ أننى جئت مستعدا لهذه الثورة ، وقد حذرنى الجميع من عنفك إذا اهتجت ولكنى أنا شخصيا أحب الأشخاص الذين ينفعلون مثل انفعالك . . . إن هذا هو مظهر صفاء النفس وسلامة الطوية . . . إن الذين يثورون أمثالك هم الذين يمكن أن يوثق بهم . . وأنا مطمئن إلى أننا سنكون أصدقاء فى أقرب مما تظن .

وهدأت نفس فوزى ، وأرضاه وأخجله فى ذات الوقت أن يتلقى الرجل ثورته بهذا الهدوء وهذه الكلمات الطيبة فانكسرت حدته وقال وقد تملكه الهدوء .

— تفضل قل ما جئت لتقوله لى .

— لاشىء أكثر من أننى جئت لأتعرف إليك ، إذ لم يسبق لى شرف مقابلتك ، ذلك أننى قررت أن أتبنى قضيتك وأن أسعى للإفراج عنك ، وقد طلبت منك أسبوعا من الصبر . . . فما رأيك لو أنقصنا المدة إلى ثلاثة أيام .

وابتسم فوزى فى سخرية :

— أمامك عشرة أيام . . . لا ثلاثة .

— بل ثلاثة فقط ، على أن تعدنى ألا تضرب خلالها عن الطعام .

— ولكنك لو طالعت الخطاب الذى فى جيبك بدقة لوجدت أننى لن أضرب عن الطعام إلا بعد انقضاء أسبوع من إرساله ولا يزال على انتهاء الأسبوع خمسة أيام .

وضحك شاكر بك وقال :

— بل لقد طالعته بكل دقة ، فقد قلت إنك فى خلال هذا الأسبوع لن تأكل سوى الخبز القفار والماء . . .

وابتهج فوزى بالفعل وشاكر بك يقيم الدليل على أنه يعى خطابه بالحرف :

— أؤكد لك أن الخبز القفار مع الملح عندما يكون الإنسان جائعاً هو من أجمل الأطعمة فى الدنيا .

وضحك شاكر بك وقال :

— هذه يا عم أحوال ومقامات لا نطمع فى الوصول إليها . . .
ثم استطرد قائلا :

— والآن يا أستاذ فوزى أتسمح لى أن أسألك عن رأيك فى موقف الأستاذ سيدهم سكرتير الحرب السابق ، والثورة التى أعلنها على رفعة الرئيس وكتابه الأسود .

فقال فوزى :

— إنك تعلم أن أحداً لم يهاجم الرئيس كما هاجمته فى صحف حركتنا ومجلاتنا ... ومع ذلك فإننى لا يمكن إلا أن أستنكر موقف الأستاذ سيدهم منه . . . إن الأستاذ سيدهم كان يجب أن يكون آخر مصرى يهاجم الرئيس وقد عاش خمسة عشر عاماً يحرق له البخور ويحارب كل من يفكر فى توجيه أى ملاحظة للرئيس فضلا عن نقد ... لقد كان هو الذى جعل من الرئيس صنما فاختلفنا معه من أجل ذلك ، واليوم وهو يمسك المعول ليحطم الصنم الذى شاده ، فأنا أختلف معه مرتين ..

فوثب شاكر بك واقفاً ... وقال :

— يكفينى هذا . . . أحمد الله أن ظنى لم يخب . . . لقد قلت لهم إنك رجل .

٢

دعى فوزى فى اليوم التالى لزيارة شاكر بك ، لمقابلة رئيس الحكومة . ولم يطف بخيال فوزى أن مثل هذه الدعوة هى للإفراج عنه . . . فقد طلب منه شاكر بك بالأمس فقط أن يصبر أياماً ثلاثة ، فليس

لهذه الدعوة العاجلة إلا تفسير واحد ، وهو أن رئيس الحكومة سيطلب منه التمهل والتريث مرة أخرى .

وانفجرت مراجل غضبه من جديد ضد رئيس الحكومة لمجرد مرور هذا الخاطر فى رأسه ، وجعله ذلك يرحب بهذه المقابلة أعظم ترحيب . . فسوف تواتيه الفرصة فى نهاية الأمر ، لكى يقذفه فى وجهه برأيه فيه وليحدث ما يحدث .

وراح فوزى وهو يرتدى ملابسه يتأهب ويشحذ غضبه ضد الرجل ويستعيد من الصور ما يؤجج حقده عليه . . . صورته وهو يحاول أن يستعطفه ويسترضيه حتى لا يهاجم مشروع القرش ويفسده ، صورته وهو يحاول أن يشرح له أهداف حركة البعث وأنها حركة خالصة لوجه الله لا تريد إلا حرية الوطن وخير الشعب ، وهو يلوى كشحه ويصعر خده ويقول له : « إما أن تنضم تحت الراية وإما فسوف نحطمك كما حطمنا كل من خرج على راية الزعامة » صورته وهو يقف على منبر مجلس النواب ليصدر عليه حكما بالإعدام الأدبى وهو يتهمه بأنه وجماعته يعملان لحساب دولة أجنبية أذاع المرجفون أن المقصود بها هو دولة إيطاليا ، فى الوقت الذى كان يحاكم فيه أمام محكمة الجنايات بتهمة إهانة إيطاليا لاجترائه على موسولينى ونظام موسولينى ، صورة انتهازه فرصة إطلاق النار عليه لكى يتخلص منه ومن جميع أفراد جماعته بإيداعهم فى السجن إلى الأبد ... وأخيراً صورة نكبته الأخيرة على يديه وهو يبعث إليه هذه البرقية مهنئاً بتوليه الحكم ، جاهلا الظروف التى تولاه فيها ، فترتب على ذلك ما ترتب من شق صفوف

الجماعة ، وخروج محي صديق طفولته عليه . وفرك فوزى يديه ... لقد حانت الساعة لتصفية الحساب مع هذا الرجل ، سوف يتحداه ويهاجمه ويعنفه بمجرد أن يطلب منه التريث يوماً واحداً قبل الإفراج عنه.

وعندما كان فوزى يصعد درجات السلم المؤدية إلى الطابق الأعلى من مبنى مجلس الوزراء كان يحس بخمود فى نفسه وتبلد فى مشاعره وثقل فى رجليه بحيث كان يجرها جراً ، وهمس فى أذن الضابط المرافق له :

— أحس كما لو كنت أصعد درجات المشنقة حيث ينتظرنى الموت .

وعجب الضابط لهذا الإحساس الغريب فى وقت يجب أن يبتهج فيه فوزى ويطرب ، فلا يمكن أن تكون هذه المقابلة إلا للإفراج عنه ، وعندما صارح فوزى بهذا الرأى ... بادر فوزى فأنكره عليه :

— لو كان سيفرج عنى لأحسست ذلك بقلبى ... ولكنى على العكس أحس بكآبة لم أحس بمثلها فى حياتى ، وذلك لفرط تهيبى مما سوف يحدث عندما لا يفرج هذا الرجل عنى اليوم .

ودخل فوزى إلى حجرة رئيس الحكومة بمجرد وصوله ... واستقبله الرئيس هاشاً باشاً رافع الرأس عريض الصدر مفتر الثغر ومد يده لفوزى وهو يقول :

— أهلا وسهلا سى فوزى ... أهلا وسهلا .

ولم يكد فوزى يصافح اليد الممدودة له حتى صرخ الرئيس :

— مهلا ... مهلا ياسى فوزى، على رسلك « ياأخينا » ... ما هذا

أتريد أن تخلع ذراعى ، حضرتك قاعد فى المعتقل تأكل وتشرب وتسمن ، ثم تجىء هنا لتستقوى على ذراعى ؟ ولم يرد فوزى على هذه الدعابة بشىء ، وازداد وجهه عبوساً ، ونفسه تحفزاً ، واستعداداً للانقضاض على الرجل بمجرد أن يدعوه إلى التريث والصبر ... ولكن رئيس الحكومة قال له :

— كيف حالك ؟

— فى منتهى السوء .

— ولماذا ؟

— اتفضل رفعتك انظر إلى التقويم لتعرف لماذا ، أنسيت أنك وعدتنى منذ أكثر من عام أنك ستسعى عند الإنجليز للإفراج عنى فى أسرع وقت .

فقطب الرئيس حاجبيه ولمعت عيناه وأوسع صدره وأمال رأسه وقال :

— وأنا عند وعدى ، ومساعىّ مع الإنجليز لم تفتر للإفراج عنك ، وقد استدعيتك اليوم لأتفاهم معك فى صراحة ، وعلى رأى المثل ما كان أوله شرط فآخره نور ، إننى على استعداد أن أضمنك عند الإنجليز ، فماذا يكون الحال إذا أنا فعلت ذلك وتحملت هذه المسئولية ثم خرجت من جديد لتشاغب ضدهم بتطرفك وحركاتك المعروفة وسط هذه الظروف المضطربة وحركات سيدهم البهلوانية وكتابه الأسود ؟

وقال فوزى بآخر جهد فى نفسه قبل أن ينفجر :

— لا تحدثنى عن شروط ، أنا لا يمكن أن أستعيد حريتى بشروط ، وعليك أن تقرر بنفسك وعلى ضوء ما تعرفه من أخلاقى وخصالى إذا كنت ستأسف إذا أفرجت عنى أم ستحمد ذلك .

— إننى أعرفك رجلا ، ولا تنس أننا أقارب ومن بلد واحد ...

— إذن لم يبق أمامك إلا أن تفرج عنى بدون قيد أو شرط .

وفوجىء فوزى بمالم يطف له فى خيال ، فوجىء بالرئيس يقول له:

— وهو كذلك يا أستاذ فوزى ، وأنا أفرج عنك بدون قيد أو شرط ، تاركا الأمر لرجولتك وحسن تقديرك .

٣

خرج فوزى من لدن رئيس الحكومة مقطب الحاجبين مكفهر الوجه مكتئب النفس ، حتى لقد هال منظره رجال مكتب الرئيس الذين كانوا أول من تلقوه ، وأخبرهم الضابط المرافق أن الرئيس أصدر أمره بالإفراج عنه ... فعجبوا لهذا العبوس المرتسم على وجه فوزى وأقبلوا عليه مهنئين معانقين طالبين منه أن يفرد وجهه وأن يبسم ويضحك ويفرفش كما هو جدير بهذه اللحظة التاريخية ، ولكن ذلك كله لم يكن يزيد فوزى إلا غما واكتئابا فقد كان تحت تأثير صدمة الإفراج عنه ... أيفرج عنه بهذه السهولة ...؟ كلمة واحدة من فم هذا الرجل ترده إلى الحرية ، لماذا لم يقلها منذ عام ويوفر عليه هذه الآلام . ؟ أهو حر حقا وصدقا بعد هذه الأهوال وهذه السنوات

الطوال من الاعتقال ، أهو حر فى أن يعود إلى بيته ... فى أن يقابل من يشاء ويسافر حيث يشاء ، أهو حر فى أن يتكلم ويقول ويكتب . . ؟ أكل ذلك قد ترتب على هذه الكلمة ، الكلمة القصيرة التى خرجت من فمه ، لماذا لم يقلها ... لماذا لم يقلها قبل ذلك . . ؟

وأبى موظفو مكتب الرئيس إلا أن يحتفلوا بهذه المناسبة فجىء بأكواب من الشراب لكل الحاضرين . . . واعتذر فوزى عن أن يشرب فلم يكن للابتهاج محل فى نفسه ، كان لا يزال غاضبا ، كان لا يزال معتقلا . . . كان لا يزال معتقلا بقوة اندفاع السنوات الماضية .

وسأل موظفى المكتب :

— أأستطيع أن استعمل التليفون ؟

وتصايح الجميع يطلبون أن يستعمل تليفوناتهم .

كان الخاطر الأول الذى استولى عليه هو أن يبلغ الخبر إلى وفاء.. إلى زوجته شريكته فى مأساة حياته .

وكانت وفاء هى التى ردت على التلفون .

— أنا فوزى .. أنا هنا فى مجلس الوزراء .. لقد أفرج الرئيس عنى وأنا فى طريقى إلى البيت ..

ولم تقل وفاء شيئا ووضع فوزى سماعة التليفون فى صمت والجميع يعجبون لهذا المسلك ، وهموا أن يقولوا شيئا ، لولا أنه سألهم :

— هل أنا حر .. أأستطيع أن أخرج الآن ؟

فقال الضابط المرافق وكان قد تسلم الخطاب الرسمى القاضى بالإفراج:

— طبعا.. طبعا يا أستاذ فوزى ، ولكنى أقترح أن تسمح لى أن

أوصلك إلى المنزل بالسيارة فإنى أراك متعبا . . أو أحضر لك تاكسيا إذا شئت .

وتصايح الموظفون من جديد يعرضون على فوزى ، سياراتهم لتوصله إلى البيت ، ولكنه شكر الجميع وأصر على أن يذهب إلى بيته سيرا على الأقدام ، فقد كان يحس أنه فى حاجة إلى المشى على قدميه طويلا ... طويلا ... ليستطيع أن يهدىء من ثورة الغضب التى تعتلج فى صدره ، ليتدبر أمره ... ليحس طعم الحرية .

وهكذا سار لأول مرة منذ ثلاث سنوات فى الشارع عند الظهيرة على رءوس الأشهاد ، دون أن يتلفت حوله . . دون أن يخشى أن يتعرف عليه إنسان .. دون أن يفزع لمرأى رجل البوليس .. راح يسير والشمس المحرقة تلسع جلده ، ووهج الضوء يؤذى عينيه ، والعرق يتصبب من جبهته ومن كل أجزاء جسمه ، وحرارة أسفلت الطريق تنعكس على قدمه فتكاد تشويها شياً ، وشارع القصر العينى يغص بالحركة والضجيج ومئات السيارات المدنية والعسكرية المصفحة وغير المصفحة تزحمه وتملأ الجو بالصخب .. ولكن فوزى لم يكن يأبه بشىء من ذلك كله ، كل الذى كان يحس أنه يسير نحو بيته ، كل خطوة تقربه من البيت ، من وفاء ... من أولاده ، من أصدقائه وأحبابه ، من الدنيا التى حرم منها .. ومع ذلك فلم يكن يفكر فى شىء .. لم يكن يفكر فى الماضى .. ولم يكن يرنو إلى المستقبل . كل الذى كان يشغله هو أنه يسير ... ويسير وكل خطوة تقربه من البيت .. البيت الذى كان يتمنى لو كان أبعد مما هو ليظل يسير ويسير حتى تهدأ نفسه ويحس حقيقة أنه حر ... حر ... بلا قيد ولا شرط .

٤

قال فوزى لأصحابه الأقربين ذات ليلة وكان قد انقضى على عودته إلى الحرية عشرة أيام :

ـــ لا أكتمكم الحق أنني أحس شعور أهل الكهف الذين بعثوا من رقادهم فوجدوا الدنيا غير الدنيا ، وكل شيء قد تبدل من حولهم، فأنكروا ما عليه الناس وأنكر الناس ما هم عليه ، فآثروا أن يعودوا إلى نومهم الأبدى ... كم أصبحت أحن من جديد إلى هدوء المعتقل وسكينته حيث كنت أعرف نفسى ومكانى .. أما الآن فأنا أحس بالضياع .

فقال أحد الصحب :

ـــ هذا طبيعى . سوف تعتاد الجو وتألفه بالتدريج .

فقال فوزى فى انفعال :

ـــ مستحيل أن يكون باستطاعتى أن آلف هذه الحياة المادية الجديدة وأن اعتادها ، حقا إننى لم أنسلخ فى سنوات الاعتقال كل الانسلاخ عن المجتمع ، وقد ازداد احتكاكى به وخاصة فى هذا العام الأخير وأنا أعيش فى هذا المعتقل الخاص الذى كان بيتاملحقا بأحد الأقسام ، كنت أشهد الصراع القاتل الذى يدور للحصول على كوبونات الجاز والسكر والزيت والقماش ، وكنت أسمع من المأمور ومن الضباط ما يجرى وراء الستار من مضاربات رجال السلطة والنواب بأرزاق الناس وأقواتهم .. كل ذلك قد سمعت عنه ووعيته ، ولكن الذى

لم يخطر لى على بال أن تكون الحياة قد مسخت كل هذا المسخ ، وأن الناس قد نكسوا على رؤوسهم فأصبح التحدث عن الوطنية والمثالية والشرف والاستقامة يثير بسمات الإشفاق والسخرية على الشفاه ، وأن المادة وحديث المال وتكديس الأموال والحصول عليها من أى سبيل ، هى صيحة العصر وهدف الجميع بدون استثناء .

وتدخل صبرى قائلا :

— كل من نعرف ومن لا نعرف قد أصبحوا أغنياء حرب . حتى إحدى الخادمات التى اشتغلت فى بيتنا صادفتها فى الطريق تخب فى أفخم الأثواب مقصوصة الشعر وكدت أكذب نظرى لولا ما أطالعه عن ارتيستات الحرب وغوانى الحرب . وسألت شقيقى مرة عن أحد الخفراء فى بلدتنا ، فأجابنى أنه قد أصبح من المتخصصين فى سرقة المعسكرات الإنجليزية وأنه اقتنى ثروة كبيرة من هذا السبيل .. وهناك تجار أصبحوا من أصحاب الملايين لاتجارهم فى مخلفات الجيش . والبيوت كلها تستخدم المسروقات من الجيش الإنجليزى ، .. إن مصر كلها فى حالة سَعَر .. ولم يبق غيرنا فقيرا مجردا .

وابتسم شكرى قائلا :

— يؤسفنى أن أحرمك حتى من هذا الانفراد بالفقر ، فالأغلبية العظمى لاتزال على حالها من الفقر المدقع .. بل لعل ظروف الحرب وارتفاع الأسعار وقلة الأقوات قد زاد فى حالتها سوءاً ، ولذلك فهى لا تزال كالعهد بها تنزع نحو التطور والتحرر وتؤمن بالمثالية والمبادئ العالية .

وثمة مظاهر جديدة تدل على أن المجتمع يختمر بعناصر من الحيوية والنشاط .

وتساءل صبرى فى استهجان :

— مثل ماذا ؟

ورد شكرى .

— مثل الجمعيات السرية التى بدأت تتألف من الشبان ، وشرعت تغتال بعض جنود الإنجليز ، وعملاء الإنجليز وتضع المتفجرات هنا وهناك .

وتصلب وجه فوزى وأسرع يقول :

— لقد أصبحت أنكر أمثال هذه الحركات ، وليس هناك ما يسعدنى عندما أستعرض تاريخ كفاحنا الماضى ، أكثر من أن يدنا لم تلوث بأى دم .

لقد أقنعتنى هذه الحرب نهائيا أن العنف لا يمكن أن يحل قضية ، وأن القوة السافرة لا يمكن إلا أن تهزم فى خاتمة المطاف .

من كان يتصور ان الدول الديمقراطية ، بكل ما كانت تبدو عليه من ضعف وانقسام وانحلال ، تتفوق على الدول الديكتاتورية الموحدة الصفوف والتى كانت تمتلك قوة رهيبة لا عهد للتاريخ بها من قبل .

من كان يظن أن لأمريكان ماضغى اللبان كما كنا نقول يتغلبون على اليابانيين الفدائيين ؟ لا ، إن القوة الروحية ، الروح المعنوية التى يولدها الإيمان بالحق والعدل والخير هى أقوى الأسلحة وأمضاها

فى معركة الحياة . إننى لا يمكن أن أقر العنف . إن هذه الجمعيات السرية التى تتحدث عنها يا شكرى هى علامة مرض لا صحة .

وأسرع شكرى يقول :

— أنا معك فى هذا ، وإنما أشرت إلى هذه الظاهرة باعتبارها حقيقة واقعة . وما دمت معنيا بالقوى المعنوية والروحية ، فالمجتمع من هذه الناحية لا يزال سليما معافى ، وليس أدل على ذلك من اتساع نطاق الدعوة المحمدية وانضمام عشرات الألوف من الشبان تحت لوائها .

وتدخل صبرى بأسلوبه التهكمى :

— أخشى يا سيد شكرى أن يكون تضخم الدعوة المحمدية هو ظاهرة من ظواهر الحرب ، وإلا فكيف تنمو حركة روحية سليمة فى مثل هذا الجو والمناخ المادى المضطرب . وكيف تستطيع أن تفسر إغماض الإنجليز أعينهم عن هذه الحركة ، فى الوقت الذى لا تطيق فيه سماع اسم إنسان حر ، فكيف بحركة دينية تدعو لبعث مجد الإسلام ، إننى أتصور ..

وقطع فوزى على صبرى استرساله فى الحديث قائلا :

— لا يا صبرى .. أنا لا يمكن أن أشاطرك شكوكك ، لست أشك لحظة فى أن انتشار الدعوة المحمدية وسكوت السلطات عنها ، إنما يرجع إلى القوة التى أصبحت عليها الحركة ، وخوف السلطات الإنجليزية من إغضاب المصريين إذا هى تعرضت لحركة دينية .

. . وعندما وعد الشيخ المهدى أن يقصر حركته على الدين وأن يبتعد عن النشاط السياسى ، كفوا عن ملاحقته . ولا أكتمكم أننى طالما فكرت طويلا خلال الاعتقال فى موضوع الدعوة المحمدية ، ما رأيكم وقد أثبت الشيخ المهدى مهارة واقتدارا فى التنظيم والاعداد . . ووصل إلى ما وصل إليه من نجاح أن تنضم إلى حركته لنوحد الجهود ونزيد فى فاعلية حركته ، إننى أومن إيمانا عميقا أننا لو اتحدنا سويا لاستطعنا أن نقود مصر .

وصاح الجميع يعترضون على هذا الاقتراح ، وبادر صبرى يعبر عن وجهة نظرهم :

— إنك تعرف عقم هذه المحاولة . . ولقد حاولتها من قبل أكثر من مرة فلم تبؤ إلا بالفشل والخذلان وخيبة الأمل . يجب أن نواجه الحقيقة .. إنهم يسيرون فى طريق غير طريقنا .. إنهم إما يتعلقون بالماضى ويستمدون منه كل صورهم ونماذجهم فى الحياة ، أو يرنون إلى المستقبل البعيد الغيبى فى الحياة الثانية بعد يوم القيامة ، واهتمامهم بالحاضر هو اهتمام ثانوى .

وتدخل حلمى أحد الصحب فى المناقشة قائلا :

— إن انضمامنا للدعوة المحمدية أمر يجب أن يكون خارجا عن دائرة تفكيرنا .. لقد لاحظت على حركتهم ما يؤكد فكرة صبرى .. إنهم على كثرة عددهم يعيشون فى عزلة عن المجتمع ، إنهم غير قادرين إلا أن يزيدوا فى عدد أنصارهم ، وكلما ازداد عددهم ازداد انفصالهم النفسى عن الشعب .

وفى اعتقادى أننا نحن بالرغم من قلة عددنا بالنسبة إليهم ، من يمثل طليعة هذا الشعب ويحس بأحاسيسه ويكشف عن مطالبه ورغباته ، والسواد الأعظم اليوم من الشعب لم تعد تطربه أحاديث الحرية والوطنية ، مثل ما تهزه الدعوة إلى رفع لعنة الفقر عنه ووضع حد لهذا التباين بين الغنى الفاحش والفقر المدقع . . إن الشيوعية بدأت تجد مرتعا خصيبا وسط هذا الجو . . لقد تألفت عشرات الجمعيات الشيوعية التى تتستر خلف مظاهر النشاط الأدبى وهى ليست سوى خلايا ومنظمات شيوعية .

وطلب فوزى أن يسمع المزيد عن هذا النشاط ، فانطلق الجميع يتحدثون عن مظاهره المختلفة وكيف أن بعض رفقائهم القدامى قد انضموا بالفعل إلى هذه الخلايا .

وقال طلعت :

— إن نشاطنا الجديد يجب أن يبدأ من هذه الزاوية ، زاوية الكفاح من أجل الطبقات الكادحة ، وتصفية الطبقات الرأسمالية والإقطاعية ، إننا لن نستطيع القضاء على الاستعمار وتحرير بلادنا ، إلا إذا قضينا أولا على الإقطاع والرأسمالية .

فقال صبرى محتجا :

— إن كفاحنا منذ اليوم الأول كان من أجل الطبقات الكادحة . إن مشروع القرش الذى نادينا به ، وإنشاء مصنع غزل الصوف والطرابيش ، هو أول محاولة اشتراكية فى هذه البلاد . ولقد دعونا دائماً إلى التضامن والتكافل الاجتماعى ومحاربة الفقر . . ولكن

حديثك عن الطبقات وتصفية الرأسماليين والإقطاعيين يشعرني بأنك بدأت تصبح ماركسيا تؤمن بالصراع والثورة الدموية .

فقال طلعت :

— الحق أنني لا أكتمكم أنه كان من الممكن جداً أن أصبح ماركسيا رغم إنكاري ما تنطوي عليه الماركسية من مادية إلحادية ، فالماركسية اليوم هي القوة الدافعة نحو التغيير في العالم كله ونجاح الاتحاد السوفييتي في الوقوف أمام آلة الحرب الألمانية الجهنمية ، وتحول الجيش الأحمر من الدفاع إلى الهجوم بعد استسلام الجيوش الألمانية في ستالين جراد ، كل ذلك قد ملأ الناس إعجابا بالنظام الشيوعي الذي أثبت نجاحه وتفوقه ، وأقول لكم الحق عن نفسي إنه لم يحل بيني وبين الانخراط في سلك إحدى الجماعات الشيوعية التي تتألف هذه الأيام ، إلا ما لاحظته من أن حفنة من اليهود الأجانب على رأس الحركة الشيوعية في مصر وأنها تتمول من الخارج .. تصوروا أن هؤلاء اليهود الشيوعيين في مصر يبشرون بإنشاء دولة إسرائيل اليهودية ويتندرون بنا لوقوفنا إلى جوار عرب فلسطين ، ويصفوننا بالفاشستية والرجعية ليشوهوا جهادنا من أجل عروبة فلسطين .

ومن جديد راح الجميع يحدثونه عن نشاط الشيوعيين اليهود في هذا السبيل .

وتدخل طلعت قائلا :

— ولكن الشهادة لله يا جماعة ، يوجد بين الشباب الشيوعيين من المصريين من لا يقل عنا إخلاصا واستعدادا للتضحية .

وقال فوزى والأسى يملك عليه كل نفسه :

— ألم أقل لكم إننى أتمنى لو أعود إلى الاعتقال . ماذا بقى لى فى هذه الدنيا الجديدة . . ما الذى نستطيع أن نفعله فى هذا الجو ونحن لا دار لنا ولا جريدة . . والأحكام العرفية لا تزال مشهرة ومفروضة لتحول دون أى نشاط .. فماذا عسانا فاعلون .. ما الذى نملكه لنبدأ به من جديد ..

فقال شكرى وقد خرج عن هدوئه فى انفعال غير عادى :

— بقى إيماننا بالحق والطريق المستقيم ، وما تنطوى عليه قلوبنا من حب لهذا الشعب ورغبة فى خيره ، لقد أرسلت دعوتك الأولى منذ أحد عشر عاما ولم يكن حولك إلا بضع نفر ، وكان عملك يعتبر مغامرة غير مأمونة العاقبة .. لطالما حدثتنا كيف كنت تتوقع الموت فى أى لحظة ، وها أنت بعد كل هذه الحوادث الجسام .. وبعد سنوات الحرب التى غيرت معالم الدنيا ، لاتزال حيا معافى ونحن من حولك ، ألا يملؤك هذا بالتفاؤل والأمل؟ ، إننى أعتقد أن ليس لنا اختيار ، يجب أن نبدأ من جديد، وثق بأننا لانبدأ من الصفر فوراءنا هذه التجارب وطهارة أيدينا وثقة الناس بنا . وأنا متفق مع طلعت أننا يجب أن نحارب الأقطاع ورأس المال، وندعو إلى عدالة التوزيع، أن ذلك سوف يضاعف فى قوة حركتنا .

وتحمس طلعت وقال :

— إننى أضع مكتبى الصغير كمحام تحت تصرفكم ليكون بيتا أخضر متواضعا للحركة .

وقال حلمى :

— ويجب أن نعيد إصدار جريدتنا .

وقال عامر :

وأنا أديرها وأساهم فى تمويلها .

ووضع شكرى مظروفا فى يد فوزى :

— وهذه مائتا جنيه لنبدأ العمل.

وصرخ سعد فى فوزى :

— لست أعرف علام هذه المناقشة كلها ، أهناك شك فى أننا وقد عدنا إلى الحرية وجمع الله شملنا من جديد ، سوف نبدأ الكفاح كأقوى ما كنا عليه فى يوم من الأيام ؟

ولمعت عينا فورى فى بريق من العزم والتصميم ..

دار ... وجريدة ... ومال . .. وبرنامج جديد وهذا الإخلاص الذى هو أغلى شىء فى الوجود ... أقسم بالله إننا سنبدأ ... سنعود للكفاح والعود أحمد .

٥

وصدرت مجلة البعث من جديد متخذة رمزا لها وشعارا كلمات ثلاثا « العلم والصناعة والجيش » فتلقفتها الأيدى ونفد العدد الأول منها بعد ساعات من ظهورها وهو مالم يحدث فى أى يوم مضى .. وعاد عشرات ومئات من المجاهدين إلى الظهور ، أكثر حماسا وإيمانا بحركتهم مما كانوا

فى يوم من الأيام .. وعندما أصر فوزى على أن يكون تشكيل مجلس إدارة الحركة الجديد بالانتخاب أجمع الأعضاء من سائر أنحاء البلاد على انتخابه رئيسا بالإجماع .

على أن فرحة فوزى لم تتكامل ويشتد إيمانه ، إلا عندما استلم أخيرا خطابا من الدكتور خالد أمين ، فقد كان أقسى ما يعانيه فى هذه الفترة من حياته هو انقطاع أخباره بعد أن بدأت جيوش الحلفاء تطبق على المانيا من الشرق والغرب وتقترب من برلين نفسها ، وكان من الواضح أن الأمور لابد أن تكون قد تأزمت داخل المانيا نفسها ولم يعد اتصالها بالعالم الخارجى بمثل السهولة التى كان عليها ولذلك فلم يكد بصره يقع على المظروف الذى يحمل خط خالد ، وقد حملته له وفاء ، حتى صرخ من شدة الفرح فقد كان هذا هو الدليل على أن خالدا لايزال حيا يرزق ، وأنه وقد نجا خلال الأعوام المخيفة السابقة من الموت فسوف يلتقيان من جديد .

وفتح فوزى الخطاب ولم يلبث أن أجهش بالبكاء وهو يطالع مااحتواه الخطاب من عبارات وتوجيهات ... فقد كانت تنطق بما عاناه خالد من آلام ، وما قاساه من محن . . . وكان الخطاب موجها على صورة نصائح الى خالد الصغير :

ليكن سلاحك الأول والأخير فى هذه الدنيا
الذى لا سلاح غيره ، هو الحب والحب ومزيد
من الحب . إياك أن تؤمن بعاطفة تعلو التسامح
والصفح والغفران لكل من آذاك أو اعتدى عليك

فى يوم من الأيام .. أو سلبك حقا أو تحيف عليك.
نزه خواطرك وأفكارك ، عن التعصب لأى شعار من الشعارات مهما بدا فى ظاهره رائعا وجليلا ، فليس كالتعصب سم يسرى فى الروح ويدنسها ويدفعها لارتكاب أخس الجرائم وأدنئها .

وإياك يا خالد واستخدام العنف بأى صورة من صوره فى القول أو الفعل لتحقيق أى هدف من الأهداف مهما كان هذا الهدف ساميا ومثاليا .. ذلك أن مجرد استخدام العنف واراقة الدماء سيلطخ هذا الهدف إلى الأبد ويجعله مقيتا ومصدرا لمزيد من استخدام العنف وإراقة الدماء .

لا تخدعنك الألفاظ والكلمات البراقة الطنانة .. ككلمات المجد والعظمة والبطولة ، فليست هذه الكلمات كلها سوى أحابيل الشر، ومزالق الرجال.. ليست إلا نارا تتأجج فى صدور المؤمنين بها تحرقهم وتكويهم ، وتلوث أيديهم بالجريمة والدم من أجل تحقيقها .

لا تسمح يابنى للأناشيد والأهازيج والمواكب العسكرية والألوية والأعلام أن تدير رأسك ، وتفقدك إرادتك وتحولك إلى آلة أو ألعوبة فى يد الآخرين .

إن السعادة التى يجب أن تكون أنشودة البشر أجمعين ، لا تكمن فى امتلاك هذا الشىء أو ذاك ، أو تحقيق هذا القدر من المجد أو الشهرة أو الغنى أو السلطان ، فليس ذلك كله إلا وهما وسرابا لا يرد عن الإنسان لحظة أسى أو اكتئاب ، فضلا عن ساعة ألم يعانيها فى عضو من أعضائه .. أو لعدم تحقق أمل من آماله ، إن السعادة جوهر شفاف ينبثق من داخل النفس الرضية ولا يأتى من خارجها أبدا .. إنه يزكو فى داخل النفوس الصافية القانعة التى سيطرت على شهواتها الجامحة ، والمفعمة بعاطفة واحدة هى عاطفة الحب لسائر ما فى هذا الكون من كائنات .. للأعداء قبل الأصدقاء ، فإذا الأعداء يتحولون إلى أصدقاء ، وللخاطئين والعصاة قبل الأبرار الأطهار ، ليتحول العصاة إلى بررة .. الحب للطغاة والبغاة والظالمين ، فيحد ذلك من طغيانهم ويخفف من ضراوتهم وظلمهم . إن الحب لا الكره . والرحمة لا النقمة .. والرضا الواعى لا التمرد ، هو الذى يمكن أن يكون حبل النجاة من هذه اللعنة التى يعيش فيها البشر ، هو الأمل وهو النور لتبديد ما أصبحنا نعيش فيه من ظلام قاتم .. هو البلسم لهذه الجراح التى أدمت قلوب البشر أجمعين .

أى خالد يا ابن أخى

ليكن الايمان بالله غايتك .

وزراعة الأرض عملك .

ومحبة الناس عدتك وسلاحك .

وبكى فوزى ، كما كان يبكى كلما طالع هذه السطور ، التى لم ير فيها إلا انعكاس الويلات التى غرق فيها خالد طوال خمس سنوات فى منفاه.

واقشعر بدن فوزى وهو يستذكر ما حملته الأنباء مؤخراً عن مصير موسولينى الأخير ، ذلك الذى اعتاد وقتاً ما أن يرهب الدنيا كلها وأن يهددها بطوفان من الدم إذا هى اعترضت مشيئته ، موسولينى الحاكم بأمره الذى جمع فى يده من السلطان داخل بلده مالم يظفر به من قبل طاغية أو جبار ، وكيف انتهى ذلك به إلى تعليقه بعد قتله من قدميه هو وعشيقته فى خطاطيف الجزارين ، كأنه بعض الذبائح من الماشية . ما أكثر ما نقم فوزى على موسولينى ، ولكن هذه النهاية المروعة جعلت قلبه يدمى .

واتجه فوزى إلى الله وصلى له فى حرارة ، أن يضع حداً لآلام البشر وأن يعيد خالدا إلى مصر .

وقطعت عليه وفاء زوجته صلاته ، حاملة له نبأ مثيرا وهو إقالة وزارة الأغلبية وزعيمها وكيف طردها الملك من جديد فى مهانة وذلة وعهد إلى الدكتور باهر بتأليف وزارة جديدة لتوفر الغذاء والكساء للشعب .

وسأل فوزى زوجته فى استنكار :

— من الذى قال هذا الخبر ، هل أذيع فى الراديو ؟

— فاطمة . . . إنها لا تزال على التليفون .

وأسرع فوزى ليتلقى تفاصيل الخبر من فاطمة . . وبعد أن استوعب منها كل شىء .. قال لها :

— إن عندى لك ردا على هذا الخبر ، خبر أهم وأعظم من ذلك وأروع ..

وصرخت فاطمة :

— عرفته .. عرفته بقلبى وإحساسى . إننى قادمة حالا .. أليس هو خطاب من خالد أمين ؟

* * *

ورقصت فاطمة من فرط السعادة والفرح الجنونى وهى تمسك بخطاب خالد ، وعيناها تقعان على الخط الحبيب ، وانحدرت الدموع من عينيها حتى قبل أن تقرأ حرفا واحداً من الخطاب ، وقالت تعتذر لوفاء :

— سامحينى ياوفاء هاتم على فرط تأثرى ، إنك لا تدركين الآلام التى عانيتها فى هذه الشهور الأخيرة التى انقطعت عنا فيها أخباره، كم مرة راودتنى فكرة الانتحار لأضع حدا لآلامى واحساسى باليأس والضياع، ولكن الأمل .. الأمل فى أنه لا يزال على قيد الحياة ، وأن الله قادر على أن يجمع شملنا ، هو الذى أبعد عنى هذه الخواطر السوداء .

وترقرقت الدموع فى عينى وفاء التى أسرعت تقول :

— لست فى حاجة يا فاطمة للاعتذار عن شىء ، إنك لا تتصورين كم أبكانى فوزى وأبكى نفسه عندما تسلم هذا الخطاب .. ولا أظن أننى رأيته سعيداً فى أى يوم من أيام حياته كما رأيته اليوم .

وضحكت فاطمة وهى تمسح الدموع من عينيها ، وقالت توجه الحديث لفوزى :

— يجب أن تسلم مع ذلك أن سعادتك على عظمها ، لا يمكن أن تقارن بسعادتى ، بعد أن أصبح خالد هو كل شىء فى حياتى .

ولم يتمالك فوزى أن يعترف بينه وبين نفسه ، فى الوقت الذى مضت فيه فاطمة تقرأ خطاب خالد ، بصحة ما تقول ، ووجد نفسه يتساءل :

ما الذى يحل بفاطمة لو أصيب خالد لا قدر الله بسوء ؟

ولم يستطع إلا أن يغمض عينيه محاولا طرد الصورة المخيفة من رأسه .



الفصل الخامس

١

حلت الوزارة الجديدة البرلمان كما كان متوقعا ، وأعلنت عن عزمها على استفتاء الأمة وإجراء انتخابات جديدة ، وهكذا وجدت حركة البعث فرصتها من جديد للاتصال بالجماهير على اوسع نطاق ونشر مبادئها ، واستعادت حيويتها ، فتقدم خمسة من قادتها ممن بلغوا نصاب السن لترشيح أنفسهم وعلى رأس الجميع فوزى .

واستمرت المعركة طوال شهر كامل ، واستجاب الشعب فى صورة مذهلة لنداء شباب البعث وروحهم الجديدة الفتية ، وعزمهم المتوثب .. حتى أصبح من المحقق أن الجماعة ستظفر بمقعدين أو ثلاثة فى مجلس النواب القادم .

وتهالك فوزى من فرط الإعياء فى أمسية يوم الانتخاب والساعة تدق مؤذنة بالثانية صباحا .

وحاولت وفاء أن تعاونه على خلع ملابسه ، ولكن فوزى كان أضعف من أن يحتمل هزة صغيرة ولذلك فقد توسل لزوجته أن تدعه ساكنا هادئا بعض الوقت .

وأبت وفاء رغم إلحافه إلا أن تخلع حذاءه وجوربه ، مؤكدة له أن ذلك سيساعده على الهدوء والراحة .. ومضت تقول له :

— أنت فى حاجة لكل قوتك ونشاطك ، فبعد ست ساعات ستجرى الانتخابات ، ولو أنك تركت نفسك لى لخلعت لك ملابسك واستطعت أن تنام .. إن نوم ساعة واحدة سيساعدك كثيراً على احتمال مشاق الغد .

— كيف أقوى على النوم ولم يبق على ذروة المعركة سوى بضع ساعات ، إننى يجب أن أتثبت من وجود المندوبين والوكلاء وأن أوزعهم على اللجان قبل شروق الشمس .

— ولكنك كنت مجتمعا معهم بالفعل واتفقتم على ترتيب كل شىء ، وقد أخذ شكرى وسامح على عاتقيهما الإشراف على هذه العملية .

— الحق يا وفاء أن شكرى وسامح قد خاضا هذه المعركة بتفان أكثر مما لو كانت معركتهما الشخصية ، لقد أنفقا من الجهد والمال وسعة الحيلة ما جعل النصر محققاً ومضموناً . . . فهل تتصورين أن أكافئهم على ذلك بأن يسهروا وأنام .

— ولكنك لن تستطيع أن تمضى هكذا ... سوف تنهار .

— اسكتى . . . اسكتى يا وفاء . كيف تتحدثين عن الانهيار فى لحظة الفوز التى عملنا من أجلها جاهدين طوال اثنتى عشرة سنة .

وانتهزت وفاء فرصة تحدث فوزى وعودة الحيوية إليه ففكت رباط رقبته ، ونجحت فى أن تحمله على خلع الجاكتة ، بينما راحت تقول له فى ثقة واطمئنان :

— ستكون نائباً بإذن الله ، وستتحقق أمانينا فى الانتصار .

وهز فوزى كتفيه ورفع حاجبيه فى شىء من الشك والتردد :

— لست أعرف يا وفاء ... إن ما يخيفنى هو هذا التأييد الساحق الذى ألقاه . . . إن كل شىء يصيح ويؤكد أننى سأكون نائباً فى مساء الغد ... وهذا ما يجعلنى أرتعد وأخاف من هذا اليقين .

— لم هذا التشاؤم ، حرام عليك أن تحس هذا الإحساس ، إننى لا أستطيع أن أتصور ما الذى يحل بنا إذا لم تنجح بعد هذا الذى عمل وبذل . . . إنى أخشى أن ينتحر البعض إن لم تفز فى هذه الانتخابات .

— وفاء ... لم أعهدك مبالغة .

— أقسم بالله أننى لا أبالغ ، فلست أعرف عن نفسى أنا ماذا يحل بى إذا لم تنجح ...

أنسيت كيف أمضينا هذا الشهر لا نعرف طعماً للراحة لا ليلا ولانهاراً ، والمظاهرات والمواكب والوفود تغشانا حتى ساعات الصباح المبكرة ... أو لم يتحول بيتنا إلى ورشة لعمل الأعلام وكتابة اللافتات ومقهى وناد بل طريق عام .

وأغمض فوزى عينيه وقال فى حنان :

— شد ما أتعبتك معى يا وفاء وأتعبت أفراد أسرتك .

وصاحت وفاء فى عتاب :

— لاتتحدث عن تعبى أو تعب أسرتى معك ، فلمن نتعب إذا لم يكن من أجلك ، ولكن هل يقاس هذا الذى تسميه تعباً بما بذله أو احتمله وقام به بعض إخوانك ... بل الغرباء الذين لم نعرفهم إلا فى هذه المعركة لأول مرة ؟

وتحمس فوزى ، ومع الحماسة عاد إلى جسده النشاط . . . فراح يخلع ملابسه ويرتدى جلباب النوم :

— الحق يا وفاء أننى رأيت فى هذه المعركة فوق ما كنت أرجو وآمل ، لقد أعادت هذه المعركة حركتنا إلى ذروة الحياة والحيوية على الأقل فى مدينة القاهرة ، ونحن نخوض المعركة فى أربع دوائر . إنك تعلمين أكثر من غيرك مدى إيمانى بهذا الشعب وثقتى به ، وأشهد لقد أرانى من ألوان الحب والتقدير والوعى ما لم أكن أحلم به . ما من كلمة طيبة نطقت بها فى يوم من الأيام . . ما من عمل صالح قمت به حتى فى الخفاء ، إلا ورأيت من يحدثنى عنه أو يشهد به إبان طوافى ، ومن يعلن وقوفه إلى جوارى بسببه . لقد قربت معركة الانتخابات إلى ذهنى صورة يوم القيامة ، عند ما تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا ، وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ، ومن حسن الحظ

أن الله قد عفا عن سيئاتى فيما يظهر ، أو أنه سترها علىّ فى هذه الدنيا .

فقاطعته وفاء :

— أكنت تشك فى ذلك ؟

— إن الشك ليفترسنى افتراساً ويقتلنى قتلا . . إنى لأتصور نفسى أحياناً لا أصلح لشىء . . مستبداً أحمق مندفعاً طائشاً . . ولكن الحمد لله فقد أعادت هذه المعركة الثقة إلى نفسى... تصورى يا وفاء أن أناساً من حى طولون حيث ولدت جاءوا يساهمون فى المعركة .. أناسا من شارع ماراسينا فى السيدة حيث أمضيت صباى يقفون إلى جوارى ، مدرسين علمونى فى الجمعية الخيرية الإسلامية ... أو فى محمد على والخديوية ... جاءوا يروجون لانتخابى ويحدثون الناس عن أيام طفولتى وشبابى... أساتذة من الجامعة . . زعماء قابلتهم فى السودان . . نوبيون كرماء طيبون ، شباب جمعتنى وإياهم رحلات فى لندن وباريس وبرلين أو فى عواصم البلاد العربية . . كل هؤلاء أصادفهم فى دوائرنا يخطبون أو يلقون قصائد أو يستحثون الناس على انتخابنا ، حتى خطيئتى التى حوسبت عليها بعنف وهى تأييدى المتسرع لرئيس حزب الأغلبية فى حادث ٤ فبراير قد ارتدت علىّ الآن بالخير العميم فزعيم حزب الأغلبية يقف مؤيداً انتخابى ويقول لأنصاره إنه لو لم يكن مقاطعاً الانتخابات لأعطانى صوته ، فأصبحوا أشد الناس حماسة لانتخابى .. إنه إجماع... إجماع يا وفاء .

وهتفت وفاء .. الحمد لله .. الحمد لله ، ألم يؤهلك لذلك كفاحك الطويل وصبرك ؟

ومضى فوزى فى صوره وتأملاته .

— آه يا وفاء لو أنى أصبحت بالفعل نائبا ودخلت البرلمان ، سوف أسمع الدنيا كلها صوتى ... سيرى الجميع فىّ نائبا لا عهد لهم بمثله من قبل ، نائبا جهير الصوت قوى الحجة لا يجامل ولا يحابى ولا يداور أو ينافق ، سأكون سوطا يلهب ظهور المتجبرين من الحاكمين كلما حاولوا أن يتحيفوا حقوق الشعب أو يهدروا القوانين .. سأهاجم... سأهاجم الملك نفسه إذا اعوج أو انحرف ... سأكون لسان الفلاحين والعمال الناطق .. سأكون سلاحهم الذى يقاتلون به .. لأقيمن مصر وأقعدها من أول خطاب ألقيه فى المجلس .

وأسرعت وفاء تهدئه وهى فى وجل مما بدا عليه من التوتر العصبى وراحت تقبله وتهدهده وتقول له :

— إن شاء الله ... إن شاء الله . أصبحت مسألة ساعات...أتعرف أن أخى سامح قد قال لى بالأمس : « ليت فوزى يفصل بدلة البرلمان »

وابتسم فوزى وقال :

— أتعرفين يا وفاء أن هذه المسألة لم تبعد عن ذهنى ... ولقد خطر لى فى بادئ الأمر ألا أفصل بدلة رسمية ... إننى ابن الشعب وسواد شعبنا الأعظم لا يرتدى البدلات ... ومع ذلك فلو أننى نجحت

فسوف أفصل بدلة رسمية ... فلست أريد أن أبدو شاذاً أومتطرفا على الأقل من الناحية الشكلية .

ونجحت وفاء أخيراً فى أن تقود فوزى إلى الفراش ، بينما كانت رأسه تدق وتعج بالدوى والهدير والمناشير والصخب والألم والأمل والرجاء .

٢

كانت حركة التصويت فى انتخابات دائرة فوزى قد بلغت الذروة فى الساعة الثانية عشرة ظهراً ، عندما دق جرس التليفون على مكتب مستر هاملتون أحد موظفى السفارة البريطانية .

— هاملتون يتكلم .

— أنا اللواء شاهين السلانكلى .

— نعم ياشاهين باشا ؟

— وزارة الداخلية لم تفعل شيئاً حتى الآن لإسقاط فوزى . . . إننى أكرر لك تحذيرى يا مستر هاملتون . . . إذا ظل الحال على هذا المنوال فسيصبح فوزى السيد نائباً بعد خمس ساعات من الآن .

— ولكن يا شاهين باشا ، لقد أكدوا لى فى وزارة الداخلية أن نجاح فوزى من رابع المستحيلات . . فهناك تسعة مرشحين ينافسونه

ولا بد أن ستتوزع الأصوات بينهم ولن يحصل فوزى على أغلبية الأصوات المطلقة . . . وبهذا ستعاد الانتخابات ، وعند الإعادة سيعملون اللازم .

— متى قالوا لك ذلك ؟

— هذا الصباح .

— إنهم مغفلون ... إن التيار جارف مع فوزى الآن ... إن جميع المرشحين الثمانية قد يحصلون على صوت كلما حصل فوزى على عشرة ... لا تقل إننى لم أحذرك . . . إن دخول فوزى فى البرلمان سيرتفع بحزبه إلى القمة ولن تستطيعوا محاربته بعد ذلك أبداً .

— إننى شاكر جداً يا شاهين باشا ، وسأبلغ سعادة السفير حسن اهتمامك ، وكن واثقاً أننا سنتخذ اللازم .

٥

بينما كانت هذه المكالمة التليفونية تدور بين شاهين السلانكلى والسفارة البريطانية ، كان فوزى الذى وصل به الإعياء إلى درجة لا توصف يسير مترنحاً كما لو كان سكران ، وكانت عيناه مفتوحتين فى حركة تشنجية ، وعلى شفتيه ابتسامة باهتة هى كل ما أصبح قادراً على التظاهر به تشجيعاً لناخبيه الذين كانوا يحتشدون أمام اللجان فى حماسة . وبينما كان كل إنسان يتحدث عن نجاحه الذى أصبح حقيقة مقررة ، كان القلق لا يفارقه ، بل ويحطم أعصابه تحطيما . وأحس بأنه لم يعد قادرا على احتمال الضغط العصبى أكثر مما احتمل حتى الآن ،

وخاف على نفسه مما أنذرته به وفاء وهو أن يصاب بانهيار عصبي... ليته سمع ما أشارت به عليه هذا الصباح، وهو أن يرابط فى البيت تاركا لإخوانه قيادة هذا الفصل الأخير من المعركة. ولكن أ كانت الأمور تجرى هكذا فى طريقها القانونى لولا شدة يقظته وحرصه؟..ألم يحبط عشرات المناورات التى حاول البوليس أن يديرها منذ الصباح؟..أكان مندوبوه يجلسون فى اللجان، ووكلاؤه يشرفون على سير العملية، لو لم يكن موجوداً ويتصدى لكل محاولة للإخلال بالقانون، يساعده على هذا عطف جميع القائمين بعملية الانتخابات أنفسهم من الموظفين؟! لا .. لقد أحسن صنعاً بأدائه واجبه حتى هذه اللحظة. ولكنه متعب... متعب حتى النخاع... آه لوكان بقدرته أن يستريح عشر دقائق... عشر دقائق فقط...وتلفت حوله باحثاً عن مخبأ يلتجىء اليه... فإذا سيارة تجىء فى سرعة خاطفة لتقف أمامه فى عنف ويهبط منها إنسان يصيح فى انفعال:

— النجدة.. النجدة... لقد هجم البوليس عند مركز العوايد على الناخبين وانهال عليهم بالضرب، وقد قبض على مندوبك فى اللجنة وإذا لم تدرك الأمور فسيضيع كل شىء .. وأحس فوزى بنياط قلبه تتقطع وهو يسمع هذه العبارات .. وصرخت روحه فى احتجاج ويأس وقنوط:

— لماذا يقولون لك هذه الأخبار .. ما الذى تستطيع أن تفعله عندما يقدم البوليس على ضرب الناس؟... ومع ذلك فلم يكن باستطاعة فوزى إلا أن يخف إلى مكان العدوان ليرى الأمور بنفسه ويصدر حكمه

على الموقف وما ينبغى عمله ، فاستقل سيارته وأسرع إلى مكان الحادث بينما عاودته نصيحة وفاء له ... ماذا عليه لو استجاب لها ، ولزم البيت فى هذا اليوم . تاركا الأمور إلى مشيئة الله .. لقد بذل من الجهد ما يدل على أن طاقة الإنسان لا حد لها ، وكان من حقه اليوم أن يقف بمعزل عن سير الحوادث التى تندفع بطريقة حتمية إلى قدر مقدور لا قبل له بمقاومته .

وقطع المشهد ، الذى رآه بمجرد وصوله إلى لجنة العوايد بشارع خيرت ، تأملاته وخواطره وبهت مما رأى ، وهرب الدم من وجهه وتجمدت أطرافه وخفق قلبه بقوة من فرط الانفعال .

كان الميدان الفسيح أمام اللجنة قد تحول إلى ساحة عسكرية تغص بعشرات الجنود المسلحين بالعصى الثقيلة ويرتدون الخوذات ويحملون الدروع ، كما أن بعضا منهم كان يحمل الأسلحة النارية ما بين بنادق ومسدسات .. وراح مأمور القسم المشرف على هذه القوة يروح ويجىء فى تعاظم وتشامخ معلنا عن جبروت السلطة وتحديها .

واقترب فوزى من المأمور باذلا آخر ما فى قدرته من طاقة لكى يرسم على شفتيه ابتسامة واهنة ولكى يبدو هادئاً مجاملا :

— ما الذى فعله مندوبى يا حضرة المأمور لتقبض عليه ؟

وصعر المأمور خده لفوزى وأدار له ظهره وقال له فى ازدراء وتحد:

— لن أرد عليك .

واشتعلت النيران فى جسد فوزى لهذه الإهانة غير المتوقعة والتى جرت

على مشهد ومسمع من حشود الناخبين من أنصاره ... ومع ذلك فقد تمالك نفسه ورأى أن يستعمل حقه القانونى فى استحضار مندوب بدلا من المقبوض عليه ، وطلب من رئيس اللجنة المشرف على الانتخابات ، أن يسمح له بمندوب جديد بدلا من مندوبه الذى اعتقل . فأجابه الرجل إلى طلبه فى حماسة ، وخرج معه ليختار واحدا من الناخبين . وأشار فوزى إلى نظيم وكان هو أول من وقع عليه نظره من الناخبين ، فناداه رئيس اللجنة . . . ولم يكد الناخب يخرج من الصفوف حتى أصدر المأمور أمره لرجاله لكى ينهالوا عليه ضربا .

واسودت الدنيا فى عينى فوزى . لطالما سأله الناخبون ماذا يكون موقفه فيما لو تعرضوا لاعتداء البوليس من جراء انتخابهم له ، فكان يقسم لهم تحت حرارة الموقف أنه لا يمكن أن يسمح بوقوع اعتداء على الشعب بدون أن يقاومه إذا لزم الأمر ولو بالسلاح . وكان يعلم وهو يلقى بهذه العهود ، أنها مجرد ادعاءات وأقوال يرفع بها من معنوية الناخبين ويثبت أقدامهم ، وإلا فلو استخدم البوليس القوة ، فليس لديه مايدفعه بها . وها هو ذا المحظور يقع على رءوس الأشهاد وفى حضرته ، فيُضرب الناخبون ويُعتدى عليهم ، لا لذنب جنوه إلا لأنهم جاءوا ينتخبونه . وأحس بالقنوط ولم يعد يقوى على وزن الأمور والتفكير السليم ، ووجد نفسه يقترب بحركة آلية نحو المأمور محتجا على مايحدث ومنددا بالاعتداء على الناخبين .

فإذا المأمور يتقدم نحوه فى تحد . . . ومن ورائه جنديان قد أشرعا عصيهما الغليظة فوق رأسيهما .

وامتلأ فوزى ذعرا . . . سوف يضربونه كما ضربوا صاحبه . ومن جديد امتلأ باليأس والقنوط . . . إنه لا يمكن أن يكون نائبا . لن يسمحوا له أبدا أن يكون نائبا . ليكن ، ولكنه لن يسمح لهم أبدا أن يضربوه وهو واقف على قدميه . . . يجب أن يعتقلوه أولا . . . إذا شاءوا أن يعتدوا عليه . . . ونظر إلى المأمور نظرة صاعقة ، وقد أحس فوزى بنفسه كما لو كان عملاقا ، وهذا الرجل القمىء قد تحول إلى قزم . . .

وصاح المأمور :

— أتريد أن تضربنى ياسى فوزى ؟

وقبل أن يتم المأمور آخر حرف من جملته ، كانت يد فوزى تهوى كما لو كانت مطرقة على خد المأمور ، الذى وقع على الأرض من هول الصدمة وشدة المفاجأة .

وأصيب الجميع بالذهول والارتباك . . بينما جن جنون فوزى فانحنى على الأرض ، والتقط المأمور ورفعه بيديه كما لو كان طفلا صغيرا وأسرع يعدو به صاعدا درجات السلم المؤدى الى لجنة الانتخاب . كان ما يملأه فزعا هو العقاب الذى سينهال عليه من رجال البوليس بعد أن ضرب المأمور هكذا . . . ولم يعد أمامه ما يحتمى به إلا جسد المأمور نفسه . . . وصاح فى جنون فى العساكر الذين هرعوا نحوه وقد جحظت عيناه ، وامتلأ فمه بالزبد :

— والله ياأولاد الكلب . . . لو مد إنسان يده على فسوف أقتل المأمور . . . أتسمعون . . . سوف اقتله . . .

٣

كان فوزى مذ وقع هذا الحادث يردد بينه و بين نفسه :

— هذه مشيئة الله . . . ربنا يريد ذلك . . . ربنا يريد ذلك .

أما الآن وقد انتهى كل شىء وأصبح وحيدا فى زنزانته بعد أن قضت النيابة بحبسه فى سجن مصر ، فقد بدأ يحس بهول الفجيعة . . . فجيعة آله وإخوانه وناخبيه فيه ، هؤلاء الذين شقوا ثلاثين يوما ، وعانوا وكابدوا ما كابدوا وضحوا وصبروا واحتملوا وأملوا ورجوا.. وها هو فى حركة طائشة من حركاته ، وحماقة من حماقاته التى لاتنتهى يدمر ذلك كله ويخسرهم المعركة . . . ويحاول فوزى من جديد أن يلوذ بتعويذته . . . « تلك مشيئة الله » ولـكنها لم تعد تسعفه ، لقد أمده الله بكل عناصر النجاح . . . وهو . . . هو وحده الذى أضاع ذلك بتهوره . ماذا عليه لو أنه صبر ، ماذا عليه لو أنه ترك البوليس يضرب فما كان ذلك ليغير من النتيجة شيئا . . النتيجة التى لم يكن باقيا على إعلانها سوى أربع ساعات ... فماذا عليه لو صبر ؟ !

ويتقلب فوزى على فراش السجن الذى تحول إلى جمر وأشواك ليس لمثله أن يكون على رأس حركة ، أين أنت ياخالد لتتحمل المسئولية ولتقود الجماعة برصانتك وحكمتك .. ؟ لم يامحيي لم تقبل توسلاتى فتكون رئيسا وقائدا وزعيما ؟ لماذا يصر إخوانه على تقديمه عليهم .. إن أى واحد منهم خير منه . ماالذى ستقوله مصر عنه ، وقد



دخل المعركة ليكون نائبا فى البرلمان يوصف بالنائب المحترم ، فخرج منها بلقب فتوه .. بلطجى .. لقد أصبح بلطجيا يضرب البوليس ممثلا فى شخص المأمور .

لطالما دخل السجن متهما بجرائم النشر وهى الجرائم المشرفة ... أما هذه المرة فالتهمة المسجلة على أوراق سجنه هى « الضرب والاعتداء » وسيقف غداً فى المحكمة عند المعارضة فى أمر حبسه ليواجه النظرات النكراء بعد أن أصبح فتوة بلطجياً . . . إنه لم يستطع أن يغير الحقيقة فى التحقيق ... لقد اعترف بما حدث تماماً . . . لقد قرر أنه هو الذى كان بادئاً بضرب المأمور .

ويطارده ويفزعه شبح نقطة الدم التى رآها تنحدر على وجنة المأمور . . . من أين جاءت هذه القطرة ... ؟ إنها لا يمكن أن تكون من عينيه . . . إن يده أهوت على خده وليس على عينيه . . . ومع ذلك فقد حضر المأمور جلسة التحقيق وهو يضع ضمادة فوق عينه اليمنى مما جعل فوزى يكاد يموت من الحزن والشجن . . . « أيكون قد فقأ عين المأمور ؟ ! » .

ويرفع فوزى بصره فى الظلام المسيطر فى سماء زنزانته ويضرع إلى الله فى ذل وانكسار أن يسلم عين المأمور ويشفيها ويجنبها كل سوء . وتفعم نفس فوزى بالمرارة وهو يقارن بين يومه وأمسه ، ففى مثل هذه الساعة من الليلة السابقة كان يتحدث عن هز الدنيا كلها لا مصر وحدها من تحت قبة البرلمان ... أما الليلة فكل الذى يرجوه من ربه هو أن تسلم عين المأمور .

ويتحرق فوزى إلى البكاء . . إن دموعه سريعة الانحدار فى أتفه المواقف حتى ليحس بالخجل من نفسه . . . أما الآن وهو يريد أن يبكى ، فإن الدموع نفسها تعز عليه . . . لماذا يعامل بهذه القسوة . . . لماذا . . . لماذا ؟

٤

نظر معاون السجن فى الصباح من خلال منظار باب زنزانة فوزى فوجده راقداً على الفراش مفتوح العينين ينظر إلى سماء الزنزانة . وأشار الضابط إلى السجان ففتح له الباب بعد أن أشار له أن لا يصيح صيحته المعتاده « انتباه » .

وفوجىء فوزى بضابط السجن يقول له :

— صباح الخير .

وعندما حاول أن يهم واقفاً ليرد التحية بالاحترام الواجب ، كانت يد المعاون أسرع منه فضغط برفق على كتفه ليبقيه جالساً على الفراش... وغمغم المعاون الذى كان يرى فوزى لأول مرة :

— مش ممكن . . . غير معقول . . . أن تكون أنت الذى فعل كل هذه الأفاعيل .

وأطرق فوزى فى خجل وحياء وإعياء . . . بينما مضى المعاون يقول :

— أنا عبد اللطيف صادق ، معاون هذا السجن ، وتستطيع أن تعتبرنى من ضباط البوليس الأحرار ، وبالرغم من أننى من سكان

دائرتك ، وشدة رغبتى فى أن أسمع إحدى خطبك مذ كنت ضابطا فى البوليس وقبل أن أنقل إلى مصلحة السجون لتمسكى بمبادئى ، فإن الظروف لم تسمح لى حتى الآن بتحقيق هذه الأمنية.ولكنى كنت أسمع دائماً من والدى ووالدتى وإخوتى تأثرهم الشديد بك ، وكان يدهشنى بصفة خاصة حماسة والدتى لك ودعاؤها لك فى كل فجر أن ينصرك الله ويشد أزرك ... ولم يكن لنا من حديث طوال سهرة الأمس إلا عما حدث فى محكمة السيدة ومافعلته بالمأمور ... ولذلك فلا تتصور مقدار فرحى عندما جئت هذا الصباح وعلمت أنك شرفتنا كى تتاح لى فرصة التعرف بك . . . ولا تؤاخذنى إذا اعترفت لك بهذه الحقيقة . . فقد كنت أفضل أن أتعرف بك فى ظروف أحسن .

وابتسم فوزى فى مرارة :

— أهلا وسهلا . . . على كل حال إن السجن فيما يبدو لى هو مكانى الطبيعى الذى لا أصلح لشغل مكان غيره .

وضحك المعاون وقال :

— إن القول المأثور هو أن السجن للجدعان .

واشتدت مرارة فوزى وندت عنه آهة غامضة . . . بينما مضى المعاون يقول :

— عفواً يا أستاذ فوزى . . . إننى من كثرة ماسمعت عنك كنت أتصور أننى سأقابل عنتر أو أبو زيد . . . أو على الأقل إنساناً من طراز سيد نصير بطل العالم ... وإذا بى أفاجأ ... لاتؤاخذنى ...

أصحيح أنك صفعت المأمور «قلماً» كاد يطيح برأسه ، وإنك أمسكت به واتخذت منه هراوة تضرب بها العساكر فراحوا يتساقطون تحت وطأة ضربك ؟

فأطرق فوزى فى خجل وحزن وقال :

— إنها مبالغات الجمهور .

وانفعل المعاون :

— أى مبالغات ؟ . . إنك لاتعرف ماذا يقال فى دائرة السيدة كلها . . . إنهم يتنافسون فى وصف ماحدث بطريقة مثيرة ، إن البعض يقسم أنه سمع دوى الصفعة فى السيدة مع أن الحادث وقع قريباً من لاظوغلى ، بينما يصر البعض الآخر على أنك أطلقت مسدساً ، ومنهم من يقول بل قنبلة ارتج لها الحى بأكمله .

وتسللت ابتسامة واهنة إلى شفتى فوزى ، واعتدل فى جلسته وقال فى أسى :

— ماجدوى ذلك الآن ، لقد خسرت انتخابات كانت مضمونة .

— من الذى يجرؤ على القول إنها كانت مضمونة . . ؟ إن مصر كلها كانت تتحدث عن استحالة أن يسمح الإنجليز لمثلك بالدخول إلى مجلس النواب . واقترب الضابط من أذن فوزى وقال هامساً :

— بل يقولون إن السراى نفسها قد أصدرت أوامرها بضرورة إسقاطك بعد أن وقف زعيم حزب الأغلبية مؤيداً لك .

فقال فوزى فى قوة :

ولكنى أشهد أن كل شىء سار على ما يرام طبقاً للقانون حتى آخر وقت . . . حقاً كانت تحدث محاولات من حين لآخر ، ولكننا استطعنا دائماً إفساد هذه المحاولات والاستفادة منها ، وأعتقد أنى لو لم أضرب الأمور ، لما وجدوا ذريعة لإفساد الانتخابات فى الساعات الأخيرة ولأفلت الوقف من أيديهم .

ونظر المعاون إلى فوزى فى دهشة وقال :

— كنت أظنك يا أستاذ فوزى أكثر حنكة ودراية بحيث لا تقول مثل هذه الأقوال . . .

أفترى لو أن صناديق الانتخاب كلها كانت مليئة بأوراق انتخابك ، إذن لبدلت فى آخر لحظة بصناديق أخرى ، اسألنى أنا ، كم شقيت وكم حوربت واضطهدت لمجرد رغبتى فى أن أكون إلى جانب القانون والحق . كيف تتصور أن الاستعمار والرجعية يسمحان لإنسان مثلك أن يصل إلى مجلس النواب ، وأن يتمتع بالحصانة النيابية ليكشف فى ظلها أحابيلهم وأضاليلهم ؟

ونظر فوزى لمعاون السجن فى شكر وامتنان وقد لمعت عيناه الخابيتان ، وسرى الدم من جديد إلى وجنتيه وشفتيه ولم يلبث أن هم واقفاً وأمسك بيد المعاون يهزها فى قوة وحرارة :

— إنك لا تعرف أى خدمة أسديتها إلىّ ، حتى لو كنت تجاملنى فى حديثك . . . لقد مددت إلىّ يداً لن أنساها ، يداً أنتشلتنى من مهاوى اليأس والإحساس بالذنب والعار والفشل .

وهتف المعاون محتجاً :

— فشل ؟ . . بل قل النجاح والانتصار . . . إن ما فعلته هو أعظم انتصار كان يمكن أن تخرج به . من المعركة ، إن مصر كلها تعرف على ضوء الأرقام التى نشرت أن كل الذى استطاعوه لإنقاذ الموقف وإسقاطك ، هو أن يعيدوا الانتخاب بينك و بين أحد المنافسين الذى لم يحصل على ثلث ما حصلت عليه من أصوات بينما لم يحصل باقى المرشحين على تأميناتهم أمام تيارك الجارف .

وعاد فوزى إلى قنوطه وإحساسه بالمرارة :

ومع ذلك فإن هذا الإنسان الذى يعيد معى الانتخابات والذى اشترى ما حصل عليه من أصوات بالمال فى الدقيقة الأخيرة بعد حدوث ما حدث . . . هو الذى سينجح .

— طبعاً هو الذى سينجح ، وأى إنسان غيره كان سينجح ؟ لقد كان منافسوك فى الانتخابات يتنافسون فيما بينهم ، أيهم من سيعيد الانتخاب معك ، ثقة من الجميع أن الحكومة لا يمكن إلا أن تنجحه .

فقال فوزى :

— ولقد علمت فى ساعة متأخرة من ليلة أمس . . . أن إخوانى جميعاً أسقطوا صبرى وحلمى وأسعد .

— طبعاً يا أستاذ هذه مسألة مفروغ منها ، ولعل هذا يثبت لك أن ضربك الأمور لا دخل له فى سقوطك .

وصافح المعاون فوزى وهو يودعه وطلب منه أن يعتبره صديقاً وأخاً وأن يكلفه بما شاء من خدمات ومهمات ليؤديها له .

ولم يكد المعاون يبرح العنبر ، وتفتح بقية الزنازين لتنظيفها حتى انتهز المساجين هذه الفرصة فاحتشدوا حول فوزى يصافحونه ويعانقونه ويهنئونه . . .

وأذهل فوزى أن يجد تفاصيل المعركة الانتخابية معروفة ومشهورة ومحفوظة . . . وصورة ما حدث بالأمس على كل لسان .

وألح الجميع على فوزى أن يشرح لهم تفاصيل ما حدث ، ولم يتمالك الحشد فى ختام حديثه أن يهتفوا «يحيا الأستاذ فوزى » فجاء السجان يسب ويلعن ويصخب لهذه الفوضى ، ويأمر الجميع أن يعودوا إلى زنازينهم وإلا خرب بيته.واختلط الحابل بالنابل وانفرط عقد النظام. ويحس فوزى بالحرج ، فراح يرجو زملاءه المساجين أن يعودوا إلى أماكنهم ، وأن يخلدوا إلى السكينة حتى لايتعرض هو للأذى. وصدع المساجين للرجاء فبدأوا يتفرقون ، ولكن مسجوناً جاء من أقصى العنبر مندفعاً وهو يقول :

— أقسم بالله العظيم لابد لى من أن أقبل اليد التى صفعت الحكومة . ولم تفلح جهود السجان ولا جهود فوزى فى الحيلولة بينه وبين تكراره لقوله أو تقبيل يد فوزى .

وعندما ظن أن الأمور بدأت تستتب وأعيد المساجين إلى زنازينهم ،

إذا مسجون جديد يقترب من حجرة فوزى ويحول دون غلق الباب عليه ، وهتف فوزى فى دهشة :

— يومى رمضان .. ما الذى جاء بك إلى هنا .. ؟!

وصاح يومى :

— الله أكبر . . . أما زلت تذكرنى ؟

وأشار فوزى إلى السجان أن يخلى بينه وصاحبه لبضع دقائق ، ثم أقبل على يومى قائلا :

— وكيف يمكن أن أنسى ، وقد جمعتنى بك الظروف فى حادثين من أخطر حوادث حياتى .

— الأول عندما قابلناك على الطريق الصحراوى بعد أن انقلبت سيارتك .

وضحك فوزى وقال :

— والثانى عندما زرتك فى بيتك فى طنطا وكان هذا آخر العهد بى بالحرية فقد اعتقلت بعد ذلك على الفور .

وعض يومى على ناجذيه ولمعت عيناه بحقد دفين وقال :

— وقد كانت هذه الزيارة هى سبب اعتقالك بالفعل ، فقد عرفتك زوجتى ، وأخبرت شاهين السلانكلى الذى أرشد عنك .

وامتقع وجه فوزى وندت عنه آهة اندهاش .. بينما اندفع بيومى رمضان يقول :

— ولكنى أقسمت بالله أن أقتله .. سأقتل شاهين السلانكلى بيدى هاتين كما لو كان كلبا .

وفوجئ فوزى بهذا التصريح وارتج عليه فإذا هو ينتهر بيومى ويقول له :

— من تظننى يا رجل حتى تحدثنى عن القتل ؟

— عفواً يا أستاذ فوزى إذا ما كنت قد فاجأتك بهذا الحديث .. فأنا لم أعد أحيا إلا لتحقيق هذا الهدف . وأبادر فأطمئنك : إننى لن أقتله من أجل دوره فى اعتقالك ، أو من أجل جرائمه التى لا حصر لها ، ولكن لأسترد إنسانيتى المفقودة ولو للحظة واحدة قبل أن أموت . إنك لا تتصور الآلام التى أعيش فيها ، وأنا أتمثل الغفلة التى كنت غارقا فيها . . سوف أنتقم لغفلتى . . سوف أنتقم لبلاهتى . . سأجعل من نفسى إنسانا بقتل شاهين السلانكلى .

ودهش فوزى للتبدل الذى طرأ على بيومى ... لا يمكن أن يكون هذا هو ذات الشخص الخامل التافه الذى يزدريه الإنسان . لقد كان مهندما على غير العادة فى ملابس السجن الزرقاء ، وكانت عيناه تلمعان ببريق من العزم والتصميم ، فأقبل عليه يستوضحه أسباب حقده على شاهين السلانكلى . وقص بيومى قصته على فوزى .. الذى لم يتمالك

نفسه عن الإطراق برأسه دون أن يحر جوابا بمجرد فراغه من قصته بينما مضى بيومى يقول :

— ألست محقا فى قتله .. ألا أستحق أن تتولى الدفاع عنى فى المحكمة ؟

وزاغ فوزى من الرد على هذا السؤال وقال لبيومى :

— ولكنك لم تقل لى سبب سجنك ؟

— إنه آخر أفضال شاهين السلانكلى على ، فقد قرر أن يبطش بى ، فأوعز إلى من دس حشيشا فى جيبى فى أثناء جلوسى على أحد المقاهى ، ودهم البوليس بعدها المقهى ، وهكذا قبض علىّ وحكم علىّ بالسجن لمدة سنة ، سوف تنتهى بعد أيام ، لأنفذ حكم الإعدام فى شاهين السلانكلى .

واعترض فوزى فى دهشة :

— ولكنك تتحدث عن قتل شاهين السلانكلى كما لو أنه أصبح حقيقة مقررة . إنك لن تستطيع الوصول إليه .. أنسيت نفوذه وسلطانه ؟ .

ولمعت عينا بيومى :

— قلت لك سأقتله. إننى أحس بإيمان لا يتزعزع بأننى سأكون قاتله . لقد دبرت كل شىء وأعددت كل شىء . لقد كانت هذه السنة التى سجنتها خيراً وبركة علىّ . . فقد وضعت أكثر من خطة لقتله .

— ولكنهم قد يقبضون عليك قبل ذلك .. أما لو نجحت فسوف يعدمونك .

— لا لن أمكنهم من إعدامى .. لقد أعددت للأمر عدته .

وقطع عليه فوزى حديثه قائلا :

— أتسمع نصيحتى ؟

— أنا مستعد لأن ألقى نفسى فى النار من أجلك ، فإنى أتصور أن اتصالى بك أول من حرك فى إنسانيتى ، مر بما تشاء أنفذه لك ، إلا أن تطلب منى ألا أقتل شاهين السلانكلى .

— بل هذا هو عين ما أطلبه منك ، على أن تكتفى بطلاق زوجتك .

— لقد طلقتها بمجرد دخولى إلى هذا السجن .

— بقى أن تترك شاهين السلانكلى ليصفى الله حسابك معه .

— ولماذا لا أكون أنا يد الله الباطشة ، لم لا أصفى أنا حساب الناس أجمعين معه . . . لم لا أنتقم لكل ضحاياه وفرائسه ؟

وظهر الارتباك على وجه فوزى والتردد والحيرة ثم قال :

— لست أدرى . . . لقد أصبحت أكره القتل لأى سبب من الأسباب . . . حتى الحكم بالإعدام نفسه أصبحت أحاربه . . . إننى أكره العنف من كل قلبى .

وضحك بيومى ملء شدقيه :

— عفواً يا أستاذ فوزى . . . لا تؤاخذنى ، هل كان مافعلته بالأمس إلا عنفاً ؟

واحمر وجه فوزى خجلا وقال :

— صدقنى أنى آسف لما حدث وحزين ، وسأظل طول عمرى أندم على فعلتى هذه ، لا لأنها حرمتنى مقعد مجلس النواب ، ولكن لأنى آذيت رجلا شريفاً لم يفعل أكثر من تنفيذ الأوامر الصادرة له كم أتمنى لو يغفر لى ويصفح عن فعلتى !

وضحك بيومى رمضان من جديد . . وقال :

— هذا هو تسامح الأقوياء . . هذا هو تواضع المنتصرين ، أما أنا فلا زلت فى الدرك الأسفل ، ما زلت المغفل الأبله الديوث . سأقتل شاهين أولا . . وسأعفو عنه وأصفح بعد قتلى إياه . وربما لو أتيح لى أن أعيش ، فسوف أتحدث كما تتحدث عن كراهية العنف والقتل .

* * *

وتهيأ بيومى للانصراف ، ولكنه أصر قبل أن ينصرف أن يقبل يد فوزى وراح يرجوه ، أن يقدر ظروفه ولا يقسو فى الحكم عليه .

ومضى بيومى تاركا فوزى غارقاً فى أفكاره ، التى اختلطفيها ماقصه عليه من دناءات شاهين ، باسقاطه فى الانتخابات .

* * *

وأفرج عن فوزى فى المعارضة ، بعد أن نجحت الحكومة فى إسقاطه بالحديد والنار وإرهاب الناخبين ، ولكن الحماسة التى قوبل بها من إخوانه والجماهير التى احتشدت فى المحكمة لتحيته ، جعلته يستمد قوة وعزما جديدين للمضى فى كفاحه وأن ينسى كل شىء عن هذه الأيام العابسة . . أيامه فى سجن مصر وكل ما جرى قبلها وخلالها . . وكان مما نسيه حديث بيومى رمضان ومشروع قتله لشاهين السلانكلى .



الجزء الثالث

الرماد

الفصل الأول

١

أحس بيومى رمضان وباب سجن مصر يغلق وراءه وهو يستقبل الحرية ، كما لو كان قد ولد من جديد .. كان يشعر بنفسه قويا مريدا فعالا ، وراح يتطلع نحو السماء الزرقاء والشمس الساطعة نحو المقطم برسوخه وشموخه وهو يتساءل فى فرح وحشى :

— أكانت السماء دائماً بهذا اللون الجميل ، أكانت الشمس ساطعة ، وكان المقطم كما أراه الآن باعتداده وشموخه..؟ وغمغم قائلا : إننى لم أكن حيا .. لم أكن إنساناً . وانطلق لا يلوى على شىء بعد أن أصبح يعرف هدفه فى الحيـاة ورسالته ، سيقتل شاهين السلانكلى .. الأميرالاى بل سعادة الباشا اللواء الذى ترقى أخيراً ، صاحب الضياع والرتب والألقاب ، صديق الإنجليز والحكام والملك .. سيقتله هو بيومى رمضان ، ولتعلمن الدنيا نبأه بعد حين .

وإذ كان يعمل وفق خطة مدروسة ، فقد يمم صوب بيته فى الدقى حيث ترك مطلقته ، فمن هنا سيمسك بطرف الخيط ، سيعرف كل شىء عن تحركات شاهين ليحدد على ضوئها متى وكيف يضرب ضربته .

ولم يكن السجن قد زاده إلا اقتناعا بمـا كان قد استقر رأيه عليه منذ البداية .. إنه لن يقتل عطيات فهى ضحيـة من ضحـايا شاهين ، بل كانت ضحية غفلته هو وبلاهته . سوف يتركها لتعيش من أجل والدتها التى حنت عليه عند ما كان يتيما ، ومن أجل الطفلين البريئين اللذين لا ذنب لهما ولا جريرة ، إنه لن يقتلها وحسبها ماسوف تتجرعه من رعب وفزع وندم .

ووصل أخيراً إلى بيت الدقى فإذا هو يفاجأ بوجوه جديدة تسكن الدار وعلم من تحرياته أن عطيات قد بارحت البيت منذ ثمانية شهور بعد أن عجزت عن دفع الأجرة وحجز على أثاث البيت وفاء للأجرة المستحقة .

وأسقط فى يد بيومى لأول وهلة ، ولكنه لم يلبث ان استرد عزمه وتصميمه ، ما كان لمثـل هذا التغير المفاجىء أن يؤثر عليه بأكثر من أن يعدل الخطة ويرسم خطة جديدة . وعلم من البواب أن عطيات قالت له إنها ستعود لتسكن عند خالتها فى قلعة الكبش .

وأسرع بيومى نحو قلعة الكبش ، نحو المستقر القديم . ما كان أسعد تلك الأيام وأهنأها ، وهو يعيش وادعا فى سلام مع عطيات فى هاتين الحجرتين فوق السطوح . على أنه لم يسمح لنفسه أن يتحسر على تلك الأيام .. ليس هناك الآن ما أصبح يشغله سوى المستقبل .. سوى تحقيق هدفه العظيم وهو أن يقتل شاهين السلانكلى .

ولم تكن عطيات فى بيت خالتها عندما وصل إليه .. واستقبله محبوب ، الذى أصبح صبياً صغيراً ، بفرح ملائكى .. وراح يصيح :

— بابا جه .. بابا جه ..

وجاءت وجيدة تعدو فتعلقت برقبة أبيها ، بينما تعلق محبوب بساقه .

ولم يستطع بيومى أن يحبس دموعه رحمة بالطفلين وراح يعانقهما ويقبلهما ويبللهما بالدموع .

وقال محبوب وهو يمسح دموع بيومى :

— الله .. إنت بتعيط يا بابا .. إنت كنت فين ، مش حتسكن معانا زى زمان ؟

ومرة أخرى أجهش بيومى بالبكاء ، وضم الطفلين من جديد فى قوة وعنف إلى صدره ، وصرخت وجيدة من فرط الألم .

ما كان أقساه على هذين الطفلين عندما جفاهما وكرههما باعتبارهما ليسا ولديه ، عندما كان لا يزال حائراً مضطرباً .. أما الآن وقد عرف طريقه وهدفه .. فلم يعد فى قلبه سوى الحنان من أجلهما .. إنه أبوهما ويجب أن يشبا نظيفين طاهرين لا يعلمان إلا أنه أبوهما .

وجلس بيومى وولداه فى حضنه يستمع إلى حديث نفيسة العجوز خالة عطيات ، التى راحت تفأفئ وتتأتئ وهى تشكو وتتوجع من سوء حالتهم وتتوسل إليه أن يرد عطيات زوجته إلى عصمته ليجمع شمله على أولاده .

— وأين ذهبت عطيات ؟

— عطيات اشتغلت « تمرجية » فى القصر العينى بأربعة جنيهات ولولا ذلك لمتنا من الجوع بعد أن ضعفت صحتى ولم أعد قادرة على الغسيل فى البيوت كما كنت أفعل .

وسأل بيومى فى دهشة وسخرية ولهفة فى نفس الوقت :

— والباشا .. ما هى أخبار الباشا .. ألا تتردد عليه وتقابله ؟

وصاحت الخالة نفيسة :

— لعنة الله على الباشا وعلى أيامه السود ، ربنا لا يكسبه ولا يربحه شاهين بن حواء وآدم . إنه لم يعد يطيق رؤيتها منذ عرضت عليه الزواج بعد أن طلقتها .. وعندما قابلته آخر مرة هددها بالسجن إذا تعرضت له مرة أخرى فى طريق .. كما فعل بك .

ولمعت عينا بيومى من شدة الحقد وسألها :

— وأين أراضيه الآن ، أيقيم فى مصر أو الإسكندرية .. فى أى مصيبة ؟

— يقولون يا ابنى إنه سافر الحجاز .

وصعق بيومى لهذا النبأ وهتف صائحاً :

— ما الذى يهببه فى الحجاز ؟

— آل يحج يا ابنى مع المحمل .

وانفجر بيومى فى عاصفة من الضحك المستيرى :

— لم يبق إلا أن تقولى لى إنه أمير الحج .. شاهين السلانكلى يحج ؟ أظن لو أفرغوا عليه ماء زمزم كله لما طهره ذلك من الدنس والأوزار التى غرق فيها . من قال لك إنه ذهب يحج ؟

— قالت لى عطيات .. إنها سمعت الناس يذكرون اسمه نقلا عن الصحف .

وغمر بيومى إحساس من خيبة الأمل للمرة الثانية ، ولكنه لم يلبث أن تغلب عليه وطرده من نفسه . لتجر الحوادث كما تشاء ، ليذهب شاهين إلى الحجاز كما يشاء ، بل ليذهب إلى بلاد واق الواق فسأظل له بالمرصاد حين يعود ، بل سأسافر إليه حيث هو إذا لزم الأمر ، لأننى يجب أن أقتله وسوف أقتله . وانتزع بيومى نفسه من أولاده وتوسلات الخالة نفيسة التى تعلقت به لتجمعه مع عطيات .

وخرج .. خرج يبحث عن الشخص الذى استقر عزمه على الاستعانة به فى مقتل شاهين ، فهو يجب أن يحصل على مسدس ، ويجب أن يتدرب على إطلاق النار ، وكان على ثقة أن الشيخ عبد العزيز سيهيئ له ذلك كله ، سيزوده بالمسدس وسوف يدربه .. إنه يعرف أين يجده ، وقادته قدماه إلى كلية الشريعة ووقف على بابها ينتظر .

٢

راحت الأجراس تدق فى أروقة مجلس النواب داعية الأعضاء للاجتماع فأسرعوا على غير العادة لتلبية النداء ، فقد كانوا يعرفون أن رئيس الحكومة سيلقى فى هذه الجلسة بياناً هاما وخطيراً ، ولم يكن

موضوع البيان سراً ، فقد أجمعت الصحف والأنباء على أنه سيكون إعلان الحرب على دول المحور .

وانساب النواب إلى قاعة الاجتماعات الكبرى من أبوابها المتعددة بعضهم يهرول لإظهار النشاط والفتوة ، والبعض يسير الهوينى بطبيعته أو يتكلفها تكلفا للاشتهار بالهدوء والرزانة ، بينما كان بعض ثالث يتبختر تبختراً تصوراً منه أنه سيخرق الأرض ويبلغ الجبال طولا .

كان بعض النواب ينوء بحمل كرشه ، بينما البعض الآخر لا يزيد عن حزمة من الأعصاب والعروق وقد ركب عليها وجه أصفر ناحل . كان البعض يرتدى بدلته النفيسة فى أناقة ، والبعض يرتديها فى إهمال ملحوظ ، وفريق يرتدى الجلباب البلدى المصنوع من قماش الصوف ، وطربوشه مائل إلى أحد الجانبين ، وشفتاه مفترتان بالابتسام الدائم لتظهر أسنانه الذهبية . على رؤوس البعض طرابيش من غير النوع المألوف . . طرابيش حمراء يتدلى منها زر ضخم ، إنهم مشايخ العرب . أما بقية النواب من الشيوخ من أصحاب العمائم التقليدية « تيجان العرب » فقد كان بعضهم يرتدى جبباً وقفاطين من كل نوع ومن كل لون ، حتى ما كان منها فاقعاً وصارخا كلون الكمون أو لون زهرة الغسيل أو « البمبى المسخسخ » ، وإن لم تخل من جبب سوداء محتشمة ، وان اتفقت كلها فى الأحزمة الحريرية المزركشة التى تزين البطن وتتدلى منها العقد والشراريب .

وثمة شيوخ من النواب أكثر تطوراً ، فارتدوا « الكاكولا »

مخفية تحتها البنطلون والقميص «الأفرنجى» وتطل من أعلاها «الياقة» المنشّاه . خليط من الأزياء والألوان والأطوال والبدانة والنحافة ، والدم والسحنة ولون البشرة ، والشعر ، ولكن غالبيتهم العظمى كانت تحمل فى أيديها المسابح ، كما لو كانت تقليداً أو شعاراً ، مسابح تتراوح بين حبات العقيق والكهرمان الثمين وتزينها شرّابات من الحرير ومآذن من ذهب أو فضة ، حتى تنتهى بمسابح جد متواضعة من نوى الزيتون أو البلح أو دون ذلك إظهاراً للزهد والتقشف ، وأن الدنيا ليست سوى متاع الغرور .

ولا يكاد النواب بغير استثناء يستوون على مقاعدهم المخملية الحمراء ، حتى يلقون النظر فى اهتمام أصيل أو بتكلف نحو « رزمة » الأوراق الموضوعة أمام كل واحد منهم على المنضدة المشتركة الدائرة والمصنوعة من خشب «الماهوجنا» الرصين الثمين، ومع النظر فى الأوراق تفوح ريح الأهمية والخطورة من الأعضاء ويتجلى ذلك على تصرفاتهم وحركاتهم ، فتبدأ الرؤوس تهتز فى حركة مقننة مدروسة ، ويتبادل البعض الإشارات والتحيات فى إيماءات وانحناءات خفيفة ، ويميل أحد النواب على زميله المجاور للتحدث معه والتشاور ولكن الميل لا يكون إلا بمقدار ، ذلك أن النواب يحسون بمجرد دخولهم القاعة بإحساس الممثلين إذ يلجون المسرح حيث يبدأ اللعب والتمثيل ، فالأنظار والأضواء مسلطة عليهم ، والمشاهدون يحصون عليهم الحركات والسكنات . وما أكثر ما تغص شرفات كبار الزائرين بالسفراء والأمراء والضيوف الأجانب ، وفوق ذلك كله شرفة صاحبة الجلالة الصحافة فهى دائماً بالمرصاد من خلال

ممثليها ، وقد بدأ الصحفيون « الملاعين ؟ » أخذاً بأسباب النهوض والتقدم وارتقاء الصحافة لايحفلون بما يجرى من مناقشات ومساجلات حول القوانين ومشاكل الأمة والمجتمع ، بقدر ما يحفلون بما يجرى على حواشى الجلسة من قفشات ومداعبات ومواقف حرجة ، ومطبات وما يمسكه هذا النائب من مروحة أو مسبحة جديدة ، أو ما شبكه فى عروة جاكتته من زهرة يانعة ، أو تناسب جبته الكمونى مع لون حذائه والحزام فى وسطه .

على أن ما كان يملأ النواب على اختلاف طوائفهم وأنواعهم بالحرج وضرورة التجمل فى القول والإشارة ، هو ما كانت تزدان به فى الأعم والأغلب شرفات السيدات من كواكب ونجوم وأقمار ، كان بعضهن أزواجا أو بنات لبعض النواب وليس يخلو الأمر من صديقة جىء بها لترى النائب فى أبهته وصولجانه . . وفى هذه الليلة بالذات كانت حمولة شرفات السيدات من الأقمار والجميلات مضاعفة فالجلسة جد خطيرة .

وكانت لعبة النواب المفضلة ، وأيسر السبل لإظهار أهميتهم وخطورتهم إذا عزت سائر الأسباب ، هى المناداة على أحد سعاة المجلس الرائحين الغادين بين صفوف النواب بملابسهم الرسمية ، ليلبوا طلباتهم ويحضروا ما شاءوا من أوراق ومطبوعات ومحاضر ويحملوا اقتراحاتهم ورسائلهم للرئاسة أوالسكرتارية أو إلى أى إنسان يرغب النائب المحترم أن يتصل به .

وتوقف الجرس الذى ما انفك يدق عن الرنين أخيراً ، فانقطع

الضجيج الوقور والصخب الخافت ، ورانت موجة فجائية من الصمت والسكون ، إيذاناً باقتراب المشهد المثير ، عقدة المسرحية وذروتها .

وكان تبوء رئيس المجلس بوجهه العابس وجسده الجهم فوق المنصة العالية هو بداية المشهد ، ولم يستطع الرئيس وهو يسترق نظرة إلى الشرفات ، أن يحبس ما غمره من شعور بالأهمية والزهو والاختيال ، فراح يهز رأسه فى سكينة ووقار ، ويده تدق بالقلم الرصاص فى رقة وخفة إيذاناً بافتتاح الجلسة وأردف قائلا ، وعيناه تمسحان المشهد فى تكامله ، وتلمعان بما انعكس عليهما من وهج الحسن ونور الدلال :

— فتحت الجلسة .

ولم يستمع أحد لما قال السكرتير الموظف عن الغائبين والحاضرين والمعتذرين ، ولا لما هو مثبت فى محضر الجلسة السابقة ، أو إحالة الاقتراحات المقدمة من الأعضاء إلى اللجان الخاصة ، لقد كانت أنظار الجميع تتعلق فى توتر بباب القاعة الأول حيث دل الهرج والمرج على أن رئيس الحكومة يوشك على الدخول .

ولم يكد الرئيس يطل بقامته القصيرة البدينة ورأسه الكروى الكبير المتصل مباشرة ببقية الجسد متنازلا عن فكرة الرقبة التى لا معنى لها ، لم يكد يخطو خطواته الأولى النشطة رغم بدانته حتى انفجرت قاعة المجلس بعاصفة من التصفيق الحاد العنيف . وظل التصفيق يدوى لفترة طويلة ، فبدأ التأثر على وجه رئيس الحكومة فقد كان هذا التصفيق المدوى يعنى انتصاره فى خاتمة المطاف ، وتحقيق مشيئته

التى ما فتئ يدعو لها منذ اليوم الأول لقيام الحرب وهو ضرورة مساهمة مصر فيها ، لما تفيده من جراء ذلك من منافع ومزايا . ولقد ظلت الأمة بقضها وقضيضها تقاوم هذه الرغبة ، طوال السنوات الخمس الماضية ، وها هو ذا أخيراً يحقق مشيئته قبل أن تنتهى الحرب ولو ببضعة أسابيع وسط تأييد أنصاره وأشياعه ومحبيه .

بينما كان هذا المشهد الرائع يصل إلى ذروته عندما اعتلى الرئيس المنصة وراح يتلو بيان الحكومة المعد ، كان هناك شاب وسيم أنيق نحيل الجسد يجلس وحيداً فى مقصف «بوفيه» مجلس النواب ، فى عزلة عن هذا الذى يجرى من حوله ، وكان أمر هذا الشاب عجباً يثير فضول القلة من الفراشين الذين لم ينجذبوا كبقية إخوانهم للاحتشاد حول القاعة الكبرى والنظر إلى ما يجرى فى داخلها من خلال الأبواب المفتوحة .

وكانت هذه القلة من الفراشين لا تتصور فى هذا الشاب الذى جلس هادئاً يسمع بيان رئيس الحكومة من خلال المذياع الذى يدوى فى أرجاء المجلس ، إلا أنه قريب أو محسوب لأحد النواب قد جاء بصحبته ليتوسط له عند أحد الوزراء عقب الجلسة ليلحقه بوظيفة أو ينقله إلى القاهرة ، أو أن يعينه سكرتيراً خاصاً له . كانت تبدو على وجهه المشرق كل أمارات الوداعة ودماثة الخلق والرزانة ، وهو ما جعل وجوده وحيداً فى المقصف لا يثير استغراباً أو إنكاراً .

وكان التصفيق كلما اشتد وارتفع على أثر فقرة حماسية فى بيان

رئيس الحكومة ، اهتز الشاب فى قلق ، ورفع رأسه فى تطلع صوب الدهليز المؤدى إلى القاعة الكبرى ، ويتحرك فوق مقعده وتلمع عيناه ببريق نفاذ ، ولكن التصفيق لا يكاد ينقطع ويعود صوت رئيس الحكومة يجلجل فى المذياع حتى يسترد هدوءه .

ويمضى رئيس الحكومة فى ثقة واعتداد ، يشرح الأسباب الداعية لإصدار هذا القرار ، غير حافل بمشاعر الشعب المصرى كله خارج القاعة والذى كان يكره هذه الخطوة ويحقد على صاحبها . كان الشعب البسيط الساذج لا يزال يأبى أن يتصور أن ألمانيا قد خسرت الحرب فعلا وأن استسلامها بدون قيد أو شرط قد أصبح مسألة أسابيع كان يتحدث عن المخزن الثالث عشر الذى لم يستعمله هتلر حتى هذه اللحظة خوفا على أوربا من هول الكارثة ، وكان الشعب يردد فيما يردد أن مصر قد تكون أول من يتلقى ضربة المخزن الثالث عشر جزاء غدرها ، ويشيع أن مصر ستجند مائة ألف كدفعة أولى وقوداً لهذه الحرب المسعورة .

أما العناصر الواعية من الشعب ، والتى كانت تعرف أن الحرب بالفعل فى أدوارها الأخيرة ، فقد كانت تستهجن أن تعلن مصر الحرب بعد أن لم تعد هناك حرب ، وترى فى ذلك ما لا يتفق وكرامة مصر ولكن رئيس الحكومة الجرىء ضرب بذلك كله عرض الحائط . . ولذلك فقد ختم بيانه وهو يعلن بصوت عال مرتفع متهدج « الحرب باسم الشعب المصرى على دول المحور الثلاث ألمانيا وإيطاليا واليابان » .

وارتجت أركان مبنى المجلس بعاصفة من التصفيق ، وتجاوبت الأبهاء والدهاليز والجدران بصدى هذا الدوى المخيف ، فأشبه ذلك صوت الرعود . ووقف النواب جميعاً فيما عدا قلة صغيرة لا يؤبه بها ، زيادة فى إظهار مشاعر التكريم للرجل العظيم الذى لم يقلل من عظمته كونه مفرطاً فى البدانة ورأسه متكور ووجه مكتنز ومتصل مباشرة ببقية البدن .

وامتقع وجه الشاب الرابض فى مقصف مجلس النواب وانتفض واقفاً فى عزم وتصميم ، وارتج عليه للوهلة الأولى وغمرته موجة من الإحساس بالضياع وهو يرى حشداً من السعاة والموظفين والنواب ينفجرون من داخل الباب المفتوح ويزحمون الدهليز الذى سيمر به رئيس الوزراء فى طريقه إلى مجلس الشيوخ ، ولكن الثقة سرعان ما واتت الشاب عند ما ظهر رئيس الحكومة ووجهه يطفح بالبشر والزهو والإحساس بفرط السعادة التى يحسها الإنسان وهو فى أوج انتصاره .

وراح الرئيس يخطو فى سرعة وتوثب مستعيداً همة الشباب ومرحه وتقلصت يد الشاب الوسيم على جسم بارد فى جيبه وهتف فى صوت لم يسمعه غيره :

— الآن . .

وابتسم وخطا فى اتجاه رئيس الحكومة ، ورد رئيس الحكومة على الشاب بسمته بخير منها ، وإذ لاحظ أن الشاب يمد يده نحو الأمام

فقد مد يده بدوره ليصافح اليد الممدودة له فى ثقة واطمئنان ، وفوجئ الجميع بنار تومض ، وفرقعة جعلت فرائصهم ترتعد . ومرت لحظات من الذهول لم يعرف فيها أى إنسان ماذا حدث ، حتى رأوا رئيسهم العظيم يتهاوى كما لو كان جداراً ينقض أو جبلا يهوى . . . وأغشى بصرهم منظر الدم . . دم الرئيس الذى راح يتشحط ويتحشرج ، ثم يسكن دون أن يتلفظ بكلمة واحدة .

واكتملت الصورة أخيراً فى أذهان الجميع وانجاب عنهم الذهول ، فشهق البعض وصرخ الكثيرون وولول الجميع كالنساء . بيما امتدت عشرات الأيدى لتفتك بالشاب الهادئ الوسيم صاحب الوجه المتقع والذى وقف هادئاً لا يبالى بما يمكن أن يحدث له أو يصيبه وكل الذى كان يعنيه أن يتأكد من أنه قتل الرجل .. قتل رئيس الحكومة الذى يريد أن يزج ببلاده فى آتون حرب لا ناقة لها فيها ولا جمل .

٣

كان الويشى باشا رئيس الحكومة الجديد هو خليفة الدكتور باهر الطبيعى وقد عاشا طول عمرهما رفيقى جهاد وصدام يتشاركان فى السراء والضراء ، فتقلد من بعده رئاسة حزبه ورئاسة الحكومة ووزارة الداخلية . وعبر عن فجيعته فى صديقه الشهيد بسيل من التصريحات التى تفيض بالتهديد والوعيد ، وآلى على نفسه أن يستأصل شأفة الجريمة من البلاد .

وسرعان ما أتبع القول العمل ، فراح يعتقل باعتباره الحاكم العسكرى كل العناصر النشطة من سائر الأحزاب ، وكان طبيعياً أن يكون فوزى السيد وقادة حركة البعث على رأس المعتقلين ، وزج بهم فى سجن قسم السيدة زينب ، حيث كان قد سبقهم إليه هذه المرة الشيخ المهدى ونفر من أتباعه .

وهكذا جمع السجن بين قادة الحركتين . ولم يكن أحد من السجناء يخفى فرحه أو شماتته فى مصرع الدكتور باهر ، حتى فوزى نفسه الذى طالما كان يكرر مقته للعنف واستنكاره للقتل السياسى ، لم يتمالك نفسه رغم ما كان يحمله للرجل الراحل من ود واعجاب ، أن يسائل نفسه « أيكون ما حدث للرجل هو إنتقام من الأقدار على فعلته ضده فى الإنتخابات ، عندما أسقطه ظلماً وعدواناً ؟! » .

* * *

على أن حزن الويشى باشا على وفاة صاحبه ، وانهماكه فى اتخاذ إجراءات الأمن لم يحل بينه وبين مزاولة واجباته كرئيس حكومة ، ولذلك فقد ترأس حفلة استقبال بعثة الحج العائدة من الحجاز وأقيمت الأعلام والزينات ، وعزفت موسيقات الجيش ، وسار موكب الطرق الصوفية التقليدى وهم يحملون « الأشاير » والبنود والأعلام ، ويدقون بالكاسات والصاجات والدفوف ويتطوحون ذات اليمين وذات الشمال .

وجاءت كتائب الجيش الراكب والراجل فى إثر موكب الصوفية . وكان اللواء شاهين السلانكلى يسير فى طليعة الموكب ، ممتطياً فرساً أبيض ومشهراً سيفه فى اختيال باعتباره نائب أمير الحج . وإذا كان

شاهين السلانكلى لم يمثل لهذه الألوف التى احتشدت للفرجة على هذا الاحتفال العظيم سوى أحد أفراد « الكومبارس » الذين يؤلفون هذا الاستعراض البهيج . . فقد كان يمثل لدى واحد من المتفرجين ، البطل الأوحد فى هذه المسرحية . ولم يكن هذا المتفرج سوى بيومى رمضان ، الذى جاء خصيصاً لهذا الاحتفال لأنه كان يعلم أن شاهين السلانكلى سيكون على رأس السائرين فى الاستعراض ، ولم تحدّث بيومى نفسه ولو للحظة واحدة أن يصرع شاهين فى هذه المناسبة .. لقد كان يحمل مسدسه . . مسدسه العزيز الذى لم يعد يفارقه والذى لم يكن له من عمل كل يوم إلا أن يخرج منه رصاصاته الست وينظفه ويزيته ، لقد لاحت له أكثر من فرصة ليردى خصمه وغريمه . . ولكنه ما كان ليقتله هكذا دون أن يعلم شاهين من الذى قتله . . إنه لن يقتله إلا فى الساعة والمكان اللذين يحددها لذلك .

لقد فرغ من اختيار المكان فاستأجر الشقة التى سيستدرجه إليها ، ولم يبق إلا تحين الفرصة للإيقاع به ، وعندما يقع فى الفخ المنصوب له سوف يكشف له عن شخصيته ، سوف يناقشه الحساب عن جرائمه ويستمتع وهو يراه مصعوقا ومذهولا ، فى هذه اللحظة وفى هذه اللحظة فقط سوف يرديه قتيلا كالكلب أما قبل ذلك فلا .

أما الآن فحسبه أن يتمتع برؤية شاهين السلانكلى فى أوج عظمته وابهته ، وهو يختال فوق الحصان الذى راح يترقص ويسير بالعرض .

* * *

ولم تكن هذه الحفلة الرسمية إلا واحدة من عشرات الاحتفالات التى وجد شاهين نفسه غارقاً فيها بمجرد عودته من الحجاز وصيرورته حاجا . لقد أبى فلاحو عزبته إلا أن يحتفلوا به احتفالهم التقليدى فطلبوا منه أن يرتدى العباءة الحجازية التى خلعها عليه الملك السعودى وأن يغطى رأسه بالكوفية والعقال المقصب ويمتشق السيف الذهبى الذى أعطيه من بين الهدايا . . وأن يختال بينهم فوق حصانه الأشهب وأعلام وبنود وإشارات الطرق الصوفية تخفق فوق رأسه والكاسات والدفوف والطبول تدق ، تحية لولى الله شاهين السلانكلى .

وطاف الموكب على هذه الصورة سبع مرات ، ساعياً بين العزبة البحرية والقبلية قياساً على السعى بين الصفا والمروة ، وانطلقت زغاريد النساء تشق الفضاء ، وتجمعت النسوة لأول مرة حول الباشا يتزاحمن ويتضاحكن بعد أن سمح لهن أزواجهن الطيبون بالاشتراك فى هذا المهرجان ، تصوراً منهم أن الباشا لم يذهب إلى الحج إلا بنية التطهر والاستغفار وأنه قد عاد من الحجاز بعد أن استلم الحجر الأسعد وطاف حول البيت العتيق ، وسعى بين الصفا والمروة ووقف على جبل عرفات طاهراً مطهراً من الذنوب والشوائب كما ولدته أمه .

وجلس الباشا فى خاتمة المطاف فى صدر السرادق المحتشد بالمدعوين الذين جاءوا من البلاد والعزب المجاورة ، ولقد طعموا كخير ما يكون الطعام فقد نحرت الذبائح وعمت الخيرات ، وأبى الباشا إلا أن يوزع على كل ضيوفه المسابح ، والخواتم الفضية التى استجلب منها العدد الوفير .

وتسابق الفلاحون الطيبون ، نحو أفضل هدايا الباشا على الإطلاق فى تقديرهم ، وهى التمور الشلبية والبرنية ، بعد أن علموا من الباشا أنها نفس التمور التى كان يأكل منها النبى ويستطيبها . ولم يفت الباشا أن يحضر فيما أحضر ، بعض صفائح مغلقة ومبرشمة تحوى ماء زمزم ، ولكن هذه لم تكن تقدم إلا للمحظوظين والموعودين من أمثال الدنجاوى وبقية أفراد عصابته .

وانطلق صوت المقرئ صاحب الصيت فى المنطقة يتلو آى الذكر الحكيم ، مرددا مناسك الحج وطقوسه ، ولكن شاهين كان قد ضاق بهذه اللعبة الجديدة أخيراً ، وحن إلى شىء من الطرب واللهو ، فأوعز إلى رجله الدنجاوى الذى أشار إلى المقرىء بطرف خفى . . فتحول المقرىء من تلاوة القرآن إلى التغنى بالموشحات والغزل فى ذات النبى ، ورحب شاهين بهذا التغيير بعض الوقت ولكن شهيته التى تفتحت بدأت تطلب المزيد . أما من سبيل للفرفشة والتهييص ..؟ أين ما اعتاده فى حفلاته السابقة من رقص الغوازى ، والكأس والطاس ، ولكن الدنجاوى نفسه لم يتصور أن يكون أول احتفالات الباشا بالعودة من الحجاز إلا طاهراً مطهراً من الذنوب ، وليس على غرار ما سبق من حفلات . . وسرعان ما أظهر الباشا تبرمه للدنجاوى وعنفه على أنه قد شاخ وهرم فيما يبدو ولم يعد صاحب حظ .

واستمهل الدنجاوى سيده الباشا ليثبت له من جديد جدارته ، وأنه إنما تصور أنه يرضى الباشا بهذا اللون الجديد . ولم يحتج

الدنجاوى لغير جولة صغيرة عاد بعدها وعلى شفته ابتسامة ظافرة ، وأسر فى أذن سيده ما أبهجه وأرضاه ، وأرسل نظرة سريعة إلى حيث أومأ له الدنجاوى ، فإذا امرأة فلاحة ترتدى ملابس الفلاحين السوداء وتحجب وجهها بطرف من طرحتها ، ولكنها لم تكد تحرك يدها حتى انحسر القناع عن وجهها فإذا وجه مشرق بض سمين جعل شاهين يلعق شفتيه ويبرم شاربه وهو يغمغم لنفسه :

— لا بأس بها . . لا بأس بها .

ويستعيد ثقته بالدنجاوى وأنه لا يزال صالحاً للخدمة .

* * *

وعلى هذه الوتيرة توالت احتفالات شاهين بعودته من الحجاز وسهراته ، ولم يكن أصحابه الإنجليز أقل من غيرهم مشاركة فى هذه الاحتفالات ، حيث كان الويسكى يقوم مقام « السوبيا والشربات » .

واستمرأ شاهين حكاية الحج هذه والتى فتحت له أبواباً كانت مغلقة قبل ذلك . ولذلك فلم يستوقفه فضلا عن أن يدهشه أن يتلقى ذات صباح دعوة أنيقة مطبوعة على ورق مذهب لتناول طعام العشاء بمناسبة عودة الحجاج من الحجاز .

وراح يتلو لثانى مرة نص الدعوة محاولا أن يتذكر اسم الداعى وشخصيته :

« يتشرف الحاج حسنين مفتاح المقاول ، بدعوة الحسيب النسيب

صاحب السعادة شاهين باشا السلانكلى لتناول العشاء فى حفل التكريم الذى يقام بمناسبة عودة الحجاج من بيت الله الحرام ، وذلك فى تمام الساعة التاسعة مساء الخميس ١٦ الجارى بالمنزل رقم . . . شارع حلوان والعاقبة عندكم فى المسرات » .

ومن جديد ظهر الرضا والابتهاج على وجه شاهين . . فقد كان سيل الحفلات فى الآونة الأخيرة قد بدأ ينقطع ، ولكنه راح يكد ذهنه فيمن يكون الحاج حسنين مفتاح .

ما أكثر الذين تعرف إليهم وتعرفوا به فى مكة والمدينة ولا بد أن يكون هذا واحداً منهم . . ولاح له فى لحظة أن الاسم ليس غريباً عليه . . « حسنين مفتاح » لا بد أنه هذا الرجل الغنى الذى جاء معهم على الباخرة ، أجل لا بد أن يكون هو . . . لقد اكتشف أنه ابن حظ مثله . . . أجل . . . أجل الحاج حسنين . . . كيف يمكن أن ينسى الحاج حسنين . سوف يلبى دعوته على وجه القطع واليقين .

٤

كان لايزال باقياً على موعد حفلة الحاج حسنين ، أكثرمن ساعتين عندما غادر شاهين السلانكلى بار « البارزيانة » ، وراح يسير فى شارع إبراهيم مترنحاً بعض الشىء ، وهو يغمغم قائلا :

— ما هذا يا أبا الشواهين . . . ليس هذا من عوائدك ، أأكون قد أثقلت العيار حبتين ؟

ويكد ذهنه ليتذكر مقدار ما شرب ، ولكن دقة الإحصاء تغيب عنه .. خمس كؤوس .. بل سبع .. ويصيح من أعماقه محتجاً .. أى خمسة وأى سبعة بل أى عشرين هى التى تدير رأس شاهين .. أأكون مريضاً .. ؟ أو تكون هذه مظاهر الكبر فى السن ؟ ولا يكاد هذا الخاطر يطرأ على ذهن شاهين حتى يبعده عن ذهنه فى عنف ويشد عضلاته ويفتح صدره ويرفع رأسه ويدق فى الأرض بقدميه .

ويكون هواء الليل البارد قد بدأ يحدث فيه أثره ، فيعاود اتزانه وثبات خطواته ، وينظر فى ساعته فإذا هى السابعة والنصف .. لا يزال أمامه متسع من الوقت قبل أن يحين موعد الحفلة وقد أحسن صنعاً فى صرفه عربته واختياره أن يسير على قدميه .. فإن السير على القدمين من شأنه أن ينعشه ، ويفاجأ بأنه قد ارتطم بأحد المارة الذى راح يصخب ويزمجر :

— إنت يا سيدنا الأفندى .. ألا يجب أن تفتح عينيك ؟

ويغضب شاهين لمناداته بالأفندى ، ولكنه لا يكاد يهم بتأديب هذا الوقح ، حتى يراه قد انقلب ينظر إليه فى فرح وابتهاج وهو يصيح :

— من .. ؟! شاهين باشا السلانكلى ، يا ألف أهلا وسهلا .. يا ألف أهلا وسهلا .. حج مبرور وذنب مغفور . والله لقد كنت فى سيرتك اليوم . . . وأنا أحدث أولادى عن زمالتنا معاً فى المدرسة التوفيقية. ويتوقف عابر السبيل بعد أن صدمت خياشيمه رائحة الخمر التى

تفوح من فم شاهين فتتعثر الكلمات على لسانه ، فى الوقت الذى كان شاهين يحاول أن يتذكر مخاطبه وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة عريضة . . ثم قال فى أدب :

— مين يا أفندم .. نتشرف ؟

— طبعاً يا عم نسيتنا .. إنت فين واحنا فين .. أنسيت زميلك فى نفس التختة .. حامد أبو ستيت ؟

ولا يكاد شاهين يسمع هذه العبارة ، حتى يومض فى رأسه ذكريات شبابه ويعرف صاحبه ، فيحتضنه فى قوة وعنف :

— أهلا وسهلا .. يا حامد .. أنساك .. يا سلام ؟ أنسى أبو الأساتيك كله .

ويصيح أبو ستيت النحيل الضامر القصير متألماً من عناق شاهين :

— حاسب على يا شاهين باشا أنا لست حملك .

ويتنبه شاهين بالفعل إلى ضعف الرجل ونحول جسده فيتخلى عنه ، ولكنه يسرع فيتأبط ذراع أبى ستيت وهو يقول له :

— طول عمرك ابن حلال يا حامد .. لقد شعرت لأول مرة فى حياتى بشعور غريب .. شعرت بالوحدة والانقباض وتمنيت لو كان معى رفيق . يا سلام على الصدف الجميلة ..

وقاد شاهين حامد إلى جواره ولكن حامد توقف متسائلا :

— انتظر هنا .. أين تريد أن تأخذنى ؟

— اسمع يا حامد لقد أعدت إلىَّ ذكريات شبابنا .. لقد كنت دائماً طيباً مطواعاً .. وماعليك الآن إلا أن تسمع وتطيع .. ياسلام .. يا سلام .. ولكن قل لى يا حامد ما هذا الحال الذى أنت عليه .. كيف أصبحت هكذا عجوزاً مهدماً . ما هذه اللحية التى تحيط بوجهك .. حذار من أن تكون من جماعة الدعوة المحمدية .. دول حيخربوا البلد .

— أنا ياعم رجل فى حالى من بيتى للديوان ، ومن الديوان للبيت ، حتى المقهى لا أعرف الجلوس عليه ، ولست أسمح لنفسى إلا بزيارة سيدنا الحسين وصلاة العشاء به كل خميس ، وقد كنت عائداً لتوى فى طريقى إلى البيت .

وأطلق شاهين ضحكته المجلجلة :

لقد تذكرت الآن ماذا كنا نقول لك يا أبو الأساتيك .

« طول عمرك ستعيش حماراً وتموت حماراً » .

ونزع حامد أبوستيت يده من تحت إبط شاهين وقال له فى غضب :

— لا من فضلك .. من فضلك يا شاهين باشا .. أنا لا أسمح لك أن تهينى حتى ولو كنت باشا قد الدنيا .. أنا رجل عشت شريفاً وربيت أولادى بشرف .. إن ابنى مهندس ، وابنتى دكتورة .

وضحك شاهين من جديد وقال :

— ومالك غضبت هكذا ، مستحيل أن أقصد إهانتك طبعا .

لقد تغيرت يا حامد ولم تعد كما كنت ابن نكتة .

— شيبتنا الأيام يا شاهين باشا ، ما ذا تعرف أنت عن الفقر وعن هم تربية الأولاد عندما تكون موظفا فى وزارة الأوقاف ومرتبك لا يتجاوز ستة جنيهات ..

وصرخ شاهين :

— يخرب بيتك أمرتبك ستة جنيهات ؟

— أعوذ بالله هذا كان منذ عشرين سنة .. أما الآن والحمد لله فقد أصبحت بعد إعانة الغلاء تسعة عشر جنيها وبضعة قروش صافى .

على أن حامد لم يلبث أن توقف وهو يجد نفسه قد وصل من حيث لا يدرى إلى مشارف عابدين :

— ألا تقول لى أولا إلى أين تسوقنى .. إن أولادى ينتظروننى لنتعشى سوياً .. وعندنا اليوم فضلة خيرك ملوخية بالأرانب . ما رأيك لو جئت معى فى بيتنا المتواضع ، والله أولادى سيفرحون جداً ، فقد كنت أحدثهم عنك هذا الصباح بالذات .. سبحان الله !

وقهقه شاهين من جديد ، وعاد يقود حامد بقوة لا يدع له مجالا للاختيار :

— بل أنت الذى ستكون ضيفى هذه الليلة وسأعوضك عن الملوخية بالأرانب ديوك رومى وأوازى محشية ومحمرات ومشويات وكل ما تشتهيه الشفة واللسان .

— وما هذا كله ؟

— حفلة .. حفلة تكريم تقام لى بمناسبة عودتى من الحجاز .. وقد بعثك الله لى فى الوقت المناسب ولن أتخلى عن صحبتك أبداً .

وعاد حامد أبو ستيت للتوقف وهو يقول :

— لا يا عم يفتح الله ، أولادى أولى بى ، وملوخيتى خير لى من التطفل على موائد الناس . حفلة تكريم تقام لك ، مادخلى أنا فى ذلك ؟

وضربه شاهين بكوعه ضربة خفيفة فى صدره وقال له معاتباً :

— لا تجعلنى أعود لذكر الكلمة التى أغضبتك ، ألن تتعلم الذوق أبداً .. ؟ أأقول لك إنك ضيفى ، وإنها حفلة تكريم تقام لى ثم تحدثنى عن التطفل .. ؟ تعال .. تعال ، إننى يجب أن أعمل لك شيئاً ، حرام أن تظل بهذا الراتب الحقير . لماذا لم تتصل بى يا ح ..

وصرخ حامد محتجاً :

وضحك شاهين وقال :

— خلاص .. خلاص .. أنا آسف .. حقك علىَّ .

٥

قذف بيومى بالقلم أخيرا وهو يتنهد :

— الحمد لله لقد فرغت من كل شىء ، كتبت كل شىء .. ستعرف الدنيا كلها قصتى .. فليأت الآن فأنا على استعداد له .

ونظر فى ساعته ، إنها لا تزال الثامنة . ما أثقل مرور الوقت ، وما أمر الانتظار . لا يزال عليه أن يتجرع غصص الانتظار ساعة

كاملة . ولكن لا بأس .. لقد انتظر ثلاثة أعوام أمضاها فى الضنى والشقاء ، ولم تبق سوى ساعة .. ساعة واحدة ويتخلص من آلامه وشقائه إلى الأبد .

وأخرج لفافة من علبة السجاير وأشعلها ، وراح ينفث الدخان فى لذة ويتمتع بملاحظته وهو يرسم دوائر حلزونية فى الهواء قبل أن يتبدد . لم تكن لديه ذرة من شك أن شاهين سيقع فى الفخ الذى نصبه له .. سيجئ بقدميه لتنفيذ حكم الإعدام فيه .. كان يقينه ثابتاً لا يتزعزع . سوف يعمى الله عينيه فلا يعود يرى ، سوف يصم أذنيه فلا يعود يسمع ، سوف يطفئ نور عقله فلا يعود يفكر . وراح يدبر كل شيء فى هدوء بهذا اليقين والإيمان .

أجاد تعلم الرماية منذ الدرس الأول حتى لقد أذهل الشيخ عبد العزيز ، ووفق إلى هذه الشقة على سكة حديد حلوان ليقتله فى أثناء مرور القطار فلا يحس أحد فى البيت كله بمقتله .

إنه الحاج حسنين مفتاح المقاول ، وبهذه الصفة طبع بطاقات الدعوة المذهبة التى أرسل واحدة منها إلى شاهين السلانكلى . . . والبواب مقتنع بأنه يقيم مأدبة لسعادة الباشا وقد حمله صوانى من البطاطس والمكرونة لتنضج فى الفرن ، وسيقود البواب شاهين السلانكلى طبقا لتعليماته إلى هذه الحجرة وسوف يجلسه على هذا المقعد بالذات . وانقلبت سحنة بيومى رمضان بحيث ما كان لأى ممن عرفوه أن يتعرف إليه فى هذه اللحظات ، كان وجهه يقطر صفرة وعروقه نافرة وفى عينيه

بريق مخيف . ويتصور نفسه وهو يدهم شاهين مشهرا المسدس فى وجهه ويحس بالفرح الوحشى ، إنه لن يقتله على الفور . . . يجب أن يستمتع أطول مدة بتعذيبه ، إلا إذا حاول أن يفر أو أن يصرخ أو يقاوم فسوف يقتله على الفور وبدون انتظار لمرور القطار .

ويمسك بيومى المسدس من جديد ويفحص للمرة المائة رصاصاته الست . . . إن كل شىء على ما يرام ، سوف يؤدى المسدس مهمته ، سوف يقتل شاهين الليلة .

ويفاجأ بيومى بصوت المصعد الكهربائى يقف أمام الشقة ، وتتردد أنفاسه ويزداد انفعاله وتوتره ، ترى من يكون القادم الآن . . . ؟ ويدعو الله فى حرارة ألا يقع ما يعرقل تنفيذ خطته فى آخر لحظة ، ويسرع ليختفى من حجرة المكتب من باب الاحتياط ، ويتوارى فى الحجرة الداخلية من الشقة ، ويكاد يثب من فوق الأرض وهو يمر فى الصالة من شدة الفرح ، فقد سمع قهقهة شاهين المدوية . وتشتد قبضته على المسدس « إذن فقد جاء . . . جاء قبل الميعاد » ولكن أصواتا أخرى تصل إلى مسامعه تجعل وجهه يربد . . . إنه ليس بمفرده . . . أيكون مصحوبا بمرافقه العسكرى ؟ ويتضاعف حقد بيومى وتلمع عيناه فى حقد ووحشية . . . « ولو . . . سيقتله . . سيقتله ولو جاء بالدنيا كلها لتحميه » .

٦

أحسى الشيخ عبد العزيز بشيء صغير يرتطم بقدمه ، وهو يفتح باب حجرته في ساعة متأخرة من هذه الليلة التي سعى فيها شاهين بقدميه إلى الفخ الذى نصبه له بيومى ، وأسرع يشعل المصباح الغازى ليتبين حقيقة هذا الشيء ، فلا يكاد النور يضاء حتى يعلم أنه كان خطابا .

ويلتقط عبد العزيز الخطاب فى لهفة ودهشة معا ، ويتلفت حوله ونحو باب الحجرة فى حركة آلية محاولا أن يدرك الطريقة التى وصل بها الخطاب . . . ويكتشف أنه لا بد أن يكون قد أدخل من تحت عقب الباب فيزداد اضطرابه ويحس بثقل فى قلبه ، ولا يفيده تقليب المظروف بين يديه فقد كان خاليا من أى كتابة من الخارج ، ويمزق المظروف من شدة اللهفة على معرفة محتوياته ، ولا يضيف له رؤية الخط جديدا ، فقد كان خطا غير مألوف ... ويسرع إلى نهاية الخطاب بحثا عن التوقيع فإذا بهاتين الكلمتين تطالعاه .

بيومى . . . . رمضان

ويذهل عبد العزيز لهذه المفاجأة غير المتوقعة ، ما الذى جاء ببيومى رمضان إلى بيته فى غيبته ، فطالما حذره من ذلك وحذره بالأكثر من أن يكتب شيئاً بخط يده فليس أخطر من الكتابة فى إدانة صاحبها. بل ما الذى جاء به بعد هذا الانقطاع الطويل . . . ولم تكن هـذه

الأفكار والتاملات إلا ومضة فقد أسرعت عيناه تلتهم سطور الخطاب التهاما لترد على كل هذه التساؤلات .

« كان لا بد أن أكتب لك ، فما كنت أستطيع أن أقدم على »
« ما أقدمت عليه إلا بعد أن أطمئن إلى أنك انت وحدك من دون »
« العالمين سوف تذكرنى بالخير ، سوف تذرف دمعة من أجلى ، »
« وتقف على قبرى فى يوم من الأيام ، إن كان سيعرف لى قبر » .

وخفق قلب عبد العزيز وأحس بانقباض شديد وحزن يسرى فى أنحاء نفسه ، وعمد إلى المصباح يحرك لولبه ليزيد من كمية الضوء حوله ، واستأنف القراءة :

« عندما يصلك هذا الخطاب وتطالعه أكون قد فارقت هذه الدنيا »
« غير آسف على شىء فيها فقد أشفيت غليلى ، وأرويت ظمئى »
« للانتقام ، واستعدت إنسانيتى ورجولتى . »

وتلاحقت أنفاس عبد العزيز وامتقع وجهه وعيناه تقعان على السطر التالى :

« ساقتل الرجل الذى تعرف . . . سأقتله بعد ساعات ، إننى »
« ذاهب الآن بعد أن أوصلت إليك هذا الخطاب لتنفيذ الخطة التى »
« أحكمت وضعها والتى ستجعلنى أقتل الوغد كما رسمت ودبرت . »

« إننى أحس بنفسى كما لو كنت أصبحت جبارا أو عملاقا ، قادرا »
« على فعل كل شىء ، إن قلبى ممتلىء باليقين أن الرجل سيجىء »
« فى الساعة التى حددتها له ليلقى مصرعه ، ولكى تطهر الأرض من »

« دنسه ورجسه ، وليتم الانتقام لكل الأعراض التى اعتدى »
« عليها ، لكل الآثام التى ارتكبها . »

« وكم كنت أحب أن يكون قتلى إياه لأنه خائن للوطن ، لأنه »
« جاسوس وعميل للانجليز ، ممن تفكر أنت فى قتلهم ، كم كنت »
« أود أن يكون ذلك هو دافعى على قتله ، لأقف بعدها فى المحكمة »
« وفى كل مكان ، متباهيا بوطنيتى وحب بلادى كم كنت أحب »
« أن أصرخ بأعلى صوتى ، كما صرخ قاتل رئيس الحكومة : قتلته ، »
« أجل قتلته لأنه أراد أن يقتل بلادى » .

« ولكن ليس بقدرتى — واأسفاه ! — أن أقف هذا الموقف »
« أو أدعى هذا الادعاء ، فما كنت لأسمح لنفسى أن أكذب على الله »
« والناس . فليس الذى أحنقنى عليه تجسسه أو ممالأته للانجليز ، »
« فقد كنت فى كثير من الأحيان وسيطه لحمل الخطابات والرسائل »
« والتقارير ، وليس إلا عندما اكتشفت أن الرجل كان يهدر آدميتى »
« ويستغفلنى ويعاملنى كبهيم وحيوان أن فكرت فى الاقتصاص منه . »

ويزداد انفعال عبد العزيز عند وصوله إلى هذه العبارات ويعمد من جديد إلى فتيل المصباح يزيد من وهجه ، ولا يوقفه عن ذلك ، إن الدخان بدأ ينبعث منه ، فقد تملكته موجة من الرعب جعلته يتخاذل ويجلس على أحد المقاعد قبل أن يمضى فى مطالعة الخطاب :

« وسأموت لأننى قررت أن أقتل نفسى بمجرد الخلاص من هذا »
الكلب ، وأنا أعلم أنك ستفاجأ بهذا القرار ، فقد أخفيته عنك »

« وكان يجب أن أخفيه ، خوفاً من أن تحاول أن تثنيني عن عزمي ، »
« وما كنت لأسمح لقوة على ظهر الأرض أن تثنيني عن تنفيذ كل »
« أجزاء خطتي . . »

« وما كنت أرضى أن أعيش ، وأعاني مذلة التحقيق والمحاكمة »
« واضطهاد البوليس والصحافة وطنطنة الجميع بالتشدق بعظمة »
« الفقيد ، ومآثر الفقيد الذي عاد لتوه من الأراضي المقدسة ، »
« ما كنت لأرضى باللعنات التي ستنصب عليّ باعتباري الكلب العقور »
« الذي عض اليد التي امتدت له بالإحسان ، ما كنت لأسمح لشيء »
« من ذلك كله أن يقال ، وما كنت لأسمح لهم أن يعلقوا حبلا في »
« رقبتي ليشنقوني ثمنا لقتل هذا الوغد الدنيء . »

« وليس سوى انتحاري مايحول دون ذلك . لقد كتبت قصتي »
« واعترافاتي في أربعين صفحة ، وأنا أعرف أن دمي . . . ودمي »
« وحده هو الذي سيضطر الجميع إلى أن يطالعوها ، وأن يصدقوا »
« كل حرف فيها ، بل ليس يعنيني أصدقوا أم لم يصدقوا ، »
« فالله يعرف الحق فيها ، وأنت أيها الأخ الصديق تعرف ، (وصاحبنا »
« الكبير) يعرف فلقد حدثته بكل شيء عندما قابلته في السجن . »
« وعلى ذكر « الصاحب الكبير » فهل أطمع منك أن تكون »
« سفيري عنده ومحاميّ ، لقد نصحني بعدم العنف ، وحذرني من »
« القتل ، ولكني لم أستطع أن أصدع بنصحه ، أو أن أستجيب »
« لتحذيره ، وعليه أن يلوم نفسه فقد كان هو أول من حرك »

« فىّ نبض الحياة الكريمة ، أول من أخرجنى من سباتى ومزق »
« أغشية الظلام التى كانت تلفنى » .

« الوداع أيها الأخ الحبيب . . . اذكرنى فى صلواتك ، »
« قل للناس إننى عشت كحيوان ولكنى مت إنساناً » .

ولم يكد عبد العزيز يتم مطالعة الخطاب ، حتى قفز واقفاً على قدميه والدماء تغلى فى عروقه ، وجسده يرتجف فى قوة وعنف . لا يمكن أن يكون ذلك فصل الخطاب ، يجب أن يوقف بيومى عن المضى فى إنفاذ عزمه ، يجب أن يحول بينه وبين الانتحار ، سيقف إلى جواره ، سيدافع عن فعلته ، سيقنع الأستاذ فوزى أن يترافع عنه . على أن عبد العزيز لم يلبث أن غمرته موجة من الخجل ، وتصبب العرق من كل جسده ، فهو لا يعرف أين يوجد بيومى فى هذه الساعة ، ولا يعرف ماذا فعل ولا ماهو مصيره .

ونظر فى ساعة يده ، إنها الثانية صباحاً ، ولكن أواثق هو أن كل شىء قد سار طبقاً لما تخيل بيومى ورسم ؟ إنه مفرط فى يقينه . . . إنه يتحدث كما لو كانت عملية قتل شاهين قد تمت بالفعل ، مع أن ألوف الأسباب العارضة قد تحول دون نجاح الخطة والتى قد تفشل فى الدقيقة الأخيرة . . . إن بيومى مسرف فى تصوره . وتهدأ نفس عبد العزيز وفكرة فشل بيومى فى قتل شاهين تتسرب إليه . لقد طالما تمنى قتل شاهين السلانكلى ، ولقد ساعد بيومى وحرضه وأمده بالسلاح ، ومع

ذلك فها هو ذا يتمنى الآن أن يفشل بيومى ، عندما فوجىء بهذه الفكرة الجديدة فكرة انتحاره . وتتداعى الصور من جديد فى رأس عبد العزيز فيرى بيومى وقد قتل شاهين ، ولكنه لم ينتحر لسبب من الأسباب ويتمكن البوليس من القبض عليه ، فيمتلىء ذعرا لهذا الخاطر ماذا يكون مصيره هو لو قبض على بيومى ، سيعتبرونه شريكا له ، فهو الذى زوده بالمسدس ، وهو الذى علمه الرماية . ولكن بيومى رمضان لن يعترف عليه ، وما الذى يجعله واثقا من ذلك ، إن البوليس سوف يضربه ، سوف يعذبه ، فيضطر تحت التعذيب إلى أن يعترف عليه . ويندفع عبد العزيز نحو الباب ليهرب ، ولكنه لا يلبث أن يعود إلى صوابه فيبتسم من نفسه فى سخرية. أين يهرب . . . أليست محاولة الهرب نفسها هى أعظم دليل عليه .

ولا يكاد عبد العزيز يصل إلى موضوع الأدلة ، حتى يحس بشىء من الخنق على بيومى ما الذى جاء به إلى بيته ، لماذا كتب له هذا الخطاب . . . وتصرخ روح عبد العزيز من الأعماق . . . الخطاب ... الخطاب ، يجب أن يتخلص من الخطاب .

ولا يهدأ عبد العزيز إلا بعد أن يحرق الخطاب بالفعل ، وكأن عملية الاحراق هذه ، قد نفست عما يعتمل فى نفسه من عواطف متأججة متضاربة ، فبدأ يفكر فى موقفه فى هدوء . . . ماذا عليه لو اعترف بيومى أنه كان شريكه ، إنه سيكذب ذلك ولا دليل عليه . . وينظر عبد العزيز صوب الخطاب المحترق فى رضاء وراحة بال . ويذهب

به الرضاء إلى أبعد من ذلك... بل ماذا عليه إذا اتهم بالفعل بالاشتراك فى مقتل شاهين وأنه فعل ذلك لأنه أحد أعداء الشعب وخونة الوطن. وتمتلىء نفس عبد العزيز بالزهو ، ويتذكر حادث الجندى الإنجليزى الذى اشترك مع خليته السرية فى قتله ، ولكن حادث العسكرى الإنجليزى لم يلفت الأنظار ، فقد أصبح عاديا ومألوفا ، أما مقتل شاهين السلانكلى فشىء آخر. هل يمكن أن ينسىله أنه صفعه يوما من الأيام؟ لا أنه لم ينس وقد آل على نفسه أن ينتقم . . . فإذا أنفذ بيومى عزمه بالفعل وقتله ، فأى تحقيق لا نتقامه أكثر من ذلك .

وتعود كلمات بيومى لتدوى فى رأسه ، إن رجال السلطة ستظهر شاهين بمظهر البطولة ، وستضفى على قتلته أحقر الأثواب . . وتتراءى فكرة انتحار بيومى كحل لكل هذه الإشكالات بالفعل ... ويرتاع عبد العزيز من هذا الخاطر الأثم الذى خطر له ، من أن انتحار بيومى فيه حل للإشكال .

ويطلع النهار أخيرا ، ويسرع عبد العزيز لشراء جريدة الأهرام ، ولم يحتج لأن يقلب فيها كثيرا فقد كانت العناوين الضخمة والصور تملأ الصفحة الأولى .

« مصرع اللواء شاهين السلانكلى نائب أمير الحج — حادث يكتنفه الغموض الشديد — القاتل — يستدرج الفقيد إلى إحدى الشقق ويصرعه بها — القاتل ينتحر بعد أن يروى قصته مع الفقيد ، شاهد ساقته الصدفة ليشهد الحادث الفظيع .

استمرار التحقيق حتى ساعات الصباح المبكرة — النيابة تقرر سرية التحقيق » .

ولم يتمالك عبد العزيز نفسه من البكاء وهو يرى صورة بيومى مسجاة على الأرض إلى جوار جثة شاهين ، القاتل والمقتول ، الظالم والمظلوم . وراح يتأوه مغمغما وهو يسير فى الطريق :

— متّ يا بيومى . . . مت بعد أن أصبحت رجلا .. بعد أن أصبحت بطلا ، أى والله يا بيومى إنك لبطل .. اطمئن أنك واحد منا ، واحد من هذه الألوف والملايين المعذبة . والتى قررت أن تثأر لكرامتها .

ويقفز اسم فوزى السيد إلى رأس عبد العزيز ، كم كان يتمنى لو انطلق إليه الآن فى بيته ، ليبلغه وصية بيومى الأخيرة .. ولكن أين هو فوزى السيد الآن .. إنه فى السجن .. سجنه الطغاة عقب مصرع الدكتور باهر ولا يزال فى السجن طوال هذه الشهور . ويغلى الدم من جديد فى عروق عبد العزيز ، وتتقلص عضلاته ويشدد قبضته ويهدد ويتوعد . . فليسجنوا فوزى السيد ... فسوف يخرج من جديد كما خرج دائما ؛ وسوف ننتقم ، سوف نقتلهم جميعاً ، سوف نقتل أعداء الشعب ، سوف يلقون مصائرهم طال الزمن أو قصر ... سيموتون كما مات الدكتور باهر ، وكما مات شاهين السلانكلى ، سوف نقتلك ياويتى أنت أيضاً . . . سنقتلك ولو تعلقت بأذيال السماء .

ويرتطم عبد العزيز بواحد من المارة ، وعبثا حاول عبد العزيز أن



يهدئ من غضب الرجل الذى راح ينحى عليه باللائمة ، ويعنفه ويسخر من ملابس الشيخ والعمامة التى يرتديها . . . ويؤثر عبد العزيز أن يمضى فى طريقة ، بعد أن أفاقه هذا الحادث . . . فراح ينظر متلفتاً فيما يحيط به .. الدنيا تئز وعشرات الألوف من الناس تمضى لطيتها .. تركب الترام أو تنزل منه .. أو تعدو وتصيح . والباعة ينادون على سلعهم .. وطفل يلهو بقطعة حجر .. وعسكرى البوليس يمسك بتلابيب أحد الباعة ، والعرق يتصبب من جباه الجميع .

ويحس عبد العزيز بالحسرة تملأ نفسه ، ويروح يتساءل ..

أما لهذا الليل من آخر ؟ ويحدق صوب السماء المشرقة وينظر من جديد للحركة اللاهثة من حوله .. ثم يتنهد ويحث الخطى للذهاب إلى كليته .. وهو لا يفتأ يردد ..

أما لهذا الليل من آخر ؟!؟



الفصل الثاني

١

كان كل شيء في برلين يعلن في مارس عام ١٩٤٥ أنها تعالج سكرات الموت كآخر مظهر لمقاومة هتلر اليائسة المجنونة .

ونظر الزعيم العربي للدكتور خالد أمين وقال له :

— أرجوك يا خالد أن تكف عن هذا العناد ، لقد اعتبرتك دائماً كابن لي ، وإقامتك في برلين هذه الأيام غير مجدية ، إنك تعرض نفسك لموت محقق ، يجب أن تصحبني إلى حيث أقيم .. أنا في حاجة كما كنت دائماً لمعونتك .

ونظر خالد في هدوء بعينيه الصافيتين للزعيم الكبير ، متعجباً لأول مرة من قدرة هذا الرجل على الاحتفاظ بهدوئه وإشراق وجهه على الرغم من أخطار الساعة ومشاقها وأهوالها ..

حقاً كانت لحيته الكستنائية التي تزين وجهه ، على غير العهد بها ، غير مخططة أو مصففة ومؤقلمة بدقة .. فقد كانت هناك بعض شعيرات هنا وهناك قد شذت عن النسق وتناثرت ، وهو ما لم يكن يحدث في أي يوم من الأيام ، وكان وجه الرجل ممتقعاً بعض الشيء . . .

ويبدو عليه الإعياء والإنهاك ، ولكن فيما خلا ذلك فقد كانت العينان كالعهد بهما تألقاً وتوثباً . . وحيوية الرجل تنطق بفتوته وشبابه .

على أن خالدا لم يلبث أن هز رأسه مبعدا هذه الخواطر وقال لصاحبه :

— إنك تعلم أننى لم أتعاون مع الألمان فى قليل أو كثير ، لقد رفضت تلقى معوناتهم ، ورفضت أن أساهم فى إذاعتهم ، رفضت أن أتعاون معهم عندما تهيأوا للدخول إلى مصر ، فإذا كنت أبقى فى برلين فلست أفعل ذلك حباً فى سواد عيون الألمان ، فضلا عن هتلر الذى أمقته من كل قلبي وألعن جرائمه . ولكنى أفضل ذلك أداء لما أتصوره واجباً علىّ .

— أى واجب . . إنك تعرف أننى لا أتردد أنا نفسى فى القيام بما يدعو إليه الواجب .

ولم يزد هذا الرد المنفعل المحتج خالدا إلا هدوءا وبرودا .. وقال فى بطء وهو ينظر إلى عينى صاحبه :

— واجبي فى المحافظة على المعهد الإسلامى الذى نجحنا فى إقامته وإنشائه فى برلين .

— ولكن ما ذا باستطاعتك أن تفعل للمحافظة عليه ؟ كل شيء يتهدم ويتخرب ، وإذا كان لا يزال باستطاعتنا أن نجلس فى المعهد الآن فليس ذلك إلا لأن دور الحى الذى يقع فيه لم يأت بعد .. ولن

يتأخر كثيرا الآن ، فربما الليلة أو غدا على الأكثر تمسحه طائرات الحلفاء من فوق الأرض كما فعلت ببقية الأحياء . . إذ لم يبق غيره .

وقال خالد فى هدوء :

— ومع ذلك فقد أعلن هتلر أنه لن يبرح برلين وأنه سيلاقى فيها مصيره مع شعبه .

واحتد صاحبه وقال :

— مالك أنت ولهتلر ، ما لنا نحن وهتلر .. إن هتلر يقيم هذه اللحظات فى حصن تحت الأرض لا يمكن أن تصل إليه الأبالسة نفسها والشياطين ، وبقاؤه فى برلين وموته بها هو الشيء الوحيد الذى بقى أمامه ليفعله .. لقد كان هو الذى أشعل نيران الحرب ، ووصل فى لحظة إلى أن يكون سيد الدنيا الذى يتصرف فى أقدارها ، فلا أقل الآن من أن يموت بشرف ، أما نحن فما دخلنا فى ذلك كله . . إن علينا واجبات نحو شعوبنا .. إن معركة تحرير أوطاننا لا تزال مفتوحة وهى تنادينا .

وأطرق خالد رأسه فى حزن وأسى وقال :

— هذا صحيح ، وأنت تعلم أننى لم أخالف لك أمراً قبل اليوم وأننى اتخذت منك أخاً أكبر بعد افتراقى عن أخى فوزى ، ومع ذلك فأستحلفك بالله أن تدعنى وشأنى فى برلين فلن أغادرها . . .

وصرخ الزعيم العربى :

— ولكن لماذا . . . لماذا يا خالد تتشبث ببرلين الآن التى طالما كرهتها ونددت بها وبزعمائها . . .

ورفع خالد صوته لأول مرة فى انفعال وقال :

— أنا أقول لك ، لقد ارتضيت لنفسى أن أقيم بين ظهرانى الألمان ثلاث سنوات وهم فى أوج قوتهم وعظمتهم ، لقد قبلت إكرامهم وضيافتهم ، ولن أتخلى عنهم فى ساعة محنتهم ، لن أهرب من المصير الذى ينتظرهم . . . إننى أعلم أنى بموقفى هذا لن أقدم أو أؤخر ، ومع ذلك فلم أعبأ طول حياتى إلا أن أطيع إحساسى ووجدانى ، وضميرى يطلب منى ألا أفر من الشعب الألمانى التعس ، ألا أهجر المعهد الإسلامى وأن أحافظ حتى الدقيقة الأخيرة على مكتبته وأوراقه ومستنداته التى كافحنا طويلا من أجل جمعها وحشدها .

وهز الزعيم رأسه فى ضيق وقال :

— أنت عنيد يا خالد .

— ربما ... ومع ذلك فإنى أرى أن وجودى فى برلين يمليه علىّ واجب آخر نحو إخواننا العرب والمسلمين ، إنهم يفدون الآن من الشمال متجهين نحو الجنوب . . . ولا طريق لهم إلا من خلال برلين . . . وأنا الوحيد الذى أستطيع أن أساعدهم فى حمل أمتعتهم وفى تدبير بعض لقيمات لإطعامهم ، ولإرشادهم إلى الطريق الذى يسلكون .

ومن جديد خرج الزعيم الكبير عن هدوئه فرفع صوته محتداً فى احتجاج :

— وأنت . . . أنت . . . ألست واحداً من هؤلاء الذين تؤمن بضرورة إنقاذهم . . . ألست تعلم أنك لو أصبت بسوء لا قدر الله ،

لكانت هذه كارثة تصيب إخوانك وبلدك ... بل وكل البلاد العربية ؟

وابتسم خالد وقال فى هدوء وقد لمعت عيناه :

— الأعمار بيد الله ياسيدى الزعيم . . . ستظل الشمس تشرق من الشرق وتغيب فى الغرب . . ستظل النجوم يتوسطها البدر تضىء ظلمة الليل .

وافتر ثغر خالد وقال :

— إنك لاتدرى أى سرور أحس به . . . إننى أحس بنشوة لم أحس بها فى أى يوم من أيام حياتى ، أحس بنفسى خفيفاً وكأنى مقبل على فرح عظيم . لقد عشت هذا العام الأخير فى كآبة وظلام ... أما الآن فلست أرى حولى سوى النور . إننى فرح ... فرح جداً .

واغرورقت عينا الزعيم العربى بالدموع وأقبل على خالد معانقاً :

— ليحرسك الله ياخالد ... ليحمك الله يابنى ويرعاك .

* * *

وعندما كان خالد يودع صاحبه الكبير على المحطة ، أمسك هذا الأخير بيد خالد والدموع تترقرق فى عينه من فرط التأثر ، والأحساس يغمره أنهما لن يتلاقيا بعد هذه المرة ، ولم يلبث أن سيطر على عواطفه ثم قال فى حزم :

— إذن أرجوك ياخالد أن تعدنى وأنا أعلم أنك إذا عاهدت وفيت.

— أعدك بأى شىء ؟

— أن تلجا إلى المخبأ كلما دوت صفارة الإنذار .

وابتسم خالد وقال :

— لك علىّ هذا .

٢

راح خالد يضرب فى شوارع برلين بعد أن ودع صاحبه ... وكانت الابتسامة الباهتة المرة لا تزال فى مكانها على شفتيه الذابلتين منذ غادر المحطة ، ولكنه كلما جد فى السير ازدادت الابتسامة انكماشا وتقلصا ، ووهنا على وهن رغم شديد حرصه على أن يبقيها على شفتيه كإعلان عما يحس به من فرح وصفاء . لقد كان ما يحيط به ويقع عليه بصره أعنف حتى من هذا الفرح الإلهى الذى كان يغمره .

إنه يعرف هذه الشوارع جيدا لطالما سار فيها وهى تغص بالحركة وتضج بها .. لقد رأى طوفان الأعلام الحمراء ذات الصليب المعكوف وهى ترف على جدرانها ، لقد كان أزيز أسراب الطائرات تصطك له الأسنان ويرتعد البدن من فرط الإحساس بقوتها وعنفها وأنها ذاهبة لتدك بلادا بعيدة وتحيل عاليها سافلها . لقد شاهد فيها استعراضات الفرق المدرعة بدباباتها وأعلامها وكأنها القضاء والقدر الذى لا يرد حيث ذهب وأنى شاء ، لقد شاهد الملايين المحتشدة على طول الطريق ، وفى شرفات المنازل وهى تهتف متحدية السماء والأرض « هايل هتلر » أما الآن فماذا يرى .. ؟ أنقاض ... خرائب ... حرائق . . . صمت رهيب . ورائحة الموت والفناء تجثم على الكون والوجود .

وغمغم خالد وهو يهز رأسه ليتخلص من هذا الكابوس المخيف .

— إننى أحلم . . . !

ولكنه سرعان ما أدرك أنه لم يكن يحلم . . . كل شىء يدل على أنه حى يقظ واع ، فالدنيا مظلمة رغم أنف النهار والشمس ، لتراكم السحب والغيوم ، سحب الدخان الذى ولدته حرائق الليل . والأرض مغطاة بالمستنقعات والأوحال التى بدأ يخوض فيها ، إنها بقايا مياه الإطفاء التى لم تبتلعها البالوعات بعد أن سدت وخربت . كان كل شىء تحت قدميه هشا ولينا ولزجا . . . رماد وطين وأوحال وحطام وسواد .

وتقع عيناه من حين لآخر على جثث مغطاة بأوراق الصحف أو ألواح من الخشب وأخرى لم تجد حتى من يغطيها بقطعة ورق ، فى انتظار عربات الصليب الأحمر لتحملها ... ولكن هل بقيت عربات صليب أحمر ؟

ولم تكن هذه المناظر جديدة على خالد، فلم تكن تفزعه أو تضايقه لكثرة ما اعتادها وألفها . وإذا كان القتام الخارجى الذى يلفه يضطره اضطرارا إلى التقطيب والاكفهرار ، فإن ذلك كله لم يكن يتعدى السطح . . . السطح فقط ، فقد كان يحس بشعور غامر من الفرح والسعادة .

ومضى فى طريقه . . . لا يعكر صفو سيره كثير حركة أو ازدحام مرور ، فقد خلت برلين من ثلاثة أرباع سكانها الذين هربوا إلى الريف إلى الخلاء بعيدا عن كماشة الروس التى توشك أن تحدق بالمدينة . . .

ولذلك فقد كان هو واحداً من هؤلاء القلائل الذين يسيرون الآن فى شوارع برلين الكبرى . . . كورفور ستندام ، وانتردن ليندن ، وفوردريك شتراسا ، يسيرون فى صمت وحذر و بطء متطلعين فى ذعر وهلع حولهم وفوقهم وتحت أرجلهم ، خوفامن أن ينقض عليهم بقية مبنى لم يسقط ، أو يقعوا فى حفرة أحدثتها قنابل الليل ، أو يطأون جثمانا أو إنسانا جريحا أو يدوسون على يد مبتورة أو رأس متدحرجة . على أن ذلك لم يكن هو الذى يشغلهم فى الدرجة الأولى فقد ألفوا ذلك كله واعتادوه ، قدر ماكان يخيفهم أن يطأوا لغما مما تسقطه الطائرات لينفجر بعد حين .

ولم يلبث خالد أن انسلخ من كل هذه التأملات بمجرد شعوره أنه قد اقترب من هدفه . . . وبدأ قلبه يدق فى عنف مع كل خطوة تدنيه من هذا الهدف .

لقد كان آخر عهده بهذا المكان الذى يقصد إليه منذ أسبوعين مضيا ، والأسبوعان فى حياة برلين بمثابة دهر ، ذلك أن غارة ليلة واحدة من هذه الغارات التى تشترك فيها ألف قاذفة قنابل ثقيلة كانت تغير ملامح برلين ، فتسد شوارع وتفتح أخرى ، وتحول قصورا وأبنية عامرة وكندرائيات وكنائس ومقاصف ومسارح وحدائق غناء إلى ركام وحطام وأرض مقلوبة وأسياخ حديد وخرق قماش وأشلاء متناثرة ، فهل سيجد المكان الذى يقصد إليه لا يزال قائما . . . هل سيكون باستطاعته بعد قليل أن يراها وينظر إلى وجهها الجميل الذى يذكره بحبيبة القلب فاطمة ؟

وحث الخطى نحو المطعم الذى يقصد إليه ، حيث تعمل « أوديت » عاملة المطعم العرجاء ، والذى كان عرجها هو السبب الوحيد الذى حال دون تجنيدها للقيام بأعمال الدفاع الأخيرة عن برلين ، بدلا من تقديم الطعام للنفايات البشرية التى كانت ما تزال فى برلين . والنفايات البشرية هى آخر الألقاب التى استطاع « الفوهرر » أن يخلعها على كل من لا يذهب إلى جبهة القتال . . . جبهة القتال التى كانت منذ عام واحد تبعد إلى الشرق ألوف الأميال على ضفاف الفولجا والدون والدونتز أما الآن فقد اقتربت حتى حدود الأودر ثم اقتربت فأصبحت على بعد عشرات الكيلومترات جنوب برلين نفسها وغربها وهى تقوم حولها بحركة التفاف . . .

وهز خالد الشوق للاطمئنان على أوديت . . . فحث خطاه أكثر وأكثر ، ولكن بصره وقع على امرأة عجوز تتخبط وسط الخرائب كأنها فقدت شيئاً أو ضلت طريقها . . . ويمم خالد نحوها فى عطف وسألها فى إشفاق :

— أأستطيع أن أقدم لك خدمة يا أماه ؟

— وتوقفت العجوز مبهوتة وهى تسمع هذا الصوت الحانى الرقيق ونظرت صوب خالد بعينين كسيرتين لم يخلوا من خوف وشك . . . ولم تلبث أن قالت بعد تردد وطول صمت :

— كسرة خبز سقطت منى وسط الأحجار وعيناى لاتساعدانى على الرؤية .

وتلفت خالد حوله فى أسى وكآبة فوجد قطعة خبز سوداء تطل من ورقة ممزقة غير نظيفة ، فانحنى والتقطها ومد يده بها للمرأة العجوز:

— ها هى يا أمى .

وأسرعت المرأة تنتزع من يده قطعة الخبز فى خوف ولهفة ، ثم راحت تتحسسها بين يديها وهى لا تكاد تصدق أنها ردت إليها . . . ثم قالت لخالد فى ذهول :

— أنت لست ألمانيا ؟

— كلا يا أمى ... أنا من بلاد بعيدة .

فغمغمت المرأة ومضت تبتعد عنه وهى تقول :

« مين جوت . . مين جوت . . دانكى شين . . دانكى شين »

يا إلهى . . يا إلهى . . شكراً . . شكراً .

ولم يستطع خالد أن يقاوم الكآبة التى بدأت تتسلل إلى داخل نفسه وتنال من صفائها . . ولكنه كاد يصرخ من الفرح عندما رأى بناء منهاراً على الصورة التى رآه عليها آخر مرة منذ أسبوعين . . . إن هذا دليل على أن الطائرات لم تعد إلى هنا ، وما عليه الآن إلا أن يدور حول هذا البناء ليرى المطعم الصغير فى مكانه .

وكاد يطير من فوق الأرض وحدسه يصدق ، فقد كان البناء الصغير الذى يأوى المطعم لا يزال قائماً . . ولافتته السوداء القائمة التى لم يعد يبين منها شىء لا تزال فى مكانها ، هازئة بكل عوامل الدمار

والخراب التى أصابت برلين . على أن موجة جديدة من القلق لم تلبث أن انتهبته فى هذه اللحظات الأخيرة وهو على بعد أمتار من هدفه النهائى . من أدراه أن تكون أوديت لا تزال على قيد الحياة . . لم لا يكون منجل الموت قد حصدها كما حصد المئات والألوف من أمثالها ، ممن فرضت عليهم ظروف الحياة البقاء فى برلين وهى تسحق سحقاً وتدك دكا وتحرق حرقا .

وتخطى خالد فى عصبية الجدار الساتر الذى أقيم على مبعدة من باب المطعم لحمايته من الشظايا ، ولم يكد يلقى بنظرة سريعة على الموائد الخمس التى تشغل المكان حتى اكفهر وجهه وخفق قلبه فلم تكن أوديت موجودة حيث اعتادت أن توجد . . ولم يكن سوى فراوهيلدا صاحبة المطعم .. وسأل صاحبة المطعم فى لهفة قبل أن يحييها :

— أين أوديت . . هل أصيبت بسوء ؟

وصرخت فراوهيلدا وبصرها يقع على الدكتور خالد من فرط الفرح وصاحت :

— الحمد لله .. الحمد لله مازلت سليما معافى .. أين أنت ياهر دكتور مرحباً بك يا زعيم مصر .

واطمأن خالد لهذا الاستقبال فلو أن أوديت أصيبت بسوء لما قابلته المرأة بهذه البشاشة والهشاشة . . ولذلك فقد ابتسم لها فى رضاء وقال لها :

— قلت لك يا فراو هيلدا أكثر من مرة إننى لست زعيما . . . إننى إنسان صغير . . صغير جداً .

— أنت عندنا زعيم مصر.. وزعيم العرب كلهم .. بل زعيم الشرق

وابتسم خالد فى مرارة وقال :

— مهلا .. مهلا يا فراو هيلدا .. كفى عن هذا المزاح . . أنسيت أن لا زعيم إلا هتلر .

وذعرت المرأة لهذه الملاحظة ، فتلفتت حولها فى خوف ، ورسمت الصليب على صدرها وقالت :

— طبعاً . . طبعاً . . الفوهرر هو زعيم الزعماء . . وزعيم الدنيا كلها . . ورفعت المرأة ذراعها وهتفت بآخر ما فى نفسها من طاقة :

— هايل هتلر !

وغمغم خالد فى سخرية :

— هايل هتلر . . والآن ألا تقولين أين أوديت . . إنها بخير أليس كذلك ؟

— إنها فى الداخل نائمة .

— نائمة . . فى هذا الوقت من النهار . إننا فى الظهر ؟ !

— ماذا تريد يا هر دكتور ، كنا نظن أننا اعتدنا على الغارات الرهيبة وقصف المدافع وانفجار القنابل ، ولكن غارة الليلة الماضية فاقت كل ما مر فى حياتنا ، فلم يغمض لنا جفن من الخوف والهلع



والتوتر . وتنهدت فراو هيلدا وقالت — لابد أن دورنا سيجىء من جديد .. وإذا كنا نجونا من الغارة السابقة فلن ننجو من الغارة الآتية

— ولماذا لم تفكرى فى مغادرة برلين ككل من غادروها .. ؟

— وبأى شىء نغادرها .. لا نقود عندنا لنركب أو نستأجر شيئاً ولا قدرة لنا على السير .. لقد عشت تحت هذا السقف طول عمرى ، إنه كل شىء لى فى الدنيا وإذا كان لابد أن أدفن فلن أجد مكاناً أصلح لأن أدفن فيه . ونهضت فراو هيلدا .

فسألها خالد :

— أين تذهبين ؟

— أوقظ أوديت .

— بل دعيها لترتاح ، إن النوم هو النعمة الوحيدة التى بقيت لأمثالها .

وصاحت هيلدا :

— أتريد منها أن تخنقنى إذا علمت أنك كنت هنا وتركتها نائمة ؟ هل تعيش المسكينة الآن بعد أن فقدت أباها وأمها وخطيبها ، إلا بما تدخله زياراتك لها من أمل ورجاء ...

واختفت فراو هيلدا خلف باب مظلم ، ولم يلبث خالد أن سمع صوت شهيق ، ثم صياح ابتهاج وحركات سريعة ، وصوت مقعد يقع ثم حفيف ثوب وخطو أقدام عارية ، وظهرت من الفتحة المعتمة ، أوديت . وافتر ثغر الدكتور خالد ، وأشرق وجهه فقد كان يرى فى وجهها فاطمة

وكأنها توأم لها ، لولا عرج ظاهر فى ساقها اليسرى يحمل كل من يراها على الألم شفقة عليها ، ولكن وجه أوديت كان يفيض بالبشر فى هذه اللحظات ، وهى تعدو وتثب وتحجل حافية القدمين مندفعة نحو خالد فى لهفة لتعانقه وتستقر بين أحضانه .. ولكنها لم تكد تقترب منه ، وترى بسمته الهادئة الفاترة ، ويده الممدودة أمامه على مبعدة من جسمه لمصافحتها ولتكون بمثابة حائل يحول دون اندفاعها نحوه .. حتى تذكرت القيود التى فرضها عليها الدكتور فخبتت حماستها بعض الشىء ، ولكن البسمة المشرقة ظلت تضىء وجهها ، وأمسكت باليد الممدودة وراحت تهزها فى شوق وعنف :

— ياإلهى .. ياإلهى لقد كان حلماً فظيعاً .. أنت بخير ياهر دكتور أليس كذلك ؟

وابتسم خالد فى غبطة وسعادة وقال لها والنشوة تملأه :

— لم أحس بالصحة والسعادة كما أحس بها اليوم ، إننى أشعر بفرح عظيم .. كيف أنت يا أوديت ؟

وانقلبت سحنة أوديت على حين غرة عندما استعادت ذكرى حلمها الفظيع وراحت تحرك يديها حركات عصبية مضطربة غيرمفهومة وتقول فى انفعال :

— كنت أصرخ فى الحلم طالبة من الله أن يعجل بموتى ... عندما تصورت أنك ... أنك ... ولكن الحمد لله . . . أنت سليم معافى . . . أليس كذلك . . ؟ أمصر أنت ياهر دكتور أن تبقى فى برلين ؟

— سأظل معك يا أوديت حتى تنتهى الحرب .

وأشرق وجه الفتاة ولمعت عيناها وقالت :

— ماهى الأخبار . . . إن ميكروفونات المنطقة لم تصلح منذ آخر غارة وكنا قد بعنا الراديو فى مقابل رغيف من الخبز ... لقد أصبحنا نعيش فى ظلام لا نعرف ماذا يجرى حولنا .

— الروس على بعد خمسين كيلو من برلين .

وغطت أوديت وجهها قائلة :

— يا إلهى ... يا إلهى ما الذى سيحل بنا ؟ واقتربت من خالد فى ذعر وهلع وقالت :

— أتظن أنهم سيدخلون برلين ؟

— الله أعلم يا أوديت ... إن إيماننا نحن المسلمين بربنا لا حد له . إنه قادر على كل شىء ، أنه يغير الدنيا من حال إلى حال فى طرفة عين . . . أفكنت تتصورين منذ عامين فقط أن يكون ذلك هو مصير ألمانيا ومصير برلين ؟

وهتفت أوديت :

— أرجوك ألا تغضب منى كما فعلت مرة من قبل ... لا يمكن أن يكون فى هذه الدنيا إله ... وإلا فلابد أنه إما أن يكون قد نسيها بعد أن خلقها أو أنه مات منذ أمد بعيد . . كيف يمكن أن يرضى الله لو كان موجوداً بكل هذه الآلام والويلات والنكبات ... ماذنب الأطفال .. ماذا جنى الأبرياء ليعانوا كل هذا الذى نعانيه ؟

— ولكن يا أوديت لقد قلت لك من قبل أكثر من مرة إن الله قد خلقنا وأودع فينا العقل والقلب ورسم لنا الطريق ودعانا إلى أن يحب بعضنا بعضاً ، وألا يقتل أحدنا الآخر ولا يسفك دمه ولا يظلمه أو يعتدى عليه . . ولكننا أسأنا استعمال الحرية التى أودعنا إياها ، فرحنا يقتل بعضنا بعضاً ويسحق بعضنا بعضاً ، ناسبين ذلك كله إلى الله والله برىء من هذه الآثام .

وهزت أوديت كتفيها :

— لست أفهم ... هذه أمور فوق عقلى ... إننى جاهلة .

وضحك خالد وقال :

— كلنا فى هذه الناحية سواء ... أنا نفسى لا أستطيع أن أفهم ... ولكننى منشرح الصدر اليوم ... منشرح أحس بسعادة غامرة كما لو كنت سأشهد حفلة زفافى .

ولمعت عينا أوديت ... وقالت فى فرح :

— وأنا عروسك أليس كذلك ؟

ونظر لها خالد فى حنان ورحمة :

— لقد حدثتك عن عروسى أكثر من مرة ... إنها تنتظرنى فى مصر ، إنك تشبهينها كل الشبه .

وغام وجه أوديت وقالت له لتخفى انفعالها وخيبة أملها :

— ماذا تحب أن أحضر لك ... إن لدينا خبزاً ... أأحضر لك ماعندنا من خبز ؟

— بل كوبة ماء .

— سأحضر لك دورقاً بأكمله ... حمداً لله لا يزال باستطاعتي أن أفعل ذلك .

واختفت أوديت لتظهر من جديد حاملة كأساً من البللور الجميل ودورق ماء ... وسأل خالد بعد أن شرب الكأس :

— وأين ذهبت فراو هيلدا ؟

فقالت أوديت وهي تضحك في خبث :

— تأخذ نصيبها من النوم .

وضحك خالد بدوره متبسطاً :

— تأخذ نصيبها من النوم ... أم تدعنا منفردين ؟

وتأوهت أوديت وقالت في ألم :

— معك أنت ياهر دكتور ماجدوى أن نكون منفردين أو غير منفردين ، آه يا هر دكتور إنني أقدر وفاءك الخرافي لخطيبتك في مصر . . . ولكن أنا ، أليس لي حقوق . . ؟ لماذا تصر على أن لاتسمح لي أن أقبلك ... أقبلك كأخ . . . كصديق ، قبلة واحدة ... أرجوك . . . إنني لا أعرف متى أراك ثانية .

فاربد وجه خالد وقطب حاجبيه وقال في شيء من الانفعال :

— إنك تعرفين الشرط . . . إذا قبلتك أو قبلتني فلن أعود إلى هنا أبداً . . . لن ترى وجهي ثانية .

وصرخت أوديت فى فزع :

— لا ... لا أنسى ماقلته لك ... حسبى أن أراك الآن ... أن أتمتع بعطفك ورقتك . . لا يجب أن أكون طماعة ... ليس هذا بالشىء القليل فى أيامنا هذه .

وانبسط وجه خالد من جديد وافتر ثغره وقال لها :

— هكذا تكون البنت العاقلة ... الآن فقط تستحقين جائزتك التى أحضرتها لك ... إنك لاتتصورين ماذا أحضرت لك اليوم على سبيل الهدية ؟

وصرخت أوديت :

— قطعة جبن ؟

— أعظم .

— لاتقل قطعة زبد ؟

— أعظم ... أعظم !

— لايوجد ماهو أعظم من ذلك سوى السجاير ، وأنت لاتشرب سجاير ولم تحضر لى سجاير أبداً .

وأخرج خالد من جيبه شيئاً صغيراً ملفوفاً فى ورق مفضض وصرخت أوديت غير مصدقة :

— مستحيل أن تكون شوكولاته ؟

— بل شوكولاته .

واستولت على أوديت نوبة من الانفعال والهستيريا ، فراحت تصرخ مناديةً لصاحبتها فراو هيلدا التى جاءت تعدو مذعورة ، فأشارت لها على يد خالد ، وهى تهمس :

— شوكولاته ... شوكولاته أتصدقين ... أحضر لنا الهر دكتور خالد شوكولاته .

وحملقت هيلدا فى يد الدكتور خالد فوجدت بين أصابعه قطعة لا يتجاوز طولها بوصتين وسمكها نصف سنتى ، وغمغمت هيلدا غير مصدقة :

— ألا يزال فى الدنيا شىء كهذا . . . من أين جئت بها يا هر دكتور ؟

— أعطانيها بالأمس وكيل وزارة الخارجية . . . قال لى إنه لا يعرف كيف يعبر لى عن تقديره إلا بأن يمنحنى إياها . . . ففكرت فيكما على الفور . . . إنها لكما . . . خذيها يا أوديت .

ولم تمد أوديت يدها لتخطف قطعة الشوكولاته واغرورقت عيناها بالدموع وقالت :

— لى أنا . . لا أصدق ، لا أستحق . أفيها سكر ؟ أفيها لبن ... ؟

ودسها خالد فى يدها :

— لماذا لا تذوقيها . . . شميها ، إن فيها كاكاو وزبده وسكر وفيتامينات .

وفوجىء خالد بالفتاة تتعلق بعنقه وتقبله من فمه قبلة عنيفة وهى تقول له :

— أنت ملاك . . . أنت حبيبى . . . أنت رجلى .

وعلت وجه خالد صفرة الموت ، ودق قلبه وتلاحقت أنفاسه ، ونهض فى عنف وخلص ذراع الفتاة من حول عنقه فى رفق ولكن فى حزم . . . وتحرك نحو الباب ليخرج ، ولكن المرأتين تعلقتا به وأمسكتا بتلابيبه ، بينما قالت فراو هيلدا :

— بالله يا هر دكتور سامح الفتاة ، لقد أذهلتها الهدية التى جئت بها إليها ، لم يكن باستطاعتها أن تعبر عن شكرها لك بغير ذلك سامحها بالله عليك .

فقال خالد فى أسى وحزن :

— إن أوديت لم تخطىء فيما فعلت حتى أسامحها ، بل إننى أنا الذى أرجو عفوها وسماحها ، ما كان يحق لى أن أضايقها بحضورى إلى هنا والنظر إليها . . لقد سمحت لنفسى بأن أستمتع على حسابها ... أستمتع برؤية عروسى فى وجهها ناسيا أننى بذلك قد أتسبب فى إيذائها وشقائها .

وصرخت أوديت فى وجهه :

— ما هذا الهراء الذى تنطق به . . . أنت تشقينى وتزعجنى وأنت نور النهار وأمل حياتى ومصدر سعادتى وهنائى . ؟ ! وأمسكت أوديت بيد الدكتور خالد وجثت على ركبتيها وراحت تستعطفه وهو حائر مبهوت لا يعرف كيف يتصرف :

— لماذا تعذب نفسك وتعذبنى معك ، . . ألا تقول إننى أشبه إنسانة تحبها . . . لماذا لا تجعلنى بديلة منها . . ؟ إننى أحبك . . . إننى لك . . . إننى أهبك نفسى ... أهبها فى غير مقابل إلا أن تأخذنى ... خذنى ... ضمنى إلى صدرك .

وبينما راح الدكتور يتراجع والصفرة التى تعلو وجهه تزداد وتتفاقم، كانت أوديت تتشبث بيده وتغمرها بقبلاتها ودموعها ، . . ولم يستطع أن يستخلص يده منها إلا فى صعوبة ... فارتمت على الأرض وراحت تصيح فى جنون ..

— مجنون .. أنت مجنون ... لا يمكن إلا أن تكون مجنونا .

وصرخت هيلدا فى وجهها :

— أوديت ... ماذا أصابك .. لقد جننت .

وانفجرت أوديت فى هيستريا :

— وما لى لا أجن ... أينا لم يعد مجنونا ... كل شىء قد جن ، وهذا المخلوق مجنون ككل شىء . إذا كان إنسانا فلا يمكن إلا أن يكون مجنونا فاقد الإحساس والشعور . ألا تحس بى . ؟ ألا تشعر بجسدى الذى يتلظى رغبة فيك ..؟ ألا تعرف أيها المجنون أننا فى حرب قتلت كل الرجال الذين نعرف .. ؟ ألا تعرف أنك أنت وأنا وهيلدا قد نموت بعد دقائق ، وأن ليس أمامنا سوى هذه اللحظات نختلسها من أنياب الموت المتربص بنا ؟ لماذا تعذب نفسك وتعذبنى ، إننى أريدك ... أتسمع ؟ وفراو هيلدا تريدك . كلنا نريدك . كل امرأة لا تزال فى برلين

تريدك . من أى طينه أنت .. ؟ أأنت من لحم ودم ... أم أنتشيطان.؟
وراحت الفتاة تصرخ فى جنون ... شيطان ... شيطان ... ليس إنسانا
إنه شيطان .

وخرج خالد يعدو مذعورا مبهوتا ضائعا ......

وأقبلت هيلدا على أوديت تهزها بقوة وعنف لتخرجها من الهستريا
التى أصابتها :

— ما هذا الذى فعلته أيتها المجرمة ... كيف تصفين هذا القديس
بأنه شيطان ... إنه لن يعود إلينا أبدا .

فقالت أوديت وهى لاتزال فى أوج انفعالها :

— ومن قال إننى أريد أن أراه .. فليذهب إلى جهنم .. ليته
يموت . كما ماتوا جميعا إنه ليس انساناً... إنه شبح .. إنه وهم وخيال

وعادت تضحك فى هستيريا جنونية .

— قديس ... حضرته قديس ... تقولين عنه قديس ... ليذهب
إلى جهنم ... فلم تعد هذه الدنيا أرض القديسين ، لم يبق فى الأرض
إلا جن ... جن وشياطين ... إلا سحالى وثعابين ... لا مكان لهذا
القديس بيننا .. فليذهب مع أصحابه من القديسين ... ما الذى يفعله
هنا ... نحن نريد جن ... نريد شياطين ... ها ... ها ... ها .

وانكفأت الفتاة تدق رأسها بعنف على إحدى الموائد وهى تضحك
وتبكى وتصرخ .

٣

أمضى خالد بقية اليوم فى اضطراب وذهول ، ولم يستطع أن يسترد هدوءه النفسى إلا بعد أن استغرق فى صلاة طويلة خاشعة وابتهال إلى الله فى حرارة وحرقة أن يعفو عن زلته ، وأن يسامحه ويغفر له . لقد أدرك عظم خطيئته وهو يلعب بالنار . . . كان يتصور ألا حرج عليه أن ينظر لوجه فتاة تذكره بوجه من خفق قلبه بحبها ، ناسيا فى حماقة أو متناسيا ، أن ذلك عبث بمشاعر إنسانة ، وأنه وسط هذا الجحيم من الضياع واليأس والحيوانية ، سيؤذيها برقته وحنانه ، أكثر مما يحسن إليها ، وها هو عبثه ينتهى بهذا الانفجار الذى دمغه بالإثم والخطيئة هذه القبلة التى طبعتها على فمه إنه صاحبها وباعثها والمسئول عنها . . . وتدوى كلمة الشيطان فى أذنه ، ويسد أذنيه من هول الكلمة ولكنها تدوى فى داخل نفسه ... أيكون شيطانا حقا ... ويجأر إلى الله فى فزع :

— اغفر لى يارب ... سامحنى يارب ...

ويصلى ثم يصلى ... ويصلى .

وليس سوى قبيل منتصف الليل ، عندما أحس فجأة بالسكينة تعود إليه . . و بهذا الصفاء الذى غمر نفسه قبل هذا الحادث .

وأشرقت روحه ، فجلس فى مكانه الأثير من حجرة نومه فى المعهد الإسلامى . وفتح المصحف وراح يرتل كما اعتاد أن يرتل بصوته الحنون الخاشع والسعادة تغمره وتشع من كل ذرة من ذرات جسده .



— « وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء وقضى بينهم بالحق وهم لا يظلمون » .

وعوت صفارات الانذار ، وكانت هى الشىء الوحيد الذى لايزال يعمل فى برلين ، فلم يزد رد فعلها على خالد إلا أن أخفت صوته بحركة لا شعورية .

— « وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا ، حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين »

وومضت فى رأس خالد ذكرى وعده لصاحبه أن يلجأ إلى المخبأ إذا سمع صفارة الإنذار ، إنه لا يمكن إلا أن يفى بالعهد بمجرد أن يفرغ من تلاوة هذه الآيات الباقية .

— « وقالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين . »

وارتج المكان فجأة بدوى مروع وتبدد ظلام الليل الحالك فى ومضة .

لقد بدأت الغارة المركزة التى تستهدف إزالة هذا الجزء من برلين. ويجب أن ينزل إلى المخبأ . وتوقف خالد عن المطالعة ، وإذا بصورة أمه تومض فى ذهنه .. كم هى نحيلة .. لماذا تبكى .. ؟ ألا تعلم أننى سليم معافى .. ؟ ألا تعلم كم أنا سعيد ومنشرح الصدر ، أين فوزى لماذا لا يكفكف عبراتها ، لماذا لا يطمئنها ؟ وتلمع صورة خالد الصغير ، إنه ينظر إلى كتاب .. وأمه وفاء إلى جواره .. زوجة فوزى

كم هى جليلة ورائعة .! إنه يستحقها . إنها هبة السماء إليه . وتتراءى له صورة فاطمة عاتبة، لماذا تعتبين علىّ يافاطمة .. ماذا كنت أستطيع أن أفعل .. ؟ إنها الحرب .. الحرب التى حالت بيننا حالت دون زواجنا . أتعلمين ما هى الحرب .. ؟ لقد أصبحت أعرفها أنا ، موت وخراب وطائرات .. طائرات .. سيل من الطائرات تئز وتطن ثم تقذف البراكين والحمم والموت ، لقد اعتدنا سماع صوتها .. لقد أصبحت خبيراً فى تمييز أصواتها .. هذا الصوت .. هذا الأزيز لا يمكن أن أخطئه إنه صوت طوربيد جوى .. سيصل إلى الأرض بعد ثوان ليدمر كل شىء ، ويقتل كل حى .. عهدى .. يجب أن أفى بعهدى . فلأتم الآية أولا إننى أحفظها جيداً « وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله ر .. ..
.. ..
.. ..



الفصل الثالث

١

استيقظ فوزى فى زنزانته فى سجن مصر الذى كان قد أودع فيه إثر مقتل الدكتور باهر رئيس الحكومة ، لكى يسمع دوى المدافع تشق حجب الفضاء وتقطع حبل الصمت والسكون فى رتابة وإيقاع زمنى .

كان صوت مدفع واحد من شأنه أن يثير القلق والهلع منذ بضعة شهور فقط ، أما الآن فقد كان هذا الدوى بالنسبة لفوزى ، أشبه بنغمات الموسيقى وأغاريد الطيور ، فلم تكن هذه المدافع إلا إيذاناً بحلول السلام ، بعد أن تم توقيع الهدنة التى تضع نهاية للحرب التى دامت أكثر من خمس سنوات . وانتشت روح فوزى فرحاً وابتهاجاً ، فقد كانت نهاية الحرب عنده تعنى عودة الغائب . . عودة خالد أمين من برلين ، بعد أن ترفع الحواجز المانعة ، وتمد الجسور المحطمة وتوصل الأسلاك المقطعة ، وتنساب المياه الراكدة .

ألا دوى يا مدافع السلام .. دوّ .

وتوقف دوى المدافع بعد أن أكملت مائة مدفع ومدفع ، وبانتهائها سكن اللحن الذى كان يشجى فوزى ويطربه . ولأول مرة أحس

بالوحشة لسكوت المدافع ، وانتفض جسده تحت وطأة هذا السكون وغمغم قائلا .. ليتها لا تنتهى أبداً .. ليتها تظل تدق وتدق .

ونسى فوزى تحت تأثير فرح الساعة ، ما عاناه خلال هذه الشهور الأربعة .. وهو يعامل كما لو كان شريك القاتل سواء بسواء ، وحجرته لا تبعد عن حجرة القاتل سوى بضعة أمتار ، ويقف على بابه الحرس الخاص ، كما يقف على باب القاتل حرس خاص . نسى سخريته من نفسه واشمئزازه من حياته التى أصبحت تتلخص فى صورة واحدة مكررة مملة وهى أن يخرج من السجن ليدخل إليه من جديد ، حتى ولو لم يكن له يد فيما يقع ، إنه من أرباب السوابق والمشبوهين الذين يجاء بهم عند كل طارئ وكل ملمة .

نسى شعوره الممض بالوحدة ، والعدد الأكبر من أنصاره يتسللون لواذا من حوله واحدا إثر الآخر ، ولا لوم عليهم ولا تثريب فمن حق الناس أن تعيش وتحيا مادامت الدنيا من حولهم كلها تحيا . وأى جهاد هذا الذى لا ينقطع ، والذى لا يبدو له على الأفق القريب ثمرة أو فائدة .. ؟!

نسى فوزى ذلك كله ، زالت المرارة من فمه ومن روحه .. لقد غفر للزمان والأيام كل ما فعلته به .. ما دامت هذه المدافع تعنى عودة الغائب .. عودة خالد أمين .

وفتح الباب ودخل السجان يحمل صحف الصباح التى كان قد أذن له مؤخراً بمطالعتها .

وكانت تحمل فى صدرها باضخم حروف حمراء كتبتها فى حياتها النبأ السعيد بشتى العبارات الدالة عليه «توقيع الهدنة» «انتهاء الحرب» « عودة السلام » .

وضم فوزى الصحف إلى صدره وهو يصيح فى ابتهاج :

—أخيرا .. أخيرا عشنا حتى نرى نهاية الحرب .. لطالما تصورت أنى لن أعيش حتى أشهد نهايتها والعالم الجديد بعدها .. ولكن ها أنذا مازلت حياً أرزق فاللهم لك الحمد .. اللهم لك الحمد .

والتهمت عيناه الأخبار التهاما ، وراحت تقفز بين السطور والأعمدة وتثب هنا وهناك ، تطالع فى اليمين وفى الشمال ، بحثا خلف خبرمنشود يزف البشرى .. بشرى عودة الغائب .. كان قلبه يحدثه بشىء خفى .. بخبر سعيد ، فقد أعلن عن عودة الأسرى المصريين من ألمانيا إلى لندن ولم يخطئه حدسه .. فها هو الخبر الوارد من لندن ، إن مندوب الجريدة يتحدث إلى الأسرى الذين أطلق سراحهم .. لقد كانوا جميعاً يتحدثون عن خالد أمين كيف كان بمثابة شعاع النور وسط الظلام الحالك ، كيف كان البلسم الدائم لجراحهم .. كيف كان الملاك الحارس الذى أظلهم برعايته . لقد كافح وجاهد حتى حمل النازيين على الإفراج عنهم وتركهم طلقاء أحرارا يروحون ويجيئون ، لقد كان يسعى فى قضاء حوائجهم ، ويزودهم بالطعام والمؤن حارما نفسه منها فى أكثر الأحيان ولذلك فقد كانت صدمتهم شديدة عند ما علموا .. عند ما علموا .. ..

ولم يعد فوزى يرى .. ولم يعد فوزى يعى وأحس كما لو كانت الأرض قد زلزلت زلزالها وأخرجت أثقالها ، والسماء انشقت والبحار فجرت والقبور بعثرت ، والجبال سيرت ، والعبارة التالية تغوص فى عينيه كما لو كانت مخرازاً ، وتدوى فى أذنيه كما لو كانت رعودا .

« عند ما علموا بنبأ استشهاده فى غارة جوية على الحى الذى يقع فيه المعهد الإسلامى »

كم مرَّ عليه من الزمن وهو مأخوذ مصعوق إثر مطالعة الخبر .. ما الذى حدث وأى الأصوات صدر منه ، حتى جعلت السجان يخالف التعليمات المشددة ليهرع إلى صبرى رفيقه فى السجن مستنجداً به .. إذ لم يحس أول ما أحس إلا وصبرى يدخل عليه يسأله فى حنو ورفق عما به .. وردد لسانه فى غير وعى ، بصوت لا يمكن أن يكون صوته ، فقد خيل إليه أن إنساناً آخر هو الذى يتكلم :

— خالد مات يا صبرى !

واصفر وجه صبرى واهتز فى عنف وصرخ :

— أعوذ بالله .. مستحيل يا شيخ .

ومد فوزى يده فى حركة آلية وهو يحمل الجريدة .. ولم يكد صبرى يقرأ حتى ندت منه صرخة فزع وقذف بالصحيفة على الأرض وخرج يعدو مذعورا إلى زنزانته دون أن يقول شيئاً لفوزى .. بل دون أن يجرؤ على النظر إليه ، فقد زلزله النبأ بدوره وموت خالد يعنى بالنسبة له ، موت جزء من حياته .

وجاء مأمور السجن . وجاء الضابط وجاء الطبيب ، ولم يلق فوزى بالا لشيء مما يجرى حوله . ولم يع ماراح هؤلاء جميعاً يوجهونه إليه من تعنيف وتقريع واستنكار ، أو محاولتهم استثارة إيمانه بالله ودعوته إلى الصبر والتعزى ، كان ذلك لا يزيده إلا جنوناً وثورة .. ويحمله على أن يدق رأسه فى الحائط ليدميها .. لولا أن يمسكوا به بشدة وقوة .

وحاروا ما ذا يفعلون أو كيف يتصرفون ، فبعد ساعات الثورة الأولى العنيفة ، اعتراه ذهول ، فإذا هو أبكم أصم ينظر لهم بعينين زائغتين وقد قبع فى ركن من أركان الزنزانة جالساً القرفصاء على الأرض الباردة والطعام يتراكم من حوله .. طعام الإفطار والغداء والعشاء ليومين متتاليين دون أن ينظر إليه أو يحس بوجوده فضلا عن أن تمتد يده إليه .

وجيء بزوجته وفاء بعد أربعة أيام ، كآخر محاولة لإنقاذ الموقف ، وأدخلوها عليه فى الزنزانة على خلاف القانون والتعليمات ، تصوراً منهم أن رؤيته لزوجته سترده إلى الصواب... ستذكره بأولاده وحياته وأسرته ... ولم تكد عينا فوزى تقعان على زوجته وفاء حتى نبضتا من جديد بالحياة ، وتحرك لسانه لأول مرة :

— خالد مات يا وفاء .

وأجهشت وفاء بالبكاء وأقبلت عليه تعانقه ، بينما انسحب الضباط

وعلى رأسهم البكباشى علام الذى جاء بها لتفادى ماأنذرهم به الأطباء من أنه سيموت أو يجن .

وانتهز فوزى فرصة انفراده مع وفاء ، لكى يهمس فى أذنها مدعياً أنه يصطنع الاضراب عن الطعام وأنه يأكل فى السر ، فيجب أن لاتخاف عليه وأن تطمئن .

وحارت وفاء ، لا تعرف ماذا تقول أو ترد ، فلاذت بالدموع التى راحت تنحدر من عينيها فى صمت .

وعاد علام بعد فترة فوجدها جالسة تنتحب إلى جواره فى لوعة وحرقة .

وصاح علام معاتبا :

— ماهذا يا هانم ... أهذا ماأوصيناك به ... أبدلا من أن تعزيه وتصبريه وتشجعيه وتحمليه على أن يتكلم ويأكل ، تزيدين فى حزنه وألمه ؟

وصرخت وفاء فى وجه علام :

— شكراً لك ياسيد علام على قلبك الرحيم ... أحقاً تخشون على صحته وحياته لهذه الدرجة ؟ لماذا إذن تبقونه فى هذا السجن الظالم ... هل حققتم معه طوال هذه الشهور الأربعة ... هل وجهتم إليه تهمة ... إنكم تعلمون أنه برىء ... ومع ذلك تسجنونه ، منكم لله ... منكم لله .

وامتقع وجه علام وظهر عليه الارتباك :

— إن موضوع اعتقاله مسألة خاصة بالويشى باشا الحاكم العسكرى ونحن نبلغه كل يوم تقارير الأطباء عن صحته ... وأقسم لك أن لا مصلحة لنا إلا أن نجنبه الخطر . إن موت الدكتور خالد قد أفجعنى أنا شخصياً وإن كنتم لن تصدقوا ، ومع ذلك فليس هو أول من مات ولن يكون آخرهم . كلنا سنموت ، ألم يمت هتلر الذى حكم أوربا أشنع ميتة ... ألم يقتل نفسه بيده وينتحر هو وزوجته ويوصى بأن تحرق جثتهما بعد أن لم يبق من سلطانه إلا المخبأ الذى انتحر فيه ؟ لايوجد إنسان خالد ... فحرام أن يفعل فوزى ذلك بنفسه ، يجب أن يفكر فيك وفى أولادكم ... أرجوك أن تقنعيه أن يأكل ويشرب ويتعزى .

وانفعلت وفاء من جديد وصرخت فى وجهه :

— لا ياسيد علام لن أطلب منه أن يأكل ويشرب ... ولو كنت مكانه لفعلت مثل ما يفعل . وإذا كان فى قلوبكم ذرة من إنسانية فالعلاج الوحيد هو أن تفرجوا عنه . إن بقاءه فى السجن وهو على هذا الشكل لايعنى إلا أنكم تريدون موته . وستكونون مسئولين عن موته إذا مات . كلكم ... كلكم ، ابتداء من الويشى رئيس الحكومة ، حتى النائب العام ، وأنت ومأمور السجن والأطباء كلكم ... كلكم ستكونون قتلة ودمه فى أعناقكم .

وارتبك علام ... وارتبك مأمور السجن ، فقد انقلبت الخطة التى

رسموها ، فها هى الزوجة التى جاءوا بها لحل المشكلة تزيدها تعقيداً وتحرجهم بحيث لم يعودوا يعرفون كيف يتصرفون ..

واتجهت وفاء نحو باب الزنزانة لتخرج ثم استدارت لزوجها وقالت :

— لم يبق لنا من ملجأ نلجأ إليه سوى الله ، إننى معك فى كل ماتقول أو تفعل . مصيرك هو مصيرى ، وأيا مايحل بك سيحل بنا .

وخرجت وفاء وأغلق الباب .

* * *

وكان لهذا الموقف ، واستمرار تدهور صحة فوزى أثره على رجال السلطة ، فاستيقظ فوزى من إغمائه ذات يوم ليرى حشداً من الأقدام تحيط برأسه المنطرح على الأرض .. وتلاطمت الأصوات فى رأسه دون أن يتنبه إلى شىء من فحواها فى بادىء الأمر ... ولكنه لم يلبث أن سمع من خلال الضباب الذى كان يغشاه ... اسم النائب العام ثم صوته ... لقد جاء يبشره بالإفراج عنه بدون قيد أو شرط ، وكل ما أصبح مطلوبا من فوزى ، هو أن يتناول بعض الغذاء ليكون بقدرته أن يخرج من السجن سيراً على قدميه بدلا من أن يكون محمولا على نقالة .

٢

كان للإفراج عن فوزى أثره المنشود فى حالته الجسدية فعلى الرغم من أنه ظل فاقد الشهية فقد بدأ يأكل ، بل ويسرف أحياناً فى الأكل تلبية لرجاء زوجته ووالدتها وكان ذلك كافياً لأن يرد إلى جسده بعض نشاطه المادى وحيويته ، ولكن الصدمة التى أصيبت بها نفسيته وروحه كانت أبعد أثراً وأعمق غوراً من إصابته الجسدية ، بحيث أنها كانت تشتد وتتفاقم على مر الأيام دون أن تضعف أو تهون .

وكان مايفزع وفاء ويخيفها ، هو انهيار إيمان زوجها ويقينه بالله ، ومايبدو عليه إذا تكلم عن اختلاط المعانى عليه وانبهامها .

ولقد بذلت جهوداً مضنية لتحيطه بحنانها ورقتها فتسايره فى كل أمر ، وتلبى كل طلب ، وتدلله وتهدهده كما لو كان طفلا . وما أكثر ما كانت تتظاهر فى النوم بالليل لتوحى إليه فكرة النوم ، ولكنه كان لا يكاد يتصور أنها نامت ، حتى يتسلل من الفراش . ليجلس على المقعد المواجه للفراش ، وليظل يحدق بعينين مفتوحتين فى الظلام ... ثم لايلبث أن يحدث نفسه فى صوت خافت حينا وفى صوت مرتفع فى أكثر الأحيان ، وكانت لاتعرف كيف تساعده فى مثل هذه اللحظات بعد أن أعيتها كل الحيل والوسائل فتلوذ بالصمت وتترقب وتتصنت ويفزعها أن تراه يناقش الله ويحاسبه :

— لماذا إذن خلقته ... إن عقلى لم يعد يفهم شيئاً من غاياتك وأهدافك وحكمتك ، لماذا زودته بكل هذه الطاقات والكمالات ،

مادمت مقرراً أن تنتزع روحه .. ؟ لماذا أبقيته طوال سنوات الحرب وأهوالها ، لتميته فى ختامها مع احتفالات النصر ، بعيداً شريداً غريبا عن وطنه . . . وطنه الذى لايعرف عنه شيئاً ... لماذا فعلت هذا ؟

ويرتفع صوته فى هدأة الليل فترتجف وفاء وتكاد تموت رعباً .

— لم أعد أفهم . . . صدقنى لم أعد أفهم .

لماذا تخلقنا فى هذه الدنيا . . ؟ لماذا جئت بنا . . ؟ أى فائدة لك فى ذلك ... أى هدف ... أى غاية وأنت مستغن بنفسك عن كل شى .. أخلقتنا لتلهو بنا وتعبث . . . ولكن أهذا يليق بكمالك . . . على أى أساس تبعث بمنجل الموت ليحصدنا . . . ليحصد الأبرار والأشرار .. الصالحين والطالحين . . . الكبار والصغار . . . الأقوياء والضعفاء . . . على أى أساس . . . على أى قاعدة . . . لأى هدف ... لأى غاية . . ماهى فائدتك من ذلك كله . . . لست أفهم . . . لم أعد أفهم .

ويحس فوزى بالاختناق كما يحس كل ليلة عندما تتغشاه هذه الخواطر والأفكار ، فيتسلل من الحجرة سائرا على أطراف أصابعه ، محاذرا أن يوقظ وفاء من نومها ، وفاء التى لم يغمض لها جفن وهى تتابعه وتصغى لكلماته وأنفاسه وتحصيها وتراقب سرعتها وترددها لتتدخل فى اللحظة المناسبة .. فى اللحظة الواجبة عندما لايكون هناك مناص من التدخل .

ويقصد إلى حجرة المكتب ويفتح نافذتها .. فيهزه الصقيع وتفيده قشعريرة البرد التى تسرى إلى جسده ولكن ذلك لا يزيده إلا يقظة

وانتباها ، فيحملق فى السماء ... السماء المظلمة الملبدة بالغيوم ، فلا يرى شيئا سوى حلكة . . حلكة تضيق بها النفس .. لا نجوم لا قمر ، بل ظلام فوق ظلام يغشاه ظلام .. ويحاول أن ينفذ من خلال الظلمات ببصره وفكره وعقله بحثا عن الله .. أله صورة ؟ أله عينان ؟ هل يرانى الآن ويسمعنى ؟ أصحيح أنه موجود وأن له عرشا وله كرسيا .. أين هما لماذا لا أراها .. لماذا لا أرى غير الظلام ... ظلام ... ظلام .

لم لا يستطيع عقلى أن يدركه . ؟ لم احتجب عن عقولنا كما احتجب عن أبصارنا .. ؟ كيف إذن نعرفه ... كيف إذن ندرك حكمته ؟ ويصرخ فوزى من أغوار روحه ... إذا كنت تسمعنى وترانى الآن فلماذا .. ؟ لماذا لا تحاول أن تبصرنى أنا من عبدتك وأخلصت لك ثلاثين سنة هى كل عمرى وحياتى الواعية ، لم أفتر لحظة منذ عرفت نفسى عن التسبيح بحمدك والصلاة لك ... قل لماذا قتلته .. ؟ أى فائدة تجنيها الحياة من موته .. ؟ أى فائدة لك أنت فى موته بعد أن أصبح بكل هذا النضج ، وهذه الخبرة والتجربة ليضعها كلها فى خدمتك وخدمة الإيمان بك . لماذا تضربنى أنا هذه الضربة القاصمة ، وأنت تعلم أنها ضربة قاصمة .

ويتأوه فوزى وتتلوى روحه فى تمرد وثورة :

— لن أعبدك بعد اليوم ... ماذا أجدت عبادتى علىّ ... لن أحمل بعد اليوم لواءك مادام أن هذا هو ماتريده ، وإلا لما ضربتنى هذه الضربة وعاقبتنى هذه العقوبة ، كما لو كنت عدوك . إنك تعلم أننى تقبلت كل ما أنزلته بى ببشر وصبر ورجاء ، تحملت الأذى والسجن والاتهامات ... تحملت

كل صنوف الحرمان ، كل ألوان الغدر والخيانة وانقلاب الأعوان ... واحتملت فوق ذلك كله ، أن لا يفهمني الناس ويعتبروني مسخا أو مهرجا ومشعوذا لا يصلح لشيء ... كل ذلك تحملته في صبر ، فقد كان بي إيمان عميق أنك أنت تفهمني وأنك راض عما أفعل ... وأنك تدرك حقيقة الخير فيما أفعل ، كيف لا وأنا أدعوك كل يوم من الفجر حتى المساء في كل ركعة أركعها لك ، وفي كل سجدة وفي كل صلاة أن تهديني الطريق المستقيم ... فما الذي جعلك تغضب على كل هذا الغضب لماذا بطشت بي هذه البطشة الماحقة ؟ ... لماذا تقذف بي إلى هاوية الشك وجحيم الكفر والإلحاد ... لماذا ... لماذا ... ؟ أي مصلحة لك في ذلك وأي فائدة ... أي عبرة تريد أن تقدمها مني للناس .. ؟ ليكن لك ما تريد ، إذا كان ما يرضيك هو أن أكفر فقد كفرت . إذا كان يطربك أن تجعل مني حطبا لنار جحيمك ، فهيّا اقذف بي فقد صرت حطبا . إحرقني فأنا كافر ... كافر لا يهمني ماذا تفعل بي .

ويجهش فوزي في بكاء هستيري وتحس وفاء أنها لا تستطيع أن تصبر أكثر مما فعلت دون أن تتطور حالته بما لا يمكن إصلاحه ، فتهرع إليه وتحتضنه وتهدىء من روعه وتخاطبه في رقة وحنان :

أنا وفاء يا فوزي ... أنا معك يا حبيبي ...

ويرتمي فوزي في أحضان وفاء وهو ينشج :

— لقد ضعت يا وفاء ... لقد ضعت ... خسرت كل شيء :

— شدة وسوف تزول يا حبيبي... سوف ترى أنك ستتغلب عليها وتنتصر كما انتصرت على كل ما اعترضك من عقبات وصعاب .

— هيهات ... هيهات يا وفاء ... إن الضربة هذه المرة قاضية لقد قصم الله ظهرى .. لقد قصم الله ظهرى .

وينظر فوزى عبر الظلام ويقول فى تحد :

— لن أعود إلى الإيمان بك إلا إذا أريتنى معجزة ...

أريد معجزة .. أريد آية تردنى إلى الإيمان . لم يبق أمامك إلا هذا.

وتندفع وفاء لتقول فى حماسة :

— وسيريك الآية التى تردك إلى حظيرة الإيمان ، إنه لا يمكن أن يتخلى عنك أبدا .

ويقع فوزى فى خاتمة المطاف على الأرض من فرط الإعياء فلا يلبث أن يغيب فاقد الوعى ، فتسرع وفاء لتغطيه حيث وقع بعد أن تضع وسادة تحت رأسه . وتجلس قريباً منه تراقبه فى جزع ولهفة وهى تتوسل إلى الله فى حرقة أن ينقذه وينجيه .

٣

كان إخوان فوزى يهزون الرءوس قلقاً وضيقاً وجزعا مما يرون من حالته ، وكان أحب الناس إليه يصرخ فى وجهه :

— مات خالد فهمنا أنه مات . . وأنه كان عبقرياً وكان عظيما . . وأنه كان يحبك وتحبه . . فماذا تريد منا الآن أن نفعل نقول للشمس

أن تتوقف فتكف عن الدوران .. نقول للنور أن يحتجب فلا يكون سوى الظلام . . ماذا تريد ؟. . قل لنا ماذا تريد ؟ . . أتريد أن تغيض الأرحام وتعقم فلا يكون ميلاد ؟ . . أو لم يمت رسول الله . . أولم يمت عمر وأبو بكر . ومات روميل ومات هتلر وموسوليني . ومات جميع العباقرة والأبطال والعظماء ، أي جديد في وفاة خالد ، ما الذى لا تفهمه من موته ؟ وقد ولد الانسان ليموت .

ويقول فوزى لصاحبه :

— كل هؤلاء ماتوا بعد أن أدوا رسالتهم . . بعد أن عرفتهم الدنيا وانتفعت بحياتهم وكفاحهم .. أما خالد فهو لم يؤد رسالته بعد لقد انتهى حيث كان يجب أن يبدأ . . لو أنه عاد لأصبح زعيم مصر والعرب .. ولكنه مات .. مات ولن يعود .. وليس يعرف حقيقته إلا أنا .. أنا التعس المنكود ، الآثم الضال الفاشل ، لماذا لم يبق هو وأموت أنا الذى سئمت الحياة .

ويتساءل أصحاب فوزى ، أين شكرى ولماذا لم يجىء . فقد تعلقت الآمال بشكرى باعتباره الإنسان الوحيد الذى يمكن أن يخفف بعض ما يعانيه فوزى .. ولكن شكرى تأخر فى الظهور ، والعجيب أن فوزى لم يتساءل لحظة عما يؤخره بل لقد وجد فى هذا الامتناع عن رؤيته بعض ما يرضيه ويهدئ نفسه .

على أن شكرى ظهر فى نهاية الأمر ولم يكن هو شكرى الذى يعرفون ، لم يكن رافع الرأس وضاء الجبين ، لم يكن الفارع القوام ،

العريض المنكبين ، وإنما شكرى آخر ، ذابل نحيل مطاطىء الرأس باهت العينين .

وجلس شكرى إلى جوار فوزى صامتاً لا يتلفظ بحرف واحد . ومرت الدقائق واستطالت دون أن يتحرك شكرى أو يتفوه بكلمة . وكانت أعصاب فوزى قريرة بهذا الصمت وراضية .

إن شكرى لم يخيب أمله فى أى يوم من الأيام ، وها هو ذا فى هذه المحنة لا يفعل فعل الآخرين ، فلا يشقشق ولا يثرثر ، ولا يلوك هذه الألفاظ المهلهلة المعادة المكررة التى لا تسمن ولا تغنى من جوع . إنه لم يحاول أن يقسو على فوزى ويعنفه ، ولم يحاول أن يهون أو يقلل من فداحة المصاب . . . إنه يصمت وليس كالصمت سلاح يوجهه الإنسان إلى مالا يفهم أو يقر من الأمور .

ووقف شكرى أخيراً متهيئا للانصراف ... وحتى فى هذه اللحظة لم يعن بأن يمد يده ليصافح فوزى ... كانت نفسه تعاف كل حركة وكل كلمة مما يقال أو يعمل فى كل يوم وكل ساعة ، على أنه بدأ يقول فى هدوء وأسى :

— لست أدعى أن إحساسى بالفجيعة يصل إلى حد إحساسك بها ، ولكنى أستطيع أن أؤكد لك أن ألمى لا يمكن أن يقل عن ألمك ، بل لا يجب أن تدهش إذا قلت لك إن ألمى قد يفوق ألمك ، لأنى أتألم مرتين ، أتألم لفقدى خالد الذى جعلته مثلى الأعلى ، وأتألم من أجلك لأنى أقدر هول فجيعتك فيه .

ولاحت على شفتى فوزى لأول مرة ابتسامة واهنة :

— إننى أحس بذلك ياشكرى وأقدره .

وكأن هذه العبارة قد شجعت شكرى وأمدته بطاقة جديدة على قول ما كان متردداً فى قوله :

— إنى لا يمكن أن أكون شبيه خالد . . . فخالد شيء يعلو عن النظير والشبيه ، ومع ذلك فهذا عهد الله علىّ أن أكون لك بعض ما كان خالد بالنسبة لك ما بقيت على قيد الحياة .. هذا عهد الله علىّ أن أفى لك وأن أرتبط بك كما ارتبط خالد .

وانتفض فوزى تحت وقع هذه الكلمات الصادقة ، وأحس بموجة من الشعور المتدفق بالحياة تسرى فى أوصاله ، وفى هذة اللحظة سمع صيحة فرح تبعث من وفاء فى الخارج وهى تقول :

— فاطمة .. دكتورة فاطمة . . . إنت فين يا فاطمة ؟

ومزقت هذه الصيحة كثيراً من الأغشية التى كانت تلف فوزى وتغلف قلبه وبصره وسمعه . لقد كان عقله الباطن قد نجح فى إسقاط كل إشارة لفاطمة ، كل ذكرى لها ؛ كل خاطر عنها ، جزعا ورعبا من تخيل مدى مصيبتها وفجيعتها .. فلم يسأل عنها مذ خرج من السجن ولم يذكرها أحد أمامه .. وها هو ذا يسمع اسمها فجأة بل ويعلم أنها حية .. نابضة وقد جاءت لرؤيته ولم يلبث أن سمع صوتها .. صوتها الحبيب يقول وليس فيه أثر من حزن أو بكاء أو أسى كما لو لم يكن قد حدث شيء .. كما لو كان كل شيء على ما يرام .. سمعها تقول :

— طبعاً سأعيده إلى صوابه .. من أحق مني بإرجاعه إلى صوابه .

وبهت فوزي وهو يستمع إلى هذه الكلمات وزاد ذهوله عند ما دخلت عليه فاطمة ، لم تكن ترتدي السواد ، كان ثوبها ملوناً . . أنيقاً وشعرها مقصوصاً ومنظماً ، وكانت تقف أمامه منتصبة القامة مرفوعة الرأس . . وفي عينيها وهج ، بل لقد فعلت أكثر من ذلك . . فراحت تنظر له في تحد وقد وضعت يديها في خاصرتها ، وعند ما بدأت تتكلم لم يتصور فوزي إلا أنه يحلم أو دخل في دور الهلوسة فقد صور له وهمه أن وجهها كان يشع ضوء وأن كلماتها أمواج كهربية تصكه صكا :

— ما هذا الذي يبلغني عنك يا سيد فوزي . . أصحيح أنك تهاويت وكفرت ؟

— خالد مات .

— كنت أعرف أنه سيموت .

— كنت تعرفين ؟

— أنت نفسك كنت تعرف ..

— كنت أعرف ؟

— طبعاً كنت تعرف فلم تكن أخلاق خالد أو صفاته بالتي تطيقها الحياة .

— فاطمة . . . ؟

— أجل فاطمة التي تقول لك ذلك بكل هذا الهدوء وهذا البرود .. ما الذي يدهشك في أمري؟ .. ما الذي تراه عجيباً في سلوكي ؟

أكنت تريدنى مجللة بالسواد ، أكنت تريد أن ترى فوق رأسى طيناً ويدى مصبوغتين بالنيلة .. أكنت تتوقع أن ترانى أشق الجيوب وألطم الخدود؟ . لا ياسيدى .. ما كنت أنا الذى أفعل ذلك وما كان خالد بالذى يحزن عليه بهذا الأسلوب .. إن أى صعلوك يموت لا يعدم أن يجد امرأة تفعل عليه ذلك ، حتى المجرمين والطغاة وسافكى لدماء واللصوص يجدون أمهات تبكيهم وتندب عليهم وتملأ الدنيا صراخا وعويلا ، ولن أفعل ذلك على خالد .. كما تفعل أنت .. إننى أعرف كيف يكون الوفاء لخالد .

وهتف فوزى مبهوتا :

— لا أصدق . . لا أتصور ؟

— بل يجب أن تتصور وأن تصدق وأن تستيقظ من هذا الكابوس الذى ترديت فيه ، وما فتئت غارقا فيه مذ جاءك النبا .

أفتظن يا سيدى أنك تنى لخالد الذى كان رمزا على الإيمان بالله بأن تكفر أنت بالله . . ؟ يا بؤس ما تجازى خالد على إخلاصه لك وتعلقه بك وفنائه فيك عند ما تثبت للناس أنه تعلق بإنسان هش واه يخور لدى أول صدمة ويتداعى . . ألم تحدثك نفسك أن عليك أن تسمو بنفسك إلى المكانة التى رفعك إليها خالد . . ألم يدر بخلدك . . أن واجبك الآن قد تحدد وأن طريقك قد رسم وغايتك قد تعينت وهو أن تكون جديراً بذكراه ، مخلصا لكل ما أخلص له . . عاملا على تحقيق كل ما مات من أجله . . ؟ والهفى عليك أيها التعس وأنت

تنظر إلى بهاتين العينين الزائغتين دون أن تعرف أن واجبك قد أصبح يتلخص فى أن تنفض عن رأسك غبار الشك واليأس والضياع ، وأن تنهض جبارا فى الأرض مستمدا من هذه التضحية الجديدة التى قدمها خالد على مذبح مبادئنا عزما جديدا وقوة جديدة وحيوية ونضارة . . مات خالد .. ليجعل منك أنت خالدا ، وليجعل منى ومن شكرى ومن كل من أحبه وعرفه فى أى يوم من الأيام خالدا جديدا . . مات خالد ليقول الألمان كما قالوا على جدثه على لسان وزيرهم : إنه الرجل الذى علمهم كيف يحترمون الشرقيين . . مات خالد شهيدا فعلينا أن نترى تضحيته وأن نستثمرها ونستلهمها فى كل ما نقول أو نفعل وأن نصمم على السير فى ذات الطريق ، الذى سقط على جنباته من قبله كل الصديقين والشهداء ، طريق الحق والخير والحرية . . وبغير ذلك نكون نحن المسئولون عن ضياع تضحيته .. عن تبددها وذهابها هباء منثورا .

وكاد فوزى يصرخ من الفرح وهو يرى الأغشية الحالكة تنجاب نهائيا عن نفسه ، وروحه تشرق من جديد والصفاء والسكينة يملآن نفسه ، فقال فى هدوء وحنان :

— ما دمت يا فاطمة تتكلمين بهذا الصوت الذى لا أعرف من أين يواتيك . . ما دمت تتصرفين بهذا الاقتدار وهذه السيطرة على الأحداث . . أو لا تقولين لماذا خلقه ولماذا أماته .

ولمعت عينا فاطمة وأشرق وجهها أكثر وأكثر وقالت فى انفعال :

— من نحن حتى نسأل هذا السؤال ، هل نحن إلا بشر ، وجدنا أنفسنا فى هذه الدنيا دون أن نعرف كيف جئنا ، ونجد أنفسنا نخرج منها

دون أن نعرف لماذا أو إلى أين . . ولكن الذى نعرفه وندريه ونحسه أن فينا دوافع تحركنا فيجب أن نتحرك ، وفينا عقول تفكر فيجب أن نفكر ، وفينا عواطف تحس وتشعر وتحب وتحنو وما علينا إلا أن نطيع دوافعنا ، وأن نعمل عقولنا ، وان نغذى مشاعرنا ، إلى أن نقف . . إلى أن نسقط . . إلى أن نذهب إلى حيث ذهب كل الذاهبين .

إما أن نسأل . . إما أن نحاسب ونناقش . . فهذا هو العبث والسفه ولاجدوى من السؤال على كل حال .

وتوقفت فاطمة عن حديثها المنفعل المسترسل الذى لم تكن تعرف كما قال فوزى من أين يواتيها ، وأخذت نفسا عميقا وبرقت عيناها وارتفع صدرها وزاد بهاؤها واستطردت تقول :

— ومع ذلك فأنا أستطيع خلافاً لك ، أن أتصور لماذا مات.. مات لكى يكون مثالا وقدوة تحتذى .. ومنارا يهدى السبيل .. مات لكى لا يتزوج وينسل وتشغله مشكلات الحياة وتغرقه فى حماقاتها اليومية ، مات حتى لا ينحرف إذا امتد به العمر كما ينحرف كل الأحياء كلما طال بهم الطريق . وكما انحرف الكثيرون من إخواننا المجاهدين وانحرفوا فى كل زمان ومكان . مات ليعيش ... أظلم ليضىء ... راح ليبقى ... ليبقى لى ولك ولكل من عرفه إلى أبد الآبدين . . . لأنه امتزج بروح الوجود كله ، بالحق والخير والصفاء .

وصرخ فوزى :

— أقسم بالله إن هذا حق . . . أقسم بالله أن هذا حق .

وساد صمت عميق ، ولم يلبث الجميع أن اكتشفوا أن فاطمة قد انصرفت دون أن يشعروا وخرجت وتركتهم مذهولين مبهورين . . .

وأجهش فوزى فى البكاء وراح يصيح :

وفاء . . . شكرى . . . لقد كانت قوة إلهية تتكلم من خلال فاطمة . إنها الآية التى كنت اطلب . لقد ردت إلى الإيمان . . . لقد ردت إلى الإيمان . . .

٤

دفنت فاطمة وجهها ورأسها بين الوسائد بعد عودتها من لدن فوزى ، وراحت تهمس فى صوت أجش :

ـــ أنفذت لك ما تريد يا حبيبى ، هل مثلت الدور كما تحب أن أمثله ، هل تكلمت بلسانك ، هل تقمصت روحك ، أراض أنت عن زوجتك ؟

وانفجرت فى عاصفة من البكاء ، وظلت تبكى وتبكى .. وهى تغمغم من حين لآخر :

ما أقساك علىّ يا خالد ، ما أقساك علىّ حياً وميتا .

انتهى

الحمـــد لله

تم الفراغ من تأليف هذه القصة فى مدينة الإسماعيلية فى ٣/٤/١٩٦٤
وتم طبعها فى ٣١/١٠/١٩٦٤
وتليها الحلقة الثالثة قصة مصر حتى قيام الثورة

أشرف على مراجعة الكتاب وتصحيحه وإعداده للطبع الأستاذ عبد العزيز الدسوقى ، وتولى الأستاذ محمود مهدى مهمة تصحيح التجارب بالتعاون مع مصححى دار القلم الأفاضل .

ورسم الغلاف الفنان الكبير حسين بيكار ، وصور الرسوم الداخلية الفنانان محمد قطب وصلاح طنطاوى .

ولا يسع المؤلف إلا أن يتوجه بصادق الشكر لجميع العاملين فى دار القلم وعلى رأسهم الأخ الحبيب الأستاذ محمد المعلم مدير الدار ، لما بذلوه من جهد وعناية لإخراج هذه القصة .

أزهار

لم يسبق ان أحدثت قصة بمجرد ظهورها ، ما احدثته قصة ازهار فى الوسط الأدبى والفنى ، من إجماع على الإشادة بها ، واعتبارها من اعظم ما انتجته المطابع العربية . وقد حولتها الإذاعة إلى مسلسلة إذاعية ، كما يجرى إعدادها للسينما ، وإليك مقتطفات موجزة مما قاله فيها أعلام الأدب وكبار النقاد .

أروع ما قرأت

من اروع ما قرأت من القصص والروايات سواء فى لغتنا الضادية او فى اللغة الفرنسية .

الأمير مصطفى الشهابى
رئيس المجمع العلمى السورى
مجلة الاديب البيروتية يونيو ١٩٦٤

النضارة الفنية

أكثر مواقف رواية أزهار قد رسم رسما دقيقا بديعا فنيا فيه صنعة وفن وعمق فى الفهم رائع ، ويكاد يكون المؤلف فى الحقيقة ، فريدا فى هذا ، وأبا متفق على أن الرواية تمتاز بالنضارة الفنية .

الدكتور رشاد رشدى
(من ندوة اذاعية)

عمـــل مكتمل

لقد أعجبت بهذه القصة إعجابا شديدا ، إن الرواية تحتوى على لوحات فى منتهى الروعة والجمـال ، إنها عمل مكتمل تجعلنى أحي الأستاذ أحمد حسين وأنظر بشوق إلى روايته القادمة .

الدكتور عبد القادر القط
(من ندوة اذاعية)

ستتحدى الفناء

إن قصة ازهار عمل إنسانى سيتحدى الفناء ويعيش بعد ان تتلاشى الأجيال .

عبد العزيز الدسوقى
مجلة الاديب البيروتية والندوة الاذاعية

كأعمال تولستوى

ربما كان بوسعنا أن نربط بين ما حاوله تولستوى بتفوق جعله من أعظم كتاب عصرنا ، وحاوله تشارلز ديكنز فنجح فيه نجاحا كبيرا وبين ما حاوله الأستاذ أحمد حسين فى أزهار .

محمد صبيح
(تعاون الاحد)

مثل إيليا اهرنبرج

مثل مسلك الكاتب السوفييتى (ايليا اهرنبرج) فى قصة سقوط باريس ، فى عرض الأحداث الحقيقية الواقعية التى عاصروا تاريخها داخل إطار القصة نحا المؤلف الأستاذ أحمد حسين هذا المنحى فى قصة أزهار مقدما بذلك عملا كبيرا .

مصطفى بهجت بدوى
(جريدة المساء)

تاريخ بلادنا

إن سرد الحوادث فى قصة أزهار متسلسل متتابع ، والوصف دقيق جميل لا يمله القارىء ، فهو يرى نفسه كلما أوغل فى القراءة يعيش فى حقبة من تاريخ بلاده بكل ما فيها من تطلع وانكماش وضعف وقوة .

محمد زكى عبد القادر
(جريدة الاخبار)

شغلته عما حوله

شغلتنى قصة ازهار عن جميع ماحولى ثلاثة أيام متتالية لألاحق أبطالها ،وارى مصائرهم وأنا قلق عليهم ، أنفاسى مبهورة وعواطفى مضطربة وعيونى متعجلة نهاية الصفحات .

الدكتور على الرجال
(مجلة التعاون)

أقوى من أغلب القصص

قدم احمد حسين فى رواية آزهار عملا قصصيا ناجحا اقوى بكثير مما تطلع به علينا هذه الأيام أغلب القصص .

(مجلة الهلال)

حبكة الدراما الأصيلة

لقـد حالف التوفيق مؤلف أزهار فأخرج هذه القصة الناجحة كما وفق فى إثارة شوق القارىء بما تضمنته من حبكة الدراما الأصيلة .

(مجلة صوت الشرق الهندية)

وثمة مقالات أخرى دبجتها يد السادة الأجلاء .

موسى صبرى فى جريدة الأخبار وكان أول من اثنى على القصـة ، وصالح جودت فى مجلة المصور وأنور الجندى فى مجلة التعاون والدكتور أحمد كمال زكى فى الإذاعة والأستاذ إبراهيم الصيرفى وعباس الأسوانى الذى كتب فى جريدتى أخبار اليوم وروزا اليوسف ، ثم قام بإعدادها للإذاعة .

كتب للمؤلف

كتب سياسية :

١ — إيمانى نفذ

٢ — الأرض الطيبة «

٣ — وراء القضبان «

٤ — الاشتراكية التى ندعوا إليها «

٥ — فى ظلال المشنقة «

٦ — قصة مصر (بالانجليزية طبع نيويورك) «

٧ — رسالة إلى هتلر

(بالعربية والانجليزية طبع نيويورك) «

كتب اجتماعية وعلمية :

٨ — الزواج والمرأة

(فى حقوق المرأة السياسية) «

٩ — رسالة فى الحرب «

١٠ — رسالة فى المجد (العلم والاقتصاد) «

١١ — الطاقة الإنسانية*

١٢ — فى الإيمان والإسلام *

كتب رحلات :

١٣ — مشاهداتى فى جزيرة العرب «

١٤ — يقظة العملاق (رحلة فى آسيا) «

١٥ — أمة تبعث (رحلة فى الهند) نفذ

١٦ — من وحى الجنوب

(رحلة فى منابع النيل)

كتب قانونية :

١٧ — مصر القناة أمام القضاء (مرافعة) «

١٨ — قضية مقتل النقراشى (مرافعة) «

١٩ — علاقات العمل

٢٠ — قضية التحريض على حرق القاهرة «

٢١ — مجموعة تشريعات العمل «

مسرحيات :

٢٢ — من الحياة (مسرحيتان اجتماعيتان)

٢٣ — نور يسطع فى الظلام

(مترجمة عن تولستوى)*

قصص :

٢٤ — أزهار

(قصة مصر قبل الحرب العالمية الثانية)*

٢٥ — الدكتور خالد

(قصة مصر خلال الحرب العالمية الثانية)*

تحت التأليف القومية الإنسانية — بحث فى وحدة الإنسانية والحكومة العالمية

* الكتب التى توجد أمامها هذه العلامة تطلب من دار القلم .

مطابع دار القلم بالقاهرة